

ليلى الصياغ

استاذة في كلية الآداب

جامعة دمشق

معالم

تاريخ أوربا في العصر الحديث

الطبعة الرابعة

مقروء المؤلف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق



١٤١٨ - ١٤١٩

١٩٩٧ - ١٩٩٨

منشورات جامعة دمشق

الكتاب رقم



General Organ

Library of the Faculty of Arts, University of Damascus

مكالم تاريخ أوربا في العصر الحديث

الطبعة الثانية

حقوق التأليف والطبع والنشر محفوظة لجامعة دمشق



مقرر تاريخ اوربا الحديث والمعاصر

١ - تاريخ اوربا في العصر الحديث ١٤٩٢ - ١٧٨٩ :

- مقدمة في التعريف بتاريخ اوربا في العصر الحديث ، ومصادره .
- اوربا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، من النواحي : الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية ، والفنية .

— اوربا في القرن السادس عشر :

- ~~الكشوف الجغرافية~~ ، وعواملها ، ونتائجها في جميع الميادين - وبصفة خاصة في المجال الاقتصادي والاستعماري .
- النهضة الادبية ، والفنية ، والعلمية ، واسبابها .
- التطورات السياسية الداخلية والخارجية في ميدان كل دولة اوربية ، ولا سيما في : اسبانيا ، انكلترا ، الامبراطورية الجرمنية المقدسة ، وايطاليا .
- العلاقات الدولية .

— اوربا في القرن السابع عشر :

- التطورات العامة الاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية ، والفنية والسياسية وعواملها .
- التطورات الخاصة بكل دولة على حدة من جميع النواحي : كفرنسا ، واسبانيا ، وانكلترا ، والاراضي المنخفضة ، وروسيا وبروسيا ، والامبراطورية الجرمنية .
- العلاقات الدولية ، والعوامل المؤثرة فيها : السياسة الاستعمارية .

— اوربا في القرن الثامن عشر :

- التطورات العامة : الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية ، والفنية ، وعواملها .
- التطورات الخاصة بكل دولة في حقل السياسة الداخلية والخارجية وبصفة خاصة الدول الكبرى : كفرنسا ، وانكلترا ، والامبراطورية ، وبروسيا ، وروسيا .
- العلاقات الدولية والعوامل المؤثرة فيها - التنافس الاستعماري والامبراطوريات الاستعمارية .
- خاتمة : اوربا والعالم عشية الثورة الفرنسية .

المقدمة

التعريف بالعصور الحديثة ومصادرها : اصطلح المؤرخون الغربيون على أن « العصور الحديثة » - وهي قطاع من حياة الانسانية على سطح الارض - بتبديء عام ١٤٩٢ ، وتمتد حتى الوقت الحاضر . ولقد اُسِّمَت هذه المرحلة التاريخية الزمنية من التاريخ ، « بالعصور الحديثة » ، تمييزا لها عن العصور التي سبقتها مباشرة ، وهي « العصور الوسطى » . أي أن أوروبا بخاصة ، والعالم بعامة ، قد خرجا من حقبة زمنية لها خصائصها المعينة في جميع الميادين ، ليدخلا حقبة جديدة من التاريخ ، تحمل من الصفات كل « حديث » أو كل « جديد » بالنسبة للفترة التي سلفت . « فالعصور الحديثة » اذا تحمل في طياتها ، ولو على شكل بذور ، معظم ملامح العالم الذي نعيش فيه اليوم ، اكان ذلك في ميدان الاقتصاد ، او الاجتماع ، او السياسة ، أو الفكر ، او الفن .

الا ان المؤرخين الغربيين أنفسهم ما لبثوا في القرن التاسع عشر - وقد عاشوا نتائج الثورة الفرنسية التي اندلعت عام ١٧٨٩ - ان قسموا العصور الحديثة الى قسمين ، وذلك تسهيلا للدراسة والبحث ، وإبرازا لاهمية الثورة الفرنسية ، وتمييزا للتيارات التاريخية الجديدة التي شقت طريقها في القرن التاسع عشر والفترة المعاصرة ، وانسجاما مع الواقع الذي يعيشونه ٢ وهذا القسمان هما :

اولا - العصر الحديث : ويمتد من اواخر القرن الخامس عشر او من عام ١٤٩٢/ ٨٩٨ هـ بالذات وينتهي بالثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ / ١٢٠٤ هـ . ويجعل بعض المؤرخين المعاصرين نهايته قبل ذلك ، أي في عام ١٧٧٠ ، وهو عصر بدء الثورات في أوروبا .

ثانيا - الحقبة المعاصرة : وتمتد من الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ أو من ١٧٧٠ وحتى الوقت الحاضر . وإذا كانت هذه التسمية في اولياتها تبدو منسجمة مع مؤرخي القرن التاسع عشر الذي عاصروا النتائج المباشرة للثورة الفرنسية ، واحداث القرن التاسع عشر ، فانها تظهر لنا ونحن الذين نعيش في الربع الاخير من القرن العشرين ، بعيدة عن الواقع . فالتاريخ المعاصر لنا ، بحسب مفهومنا اللغوي لكلمة (معاصر) ، هو المرحلة الممتدة من نهاية الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ - ١٩١٨) الى الوقت الحاضر على اكثر تقدير . ولكن مهما تباعد المفهوم التاريخي الاصطلاحي لهذه الفترة ، عن المضمون اللغوي لكلمة (معاصر) ، فان التسمية تبقى قائمة طالما انها غدت اصطلاحا عالميا ، وعلميا ، تعارف عليه جميع المؤرخين واقروءه ، شأنه في ذلك شأن تسمية العصور الاخرى (١) .

ولقد اتخذ عام ١٤٩٢ نهاية للعصور الوسطى وبداية للحديثة ، لانه جرت فيه في الواقع احداث هامة جدا ، بالنسبة للتاريخ الاوربي والعالمي على السواء : ففي هذا العام انتهى الوجود السياسي للعرب المسلمين في اسبانيا ، بسقوط آخر معاقلهم وهو (غرناطة) بيد الاسبان ، وبذلك انحسر نهائيا المد العربي الاسلامي عن الغرب الاوربي ، ذلك المد الذي شغل حقبة طويلة من العصور الوسيطة . وفي العام نفسه توصل « كريستوف كولومب » الى كشف قارة جديدة هي « القارة الامريكية » ، التي كانت « العالم الجديد » ، الذي لعب دورا خطيرا في حياة العالم القديم كله . وفي هذا العام كذلك اعتلى عرش البابوية « البابا اسكندر السادس » من اسرة (بورجيا) الاسبانية ، ذلك البابا الذي وصف باللاأخلاقية ، وقام بدور حاسم في تحويل الكنيسة الرومانية الى قوة

(١) من المعروف ان ذلك التقسيم للتاريخ يخضع دائما لنقد شديد : فاذا هو انطبق على احداث التاريخ الغربي مثلا فانه لا ينطبق على تاريخ العالم كله ، ولا ينطبق بصورة خاصة على تاريخنا العربي . ولذا فان اجزاء العالم عندما تأخذ بهذا التقسيم ، تنظر اليه على انه « مرحلة زمنية » فحسب ، لا تحمل في طياتها بالنسبة لتاريخها الخاص ، الخصائص التي يضيفها الغربيون على تاريخهم الحديث والمعاصر ، وان كان هذا بالتالي لا يمنع من الاعتراف بالتأثير بتلك الخصائص .

إيطالية زمنية ضخمة . وبذلك مهد بتصرفاته لاندلاع « الثورة الدينية المسيحية الكبرى » في العصر الحديث . كما انه في هذا العام توفي « لورازودو مديتشه امير مدينة فلورنسة » (فيرنزا) ، وصاحب الفكر الاسباني الحر ، والباحث للنهضة الادبية والفنية فيها ، والمشع للفلسفة والافكار الجديدة .

ولا بد من الاشارة هنا ، الى ان بعض المؤرخين يرون في عام ١٤٥٣ ، وهو تاريخ سقوط القسطنطينية بيد الاتراك العثمانيين ، نهاية العصور الوسيطة يدلا من عام ١٤٩٢ ، على اعتبار انه في هذا العام زالت « الامبراطورية الرومانية » نهائيا ، باندثار قسمها الشرقي او البيزنطي ، بعد ان قضي على قسمها الغربي في عام ٤٧٦ م ، الذي اصطلح على انه نهاية للعصور القديمة . كما انه في هذا العام استفحل خطر المد الاسلامي العثماني الذي اجتاح شرقي اوربا ، وشرع يهدد عواصمها مرة اخرى .

ولكن المؤرخين المؤيدين لعام ١٤٩٢ ، يرون في عام سقوط القسطنطينية — على الرغم من انه عام قاس ومملوء بالاحزان بالنسبة للغرب — مجرد « مرحلة بسيطة » في الصراع ، الذي دام ثمانية قرون بين الصليب والهلال^(١) . ولعلم بذلك أرادوا ان يهوتوا من امره ، ولا سيما انهم استطاعوا في عام ١٤٩٢ ان يخرجوا العرب من اسبانيا ، وان يلاحقوهم بعد ذلك في ديارهم في شمالي افريقية ، وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرقها ، وفي البحر الاحمر ، وان يضعفوا من مكائهم الاقتصادية ، ويخضعوا بعض مناطقهم لاحتلالهم العسكري .

فالعصور الوسطى اذا تنتهي في اواخر القرن الخامس عشر لتبتدى « العصور الحديثة » باحداثها الكبرى : كاكشاف العالم الجديد ، ووصول اوربا الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وايناع « النهضة الاوربية » ، التي كانت في واقعها ثورة في جميع المجالات على أغلبية القيم التي احتضنتها اوربا في العصور الوسطى ، واتساع الامبراطورية العثمانية الاسلامية ، واغلاقها شرقي البحر المتوسط وجنوبه في وجه المطامع الاوربية الاقتصادية — الصليبية ،

(1) Favier (Jean), De Marco Polo à Christophe Colomb (1250-1492).
Collection Histoire Universelle - Larousse de Poche - Paris 1968. P. 9.

وتغلغل اوربا التدريجي في آسيا ، واستقرارها في القارة الامريكية ، ومن ثم بدء سيادتها على العالم ، واحتكاك حضارتها مع الحضارات المختلفة في آسيا ، وامريكا ، وافريقيا ، وبدء التواصل العالمي على اوسع نطاق .

واذا كان المؤرخون الغربيون متفقين على اتخاذ عام ١٤٩٢ ميلادا « لهذه العصور الحديثة » ، فانهم متفقون كذلك ، على ان هذه العصور لم تولد فجأة ، بل انها ككل ثورة ضخمة ، أو حدث كبير ، احتضنتها العصور التي سلفت ونمتها ، لتقفها بعد ذلك وليدا بسمات جديدة واضحة ، وان كانت هذه السمات لا تزال تحمل بعض تلونات العصور التي رعتها . وهذا امر طبيعي في مجرى التاريخ ، فالانسان ، والاشياء المختلفة ، والعادات ، وانماط التفكير لا تندثر فجأة في عام بل لا بد من بقاء بعض مخلفاتها لفترة معينة من الزمن . فبدهي اذن ان يرى في انسان القرن السادس عشر ، وفي فكره وفي عاداته كثير من ملامح العصور الوسطى . فمفكر جرىء وحديث مثل « رابله Rabelais » الفرنسي الذي ولد عام ١٤٩٤ ، أو « كوبرنيك » العالم الفلكي (١٤٧٣ - ١٥٥٣) البولوني الذي احدث ثورة في الفكر الاوربي ، نتيجة طرحه لنظريته الكونية ، القائلة : « بأن الارض ليست مركز العالم ، وانما هي الشمس ، وان الكواكب السيارة ، ومنها الارض ، تدور حول نفسها وحول الشمس » ، يحملان في نواح عدة ما يمكن ان يسمياه انهما من رجال العصور الوسطى . الا ان هذا لا يمنع من القول ان (العصور الحديثة) على الرغم من وجود بعض قيم العصور الوسطى وسماتها فيها ، تبقى « حديثة » لان « القوى الجديدة » قد تغلبت فيها على « القوى التقليدية المحافظة » .

ومن الواجب الاشارة في هذا المجال ، الى أن « تاريخ اوربا في العصور الحديثة » نواة اساسية في تفهم « التاريخ العالمي ، الحديث والمعاصر » ، و « التاريخ العربي الحديث والمعاصر » ، لان الاحداث التي تعاورتها في هذه الفترة ، كانت لها انعكاساتها الضخمة على تطور التاريخ في جميع اجزاء العالم . فاوروبا في العصور الحديثة لم تكن مجرد قارة ثابتة في مكانها ، بل متنقلة في انحاء العالم ، برجالها ، وقيمتها ، وافكارها الجديدة . ومن ثم فانها دخلت

في احداثه التاريخية ، وخلفت بصماتها في تطوره ، وكانت في الواقع قطب الرحي في الاحداث العالمية كلها ، حتى انه يطلق على القرن التاسع عشر (قرن سيادة اوربا على العالم) ، اذ انها حاولت خلال هذا القرن ، ان تركز وجودها في مختلف اجزاء العالم اقتصاديا ، وسياسيا وفكريا ، حتى غدا من العسير فصل أي تطور في مختلف البقاع العالمية ، عن تطورات التاريخ الاوربي المعاصر .

ولا بد من الاشارة في هذه المقدمة الى ان معظم مصادر التاريخ الاوربي الحديث اجنبية اللغة . وهي تضم الوثائق الرسمية الكتابية ، والخاصة ، الغزيرة ، القائمة في مختلف ارشيفات البقاع التي كان لاوربا صلات معها في تلك الحقبة . ويضاف اليها المؤلفات التاريخية ، والادبية ، والعلمية ، والفلسفية ، والدينية ، وغيرها ، المعاصرة لتلك المرحلة ، والمخلفات المتنوعة الاخرى ، من مبان شتى وادوات ، واشياء ونقود ، وصور يدوية وغيرها .

أما مراجع التاريخ الاوربي الحديث فهي اكثر من كثيرة ، وبلغات عالمية عديدة ، عدد اللغات العالمية نفسها . وما كتب منها باللغات الاوربية بالذات ، فقد ركز دراسته على « مرحلة زمنية » معينة من تاريخ اوربا الحديث كالقرن السادس عشر مثلا ، أو على مرحلة منه فقط ، أو على دولة معينة ، أو مجموع دول ، أي على وحدة جغرافية طبيعية ، أو سياسية ، أو انه عالج مجموع تاريخ وحدة ما نوعيا ، أي في تطورها الاقتصادي ، أو الاجتماعي . أو اخذ حدثا معيناً ، وتبعه بعمق ، وتفصيل ، كالاصلاح الديني، والكشوف الجغرافية مثلا . ويلاحظ ان المؤرخين الاوربيين في نطاق بعض الدول ، قد اتخذ خطة « الدراسة التاريخية المشتركة » ، أي اتفق عدد منهم على قيام كل واحد ، أو اكثر من واحد ، في دراسة فترة زمنية محددة من الحقبة الحديثة ، أو يبحث موضوع ما ، أو تطور دولة من الدول . وعملت هذه الجماعة ، من ثم ، على اصدار « سلسلة » من المؤلفات تغطي العصر الحديث ، وربما امتدت الدراسة فغطت العصور الوسيطة والقديمة ، والمعاصرة . وقد يقوم احيانا مؤلف تاريخي واحد ، باصدار مثل هذه السلسلة ، وان كان هذا قليلا نسبيا . ومن هذه السلاسل التاريخية المشهورة

باللغة الفرنسية سلسلة « شعوب وحضارات » Peoples et Civilisations

والتاريخ العالمي — لاروس الجيب Histoire Universelle, Larousse de Poche

والتاريخ العام للحضارات Histoire Générale des Civilisations

والتاريخ العالمي — مكتبة مرابط Histoire Universelle B. Marabout

وسلسلة التيارات الكبرى من التاريخ العالمي

Les Grands Courants de l'Histoire Universelle

وهذه السلسلة الاخيرة من تأليف المؤرخ جاك بيرين Jacques Pirenne

واذا ما سئل عن مراجع « تاريخ اوربا الحديث » باللغة العربية ، فهي اما تعريب للمراجع الاجنبية السالفة الذكر ، او « مراجع ثانية » اعتمد في الحصول على حقائقها ، على المراجع الاجنبية .

اذ ركزت حركة التاريخ العربية المعاصرة ، جل دراساتها الاصلية ، على التاريخ العربي وان كان هذا لا ينفي قيامها ببعض دراسة اصيلة ، لجزء من التاريخ الاوربي الحديث ، عندما يكون هذا الجزء على علاقة بالتاريخ العربي : كالغزو البرتغالي ، والاسباني ، للبلاد العربية في آسيا وافريقيا ، والعلاقات الاوربية العربية ، والعثمانية . ويلاحظ ان ما ألف من المراجع العربية عن « العصر الحديث » في اوربا ، وعن القرون السابقة للقرن العشرين ضئيل ، بينما كان القسم الخاص بالمرحلة التي تلت الحرب العالمية الاولى والثانية كثير نسبيا . اذ هدف اصحابه العربون ، والباحثون ، والمؤلفون ، على السواء الى ارضاء لهفة الجماهير لمعرفة ما يجري في عالمها ، من احداث وتطورات بعدما ازداد اهتمامها بالحياة السياسية العالمية ، وانتشر العلم بين صفوفها .

وفي الحقيقة ان معظم المراجع العربية عن التاريخ الاوربي ، قد وضع لطلاب المدارس الثانوية ، او الجامعات العربية . ومنها السلسلة التاريخية التي ألفها « الدكتور نور الدين حطوم » الرئيس السابق لقسم التاريخ ، في كلية الآداب ، من جامعة دمشق ، والتي تشمل بالنسبة لتاريخ اوربا الحديث « عصر النهضة الاوربية » و « القرن الثامن عشر » .

واخيرا قد تبدو كثير من الموضوعات المطروحة في هذا الكتاب موجزة ،
بل ومقلصة ، وذات طابع مدرسي ، وذلك يرجع في الحقيقة الى ان الكتاب
قد وضع في الاساس لطلاب السنة الرابعة من قسم التاريخ ، ليكونوا (خلفية
عامة) عن (تاريخ اوربا في العصر الحديث) ، ولينطلقوا بعدها نحو بحوث
اكثر استقصاء ، واستيفاء ، في كل موضوع من الموضوعات المطروحة .

الفصل الأول

المدخل الى العصر الحديث في اوربا

١ - نبذة جغرافية موجزة عن القارة الاوربية

ان اوربا هي احدى القارات الست ، وتبلغ مساحتها عشرة ملايين وربع من الكيلو مترات المربعة تقريبا (١٠.٢٣٦.٠٠٠ كم^٢ . ويحدها من الشمال « المحيط المتجمد الشمالي » ، وتطل شواطئها الشمالية والشمالية الغربية على « بحر البلطيق » و « بحر الشمال » . ويفصلها عن « القارة الامريكية » في الغرب « المحيط الاطلنطي » ، وتقوم في زاويته الشمالية الشرقية « الجزر البريطانية » التي يفصلها عن البر الاوربي « بحر المانش » و « ممر كاله » و « بحر الشمال » . ويفصل اوربا في الجنوب عن « القارة الافريقية » ، « البحر المتوسط » ، الذي تتناول فيه بثلاثة اشباه جزر ، هي من الغرب الى الشرق ، « شبه جزيرة ايبيريا » « وشبه جزيرة ايطاليا » « وشبه جزيرة البلقان » . أما في الشرق فلا حدود بحرية تفصلها عن قارة آسيا سوى « البحر الاسود » و « بحر قزوين » . واذا كان حد « جبال القوقاز » يبدو واضحا وبينا ، فان حد « جبال الاورال » التقليدي هو اصطلاحى ، ومن ثم تبدو القارة الاوربية امتدادا غربيا « لقارة آسيا » بل شبه جزيرة منها . (انظر الخريطة الطبيعية لاوروبا في آخر الكتاب) .

وللقارة الاوربية ، سماتها الطبيعية والبشرية ككل قارة من القارات . وهي تتميز بتنوع تضاريسها : ففي الشمال ، تتكون من تضاريس قديمة المنشأ ، فعلت فيها عوامل الطبيعة المختلفة فعلها ، من ائتكال ، وانهدام ، فتحولت في معظم اجزائها الى هضاب ، لا يتجاوز اقصى ارتفاع لها ٢٤٠٠ م ، والى سهول

فسيحة • وتركت الجموديات في الدور الرابع الجيولوجي أثرها الكبير فيها ، من حت ، وبحيرات ، ومواد لحقية ، وبصفة خاصة في شمالها الشرقي ، أما في الجنوب الاوربي ، فالبنية التضاريسية حديثة المنشأ نسبيا ، اذ انتصبت الالتواءات الالبية ، وكونت تلك الجبال المرتفعة الممتدة من البيرنه غربا ، الى القوقاز شرقا ، (البيرنه ، الالب ، الابنين ، السلاسل الدينايية ، الكاربات ، جبال البلقان ، وجبال شبه جزيرة القرم ، فالقوقاز) التي يصل اقصى ارتفاع لها على البر الاوربي الى ٤٨٠٧ م (قمة الجبل الابيض) ، والى ٥٦٣٣ م (قمة البروز في القوقاز) • ويدل على هذا التكوين الحديث للجنوب الاوربي ، عدم استقراره الحالي ، كما يبدو ذلك من نشاط الزلازل والبراكين فيه •

والى جانب تنوع التضاريس في اوربا ، بين سهول ، وهضاب ، وادوية ، واخاديد ، وجبال مرتفعة ، هناك الامتداد الكبير للسواحل : فمقابل كل (٢٦٠) كم^٢ من المساحة ، كيلو متر واحد من الشواطىء • وهذا يفوق اربع مرات ما عليه الامر في افريقيا مثلا • ولهذه الناحية بالطبع اثرها الكبير في المناخ ، والحياة بصفة عامة ، والحياة البشرية ، ونشاطات السكان بصفة خاصة •

ومثلما تتميز تضاريس اوربا بالتنوع فان « الشروط المناخية » تتسم ايضا بالسمة ذاتها : فهناك « المناخ المحيطي » في الواجهة الغربية ، والشمالية الغربية ، حيث الامطار غزيرة ، وتمتد على فترة طويلة من السنة • و « المناخ القاري » في شرقي المانيا ، وبولونيا ، والبلاد الدانوبية ، والسويد ، وفنلندة ، وروسيا ، حيث الامطار صيفية وقل كمية من السابقة ، والشتاء قارص البرودة • « والمناخ المتوسطي » في البلاد المطلة على البحر المتوسط في الجنوب ، باعتدال حرارته ، وجفاف صيفه ، وتوسط امطاره • وليس في اوربا ما يمكن ان يطلق عليه صحراء كما هو عليه الحال في القارات الاخرى •

ويشق اوربا عديد من الانهار ، منها الكبيرة ، والمتوسطة ، والصغيرة ، بطولها وغزارتها • ومن الكبيرة مثلا ، نهر الدانوب الذي يجتاز اوربا من غربها الى شرقها ، ويصب في البحر الاسود ، ونهر الرين الذي ينطلق من جنوبها الى

شمالها الغربي ليصب في بحر الشمال ، وكنهر الفولغا الذي ينحدر من الشمال الى الجنوب ليصب في بحر قزوين ، بعد ان يجتاز الارض الروسية . وتوفر الانهار لاوروبا المياه للري ، ويستفاد منها طرقا للمواصلات ، تصل اجزاءها بعضها ببعض .

وخلاصة القول تختلف المظاهر الطبيعية في اوربا بين الشمال والجنوب ، والشرق والغرب . ولم تؤثر في تضاريسها العوامل الجيولوجية ، والجغرافية المختلفة فحسب ، بل كان ليد الانسان اثرها ايضا ، اذ غيرت من معالمها ، ولا سيما غطاءها النباتي والحيواني .

ويسكن اوربا اليوم ما يعادل (٦٠٠) ستمائة مليون نسمة ، وهي اكثر القارات كثافة . وتملك ثروات كثيرة ، زراعية ، وصناعية . وقد كانت القارة الاولى في العصر الحديث ، التي طورت الصناعة فيها حتى تمكنت ان تسود العالم ، وتستغله لصالحها . وان تاريخها في « العصر الحديث » هو قصة المرحلة الاولى من ذلك التطور المدهش ، الذي تعيشه اليوم ، في ميادين العلم ، والتقنية والفكر ، والاقتصاد ، والاجتماع ، والسياسة ، والفن .

٢ - لمحة عن احوال اوربا من منتصف القرن الثالث عشر الى منتصف الخامس عشر

لقد اشرنا في المقدمة الى ان « العصر الحديث » في اوربا ، بكل ما فيه من ثورة وتجديد ، قد اخذ تكوينه الاول في احضان العصور الوسطى . ويسرد المؤرخون بذور هذا التكوين الى منتصف القرن الثالث عشر ، وينظرون الى تلك الفترة الممتدة من (١٢٥٠ - ١٤٩٢) ، على انها المرحلة التي تحول فيها العصر الحديث من نطفة الى وليد . وهكذا غدا من الضروري التعرف بسرعة بملامح هذه الحقبة ، لتفهم اصول التطورات الجديدة ، التي تميز العصر الحديث .

فاذا ما عدنا الى منتصف القرن الثالث عشر ، شاهدنا ان حضارة العصور الوسطى الاوربية قد وصلت آنذاك الى ذروتها : فمفهوم (العالمية)

Universalisme^(١) الذي كان الاساس الاكبر في تفكير العصر الوسيط في اوربا قد بدا راسخا في الازهان ، ولا سيما بعد ان نجح الفيلسوف « توماس اكويناس » (١٢٢٥-١٢٧٤) في التوفيق بين « الرسالة المسيحية » وتفكير ارسطو . وظهرت اوربا للعيان قارة هادئة تشع عليها روح الملك « لويس التاسع » ملك فرنسا الملقب « بالقدّيس لويس » وتبرز فيها سلطة البابا « اينوسان الرابع » . فالصراعات فيها محدودة ، وحتى الحروب الصليبية كان قد هدأ اوارها ، على الرغم من قيام الحملة الاخيرة التي تزعمها « لويس التاسع » نفسه ، وهدف منها تونس عام ١٢٧٠ ، وتوفي فيها . كما ان السكان شرعوا بالتزايد في الارياف ، وكان استصلاح الاراضي على قدم وساق ، والنشاط الصناعي ، والتجاري . في المدن عارما وقويا ، والمبادلات بين بضائع الشرق والغرب تتم على شواطئ البحر الاسود ، والبحر المتوسط ، وفي مدن ايطاليا ، وفي اسواق شامبانيا (شمالي شرق فرنسا) ، والسلام والثقة بالمستقبل يسيطران على الازهان والضمائر .

الا ان اوربا خلال القرن الرابع عشر ، مرت بمرحلة من الازمات العvisية : الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والتي امتدت حتى منتصف القرن الخامس عشر .

وتتمثل الازمة الاقتصادية بسوء المواسم ، والمحاصيل الزراعية ، نتيجة التغيرات المناخية ، وتبرد الطقس ، واجتياح العواصف العنيفة مناطق السواحل . وقد اعاق النقص في وسائل النقل ، ايصال المساعدة للسكان المنكوبين ، الا اذا كان من السهل الوصول اليهم بحرا . فمن عام ١٣١٥ الى ١٣١٧ ، عاشت اوربا

(١) العالمية : لقد كان الفكر في العصور الوسطى يامل في تحقيق وحدة جميع الاشياء : فعلى المسيحية ان تكون وحدة سياسية ودينية ، ومن ثم كان من الضروري توحيد مختلف الشعوب والبلدان في مملكة عالمية تحت سلطة الامبراطور ، وفي كنيسة واحدة تحت سلطة البابا . وتكون مهمة هذه المملكة العالمية نشر السلام في العالم ، كما ان مهمة الكنيسة تعليم البشرية كيف تفكر ، وتحيا ، بشكل واحد . فمن حق الدولة العامة هذه ، والكنيسة فقط ، ان يمارسا سلطتهما على كل فرد ، وان يهيئا ، للهدف الاعلى من الوجود ، وهو الاتحاد مع الله .

مجاعة رهية ، امتدت من روسيا حتى جبال البيرنه ، ومات خلالها الالوف من الجوع . وبعد نصف قرن جاء دور الجنوب الاوربي في معاناة مجاعة ماثلة . وتجيء الاوبئة على هذه العضويات الضعيفة لانسان اوربا ، فتحدث خسائر ضخمة في الارواح . واشهر هذه الاوبئة « الطاعون الاسود » الذي اجتاحتها عام ١٣٤٨ . من شبه جزيرة القرم وانتشر بسرعة^(١) لضعف الوسائل الصحية . وقد تناقص عدد السكان من جراء هذا الوباء فهبط عدد سكان انكلترا من ٣٧٠٠٠٠٠٠ عام ١٣٤٠ الى ٢٢٠٠٠٠٠٠ عام ١٣٧٧ . وغدا متوسط حياة الانسان (٢٥) عاما بدلا من (٣٥) عاما^(٢) ، ويقدر ان اوربا قد فقدت ثلث سكانها .

وقد ادت المجاعات والابئة والحروب الى افقار الارياف ، وازدياد قطاع الطرق ، وانتشار التسول والعطلة عن العمل . فقر الفلاحون المتبقون امام نهب هؤلاء وسلبهم . يبحثون لهم في المدن عن عمل واطمئنان . فتضاءلت الزراعة واندثرت قرى بأكملها . واضطر السيد الاقطاعي ، حتى يوفر اليد العاملة الزراعية ، ان يحرر اقنانه ويزيد من اجورهم . وفي الاقطاعات التي حوفظ فيها على الواجبات والضرائب الاقطاعية . فان الفلاحين قاموا بثورات عديدة تجاه قاهريهم^(٣) فحرقوا ، القصور ، وسجلات الضرائب ، بل وقتلوا احيانا انسيادهم ،

(١) انظر اجنيحات الطاعون في كتاب (الديكاميرون) للكاتب الايطالي « بوكاشو » : Boccace, Le Décameron 1ère journée tra. Francisque Raymond. Paris 1879.

(٢) Bruley (E) Cloet, (R), Coquerelle (S et P). la fin du Moyen Age et l'Epoque Moderne (1328 - 1715) P. 7.

(٣) ومن هذه الثورات الشهيرة ما يسمى بـ (الجاكري La Jacquerie) في فرنسا وذلك عام ١٣٥٩ . حيث قام فلاحو « بوفيزي Beauvaisis » بثورة وحشية اقمعت بوحشية اكبر . وفي عام ١٣٨٠ قامت جماعة من « التوشين Tuchins » في (اللانغدوق) بحركة مماثلة ، وكان لها النتيجة نفسها . وقد اتخذت هذه التحركات اتساعا اكبر في (سكاندينافيا) و (الفلاندر) و (كاتالونيا) . واتسمت بطابع اكثر تنظيما في انكلترا : ففي عام ١٣٨١ ، قام فلاحو الجنوب الشرقي فيها ، الذين اسماوا « باللولاردز Lollards بالسير نحو لندن) ، واستولوا على البرج فيها ، وذبحوا المستشار . وفي عام ١٤٥٠ بقي احد المغامرين وهو « جاك كاد J. Cade » زعيما للندن فترة من الزمن .

وكانت هذه التحركات الثورية اذا ما هزمت ، يتحول اصحابها الى جماعات من قطاع الطرق ، فتزيد الحالة سوءا .

او رجال الدين الجامعين لضريبة العشر . وفي الواقع بدأ النظام الاقطاعي يضعف وينحسر تدريجيا ، وغدا الفلاح سيد ارضه التي يستثمرها . وبالمقابل اضطر النبيل ان يبحث عن مورد آخر يعيش منه ، أكان في البلاط الملكي أو من ارباح قطع الطرق ، او من العمل جنديا مرتزقا ، او في البحث عن « عقود » او « اتفاقات » ، مع بعض الامراء او رؤساء المدن ، لتقديم الرجال المحاربين لهم . وهكذا نشأ « الكوندوتير » Condottiere « الايطالي » او « الريتر Reître » الالماني او « القائد » الغاسكوني او البريتوني . وضعف اثر سيد القصر الاقطاعي على الحياة الريفية ، وبدأ فلاحو اوربا الغربية يتحررون . وبمال المدن والبرجوازية الناهضة ، شرع الفلاح يرتفع بمستوى استثماره الزراعي . وذلك منذ نهاية القرن الرابع عشر ، وبصفة خاصة خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، موجهها جهوده نحو افضل الاراضي ، لتوفير الغذاء لسكان غدوا اقل عددا . ولكن هذا لا يغني زوال الاقطاعية تماما ، اذ انها ستبقى قائمة حتى الفترة المعاصرة . وفي قلب القرن الثامن عشر كان لا يزال يشاهد العديد من التابعين راكبين على ركبهم ، وهم يقسمون يمين الولاء لاسيادهم . الا ان هذا كان مجرد واجهة قانونية ، اذ ان العقلية الاقطاعية كانت في طريق الزوال منذ اواخر العصور الوسطى (١) .

هذا في الريف ، اما في المدن حيث الصناعة والتجارة ، فان تعدد النقد واختلافه (٢) والتذبذب المستمر لقيمته ، كان يعيق التجارة ، ومن ثم الصناعة ، وشرعت اوربا تفتقد المعادن الثمينة الضرورية : فقد كانت الفضة مطلوبة جدا لسك القطع اللازمة لدفع اجور الجيوش . وكانت الحروب في الشرق تقطع الطرق التجارية التقليدية . وقد تعرضت الصناعة المزدهرة كصناعة الصوف ، مثلا ، لازمات خطيرة في (الفلاندر) و (فلورنسة) . واصيب اصحاب المصارف الفلورنسية الكبرى بافلاسات ضخمة بين عامي (١٣١٢ و ١٣٤٦) .

Favier (J.), Op. cit. P. 131.

- (١) لقد كان النقد الذهبي البيزنطي ، والعربي الاسلامي ، هو المتداول في اوربا
- (٢) عام ١٣٥٢ عندما قامت (فلورنسة) و (جنوة) بسك عملة ذهبية خاصة ، وحذت المدن الاخرى حذوها والملوك كذلك ، وكان نقد فلورنسة (الفلوران) اكثر انواع النقد ثباتا .

وقد ادت هذه الكوارث التي لحقت باوربا الى انتشار خوف عام : فاخذ الناس يبحثون عن سند من القوى السماوية . وتجلى هذا في فنهم ، حيث ضاعفوا من رسومهم « للمسيح » في اوضاع يدي شفقتهم عليهم ، « والعذراء » وهي تحمي تحت معطفها الناس التعساء ، بل سيطرت روح الموت عليهم ، وتجلت في (الرقص المكابري) ^(١) ، وضاعت نفوسهم ذرعا بالحياة ، فأخذوا يوجهون نقيمتهم نحو اولئك الذين كانوا يعتقدون انهم يحملون معهم الاوبئة كالغرباء ، واليهود : فاضطهد الاول في انكلترا ، وذبح اليهود في سكندنافيا ، والمانيا ، وكاتلونيا ، واللانغدوق ، حتى اضطر البابا الى وضعهم تحت حمايته . وانتقلت الاضطرابات الى المدن ، التي ازداد عدد سكانها زيادة كبيرة ، ولكن ادارتها بقيت بأيدي رجال البورجوازية دون غيرهم ، وهم التجار الاغنياء ، وصناع الصوف ، واللحامون بصفة خاصة . ولقد نظم هؤلاء انفسهم في « نقابات » ليحدوا من المنافسة ، ويقفوا في وجه اقامة مشروعات جديدة ، وليثبتوا قواعد المهنة .

اما العمال الذين بقوا على احوالهم السيئة السابقة ، فانهم ثاروا ، اما ضد مستخدميهم ، أو ضد ممثلي الملك ومطالبه المالية . ولما كانوا في معظم الاحوال غير قادرين على قيادة انفسهم ، فانهم كانوا يسلمون قيادتهم لبعض الاغنياء الطموحين والمغامرين ^(٢) . وقد ادت الثورة العنيفة في (فلورنسة) التي قام العمال بها (الشومبي Ciompi عام ١٣٧٨ ، ضد كبار تجار الجوخ فيها ، الى احناء هؤلاء الآخرين رؤوسهم موقتا ، والى افساحهم مجالا ولو ضيقا جدا للعمال في الحكم . ان ثورات مماثلة قامت في (١٣٥٨ - ١٣٨٢) في فرنسا ، والفلاندر ، واسبانيا ، والمانيا ، وبولونيا ، وقد اخفقت معظم هذه التحركات الثورية في تحسين احوال الطبقات الشعبية ، الا انها بالمقابل دعمت قبضة البورجوازية وسمحت لها كي تلعب دورا اكثر أهمية في سياسة الدولة ، حتى سيطرت على كثير من حكومات المدن ولا سيما في ايطاليا .

(١) صورة سادت في اواخر العصور الوسطى ، وتمثل جماعة من كل الفئات والاعمار ترقص على شكل دائرة ، وامام شبح هيكल للموت يسوقهم .

(٢) من امثال جاك فان ارتفيلد (١٣٣٨ - ١٣٤٥) ، وابنه فيليب (١٣٨٢) في (غاند) في بلجيكا الحالية ، و (ايتين مارسيل) (١٣٥٨) في باريس .

والى جانب تلك الازمات الاقتصادية ، والاجتماعية ، التي عاشتها اوربا في القرن الرابع عشر كانت هناك ازمات سياسية وحروب ضاعفت بنتائجها ، وعملياتها العسكرية ، والدمار الذي خلفته ، الاوضاع الاقتصادية سوءاً . وفي الواقع لم يكن هناك من بقعة لم يصيبها تخريب الحرب ، واجتياحات الجند . واكبر تلك الازمات السياسية (حرب المائة عام)^(١) ، والمصارعات والحروب الداخلية في (ايطاليا) ، نتيجة تجزئها وانقسامها الى مدن متنافسة ، وأخرى متناحرة ، و (الحرب الليتوانية الروسية) في الشمال ، وحرب البولونيين مع (الفرسان التيوتون) . هذا في الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية البيزنطية ، وشرقي اوربا ، يتهاويان تحت ضربات الاتراك العثمانيين ، والامبراطورية الجرمانية المقدسة ضعيفة لا حول لها ولا طول .

ومع هذه الازمات السياسية ، والحرب تمزق اوربا الغربية ، قامت ازمات دينية عنيفة ، كان لها اثر عميق في الكنيسة الكاثوليكية ، اذ بلبت المشاعر ، وزادتها قلقا ، ومهدت للثورة الدينية التي شاهدها القرن السادس عشر . فالاضطرابات المستمرة في روما ، دفعت البابا (كليمان الخامس) (١٣٠٥ - ١٣١٤) الى الاقامة في (آفينيون) على ضفاف الرون في فرنسا . وقد ازعج هذا الامر الايطاليين لما حمله من اساءة مادية ومعنوية لهم . ولاسيما ان البابوات الذين تولوا في آفينيون ، وقد كانوا من الفرنسيين ، حولوا مقرهم الى مقر ضخم وفخم ،

(١) ان اسباب هذه الحرب تتلخص في ان ملك انكلترا كان يملك اقطاعات على الارض الفرنسية . ومن ثم ، فهو تابع لملك فرنسا ، وكان هذا يشعره بالهانة ، ويشعر ملك فرنسا بتدخل الغريب في ارضه . وفي عام ١٢٣٧ ، وهو عام ابتداء الحرب ، طالب الملك (ادوار الثالث) الانكليزي بعرش فرنسا ، وسمى نفسه (ملك انكلترا وفرنسا) فاندلعت الحرب واتسعت من عام لعام ، وتحولت الى صراع بين « امتين » او « بين قوميتين » . ولقد انهزمت فرنسا في المرحلة الاولى ، الا انها لم تلبث ان استعادت قوتها بفضل « جان دارك » ، التي بثت الحماسة في النفوس . ومع انها اعدمت حرقا من قبل الانكليز ، فان روح المقاومة التي خلقتها ظلت سارية . وانتصرت فرنسا واستعادت جميع الاملاك الانكليزية على ارضها ولم يتبق لانكلترا سوى « كاله » . وكانت نهاية الحرب عام ١٤٥٣ . وقد اوجدت هذه الحرب شعلة من الشعور القومي لدى فرنسا ، وكانت عاملا اساسيا في تكونها القومي الحديث .

ومركز للفن والثقافة ، والاحتفالات الدينية المترفة . وليحققوا هذا ، زادوا من الضرائب الكنسية ، واوجدوا ادارة خاصة لشؤونهم المالية . وقد اثار هذا الترف الذي عاشوا فيه ، لاسكان روما فحسب ، وانما نقد جميع المسيحيين المتدينين ، الذين رأوا في حياة (بابوات آفينيون) خروجاً على المثل الاعلى للتقشف المسيحي ، وفي فروضهم المالية على الشعب زيادة في شقاء السكان . وقد تطورت الاحداث سراعا ، فانتخب لعرش البابوية عام (١٣٨٧ - ١٣٨٨ م) اثنان : احدهما استقر في آفينيون في فرنسا ، وهو (كليمان السابع) ، والثاني في روما (اوربان السادس) . وانقسمت المسيحية شقين : فرنسا وحلفاؤها ، ومنهم (يقوسيا ، وفيما بعد قشتالة ، مع الباب الاول ، وانكلترة والبلدان الاخرى مع البابا الثاني . وتجددت القضية بعد موت البابوين . وفي عام (١٤٠٩) اجتمع الكرادلة من الطرفين ، واسقطوا الاثنين ، وعينوا ثالثا . ووصلت الفوضى الى ذروتها ، اذ ادعى كل واحد من البابوات الثلاثة انه وحده البابا الشرعي ، وعاث جنونا كل واحد في ارض ايطاليا فسادا . وانحطت هبة البابوية في نفوس الناس ، وضاعت المسيحية بين الرؤوس الثلاثة لاتعرف من تتبع منهم . وازداد القلق ، وفكر المخلصون بالاصلاح والخلاص من هذا الوضع .

وبالفعل شاهد القرن الرابع عشر حركتين دينيتين قويتين قاد احدهما ، (جون وايكليف J. Wycliff) (١٣٢٤ - ١٣٨٤) ، استاذ علم الالهيات في (جامعة اوكسفورد) في انكلترة . وقد ابتداء بتأييد المواقف الملكية ضد الطلبات المالية للبابوية . الا انه لم يلبث ان هاجم ثورة الكنيسة وترفها ، ومؤسسة الاديرة فيها ، وبعض الاسرار المسيحية ، واخيرا توصل الى القول ان « الكتاب المقدس » هو السلطة العليا في قضية الايمان . وبفضل حماته الاقوياء لم تقلقه السلطات أو الكنيسة ، الا ان تلامذته من الفلاحين (اللولاردز) الذين كانوا ينشرون عقيدته في الارياض تلاحقوا امام الاضطهاد .

ودخلت مؤلفاته الى (بوكيميا) ، حيث تبني افكاره استاذ في جامعة براغ ، هو (حنا هس J. Huss) (١٣٦٩ - ١٤١٥) ، الذي لاقى نجاحا كبيرا بفضل تأييد العنصر التشيكي له ، واتخاذ حركته طابعا قوميا . وقد قام البابا بحرمانه .

وعندما رفض الانصياع دعا البابا (المجمع الديني) الذي يمثل مبدئيا السلطة العليا في الكنيسة .

وقد امر المجلس بالقبض على (حنا هس) . ولما رفض الرجوع عن آرائه ، اُحرق حيا . ولم يهدى اعدام (حنا هس) الخواطر ، بل زاد مشاعر التشيكيين التهاوبا ، اذ نظروا اليه على انه بطل قومي ، وقاموا بثورة في بوهيميا ، انهكت القوات الامبراطورية . ومع انها اقمعت اخيرا ، الا ان عددا من (المهرطقين) بقي موجودا .

وقد حاول (المجمع الديني) - وكان يضم كبار رجال الدين ، وعددا من اللاهوتيين من مختلف البلدان الاوربية - وضع حد للانشقاق البابوي ، فانتخب بابا وافق عليه الجميع . وعندما اراد ذلك المجمع المحافظة على سلطته وتدخلاته في شؤون البابوية ، فان البابا حله . ونجح البابوات في استعادة نفوذهم السابق في عام (١٤٥٠) . الا انه في غمرة هذا الصراع الطويل اهملت مسألة هامة جدا ، وهي ضرورة اصلاح الكنيسة . ونجم عن « الانشقاق البابوي » ظهور « كنائس قومية » ، بمعنى ان ملوك فرنسا وانكلترا ، اخذوا على عاتقهم خلال الازمة ، تعيين الاساقفة ، والمتمتعين بالمكاسب الكنسية ، وقد اتخذوهم كلهم من سكان البلاد . ولما ارادت البابوية استعادة ذلك الحق ، فانها اضطرت الى عقد اتفاقات مع الملوك ، تعطي فيها للسلطات الزمنية حقوقا كثيرة في المجال الديني . وبذلك خرج الاكليروس من قبضة البابا ليقع في قبضة الملوك .

وهكذا يتضح ان اوربا عاشت خلال القرن الرابع عشر ، وجزء من الخامس عشر . مرحلة ازمت شديدة ، هزت هذا عنيقا بناها الاقتصادية ، والاجتماعية ، والفكرية . وولدت لدى النخبة المثقفة ذلك القلق الفكري ، الذي دفعها نحو البحث الايجابي ، والمثمر للخروج من تلك الازمات . « فالازمة وان لم تكن قامة الا انها كانت في كل شيء ، وان لم تكن عامة الا انها موجودة في كل مكان »^(١) وهي في الواقع ازمة خصبة : فمن بين عوامل البلبلة ، والانقسام ، والانحطاط ،

Favier, op. cit. P. 10.

(١)

والخراب ، كان هناك خمائر يقظة ونهضة . ومقابل المجاعة ومظاهر الموت ، والتجزئة ، والاضطرابات برزت حاجة الانسان للبقاء ، والتكيف والابداع . فالحيوية الاوربية انبثقت من المحنة ، وقد تألقت ، ومن خلالها تفتقت في اوربا مفهومات جديدة عن الحياة العامة ، كانت مقدمة للعصر الحديث . فائناء تلك الازمات ، ارتسمت مفهومات (الدولة الحديثة) وتراجع (النظام الاقطاعي) ، وتدعمت (البورجوازية) ، وتفتحت (الحركة الانسانية) .

فردود الفعل الاوربية على التحدي كانت غنية ومثمرة ، وظهر هذا واضحا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

٣ - اوربا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر :

١ - التطورات الاقتصادية :

ما ان توقفت الحروب ، ولا سيما حرب (المائة عام) ، حتى عادت الحياة دفاقة للاقتصاد الاوربي ، وذلك خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر : فازدهرت الزراعة وعادت الارياض التي اجتاحت خلال المرحلة السابقة ، والتي تركها اهلها لمدة طويلة ، تعج بالحياة ، بعودة فلاحها اليها . وقد رجع هؤلاء الى الارض اما من ذاتهم ، أو بعد استدعاء الالسياد الاقطاعيين لهم ، واغرائهم بفوائد عديدة . وعادوا استصلاح الارض كما كانوا يفعلون ، وتركوا المناطق الفقيرة الى الارض الغنية التي اخذوا يستغلونها استغلالا كثيفا . وتوسعت زراعة الكرمة ونمت ، وكذلك زراعة القمح . وفي الشمال اهتموا اهتماما اكبر بزراعة الشعير ، لصنع البيرة ، وازداد الاقبال على تربية المواشي ، اذ اخذت المدن تستهلك لحما اكثر من السابق والصناعة تتطلب موارد اولية اوفر . واستدعى تسمين (الثيران) في فرنسا ، والفلاندر وانكلترا ، اقامة الحقول المسيجة . وادى الطلب على الصوف الى تربية قطعان ضخمة من الغنم ، كان رعاتها يمارسون معها التنقل من بقعة الى اخرى طلبا للكلأ . فبالاضافة الى انكلترا ، كرس عدد من بلاد البحر المتوسط نفسه لهذا العمل : كإيطاليا ، والبروفنس ، وبخاصة اسبانيا ، التي ظهر فيها حوالي عام (١٣٠٠ م) غنم « الميرينوس » ، الناجم عن تصالب غنم

قشتالة مع غنم المغرب • وقد كون مربو الغنم في اسبانيا ، اتحادا كبيرا هو (لاميسستا La Mesta) ، لينظم تنقلات هذه القطعان الضخمة العدد ، التي غالبا ماكانت تسيء للمناطق التي تمر منها •

وتطورت الحياة في الريف كذلك : فالسيد الاقطاعي شرع يعيش في المدينة ، أو يسكن منزلا اكثر اشراقا من الحصن الاقطاعي • واخذ البورجوازيون - وغالبا ماكانوا قد وصلوا الى مرتبة النبالة - يشترون اراضي عديدة ، ويسلمون استثمارها لفلاحين ميسوري الحال اطلق عليهم اسم « المزارعين Les Laboueurs » . بينما بقي (العمال الزراعيون) وحدهم في اوضاع سيئة ^(١) • والعامل الزراعي هو غير المؤهل مبدئيا للزراعة ويستأجره صاحب الارض لموسم معين او لعمل محدد •

التجارة والصناعة : اما التجارة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فقد رأت هي الاخرى تقدما بعد عودة السلام ، وان كانت في الحقيقة لم تتوقف ابدا حتى في فترة الاضطرابات •

وبقيت الصناعة الرئيسية هي صناعة الصوف . الا ان منسوجات جديدة نمت ، وهي المنسوجات من الكتان والقنب للملابس الداخلية ، والصناعة الحريرية للملابس الترف • ولقد نافست أجواخ ايطاليا ، وانكلترا ، وفرنسا ، والمانيا ، وكلها اصواف رقيقة وناعمة ، الصناعة الصوفية في بلاد (الفلاندر) •

وكانت هذه الصناعة النسيجية بحاجة لاستخدام مادة « الشب L'Alun » التي كانت آسيا الصغرى هي المنتج الوحيد لها • الا ان اكتشاف مناجم الشب في ايطاليا ، حرر هذه الصناعة من احتكار الاتراك لهذه المادة • كما ان هذه الصناعة استدعت الحصول على الاصبغة : كالزعفران ، والقرمز ، والنيلاج ، وكل هذه المواد كانت محط تجارة هامة بالاضافة الى القطن الذي كان يستورد من المشرق العربي ويصنع ^(٢) •

(١) لقد كان العامل الزراعي يتقاضى اجرا ضئيلا (١ - ٢ صول) يوميا ويقوم بعمله من مشرق الشمس لغروبها

Giraudet, Histoire de la ville de Tours, d'après Bruley et ses comp. Op. Cit. P. 238.

F. Autrand, A. Vauchez, M. Vincent , Le Moyen Age. Coll. Bordas (٢) P. 172.

ولقد نشط استخراج الفضة في بوهيميا ، وساكسونيا ، وصربيا ، وكذلك استخراج الحديد والنحاس والتوتياء في رينانيا ، وفي الأردن . واستثمرت على نطاق واسع الملاحات في المانيا ، وكذلك الملاحات في فرنسا . وفي الحقيقة ازداد استخدام الحديد في أواخر العصور الوسطى لصنع الآلات وبخاصة الحربية منها . وكان الفلز المعدني يحول الى سائل بصره في فرن عال ، ثم يحول السائل الى حديد . وقد كانت هاتان العمليتان تستهلكان كميات كبيرة من فحم الخشب ، مما ادى الى تلاشي الغابات ، ولذا فقد لجئ الى استخدام فحم الارض تدريجيا . فالصناعة المعدنية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر كانت متقدمة على الصناعات الاخرى ، ومنذ ذلك الوقت ، عمل على حفر المناجم وتمكينها ، وضخ المياه منها .

ان جميع تلك النشاطات الصناعية تتطلب رؤوس اموال هامة . ومن ثم ، يلاحظ ان رجال الاعمال في المانيا وفي ايطاليا شرعوا بتكوين اتحادات منهم ، توظف بشكل مستمر ومشترك رؤوس اموالها ، ثم تتقاسم الارباح . واخذ « المصرفيون » الذين يتلقون الودائع ، ويقرضون قروضا ضخمة حتى للملوك ، يلعبون دورا اكثر أهمية يوما بعد يوم مثل (آل فوغر) في اوغسبورغ بالمانيا و (آل مدينشه) في فلورنسة بايطاليا . فهذان البيتان الماليان كانا قوى حقيقية ذات أثر كبير في الاوضاع السياسية القائمة ، وبذلك تبدت اوليات الرأسمالية .

ولتسهيل العمليات التجارية ، ومواجهة عدم الكفاية في الانواع النقدية ، ظهرت تقنيات جديدة : فقد استخدمت المحاسبة المزدوجة (الدويبا) (أي تخصيص صفحتين متقابلتين لكل زبون ، يسجل على واحدة منها ما لديه وعلى الاخرى ما يدين به) . واتبع نظام « الشيكات » وهي اوامر بالدفع لصالح ثالث ، ونظام « الحوالات » ، التي تسمح لحاملها ان يستلم في بلد اجنبي مبلغا من المال بنقد ذلك البلد . وهذه تقنيات تجارية عرفها العرب قبالا واقتبسها منهم الاوربيون . وكانوا يستخدمون من الوسائل ، ما يحتالون بها على قضية « منع الربا » ، التي كانت الكنيسة لاتزال تؤكد عليها وتصر عليها . ومع كل اصرارها فقد نشأت « المصارف » ولاسيما في ايطاليا ، وكانت عوننا كبيرا للعمليات التجارية .

وكان الجزء الاكبر من النقل التجاري يجرى بحرا . وقد حقق بناء السفن في النصف الثاني من القرن الخامس عشر تقدما كبيرا : فقد حلت « دفة التوجيه » القائمة على محور السفينة محل الدفة الجانبية التي كان من الصعب استخدامها . كما اصبحت السفن اكبر حجما ، فسفن التجديف البندقية (Galères) غدت تضم (٢٠٠) مجدف . وفي الشمال الاوربي بنوا مراكب عالية على الماء ذات شراع واحد ، وبامكانها مجابهة امواج المحيط ، الا انها كانت بطيئة جدا . وقد ظهر في القرن الخامس عشر نموذج جديد للسفن هو « الكاراك Caraque » وهو سفينة بأبعاد كبيرة ، استخدمها البرتغاليون بخاصة في تحميل البضائع . وقد كانت قادرة على الملاحة في جميع البحار ، فصولها الثلاث تحمل اشرعة قوية ، وحمولتها الكبيرة جعلت منها مركب نقل وحرب . كما اوجد البرتغاليون سفينة (الكارافيل) ، وهي بطول (٢٥) متر وعرض (٨ - ١٠) متر ، وتحمل اربعة اشرعة مربعة ، وفي الخلف شراع لاتيني مثلث .

ولقد بقي البحر المتوسط ولفترة طويلة اكثف مركز للنقل التجاري . وكان الجنوبيون ينطلقون منه الى البحر الاسود ، باحثين عن البضائع التي تحملها اليه القوافل المنغولية ، كالحرير ، والتوابل ، والقطن ، أو السلع المنتجة محليا ، كالشب ، والقمح ، والخشب ، والفرو ، والعيبد . وكان البنادقة يتعاملون بخاصة مع الاسكندرية ، حيث كان العرب يقدمون لهم منتجات الشرق الاقصى ، وبخاصة الفلفل الذي كانوا يحتكرونه .

ان سقوط الامبراطورية المغولية وتقدم الفتح العثماني ، بلبلت تلك الاوضاع التجارية التقليدية ، وغدت العلاقات مع البحر الاسود ضئيلة ، وبالمقابل اصبحت البحر المتوسط الغربي مركز تجارة نشيطة جدا : فقد نست نابولي ، وبالرمو ، وشرعت برشلونة ، وجزر الباليئار ، تتاجر مع وهران ، والبندقية ، وجنوة مع تونس . وقد وصلت البندقية في هذه الحقبة الى اوج رخائها ، نتيجة الارباح ، التي كانت تحصل عليها من التجارة مع المشرق ، والمغرب العربيين . وكان قد تكونت في شمال اوربا اتحادات قوية للتجار منذ القرن الرابع عشر ، فقد ضمت « العصبة الهانسية التوتونية » (٧٠) مدينة المانية تحت ادارة (لوبيك Lübeck)

و (هامبورغ) • وكانت تملك مراكز تجارية مزدهرة في (لندن) و (بروج (Bruges) و (فيسبي Visby) وحتى (نوفغورد Novgorod) ولقد انتصرت على ملك الدانمرك عام ١٣٧٠ ، ومن ثم حافظت لمدة على احتكار التجارة عبر المضائق ، فكانت تصدر الى البلطيق الاصواف ، والاجواخ ، والخمور ، والملح ، ونحو بحر الشمال العنبر ، والفرو ، والحديد ، والاشخاب ، والحبوب ، والاسماك .

الا ان احتكارها هذا قضي عليه في القرن الخامس عشر من قبل الانكليز . والهولانديين ، الذين توسعت صناعتهم ، واشتد عود بحريتهما • وانحط ميناء « بروج » لامتلائه بالرمل وكان ذلك لصالح ميناء (اقرس) •

واستيقظت اقاليم اوربية اخرى على الحياة البحرية : فقادس ، واشبيلية . ولشبونة ، أمنت الصلة بين البحر المتوسط ، والمحيط الاطلنطي • ولكن على الرغم من جهود « جاك كور J. Cœur »^(١) ، فقد بقيت فرنسا متأخرة تجاريا : (فرسيليا) و (ايغ مورت Aigues - Mortes) كاننا غير قادرتين على منافسة الموانئ الايطالية أو الكتلانية ، وكذلك حال (بورديو) أو (روان) مع (بروج) أو (هامبورغ) •

اما النقل على الطرق البرية فقد ظل قليلا ومتأخرا • فالنقل التجاري كان يفضل مجاري المياه على الطرقات البرية ، على الرغم من الاخطار القائمة عليها • الا ان السلع الثمينة وحدها ، كالحرير ، وخيوط الذهب ، والفضة ، والتوابل ، كانت تنقل على ظهور البغال وتجتاز ممرات الالب •

ولما كانت الطرق الفرنسية غير آمنة بسبب الحروب ، فقد تحول النقل التجاري بين الاراضي المنخفضة ، وايطاليا ، الى الشرق ، وقد استفادت من ذلك

(١) جاك كور (١٣٩٥ - ١٤٥٦) ابن تاجر من مدينة Bourges (بورج) وقد كون ثروة ضخمة عن طريق تجارته مع الشرق ، وانشأ بيوتا تجارية في مونييه ، و فرسيليا ، عن طريق استثماره للمناجم واقامته المصانع • وقد كان ممول الملك (شارل السابع) • وقد وافق على اقراضه مبلغا كبيرا من المال للقيام بحملته على « نورمنديا » ، الا ان الملك مالبث ان غضب عليه وسجنه ، ولكنه هرب ، وتوفي في الشرق في خدمة كان يؤديها للبابا •

المانيا ، وتضاعف ارتياد نهر الرين • وقد بقي النشاط التجاري في فرنسا غالبا محليا ويبد الغرباء • فأسواق « شمبانيا » اهتمت لصالح (ليون) و (جنيف) و (فرانكفورت) و (ليزغ) • وعرفت المدن الالمانية رخاء كبيرا ، اذ اغنت نتيجة صنع الاقمشة وبيعها ، وبيع الاشياء المعدنية ، واصبحت مركز تجارة كثيفة بالفضة •

وقد انطلقت المدن الايطالية اللومباردية بدورها ، في ميدان صنع الاقمشة الدقيقة والاسلحة ، وفي حقل النشاط المصرفي ، ونافست المراكز القديمة جدا « كالبندقية وجنوة » •

ففي أواخر العصور الوسطى اذاً ، ارتسمت ملامح بعض انحطاط في المدن الكبرى التي سيطرت في السابق على النشاط الاقتصادي الاوربي ، بينما نمت ونشطت قوى أخرى كإنكلترا ، والمانيا الجنوبية ، والاندلس ، ولومبارديا •

ب - التطورات الاجتماعية في اواخر القرن الخامس عشر :

ان الاضطراب الاقتصادي الذي عاتته اوربا في القرن الرابع عشر ، وما نجم عنه من انحطاط النظام الاقطاعي ، ادى الى ظهور بنى اجتماعية جديدة يلاحظ فيها توزيع جديد للسلطة ، وتوزيع جديد للثروة ، وعقلية جديدة •

فقد كانت « النبالة » قد تحولت في أواخر العصور الوسطى الى « طبقة شبه مغلقة Caste » • فحتى نهاية الحروب الصليبية كان النبيل هو « الفارس » ، وهو الرجل القادر على الحرب ، وعلى التسلح على نفقته الخاصة ، واقتناء الخيول الضرورية والعناية بها • فالنبالة اذاً كانت تنبثق من قدرة اقتصادية اكثر منها اجتماعية • الا ان مرور الزمن ، وضعف واردات فئة من طبقة النبلاء ، دفع الى ظهور مفهوم « النبالة صاحبة الامتياز » وذلك لصالح اولاد الفرسان الذي لا يمكنهم ان يسلحوا انفسهم ، لافتقارهم للموارد الكافية • فالنبيل الاب مثلاً قد يملك اقطاعاً محدوداً ، يؤمن له حياته الخاصة ، وحياة ابنه الاكبر فقط • أما اولاده الآخرون فيبقون « فرساناً مرافقين » « Escuyers » ، ولا يمكن

النظر اليهم على انهم منقسمون عن طبقة الفرسان ، فهم اذا « نبلأ مستعدون للفروسية » ، ولذا فقد منحوا مجموعة من الامتيازات القضائية والمالية اخذت تميز « مجموع طبقة النبلاء » المتمتعين بالاقطاع منهم أو غير المستمعين .

وبالمقابل ، فلم يكن لكل مالك اقطاع من الارض الحق في ادعاء الفروسية . ففي القرن الثالث عشر ، دفع اغتناء البورجوازية ، وبداية توظيف المال النقدي في الارض ، عددا من التجار والحرفيين الى ابواب الفروسية ، وهؤلاء البورجوازيون غرباء بمولدهم عن الطبقة النبيلة الآنفة الذكر . وأمام رغبة البورجوازية بالتسلل الى طبقة النبلاء ، تكونت « طبقة النبالة المعلقة » ، فالملك ، وامراء الاقطاع ، رفضوا في بادئ الامر منح صفة النبالة الى مشتري الاقطاع ، اذا لم يكن « نبيل الدم » . وكان عددهم كبيرا ، ويهدد بالطغيان على النبالة الاقطاعية القديمة . فالقدرة الاقتصادية للفراس لم تعد لتكفي اذن للوصول الى طبقة النبلاء . والملك وحده ، أو الامير الاقطاعي ، (ككونت الفلاندر ، ودوق بافاريا) كانا قادرين وحدهما على منح « النبالة » بكتب خاصة .

وهكذا اختفت الفروسية وراء طبقة محددة قانونيا ، فلا يدخل اليها الا من كان مولده النبيل يرشحه لذلك ، الا انها في الواقع لم تكن طبقة مغلقة تماما ، وانما طبقة محددة تحديدا ضيقا .

ولكن هذه النبالة الاقطاعية القديمة أخذت تتلاشى تدريجيا ، نتيجة الازمات الاقتصادية من جهة ، والتحالفات بين ذوي القربى من الاقطاعيين . فالحملات الصليبية حملت اسر الفرسان ديونا ، في الوقت الذي انخفضت فيه الدخول الريفية ، فأصابتهم بكارثة اقتصادية . وجاء الطاعون ليحرمهم من اليد العاملة . والفدءات التي اضطر بعضهم لدفعها ، نتيجة الحروب الداخلية والخارجية التي خاضوها ، اضطرتهم لتصفيات ونكبات . كما ان الاستدعاءات المستمرة للفلاحين التابعين لهم ، للعودة الى الريف واعادة تعميره افقدت بعضهم في الواقع اراضيهم . لكن هذا لم يكن مصير كل الاقطاعيين ، ففي بعض المناطق تحول الاقطاعيون الى قوى اقتصادية كبيرة . فقد قامت اسر اقطاعية بتجميع ماهر

للاراضي التي افتر اصحابها ، فملك ثروات ضخمة مثل « كبار قشتالة »
(في اسبانيا) « كاسر المندوزا Mendoza و « البوكيرك Albuquerque .
وقد استفاد هؤلاء من ضعف الاسر الحاكمة الاسبانية المنقسمة دائما على نفسها ،
ومن عجز الاوساط المدنية ، لينوا لانفسهم قوة اقتصادية وسياسية .

ويمكن القول ، انه تبدت في انكلترا ، والمانيا ، وفرنسا بخاصة ،
« نبالة جديدة » نبالة بفضل الملك . وقد اقتربت هذه النبالة ، بالحياة التي
تبنتها ، من النبالة الاقطاعية القديمة ، الا انها بأصولها ، وعقليتها ، ونشاطها ،
ترتبط بالبورجوازية التجارية ، وبالطبقة الجديدة من موظفي الدولة .

الطبقة البورجوازية :

ان احدى القوى الحية والفعالة للمجتمع في نهاية العصور الوسطى اذا .
كانت البورجوازية التي وصلت في صعودها المرقى الاجتماعي الى مستوى رفيع
وسائد . وتبدو هذه الظاهرة بينة في البلاد ذات الاقتصاد المعتمد على المدن .
كما هو الحال في ايطاليا ، والفلاندر ، وعالم العصبة الهانسية ، أو المانيا الدانوبية
مثلا ، كما انها واضحة كذلك ، في البلاد التي كانت السلطة المركزية للملكية
تنمو فيها على حساب النظام الاقطاعي ، كفرنسا ، وانكلترا ، وحتى الاراغون
شرقي اسبانيا .

ولما كانت البورجوازية قد اشترت الارض ، فانها استطاعت في القرن
الخامس عشر ان تفرض على الريف تأثير المدينة ، وطرائقها في العمل ، وانماطها
في الحياة . وقد مولت المشروعات الزراعية الجديدة وسعت لتحديثها . وقد عمل
بعض افرادها على احتكار انتاج زراعي بكامله أو صناعي — زراعي كالنبيل
مثلا . ولم تكتف البورجوازية بذلك بل بنت لها منازل في الارياف ، تنتقل اليها
وقت الاوبة ، أو لقضاء فترة معينة ، ينسى التاجر خلالها مهنته كتاجر ، ويلعب
وسط اراضي دور « السيد النبيل العريق » .

ان البورجوازي الذي اغتنى ، لم يكن من طموح له سوى تقليد النبيل ،

بل واقامة علاقات معه . وقد وافق النبلاء نصف المفلسين على اقامة علاقات زواج مع الاسر الغنية من التجار . وغدا من الممكن في بعض البلدان ، ان يصبح مسن عداد طبقة النبلاء ، من يتزوج فتاة من الاشراف . كما ان بعض الوظائف الحكومية كانت تدخل صاحبها آليا ضمن هذه الطبقة ، كالوظائف الادارية والقضائية العليا . هذا بالاضافة الى ان الكنيسة قدمت لابن البورجوازي ، وسائل صعود اجتماعي سريع ، اذ فتحت امامه الباب لدخول صفوفها . وهكذا فان اوساط التجار المصرفيين الايطاليين ، شرعت تقدم عددا من « الكرادلة » للكنيسة منها .

ولما كانت البورجوازية قد نمت فقد طالبت بصفتها هيئة اجتماعية ، بمسؤوليات سياسية . وبالفعل فقد حصل مندوبو المدن في انكلترا على تمثيل سياسي ، حتى ان « مجلس العموم » عندما كون في منتصف القرن الرابع عشر كان مؤلفا منهم . كما انهم استطاعوا ان يصلوا الى مناصب عديدة ، وكبيرة في الدولة ، في كل انحاء اوربا الغربية ، بل انهم تمكنوا من القبض على رأس السلطة السياسية في البلاد ، التي يسيطر فيها التنظيم المدني على الحياة السياسية ، كما هو الحال في « فلورنسة » مثلا ، حيث استطاع « جان دو مديتشه » المصرفي من الوصول الى الحكم . وجاء بعده ابنه « كوزمو » (١٤٢٩ - ١٤٦٤) الذي صفى المجالس القائمة ، وسيطر بهدوء على الحياة السياسية ، وعمل على تشجيع الادب والفن . وفي عهده بنى « برونوليسكي Brunelleschi » قبة فلورنسة الشهيرة ، وصنع « دونا تيلو Donatello » تمثال (داود) ونقش « لورنسوجيرتي » « باب الجنة » . ومن هذه الاسرة ، « لورنزو » الملقب « بالفاخر » الذي وقف في السياسة الاوربية على قدم المساواة مع ملوك اوربا ، والذي كان بلاطه موئلا للعديد من الانسانيين والفنانين . وقد قام الفنان « ميكيل انجلو » بأوائل اعماله في النحت ، في ذلك البلاط .

ج - التطورات الثقافية في اواخر القرن الخامس عشر :

لقد تأثرت الحياة الفكرية في القرن الرابع عشر كما رأينا بالازمات

الاقتصادية ، ومن البدهي ان تترك التطورات الاقتصادية ، والاجتماعية ، في
أواخر القرن الخامس عشر بصمات اصابعها على الفكر الاوربي المعاصر لها ،
ولا سيما منها تطور المجتمع خارج الاطار الاقطاعي للقرون السالفة . فقد حل
تدريجيا محل ثقافة الفروسية ، والدين ، التي بقي عالم النبلاء ورجال الدين محافظا
عليها ، ثقافة لادينية ، متأثرة بحياة المدن وبالبورجوازية بصفة خاصة .

فالبورجوازي لم يكن منفصما عن حياة الفكر ، ولا سيما انه وجد فيها
وسيلة لارتقائه : فقد مول المدرسة التي كان اطفاله يتلقون فيها المعارف التقنية
الضرورية لممارسة التجارة كالكتابة ، والحساب ، والمحاسبة ، كما ارسل ابنا ،
أو اكثر من ابنائه ، الى « مدرسة الحقوق » حيث كان يتخرج « مؤهلا » ، أي
مرشحا للمناصب الحكومية ، أو « للشوب » ، الذي كان مصدر ربح واحترام .

لقد تبنى البورجوازن بسرعة نمط حياة « الارستقراطي » ، التي كيفها
بدوره لذوقه الخاص . ولذا فانه كرس نفسه للادب والفن ، وسعى مع رفاقه
البورجوازيين لتكوين « جمعيات فكرية » . كما ان الاسر الغنية عملت على تزيين
الكنائس ، وتشجيع الفن ، والادب وقد تأثر الفن والادب بذوق بورجوازية
الاعمال ، واتجهما بدورهما نحو « الطبيعة » و « الواقعية » .

ان الصفة البارزة في الواقع لهذه الحقبة هو النمو المتسارع في كل البلدان
الاوربية للمؤلفات الادبية « باللغة العامية » كتراجم لمؤلفين قدماء اوصى بها
الامراء ، وقصص ومؤلفات مسرحية مخصصة لاوسع جمهور . وقد لاقت هذه
المؤلفات جميعها نجاحا كبيرا .

وفي انكلترا لم تعد الفرنسية اللغة الرسمية ، وذلك منذ عام ١٣٦٢ .
وكتب الشاعر « تشوسر » « قصص كاتربري » باللغة الانكليزية ، كما
ترجم « وايكليف » الكتاب المقدس اليها . وفي ايطاليا كتب « داتتي » منذ
١٣١٠ « الكوميديا الالهية » باللهجة الطوسكانية ، وكذلك فعل « بترارك »
(١٣٠٢ - ١٣٧٤) عند كتابة قصائده ، و « بوكاشو » (١٣١٣ - ١٣٧٥)
عندما قدم كتابه الشهير « الديكاميرون » . وفي المانيا ، واسبانيا ، والفلاندر ،

والبلاد الاسكندنافية . تضاعفت المؤلفات باللغة القومية ، التي هي لغة اغلبية السكان . فبلغت الشعب اذا كتب المؤرخين ، والشعراء والادباء ، ولم يشذ عن ذلك سوى بعض الكتاب ، الذين تابعوا تأليفهم باللغة اللاتينية . ويمكن القول ان زمن اللاتينية قد تلاشى بالنسبة لاغلبية الذين يكتبون ، ولاكثرية الذين يقرؤون . وقد رافق هذا التطور نحو الكتابة باللغة القومية « نشوء الدولة القومية » ممثلة بصفة خاصة باسبانيا ، وفرنسا ، وانكلترا .

والى جانب هذا التطور اللغوي ، فان الجامعات الاوربية « كجامعة باريس » مثلا تابعت تأدية دورها الهام الذي ظهر واضحا ابان « الانشقاق البابوي » . وان تأسيس جامعات أخرى في فرنسا ، مثل (اورلئان ، بوردو ، بورجو) وفي بقية انحاء اوربا ، (براغ ، فيينا ، كراكوفيا ، اوبسالا ، كوبنهاغن) وغيرها ، نزع من جامعة باريس قسما كبيرا من طلابها ، الا انه لم يضعف من سلطتها ونفوذها ، على الرغم من ان التعليم بقي فيها تقليديا .

ويمكن القول ان انتشار الجامعات في اوربا على هذا النطاق الواسع ، دليل على انتشار التعليم ، وفي الوقت ذاته عامل في دفعه قدما ، وتعميقه ، والخروج شيئا فشيئا من انماطه الدينية التقليدية ، وفتح لافكار الانسانيين الجديدة ، وهكذا بدأت المعرفة تأخذ طريقها الى الازهان . **ونما علم التاريخ ،** ووجد مؤرخون يعملون على تدوين الوقائع التي عاصروها ، وكانوا شهودا عليها . وأحاط بعض الامراء والملوك انفسهم بهؤلاء المؤرخين كي يتحدثوا بعظمتهم وعظمة بيتهم الحاكم ، وقدموا الرعاية لهم ، ولاسيما في فرنسا . ومع خدمة اولئك المؤرخين للسلطة الحاكمة حاول بعضهم ان يخرج هذه المعرفة من نطاق التزييف واللاواقعية ، ليوصلها في طريق الحقيقة والواقع ، وليفسر احداثها .

ومثلما تطور التاريخ ، تطور الادب ، ولقي الشعر الوجداني « والرمزي Allégorique » تقديرا كبيرا في البلاط . كما ان مؤلفات عدة ذات صفة « واقعية » ، وتخطب الجمهور الواسع ، اخذت تروج « ككتاب الف حادث جديد » مثلا ، الذي وجد فيه معاصرو الملك « لويس الحادي عشر » في فرنسا ، متعة كبيرة .

وقد لاقت « المعجائب Les Mystères » ، وهي فصول دينية كانت تمثل في ساحات الكنائس ، اقبالا ونجاحا كبيرين . كما ان « المسرحيات الهزلية » استقطبت الاوساط الشعبية .

ويمكن القول ان العصور الوسطى في قرونها الاخيرة ، قد رأت ولادة « الفكر الواقعي » المرتبط بحياة الانسان اليومية ومتطلباتها . ورأت ايضا ولادة « الفكر اللاديني » وهو فكر ، تحرر من ضغوط الكنيسة ، وقواعد الدين ، كما فهمت الكنيسة ، أو بالاحرى كما ارادتها ان تكون ، وهذا لم تعرفه القرون السالفة . الا ان هذا لا يعني ان « الفكر الجديد » لم يصنع لنفسه « قواعد جديدة » ، الا انها في هذه المرة كانت مستمدة من ذاته ، ومن تجربته بعد ان درس الفكر الماضي ، ومحصه ، ونقده ، وكشف خفاياه التي كانت غائبة عنه .

وقد دفعت الازمات الاقتصادية ، والمجاعات ، والشكوك الدينية ، الانسان نحو الفردية والاعتماد بالنفس . فاكتسب الانسان كرامة خاصة ، خارج المركب الاجتماعي . الذي كان يستمد منه قوته وقيمه في العصور الوسطى . فاذا كان الانسان من صنع الله ، فان العالم صنع للانسان . وقد اتى على لسان رائد الحركة الانسانية « بيك دولا ميراندول »^(١) قوله على لسان الله مخاطبا الانسان « لقد وضعتك في مركز العالم »^(٢) .

وجاء اختراع الطباعة لينضج « ثورة الفكر الجديد » وينشرها على

(١) مفكر ايطالي ولد في « ميراندولا » عام ١٤٦٣ وتوفي في فلورنسة عام ١٤٩٤ . ودرس في الجامعات الرئيسية في ايطاليا . ويعلم العربية والعبرية . وكان من العاملين في « الاكاديمية الافلاطونية » في فلورنسة . ونشر في روما عام ١٤٨٦ كتابه عن « النتائج الفلسفية والكابالية واللاهوتية » ، الذي احدث ضجة في اوساط الكنيسة الرومانية ، لانه سعى فيه لبيان حقيقة المسيحية التي رأى فيها . لقاء جمع صور الفكر الساعية لها . وقد سجن بعد اتهامه بالهرطقة ، وكان له تأثير كبير على المصلح الديني « سافونارولا » . وكان يؤمن بان الفكر الانساني هو منبع كل علم . وقد بقي اسمه رمزا للمعرفة الموسوعية

Grand Larousse Encyclopédique 12 vol. Paris 1960 - 1975. Vol. 8. P. 483.
Favier, op. cit. P. 258.

(٢)

اوسع نطاق . ففي القرن الرابع عشر دخل اختراع صيني الى اوربا ، وهو (الحفر على الخشب) . فكانوا يطبعون به صورا « دينية » ، ترافقها شروح لها . وحوالي عام ١٤٢٣ تخيل (لوران كوستر Laurent Coster) من مدينة « هارلم » في الاراضي المنخفضة ، امكان اقتطاع الاحرف المحفورة وتكوين نصوص مختلفة بها . الا ان « حنا غوتنبرغ » من مدينة ماينس الالمانية ، هو الذي جعل الاختراع الكبير عمليا ، بصنعه احرفا من خليط من الرصاص والاثمد ، بدلا من الخشب . وفي عام ١٤٤٧ طبع اول كتاب له ، وفي عام ١٤٥٢ طبع « الكتاب المقدس » الذي جعله شهيرا . وسرعة انتشرت الطباعة في اوربا . وفي عام ١٤٦٩ ، انشئت مطبعة في « الصوربون » . وفي الوقت نفسه ازدهرت صناعة الورق من الاقمشة البالية ، وذلك في انحاء كثيرة من اوربا . وتلقت الجامعات الاختراع بارتياح ، اذ وفر لها نصوصا صحيحة ، خالية من الاغلاط نسبيا ، كما سهل توافر المؤلفات بين ايدي الطلاب . وقد قام « الدومانوشو » Aldo Manuce في البندقية ، باصدار مجموعات فخمة من المؤلفات اللاتينية . واستخدم في طباعتها احرفا استمدتها من كتاب « النهضة الكارولنجية » ، وبذلك بعث الخط القديم . وسيطر « الخط الهومانيستي » — وهو تعديل لذلك الخط القديم — تدريجيا على الخط « الغوطي » السائد حتى هذه المرحلة ، حتى غدا هو الخط الاوربي الحديث .

ومن سمات الفكر الاوربي ايضا ، في القرن الخامس عشر ، انه شرع يستقي من المؤلفات اللاتينية واليونانية القديمة . وكان قد عرف بعضها عن طريق العرب المسلمين ، كمعرفته مثلا لاريسطو وايزوقراط ، وبطليموس . وجاءت هجرة علماء القسطنطينية امام تقدم الاتراك العثمانيين ، لتدعم اهتمام الفكر الاوربي بالحضارات الكلاسيكية ، والثقافة الهلينية ، وفلسفتها بصفة خاصة . وبذلك ارتسمت معالم « الحركة الانسانية » التي ستتكلّم عنها فيما بعد .

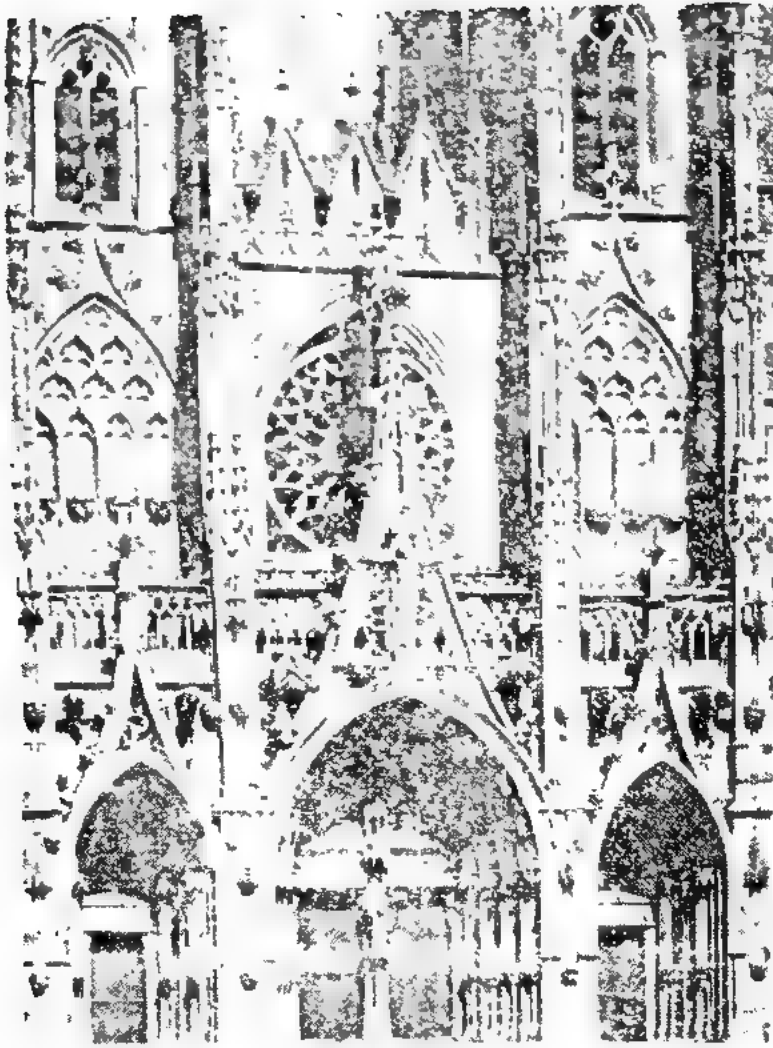
ذاك في ميدان الفكر ، اما في ميدان الفن ، فقد لعب تشجيع الامراء ، والملوك ، والبابوات ، والبورجوازيين ، للفنانين دورا هاما في انبثاق الفن الجديد وتفتحه . فحتى القرن الثالث عشر عمل الفنانون للكنيسة بالدرجة الاولى ، اما

في القرن الرابع عشر وفي الخامس عشر بالذات ، فقد مال الملوك والامراء واغنياء البورجوازية ، الى الحياة المترفة ، واقتناء القطع الفنية الثمينة ، والى تخليد ذواتهم بالصور ، فأخذوا يستخدمون الفن والفنانين لتحقيق هذه الغاية . فانشأ بابوات آفينيون ، وملوك فرنسا وامراؤها ، ودوقات بورغونيا ، القصور الضخمة ، وشيدوا الاضرحة المترفة الفخمة ، واغنوا مكتباتهم بمخطوطات مصورة رائعة . وتنافس امراء المدن الايطالية وحكامها ، كدودجان « البندقيه » ، و (آل قيسكوتي) ثم آل سفورزا في « ميلانو » ، و (آل مالاتيستا Malattesat) في « رميني Rimini » . و (آل مونفيلتر) في « اوربان Urbin » ، و (آل مديشه) في « فلورنسة » في تجميل قصورهم ومدنهم . وكذلك الامر في المايا ، وبوهيميا ، والاراضي المنخفضة .

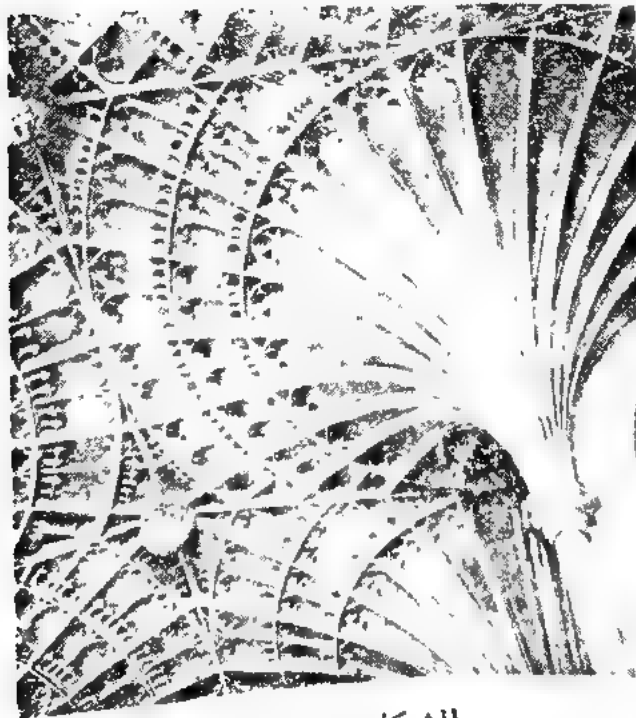
ومن سمات التطور الفني في ميدان العمارة في القرن الخامس عشر ، تطور بناء « الحصن الاقطاعي » . فعلى الرغم من احتفاظه بمظهره الخارجي كحصن ، الا ان فتحاته قد اتسعت ، وبصفة خاصة نحو الداخل ، وتضاعفت عناصره التزيينية ، واصبحت قاعاته اكثر سعة ، واشراقا ، وفخامة ، بعد ان زينت بالفريسكات (وهي الرسوم المباشرة على الجدران) ، أو بالسجاد .

وقد رأى القرن الرابع عشر في انكلترا ميلاد فن تزييني جديد ، اطلق عليه « الغوطي الملتهب G. Flamboyant » . ويتميز باستخدام خطوط منحنية شديدة التعقيد ، بحيث توحي للناظر بأنها اشبه باللهب ، كما يتميز بثقل العناصر التزيينية (انظر الشكلين (١) و (٢)) . ولكن بينما كانت انكلترا تترك هذا النمط الفني بسرعة ، ولا تبقي منه سوى القبب الكثيفة التزيين ، وبينما كانت تحل محله « النمط العمودي » ، الذي يعتمد على الخطوط الشاقولية الصارمة والرتيبة ، ويظهر هذا النمط في كاتدرائية كاتربري (الشكل ٣) ، فان فرنسا كانت تتلقفه بحماسة ، وتبثه الى البلدان المجاورة كالمانيا ، واسبانيا (انظر كاتدرائية بورغوس الشكل ٤) ، والبرتغال ، وحتى الى بوهيميا .

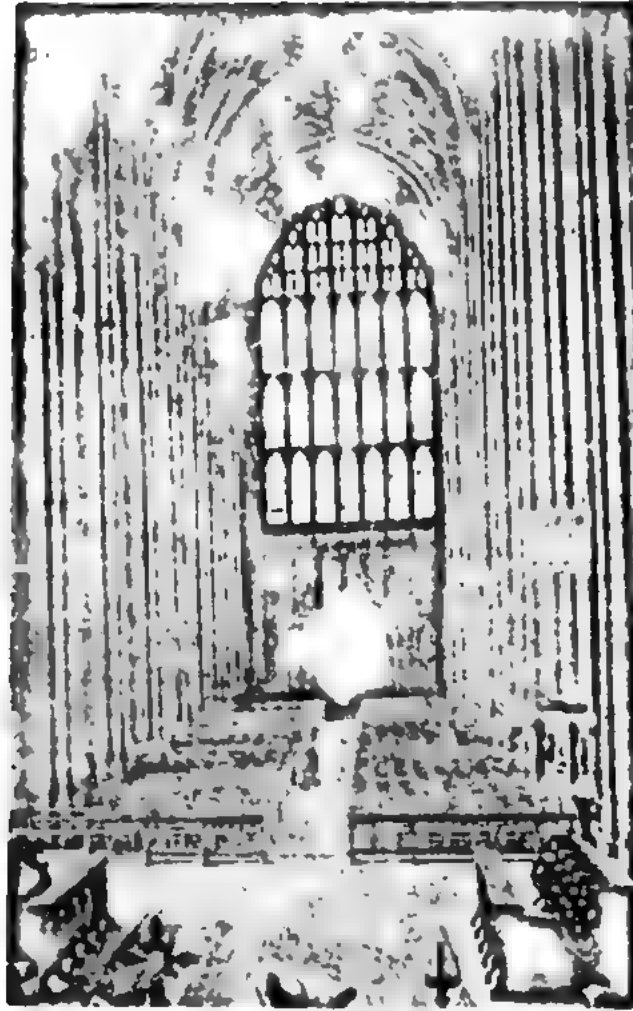
اما في ايطاليا ، فكان التأثير الفرنسي ضعيفا ، وعمل الفنانون المعمارليون فيها على استخدام هيكل البناء الغوطي ، مع نقل عناصر التزيين القديمة ، مثل



الشكل - ١
الفن القوطي الملتهب



الشكل - ٢
الفن القوطي الملتهب

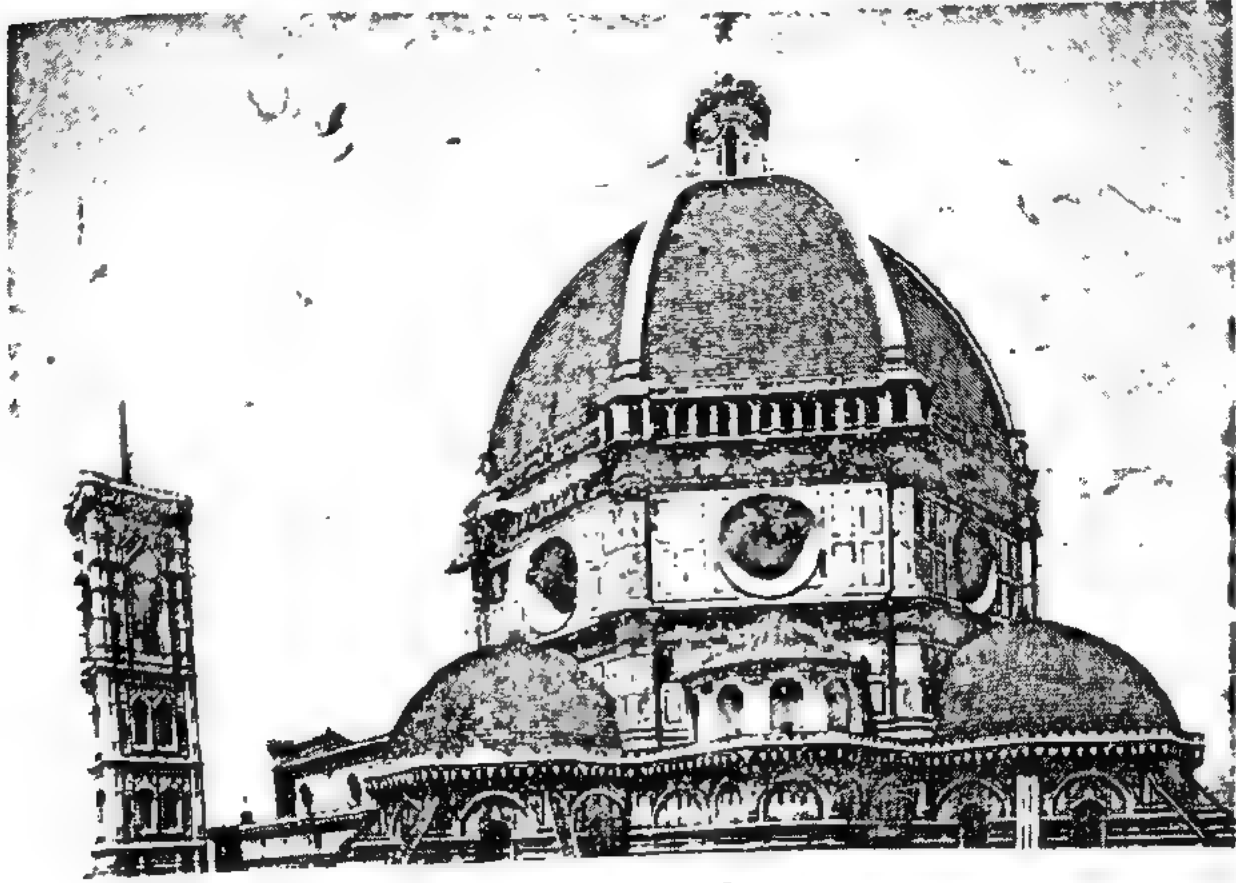


الشكل - ٣
النمط العمودي (كارتدرائية كانتربري)



الشكل - ٤
كالتدرائية بورغوس (اسبانيا)

(قبة كاتدرائية فلورنسة) التي بناها « برونيلسكي Brunelleschi » (الشكل هـ). ولم يلبثوا ان استوحوا من الابنية الرومانية . والتطور نفسه يشاهد في ايطاليا في فن النحت ، حيث تبدت الواقعية القاسية ، مزوجة ببعض الرقة المستوحاة

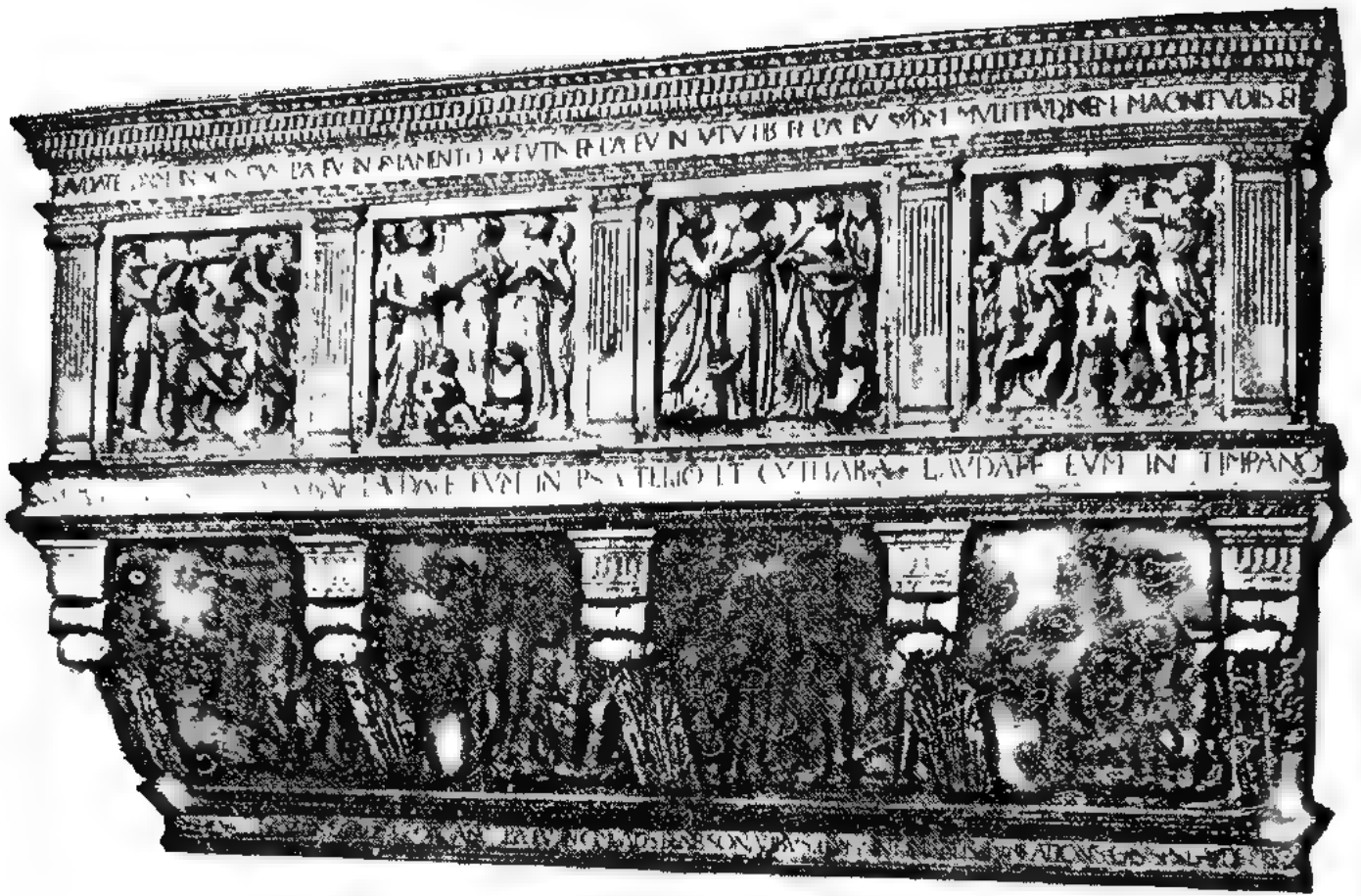


الشكل - هـ

قبة كاتدرائية فلورنسة

احيانا من الفن الكلاسيكي القديم (انظر الشكل ٦) . وهو منصة قضائية من عمل الفنان « لو كاديلاروبيا Luca Della Robbia » ، وهو فنان فلورنسي (١٣٠٠ - ١٤٨١) ، عمل في تزيين كاتدرائية فلورنسة .

وفي حقل الرسم من الفنون ، فقد بقي العاملون في هذا الميدان يعالجون « موضوعات دينية » . ولكنهم مزجوا فيها غالبا بعض الامور الواقعية ، المستقاة من الحياة اليومية . وبذلك شرع الفن يخاطب قلوب المؤمنين اكثر مما يتحدث الى عقولهم ، ويخرج تدريجيا من تلك الاطر المثالية البحتة التي احاط



الشكل - ٦ منصة قضائية

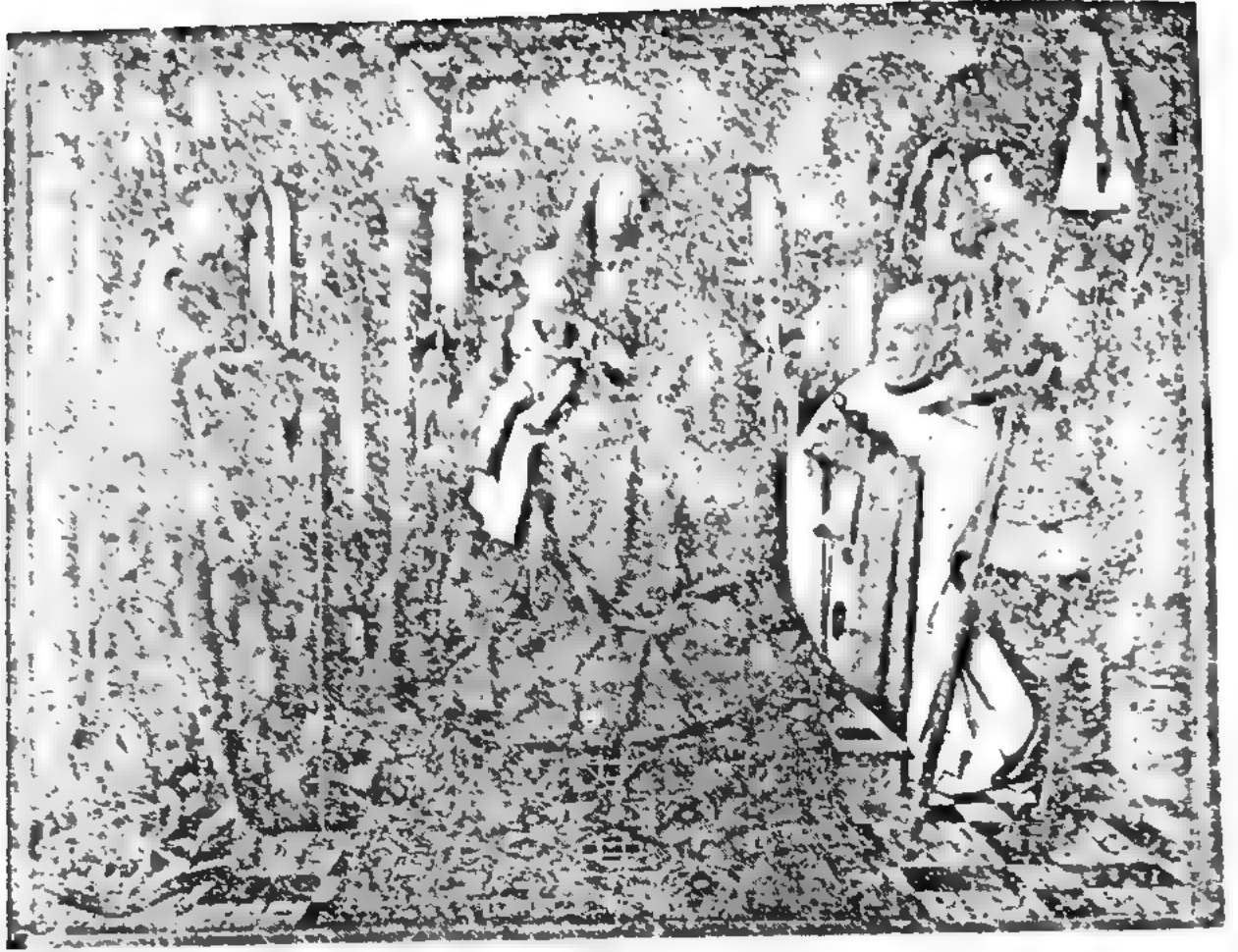
نفسه بها خلال العصور الوسطى • فالفنان « فان دير فايدن Van der Wyden » من الاراضي المنخفضة وضع في لوحته (البشري L'annonciation) (أي تبشير الملاك لمريم العذراء بحملها بالمسيح) بعض الادوات المنزلية ، بينما يرى احد اليهود في لوحة (بعث لازار) للفنان « جيراردو سان جان » وهو من الاراضي المنخفضة ايضا ، وهو يلتقط خياشيمه كي لا يشم الرائحة المنبعثة من الجثة • هذا في الوقت الذي اخذت فيه الشخصيات الدينية المصورة ، ترتسم في قسماتها العواطف الانسانية ، من الم ، وشفقة ، وحنان ، وسعادة •

واهتم الرسم الحديث ايضا بصور الاشخاص العاديين ، وبمشاهد الحياة اليومية • وكان هذا الاتجاه نتيجة التأثير بالبورجوازية المتنامية ، كما اشير الى ذلك سابقا • وهكذا شرع الفن كالادب ، يتحرر من الكنيسة ، ومن مصادر وجهه الدينية شيئا فشيئا ، ويتحول الى فن انساني واقعي وفردى • ولم تعد خلفية

الصورة طلاء مذهبا . كما كان عليه الامر في القرن الرابع عشر وانما خلفية واقعية محسوسة ، تمثل منظرا ومدينة ، أو داخلية منزل . ولم يكتف فنان بداية النهضة . بأن يكون فنانا متميزا في فنه ، ومجيدا له ، بل حرص على ان يكون مثقفا موسوعيا ، بل عالما . ولذلك فان الرسامين والنحاتين ، كانوا على صلة وثيقة بالمفكرين الانسانيين (الهومانيست) . وقد قاموا « بدراسة الفن القديم » بأبنيته ورسومه ومظاهر نحتة المختلفة . وقرأوا كل ماسطر عن هندسة البناء ، بل اتوا هم انفسهم في هذا المضمار . ولما كانوا قد اكتسبوا معرفة بالهندسة وبعلم المنظور . وبالتشريح وغيرها من العلوم ، فانهم استطاعوا ان يولدوا في نفس الناظر للوحاتهم الشعور بالعنق المكاني ، وان يربطوا صورة الانسان بالمكان ومظاهره الواقعية ، بعملية دقيقة ، وان يصوروا جسمه على حقيقته .

وقد نما في القرن الخامس عشر « الفن البورغونبي » في الرسم والنحت (نسبة الى بورغونيا وهي امانة اقطاعية الى شرقي فرنسا سادت الاراضي المنخفضة)، وتبنته فرنسا ، والمانيا ، وبلاد الشمال . ويتميز بالواقعية ، ويلاحظ على الشخصيات المصورة فيه ، بأنها ذات اجسام مستتة ، وقصيرة القامة ، والوجوه فيها صارمة الملامح ، والثياب ثقيلة وذات ثنيات عديدة ومعقدة . الا انه في اواخر القرن الخامس عشر ، بدأت تظهر بعض ملامح الرقة والنعومة في الاجسام المنحوتة ، وبعض الخفة في الملابس ، وكان هذا بصفة خاصة في فرنسا . واشهر مصوري هذه الحقبة في الاراضي المنخفضة « جان فان ايك » (انظر لوحته عذراء الكاهن فان دير بايل ، الشكل ٧) ، و « فان دير فايدن » و « جيرار سان جان » اما في فرنسا فقد تميز « جان فوكه » و « لوميتير دومولان »

اما في ايطاليا وفي حقل فن الرسم بالذات ، فقد تميز الايطاليون بـ « لفريسكه » (الرسم على الجدار) ، وبـ « اللوحة » . فمنذ القرن الرابع عشر كان الرسامون وبخاصة الفلورنسي « جيوتو Giotto » (١٢٦٦ - ١٣٣٦) ينتجون اعمالا فنية مركبة تركيبا متينا ، ومبرزة المواطف والاهواء الانسانية والحركة والركة ، اما في القرن الخامس عشر أو « الكوارتروشتو » - كما يسميه الايطاليون -



اشكل - ٧ عذراء الكاهن (جان فان ايك)

ف هناك مجموعة كبيرة من الفنانين استوحت رسومها من العصور القديمة اليونانية والرومانية . ومن اشهر هؤلاء :

« مازاتسيو Masaccio » (١٤٠١ - ١٤٢٨) ، الذي يبرز في فرسكاته تنهما دقيقا لعلم المنظور ، وللانسجام اللوني . « وبوتشيلي Botticelli » (١٤٤٤ - ١٥١٠) ، الذي اشتهر بلوحته (ميلاد فينوس) ، التي بطرح فيها رسم الجسم العاري والخلفية المكانية الواقعة . وبرز في القرن الخامس عشر ايضا من النحاتين في ايطاليا :

« دوناتيلو Donatello » (١٣٨٦ - ١٤٦٦) ، الذي مزج في نحته بين بساطة الفن القديم وفن العصور الوسطى ، واشهر تماثيله « يوحنا المعمدان » .

د - أوروبا السياسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر :

لا بد لنا قبل البدء بتاريخ أوروبا في العصر الحديث من تحديد مفهوم « أوروبا » ، لأنه مفهوم سائب ، يختلف مضمونه حسب المراحل الزمنية ، ولا سيما مضمونه السياسي .

ففي الشرق يبدو حد العالم الأوربي مذبذبا وغير مستقر . فإذا كان « فنلندة » قد ربطت « بالسويد » ، وإذا كانت البلاد « البلطيقية » الفينية بماضيها السكandinافي ، قد أخذت فرق الفروسية الألمانية تستكشف اجزاءها ، وتجوب فيها ، كالتوتونية وغيرها ، وإذا كانت موانئها « كدانزيج » و « ريفال » قد ارتبطت تجاريا بالعصبة الهانسية ، فإن خلف هذه المحطات المتقدمة ، وخلف « نوفغورود » و « اوكرانيا » البولونية ، تمتد ارض شبه مجهولة .

بصف متوحشة هي « ارض الموسكوف » . ومع ان الامير « ايفان الثالث » امير تلك الارض قد خضع لتأثيرات من عرب أوروبا ، وهي تأثيرات ايطالية وبابوية ، كان من نتيجها رواجه عام (١٤٧٥) من ورشة اسرة « باليولوغ البيزنطية » ، واعادة بناء « قصر الكرملين » ، وكنائسه في مدينة (موسكو) بيد فنانين ايطاليين ، وعلى الرغم من انه حرر امارته من نير تتر « القبيل الذهبي » ، الا ان سهوب الجنوب ، وشطآن البحر الاسود ، وبلاد الاورال كانت لاتزال في آسيا ، وآسيا بالمقابل ، وعن طريق الاتراك العثمانيين ، كانت هي الاخرى قد توضع في أوروبا ، وفي البلقان بالذات أي في اليونان ، وعلى طول مجرى الدانوب الاوسط ، ونهر السافا ، وقد تغلغت حتى الادرياتيك . فالحد الشرقي لأوروبا على هذا البحر كان « رانغوزا » و « سبالاتو » و « ايستريا » و « اراضي البندقية » . وهذا الحد لا تتجاوزه أوروبا الا بالجزر التي احتفظت بها البندقية في البحر الايوني ، والارخبيل الايجي .

اما في الجنوب فيتجاوز الحد الأوربي البحر المتوسط ليمتد ، حتى قبل سقوط غرناطة في يد فردينان وايزابيلا ، على « الريف المغربي » . فقد تجاوزت الصليبية الاسبانية الحدود الجغرافية الاصطلاحية ، ونظرت الى « الريف الافريقي »

كله على انه المتمم الافريقي للاندلس . والشيء ذاته يقال عن الساحل الاطلنطي للمغرب ، اذ ابتدا التوسع البرتغالي فيه منذ مطلع القرن الخامس عشر .

واذا كان الحدان الجنوبي والشرقي يبدوان مذبذبين ، فان الحدين الغربي والشمالي ثابتان ، وهما المحيط الاطلنطي في الغرب ، والمحيط المتجمد الشمالي ، وبحر البلطيك والشمال ، في الشمال .

وفي اوربا المرسومة بهذه الحدود في اواخر القرن الخامس عشر ، تبدت ظاهرة سياسية عامة نجمت تقريبا في كل مكان منها ، نتيجة التطور الاجتماعي والاقتصادي ، الذي أشرنا اليه سابقا . وهذه الظاهرة هي حلول « تنظيمات سياسية » يمكن ان تعطى اسم « دول » محل المجتمعات الاقطاعية القديمة . ففي كل مكان كانت الملكيات الوراثية تتجه نحو « الحكم المطلق » . وقد استفادت من الصراعات الدموية التي مزقت « ارستقراطية الارض » لتقيم محل المفهوم الغامض للسيادة الاقطاعية ، المفهوم الواضح والدقيق للدولة ، المستلهم من « الافكار الرومانية القديمة » . ولقد استندت هذه الملكيات الوراثية الى البورجوازيات التجارية لدعم موقفها ، اذ ان هذه البورجوازيات كانت بحاجة لسلطة قوية تؤمن لها النظام ، وتوفر لها السلام ، لتحقيق مشروعاتها ، وراثتها . وقد استطاعت هذه « الملكيات » ان تجعل قانونها فوق الاعراف والعادات المحلية ، وسعت الى ملء الارض التي يبدو ان الجغرافيا ، أو الطبيعة ، قد منحتها للامة التي يحكمونها ، وذلك بالحاكما ، وضمها ، ودمجها المناطق المشتبة عنها . أو بتعبير آخر سعت الى ايجاد « الوحدة الطبيعية القومية » في ممتلكاتها . وفي هذه « الدول القومية » عملت السلطة الحاكمة على تأكيد « المركزية الادارية » فمحت الحواجز الداخلية ، بينما رفعت عاليا الاسوار التي تفصل الدولة عن الدول المجاورة ، وجاهدت لتجعل من هذه الدولة كلا اقتصاديا ، اكثر اتحادا في اقسامه المختلفة ، واكثر انغلاقا على الخارج .

ان هذا المفهوم عن « الدولة الحديثة » في اوربا ، استوحته الدول الاوربية في الواقع من « النموذج الفرنسي » ، حيث كان التطور السياسي في فرنسا متقدما

على غيرها من البلاد الاوربية . ولكن بريق النموذج الفرنسي ، واهمية الدور الذي لعبته فرنسا ، والمكانة التي شغلها التاريخ الفرنسي في ادب العصر ، والتي لامراء فيها ، يجب الا تحجب حقيقة اخرى هامة وهي انه لا توازن زمني بين التطورات السياسية الداخلية في مختلف الدول ، في أواخر القرن الخامس عشر . فعلى الرغم من الاتجاه العام نحو « الملكية المركزية » فان هناك بعض مخلفات من القرن الماضي : كمقاومة القوى والتقاليد الفردية الخاصة ، بل ان بعض التشكيلات السياسية صممت بعناد على الا تموت . ان هذه المخلفات القديمة سيكون لها تأثيرها في الصراع الكبير بين الدول للسيادة على ايطاليا في أواخر القرن الخامس عشر .

أولا - اوربا الشمالية والوسطى :

١ - انكلترة : ان هزيمة انكلترة في حرب المائة عام كان لها نتائجها الخطيرة عليها : فتجارتها انحطت ، وطبقة النبلاء فيها التي افتقدت اسلاب الحرب السابقة، أخذت تستخدم لصالحها المغامرين الذين غدوا دون عمل . وبذلك اصبح لدى خمسين من أسر اللوردات تقريبا ، جيش حقيقي ، هذا بالإضافة الى من اصطنعواهم من اعضاء البرلمان ورجال القضاء . وبذلك اصبح هؤلاء النبلاء مسيطرين على مقاطعات كاملة. ويتمتعون بنفوذ كبير . الا ان هذه الارستقراطية كانت منقسمة الى احزاب متنافسة ، هدفها الوصول الى السلطة العليا ، والسيطرة على الملك . وقد كان الملك بيد اسرة « لانكاستر » ، الا ان اسرة « يورك » كانت تطمح بالتاج . ولذا سعى « ريتشارد يورك » لتحقيق هدفه هذا . فقامت بين عامي (١٤٥٣ - ١٤٨٥) حرب اهلية طاحنة في انكلترة ، هي « حرب الوردتين » اصطدمت فيها الاسرتان ، ومن تحالف مع كل واحدة ، من الاسر الارستقراطية السالفة الذكر . وسميت بهذا الاسم لان (اسرة يورك) اتخذت شعارا لها « الوردة البيضاء » و (اسرة لانكاستر) « الوردة الحمراء » . وبعد معارك عنيفة وقتلى كثيرين تمكن « هنري تيودور » ، وهو قريب للاسرتين ، ان يصل الى الملك تحت اسم « هنري السابع » . وبزواجه من اميرة يورك ، استطاع ان يوفق بين الاسرتين ، ويضع حدا لحرب الوردتين .

وكان من جراء هذه الحروب الاهلية ، ان ضعفت طبقة النبلاء في انكلترا . لمقتل العديد من افرادها اثناء القتال . وقد ساعد هذا الضعف . والرغبة احادهم للبورجوازية والفلاحين في الخلاص من الموضى والاضطراب . الملك هنري السابع ، في ان يحكم حكما قويا ، ويثبت « دعائم الملكية المركزية » . التي كانت فرنسا نموذجا لها . واتخذ مستشاريه من غير النبلاء ومن اوساط الفانونيين . وصادر املاك كثير من الاسر الاقطاعية الكبيرة ، مما اغنى الاسرة المالكة . كما ادخل انصاره في « مجلس اللوردات » ، فعدا اداة طيعة في يده .

اما « مجلس العموم » فقد وقف الى جانبه ، لانه سعى لاحقاق العدالة والسلام . وقد عمل على تنظيم « الغرفة المنجمة » التي كان عملها مراعاة الحكم الاداريين ، ومقارعة فساد المحلفين ، وقمع الثورات ، والمجالس غير الشرعية .

ومع ذلك فان انكلترا تبدو في أواخر القرن الخامس عشر اضعف قود من فرنسا : فهي صغيرة المساحة ، لاتشمل في الواقع سوى « جنوب بريطانيا العظمى » ، ووسطها ، أي ما يسمى « انكلترا » بالذات ، وبلاد الغال (ويلز) . اما **ايرلندا** فلم تكن مرتبطة بها في ذلك الوقت الا برباط ضعيف غير محدد . و « ايقوسيا » أو « سكوتلانده » في شمالها ، فكانت دولة مستقلة وسكانها مختلفون عن سكان انكلترا . وكان سكان القارة الاوربية ينظرون اليهم على انهم شعب متوحش يشبه تلك الشعوب التي وجدها المكتشفون في الاراضي الجديدة . فالى جانب الشعب نصف المتوحش في المرتفعات ، هناك المزارعون الفقراء ، والصيادون ، والبحارة المغامرون ، الذين يسكنون المناطق الساحلية ، والمدن ، والمنخفضات . وقد كان هؤلاء في صراع دائم مع جيرانهم الانكليز ، ولا سيما على الحدود . بل ان ملك سكوتلانده كان يقوم بغزوات مربحة على دولة الجنوب . وكانت طبقة النبلاء تقتدي بما يجري في فرنسا ، لابسوا بحري في انكلترا . وكانت اسرة « ستيوارت » هي الاسرة المالكة ، وقد ورثت التقليد القومي في معاداة انكلترا ، وكانت تبحث خارج الجزيرة عن تحالفات ضدها . ولذا فنها وضعت يدها في يد فرنسا ، وفي يد جميع خصوم آل (تيودور) ، الاسرة الحاكمة الانكليزية .

ألا انه على الرغم من ضيق مساحة الرقعة الانكليزية ، فانها كانت تحوي ثروات طبيعية هامة . ابرزها في تلك المرحلة « الصوف » . وقد استطاع الملك « هنري السابع » ان يمهّد لعودة التجارة . وجلبت له الرسوم الجمركية اموالا كثيرة أغنته عن فرض ضرائب اضافية ، وبالتالي عن دعوة البرلمان . وفي الواقع ان الهدوء الذي تمتعت به انكلترا في عهد « هنري السابع » ، انعش الرعي ، والزراعة . واخذت « المراعي » تدريجيا تحل محل « الحقول » لزيادة تربية الغنم ومنتوج الصوف . ولممارسة هذا الامر اخذ الملاكون يحيطون اراضيهم بأسوار من سياج ، أو اشجار ، وكان هذا بدء حركة « التسوير » . هذا وقد كانت انكلترا تملك ثروة كبيرة من الغابات ، وتستفيد من خشبها لصهر الحديد المتوافر عندها .

وفي الوقت ذاته نمت صناعة نسيجية هامة في انكلترا ، وكان جزء كبير من (الجوخ) المصنوع يباع بعيدا بواسطة « تجار انكليز مغامرين » ، اخذوا يسمعون كي يثبتوا سيادة انكلترا على البحار . وبذلك اخذ ملك انكلترا يحكم بمساعدة الطبقة المتوسطة ، التي ظهرت سيادتها على المجتمع الانكليزي آنذاك ، أي « الجنتري » Gentry ، وتضم اشراف الريف ، والبورجوازية التجارية .

٢ - الدول السكندنافية : ان قبائل « الفيكينغ » الشجاعة التي هزت اوربا في القرن التاسع كانت هي المعمرة لتلك الدول . واعتنقت الديانة المسيحية في مطلع القرن الحادي عشر ، وانشأت مؤسسات دائمة لها في « ايسلاندة » و « غروئنلاند » بل انها وصلت حتى امريكا الشمالية . ولقد كانت الممالك الثلاث النرويج ، والدانمارك ، والسويد ، تعيش من صيد السمك ، واستخراج الحديد ، والنحاس ، واستثمار الغابات ، والمراعي ، وزراعة القمح . وكانت « فيسبي » في جزيرة « غوتلاند » السويدية . تمثل احد المراكز المزدهرة جدا للعصبة الهانسية الجرمنية .

ألا ان الحروب المتواترة ، وثورات النبلاء فيها ، ودسائس التجار الالمان ، اضعفت هذه البلاد التي اجتاحتها الاوبئة : فقد فقدت النرويج نصف سكانها ، وخرجت المراكز في غروئنلاند من يدها ، نتيجة اندفاع الاسكيمو اليها .

وقد استطاعت ملكة الدانمارك والنرويج (مارغريت) ، وهي ملكة حازمة ، ان تخضع في عام ١٣٨٩ السويد اليها ، وان تقيم (اتحاد كالمار) بين الدول الثلاث عام (١٣٩٧) . الا ان هذا الاتحاد لم يدم طويلا ، بل شهد عدة مرات . وتحطم في اواخر القرن الخامس عشر سببا في الحروب العدائية بين السويد من جهة ، والمجموعة الدانماركية - النرويجية من ناحية أخرى . وقد حاولت السويد ان تحقق سيادتها القومية ، وتستقل ، الا انها ألزمت على الخضوع .

وقد كانت الملكية الدانماركية ، حتى في الدانمارك نفسها ، ملكية انتخابية ضعيفة ، تقودها طبقة النبلاء . وقد كان بلاطها منظما على النمط الالماني . ويساعدها في الحكم « مجلس الديت » المؤلف من الاشراف ، ورجال الدين . وهؤلاء الاخرون كانوا يملكون ثروة ارضية ضخمة تقدر بنصف الدانمارك . اما الفلاحون فكانوا اقرب الى افنان الارص ، ويعانون نوصاعا سيئة .

وقد حاول (آل اوند نبورغ) في الدانمارك ، ان يقووا سنطتهم المركزية في مطلع القرن السادس عشر ، بزعامة الملك « كريستيان الثاني » (١٥١٣ - ١٥٥٩) ، وان يقلدوا (آل قالوا) في فرنسا ، و (آل تيودور) في انكلترا . وقد استطاع « كريستيان الثاني » ان يحقق بعض النجاح ، ويمكن للاتحاد . الا ان « غوستاف فاذا » السويدي ثار عليه ، وانتخب ملكا على السويد عام (١٥٢٣) . وبذلك قضي على اتحاد « كالمار » ، وكونت السويد دولة مستقلة تدين بالمذهب البروتستنتي .

٣ - الامبراطورية الجرمنية المقدسة :

بينما كانت فرنسا وانكلترا تدعمان وحدتهما ، مع جميع الازمات التي كانت تجتازانها ، فان العالم الجرمني أو « الامبراطورية الجرمنية المقدسة » كانت تسير الى انقسام : فقد ضعف شأن الاباطرة حتى فقدوا كل سلطة لهم في ايطاليا ، حيث كانت سلطتهم تمتد مبدئيا على كل شمالها ، بل انهم غدوا لا يزورونها الا نادرا . وفي المانيا ، كان الامراء الاقطاعيون ، يتصرفون تصرف امراء مستقلين .

وزداد ضعف لامبراطورية بفقدانها بعض اراضيها : فمذن السويسريه
احدثت مع سكان الجبال . الذين يسيطرون على ممرات الالب . ليكونو
« الاتحاد الهلنسي » (سويسرة) . وتمكن السويسريون ان يحققوا استقلالهم
بن (١٣٦٥ - ١٤٧٦) ، بعد سلسلة من الانتصارات العسكرية . ولا بد
من الاشارة هنا الى امر يميز السويسريين ، ولعب دورا خطيرا في السياسة
الاوربية في مطلع العصور الحديثة ، وهو ان الفقر في الجبال السويسرية فد
حول السكان الى « جنود مرتزقة » ، فهناك دائما مايقارب ال (١٥٠٠٠) من
الرجال الصالحين للخدمة العسكرية في الخارج . وكانت هذه الخدمة العسكرية
المرتزقة أو « الرايسلاوف Reislaut » مؤسسة قومية ، لانها اساس من اساس
حياة هذا الشعب . وقد نظمت كنوع من احتكارات الدولة ، فهذه المؤسسة تبث
الى الحكومات المجاورة ، بتصريحات تتيح لها جمع جنود من لدنها ، مقابل
اجازات بتصدير القمح ، أو الملح ، اليها ، أو مقابل امتيازات تجارية .

وقد عرف « الجنود السويسريون » على انهم افضل مشاة العصر . وقد
اوجدوا اسلوبا في القتال متفوقا على اساليب الجيوش الاخرى ، مما اضطر هذه
الاخيرة الى تقليده . وعندما اسس الاسبان جيشهم فانهم اتبعوا النمط السويسري .
ولا يمكن فهم (الحروب الايطالية) التي ميزت العصور الحديثة ، اذا اهملت
الاشارة الى كتائب مشاتهم ، التي كانت اشبه بجدران متحركة مزبزة بالحديد
لا يمكن اختراقها (١) ، وكان سلاح هؤلاء المشاة الرماح .

ومن ناحية اخرى ، فان الاراضي المنخفضة انفصلت عن الامبراطورية لتدخل
في نطاق الدولة « البورغونية » ، التي كان يرئسها « فيليب لوبون » (١٣٩٦ -
١٤٦٧) ، الا انها ما لبثت ان عادت « لآل هابسبورغ » الاسرة الامبراطورية
الحاكمة .

الا ان « الامراء الالمان » ، في بقية اجزاء الامبراطورية ، لم يعرفوا كيف
يستفيدون من ضعف الامبراطورية ليؤسسوا دولا هامة . بل انهم انهكوا انفسهم

(1) Hauser et Renaudet, Les débuts de l'âge Moderne. Paris 1946 P. 45.

في صراعات لا نهاية لها ، جعلت بعضهم يجابه بعضهم الآخر . كما انهم لم يكونوا يملكون الوسائل التي تخولهم تكوين ادارة خاصة . وكان عليهم الاعتماد على طبقة النبلاء في حكمهم ، وبذلك كانت السلطة الحقيقية بيد الاقطاعيين .

وفي المانيا الشرقية حيث تأثرت تأثرا كبيرا بالطاعون ، استفاد هؤلاء الاقطاعيون من تلك الاوضاع ، ليجبروا الفلاحين الذين تبقوا بعد الوباء ، على العمل في ممتلكاتهم الواسعة . ان هذه « العبودية الجديدة » التي ظهرت بعد (١٣٧٥) ، انتشرت في شرق (نهر الالب) وفي البلاد السلافية .

وقد شرعت الامبراطورية الجرمانية المقدسة تنفس من ازماتها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فالتاج الامبراطوري^(١) كان للمرة الثالثة من نصيب (آل هابسبورغ) حكام النمسا . ولن يخرج من هذه الاسرة حتى سقوط الامبراطورية في مطلع القرن التاسع عشر على يد نابليون بونابرت . وقد وصل الى العرش في هذه المرحلة (فريدريك الثالث) (١٤٤٠ - ١٤٩٣) . ومع انه لم يكن لامعا ، الا انه استطاع خلال مدة حكمه الطويلة ان يجمع عن طريق الارث ، الى ارشيدوقية النمسا ، المقاطعات الالبية التي كانت لابناء عمه (ستيريا ، كارنتيا ، الكارنيول ، التيرول ، ومقاطعات اخرى في الصوآب والالزاس) . واهم من كل ذلك تمكن من تزويج ابنه مكسميليان من « ماري دوبرغونيا » وريثة « شارل الجسور » ، وبذلك وضع يده ثانية على الاراضي المنخفضة والفرائش كوتته .

وجاء بعده ابنه (مكسميليان) (١٤٩٣ - ١٥١٩) ، وكان اقوى شخصية من ابيه ولقد لعب دورا سياسيا هاما في السياسة الاوربية . وبزواج ابنه « فيليب لوبو » أي « الجميل » ، من وريثة « قشتالة واراغون » وهي « حنا المجنونة » ، ضمن ارثا ضخما لحفيده (شارل الخامس) أو شارلكان .

(١) كان الامبراطور الجرمني المقدس ينتخب انتخابا . فقد نص « الصك الذهبي » الصادر عام ١٢٥٦ ، بانه يعين من قبل منتخبين سبعة ، هم رئيس اساقفة كل من مايانس ، كولونيا ، تريف ، ملك بوهيميا ، كونت بالاتينيا ، دوق ساكسونيا ، مارغراف (كونت) براندنبورغ .

٤ - الدول المجاورة لالمانيا :

على طول حدود المانيا كان هناك دول قومية، استفادت من ضعف الامبراطورية لتقاوم التوسع الجرمني ومنها : بوهيميا ، وبولونيا ، وهنغاريا . فقد اعتنقت هذه البلاد المسيحية حوالي (١٠٠٠ م) ، الا انها بقيت متخلفة اقتصاديا وثقافيا ، وكان النفوذ الالماني فيها طاعيا ، ولكنها خلال القرنين الرابع والخامس عشر . تقدمت تقدما سريعا . وكان اثر الطاعون فيها اضعف مما كان عليه في اوربا الغربية ، لذا فقد تزايد عدد سكانها . وقد ارتفع هذا العدد في بولونيا بين (١٣٠٠ - ١٥٠٠) من مليوني نسمة الى خمسة ملايين ، وتضاعفت المدن . وفي الوقت ذاته بدأت تظهر بورجوازية قومية شرعت في منافسة التجار الالمان . وكان رؤساء هذه البلاد (بولونيا) في صدام مع الفرسان (التيوتون) : وهؤلاء ، طائفة المانية دينية عسكرية استعمرت الشواطئ الشرقية لبحر البلطيك بالقوة . الا ان بولونيا اتحدت مع (ليتوانيا) عام ١٣٨٦ ، نتيجة زواج ملكتها من غراندوق ليتوانيا ، فعدت دولة كبيرة تحت حكم اسرة « جاجلون Jagellon » . وتمكن ملكها الليتواني الجديد ، من هزيمة الفرسان التيوتون عام (١٤١٥) ، في معركة (تانبرغ) . واضطر هؤلاء ان يتنازلوا لبولونيا عن فتحة على بحر البلطيك ، مع ميناء (غدانسك « دانزيغ ») . وغدت عاصمة بولونيا (كراكوفيا) مركزا جامعيًا ، وفنيا ، مشعا .

اما بوهيميا فقد اسلفنا القول ان حركة « حنايس » الدينية - القومية قد اثارت مشاعر التشكيك ضد السيادة الالمانية ، وانه على الرغم من اقماع الحركة ، والثورة التي نجمت عن اعدام الزعيم الديني القومي ، فان كثيرا من « الهسين » ظل موجودا . واستطاع التشيك في عام (١٤٥٧) ان يضعوا على رأسهم زعيما قوميا تشيكيا هو « جورج بوديبيراد G. Podiébrad » . وبعد وفاته عام (١٤٧١) قبلوا حكم ملك بولونيا . وبذلك يتضح ان بوهيميا اخذت تخرج من نطاق الامبراطورية .

والتطور التقدمي ذاته يقال عن هنغاريا . فقد رأت تحت حكم « ماتياس كورفان M. Corvin » (١٤٥٨ - ١٤٩٠) ، وهو ابن « جان هونيادي » ، زعيم

- ٥٠ -

المقاومة المجرية ضد الاتراك العثمانيين ، حقبة من الرخاء ، بل انه اصبح لفترة من الزمن ملكا على بوهيميا ، واحتل « فيينا » . ولكن وفاته جاءت قبل فترة قصيرة ، من تمكن الاتراك العثمانيين من هنغاريا ، وفقدانها الاستقلال . واخيرا يمكن القول بالنسبة لهذه الدول ، ان قوة طبقة النبلاء فيها ، وتحركاتهم ، واضطراباتهم ، كانت تضعف في الواقع من شأنها ، ولاسيما ان لها حق انتخاب الملوك فيها .

ثانيا - دول البحر المتوسط الغربي والاطلس :

١ - شبه الجزيرة الايبيرية ان « حرب الاسترداد » المسيحية لم تترك للعرب المسلمين في اسبانيا منذ منتصف القرن الخامس عشر سوى « مملكة غرناطة » . الا ان انقسام شبه الجزيرة الايبيرية بين عدة ممالك ، والاضطرابات الداخلية في كل منها ، اعاقت لمدة طويلة متابعة حرب الاسترداد ، وانتزاع مملكة غرناطة التي بقيت قائمة وحدها بيد العرب المسلمين ، حتى نهاية القرن الخامس عشر . وقد كان يقتسم شبه الجزيرة الايبيرية في نهاية القرن الخامس عشر اربع ممالك مسيحية : ١ - النافار في الشمال على تخوم البيرنة ، وهي اكثر ميلا لفرنسا منها لاسبانيا .

٢ - الاراغون وتمتد شرقي اسبانيا ، على ساحل البحر المتوسط وحتى جبال البيرنة . وقد كانت في نهاية العصور الوسطى قوة متوسطة كبيرة تملك جزر الباليار ، وسردينيا ، وصقلية ، ويحكم امير اراغوني منها (نابولي) .

٣ - قشتالة : وتتركز في الهضبة الوسطى لشبه الجزيرة الايبيرية ، ويحدها شمالا وشمالا بغرب المحيط الاطلنطي ، وجنوبا مملكة غرناطة العربية ، التي كان يحكمها « بنو نصر » ، وغربا البرتغال . وقد كانت اوسع الممالك الايبيرية المسيحية واكثرها سكانا . وقد تأثرت تأثراً كبيراً بالحضارة العربية الاسلامية ، وبمخلفاتها . في المدن التي انتزعتها من يد العرب المسلمين ، ولاسيما في المنحنيين الفكري والاقتصادي . فأخذ سكانها المسيحيون يقلدونهم في طرق الاستثمار الزراعي الراقية ويعملون على منوالهم في استثمار المعادن كالحديد ، والشب ، والزئبق ، كما تم تهجين غنمهم بالغنم المغربي ، فنتج « غنم المينوس »

الشهير بصوفه . وبذلك أصبحت قشتالة منتجة كبيرة للصوف ، مما أدى إلى نشاط تجاري في موانئها ، ولاسيما في إشبيلية . وهذا ما رفع شأنها ، وأوصلها إلى زعامة شبه الجزيرة . وجاء زواج وريثة العرش القشتالي « إيزابيلا » ، من وريث عرش الأراغون « فردينان » في عام (١٤٦٩) ، ليهيئ الوحدة والعظمة الإسبانية . فقد كان للملكين الكاثوليكين ، كل في مملكته ، سياسة مشتركة ومتشابهة . فقد دعموا السلطة الملكية بامتدادها على الطبقة الوسطى ، المؤلفة من بورجوازية المدن ، ومن النبلاء الفقراء القشتاليين ، الذين يسمون « بالهيدالغو » ، وذلك تجاه كبار الأقطاعيين . ونظما منها قوة عسكرية بورجوازية ، قضت على من كان يث الذعر والارهاب منهم في جنابات البلاد . وسعى أيضا لاتمام وحدة إسبانيا السياسية ، بالقضاء على دولة « غرناطة العربية المسلمة » . واستطاع تحقيق ذلك في عام (١٤٩٢) ، وبذلك انتهت « حرب الاسترداد » .

بعد الوحدة السياسية أراد الملكان الكاثوليكيان إقامة « الوحدة الدينية » وقصدفعها في هذا الطريق اسقف « طليطلة » « خيمينس دوتسز نيروس Ximénès De Cisneros » ونتيجة هذه السياسة في التوحيد الديني المسيحي ، أصبح الشعب الإسباني ، الذي تعود التسامح الديني أبان الحكم العربي الإسلامي ، من أكثر شعوب أوروبا تعصبا . ووجد في هذا التعصب العنصر الأساسي لشعوره القومي (١) .

فقد عمد إلى اضطهاد اليهود ، ويقدر عددهم في إسبانيا آنذاك بـ (٢٠٠.٠٠٠) وكانت الدوافع لهذا الاضطهاد أولا ، ثم الطرد الكامل ، أسبابا اقتصادية أكثر منها دينية . فقد كانت الطبقة الوسطى الإسبانية المسيحية ضدهم ، من صناع في المدن ، أو مزارعين ، أو رعاة ، هذا بالإضافة إلى الدور الذي كانوا يلعبونه في الميدان الثقافي بصفاتهم أطباء ، أو ورثة للعلم العربي ، والاعريقي . وهكذا صدر في ٣٠ آذار ١٤٩٢ . القرار القاضي بإعطاء اليهود أربعة أشهر ، للاختيار بين النزوح عن الأرض القشتالية ، والأراغونية ، أو التعميد ، واعتناق الديانة المسيحية . ولم يترك للنازحين منهم أية وسيلة لانقاذ ما يملكون ، إذ منع إخراج المعادن الثمينة

(1) Hauser et Renaudet, op. cit. P. 23.

من اسبانيا • ولقد تم نزوح الذين لم يعتنقوا المسيحية الى ايطاليا ، والمغرب العربي ، والبرتغال (حيث عاشوا حتى عام ١٤٩٧ فقط) والى الامبراطورية العثمانية ، والاراضي المنخفضة •

اما بالنسبة « للعرب المسلمين » فقد ضمن الملكان الكاثوليكيان لهم في بادئ الامر احترام عاداتهم ، واملاكهم ، وقوانينهم ، وديانتهم ، بل حتى نوع من الاستقلال الاداري • ولقد احترم هذا الاتفاق بين الطرفين لخمس سنوات فحسب ، اذ كان هم « ايزابيلا » والاسقف « خميس » رجوع هؤلاء المسلمين عن دينهم واعتناق المسيحية • وبالفعل فانها اصدرت في (١٢ شباط ١٥٠٢) مرسوما بالنسبة لليون وقشتالة ، بطرد جميع من لا يعتنق المسيحية قبل ٣٠ نيسان • ولكن « التنصير القسري » ، لا يمكن ان يغير مافي النفوس من ايمان سابق • وهكذا اضيف الى اليهود ، المشكوك في مسيحتهم الجديدة ، « الموريسكوس Moriscos » ، الذين بقوا مخلصين لدينهم الاسلامي ، ويمارسون سراً شعائرهم الدينية ، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم • ولقد لاحقتهم الكنيسة ، والسلطات ، « بمحاكم التفتيش » ، واعدم ، وعذب العديد منهم • الا ان طرد المسلمين ، واضطهاد « المنصرين الموريسكوس » منهم ، نجم عنه « انتقاء الارض القشتالية الجافة والقاحلة » - كما اكد ذلك المؤرخ (هوزر)^(١) • فالمسلمون كانوا قد اخصبوها بوسائل الري المدهشة التي استخدموها ، والطرائق الزراعية التي استخدموها • فانحطت الزراعة بعد طردهم ، وكذلك الصناعة والتجارة ، وبخاصة ان المسيحيين الاسبان ، كانوا يحتقرون المهن والحرف التي كان يمارسها المسلمون واليهود • ولذا فان من يرد اسباب انهيار الاقتصاد الاسباني الى تدفق الذهب الامريكي وحده ، غير محق في قوله ، لانه ينسى أو يتناسى الحقيقة السالفة الذكر • بل ان « هوزر » يلح ، على ان تدفق الذهب والمعادن الثمينة الى اسبانيا من امريكا ، ليس هو سبب انحطاطها الاقتصادي ، وانما انحطاطها السالف الذكر كان هو الذي دفعها نحو البحث عن الثروات

(1) Op.cit. P. 24.

المعدنية (١) . فاسبانيا اذا بردود فعلها العنيفة ضد اليهود والمسلمين ، اوجدت نفسها « روحا مشتركة » ، وكان « التعصب الديني » فيها ، هو الصورة والرمز اللذين اتخذتهما الوطنية والشعور بها .

لقد اتبعت اسبانيا اثناء حكم فردينان وايزابيلا سياسة خارجية توسعية . وقد استطاع فردينان ان يدير بمهارة دفة السياسة ، وان يحقق مغايم عديدة في اوربا ، وفي شمال افريقيا ، وفي القارة الجديدة امريكا . ففي عام ١٤٩٣ اعاد له الملك « شارل الثامن » ملك فرنسا مقاطعتي « الروسيون » و « سردانيا » Cerdagne على طرفي البيرة . وفي عام (١٥٠٠) احتل « مملكة نابولي » بالاتفاق مع ملك فرنسا « لويس الثاني عشر » ، الذي خلف « شارل الثامن » ، كما انه اتبع به عام (١٥١٢) مملكة النافار .

وفي شمالي افريقيا ، تابع فردينان وايزابيلا سياستها الصليبية ضد المسلمين : فاستوليا على « مليلة » في المغرب الاقصى ، وعلى « وهران » في الجزائر عام ١٥٠٨ ، وعلى « طرابلس الغرب » عام ١٥١٠ . وقد ساعد الاسبان على اخراج المسلمين من اسبانيا ، والتوسع حتى طرابلس الغرب ، الضعف الذي كان يعانيه المغرب العربي المسلم ، من جراء الانقسامات والتناحرات الداخلية . فبلاد المغرب العربي كانت تتألف من ثلاث ممالك رئيسية : المرينية في المغرب الاقصى ومركزها (فاس) ، و « بني عبد الواد » في الجزائر ، ومركزها « تلمسان » و « الحفصية » في تونس . وكل واحدة كانت في حرب مع الاخرى ، هذا بالإضافة الى هجمات البدو انرحل المتكررة على المدن ، وتدفق النازحين من اسبانيا . اما المدن الرئيسية على الساحل مثل « سلا » و « الجزائر » و « تونس » و « صفاقص » ، فانها غدت مقرا للحركة بحرية جهادية ، ضد سفن الاوربيين ، انتقاما لما اصاب العرب في اسبانيا . وقد اطلق الاوربيون على هذه الحركة « صفة القرصنة » .

وجاء كشف « كريستوف كولومبس » لامريكا عام ١٤٩٢ لصالح اسبانيا ،

ليفتح امام الدولة الجديدة التي برزت موحدة سياسيا ، ودينيا ، آفاقا جديدة مزهرة . وعندما تزوج «فيليب هابسبورغ» عام ١٤٩٦ من ابنة الملكين الكاثوليكين « حنا المجنونة » ، فان ملامح السيادة على اوربا تبدت امام حفيدهم « شارل كان » واضحة .

٤ - البرتغال :

لقد عمل البرتغاليون على اخراج العرب المسلمين من اراضيهم منذ القرن الثالث عشر . ولم تلبث البرتغال ان مرت بمرحلة مشابهة لتلك التي مرت بها الدول العربية الاخرى ، مع تأثر اعمق بالحضارة العربية الاسلامية التي كانت قائمة على ارضها . وقد تمكن الملك « حنا الاول » (١٣٨٥ - ١٤٣٢) ان يثبت اسرة « آفيس Avis » على العرش . وكان ملكا مستنيرا ومثقفا ، وقد ساعده في الحكم اولاده الخمسة ، الذين كان من اشهرهم « هنري الملاح » (١٣٩٤ - ١٤٦٠) . وقد غدا هذا الاخير ، ابرز وجه في تاريخ حقبة الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر . وتحت تأثير العوامل الدينية ، والاقتصادية ، والفكرية ، وتحت ضغط النبلاء الصغار ، والفلاحين ، والتجار ، اندفع الملك في سياسة توسع وكشف لسواحل افريقيا . ففي مطلع القرن الخامس عشر وضع البرتغاليون قدمهم على ساحل المغرب الاقصى باحتلالهم « سبتة » عام ١٤١٥ . وبفضل جهود الامير هنري الملاح ، كانت ترسل بعثة الى الشاطئ الافريقي في كل عام ، لتتوغل اكثر فاكتر نحو الجنوب . وهكذا احتلت البرتغال « ماديرا » وجزر « الآصور » في عام ١٤٣١ ، وبلغ البرتغاليون جزر « الرأس الاخضر » في عام ١٤٤٥ . وبينما كانت هذه الجزر تستعمر استعمارا سكونيا ، وتزرع بقصب السكر ، كانت البعثات الاستكشافية تندفع ابعد فابعد . ففي عام ١٤٨٧ وصل « بارتلمي دياز » الى « رأس الرجاء الصالح » في النهاية الجنوبية لافريقيا ، هذا في الوقت الذي كانوا قد احتلوا فيه طنجة في عام ١٤٧١ .

ولم تكن سياسة البرتغال ، تجاه اليهود والمسلمين ، احسن حالا مما كانت عليه في اسبانيا . فقد اعطاهم الملك « حنا الثاني » (١٤٨١ - ١٤٩٥) عاما

واحد فقط لمغادرة البلاد أي في سنة ١٤٩٦ ، وذلك تحت طائلة الاعدام ، والمصادرة .
ولقد ازداد عدد « المنصرين » ، وقبض على الاطفال دون الخامسة عشر من
العمر ، وعمدوا بالقوة ، وشتتوا في المدن . وامام هذا الظلم قتل كثير من الآباء ،
اولادهم ، أو قتلوا انفسهم . وسادت موجة من الارهاب عام ١٥٠٦ ، حتى انه ذبح
في ثلاثة ايام فقط ما يقدر بألفين من « المورييسكوس » و « اليهود المنصرين » .
ومنذ هذا التاريخ بدأت الهجرة الاسلامية واليهودية الكثيفة من البرتغال .

اما تاريخ البرتغال في عهد الملك « مانويل الاول » (١٤٩٥ - ١٥٢١)
فيجب متابعته خارج البرتغال نفسها ، وعلى شواطئ المغرب الاقصى ، حيث
استت في مطلع القرن السادس عشر ، عدة حصون على الشاطئ الاطلنطي لبلاد
المغرب ، مثل « موغادور » و « اغادير » و « صافي » وغيرها . وكذلك على
شواطئ افريقيا الغربية ، والشرقية ، وفي المحيط الهندي . ففي عهد هذا الملك وصلت
البرتغال الى اوج قوتها ، وتوصلت الى كشف طريق الهند عبر رأس الرجاء
الصالح ، وانشأت امبراطوريتها .

ب - فرنسا :

خرجت فرنسا من حرب المائة عام منهوكة القوى ، الا انها تمكنت من استعادة
قوتها الاقتصادية تدريجيا . فقد شجع الملك « لويس الحادي عشر » على اقامة
صناعات جديدة في فرنسا كالطباعة ، وصناعة الحرير في ليون ، وتور ،
وصناعة الجوخ في روان ، لينافس الصناعة الانكليزية الصوفية ، وليوفر على
فرنسا شراء سلع غالية الثمن من الخارج . كما انه شجع الاسواق ، والمعارض
الداخلية ، وحض على التجارة الخارجية .

ومع ذلك فقد بقيت فرنسا تعاني مشكلة اساسية ، وهي قوة الامراء وتهديدهم
السلطة الملكية : فهناك (دوق بورغونيا) ، و (دوق بريتانيا) ، اللذان كانا
يحكمان مسـتـقلين دويلتيهما ، وبضاف اليهما (امراء آنجو) ، و (دوقات اورلئان) ،
و (بوربون) الذين جعلوا من اقطاعاتهم دولا حقيقية . ولما كانوا كلهم امراء
عريقين في النبالة ، فانهم ادعوا حق سيادة « مجلس الملك » . وفي الواقع لقد كان

كل واحد منهم يريد ان يستخدم موارد المملكة لصالحه . ومن ثم فان مدة حكم الملك « لويس الحادي عشر » (١٤٦١ - ١٤٨٣) كانت صراعا طويلا ضد هؤلاء الامراء . ولم يعمل الملك على مهاجمتهم عسكريا . وانما فضل المفاوضات معهم . وازجاء الوعود لهم . وبث التفرقة بينهم . وخلق الصعوبات الداخلية لهم في اماراتهم . ونسج المؤامرات ضدهم . كما ينسج العنكبوت خوطه . ولذا استحق لقب « العنكبوت العام » Universelle Aragne . ونجح اخيرا في ان يكسب لمملكته فرنسا عددا من المقاطعات . حصل على بعضها عن طريق الارث مثل « الانجو » و « البروفنس » . وبعد وفاته تزوج ابنه « شارل الثامن » من دوقة بريتانيا . وبذلك مدت اسرة « بوربون » الحاكمة في فرنسا نفوذها تدريجيا على كل فرنسا واستطاع الملك ان يكون له مركزا كبيرا في اوربا في اواخر القرن الخامس عشر . ويرجع الفضل في هذا النجاح الى تأييد الشعب له ، والى موارد المالية الوفيرة من الضرائب ، والى الجيش الدائم ، الذي اصبح تحت تصرفه باستمرار . ولم يعد الملك بحاجة لدعوة « الجمعية العمومية » ليأخذ موافقتها على فرض الضرائب . فملك فرنسا غدا ، في اواخر القرن الخامس عشر ، ملكا لا يرتبط باحد الا بالله . وبنفسه . اما المجتمع الفرنسي في اواخر القرن الخامس عشر فكان يختلف كثيرا عن المجتمع الاقطاعي السابق :

الفالانكروس كانت له مكانة كبيرة ، وتأثير قوي ، للثروة التي كان يملكها ، الا ان الكنيسة كانت خاضعة للملك . وفي الارياض لم يعد الاقطاعيون اسيادا ، وانما مجرد ملاكين . وبذلك اصبحت الرسوم الاقطاعية التي كانوا يتقاضونها من الفلاحين عبئا اكبر عليهم ، لانهم لا ينالون مقابلها الحماية من هؤلاء الاقطاعيين كما كان عليه الامر في الماضي . وشرع موظفو الملك من البورجوازية يكتسبون صفة النبالة ، التي اطلق عليها « نبالة الثوب » . وقد وجدت الطبقة البورجوازية في هذه الوظائف وسيلة للاغتناء ، وشراء الاراضي ، والارتفاع الى مستوى الاشراف . هذا المجتمع الجديد كان يرمي بثقله كله على الفلاحين . فقد استطاعت الطبقات الحاكمة ان تعفي نفسها من الضرائب ، وان تحملها للشعب . ولكن الكفاح الطويل ، والمرير ، ضد الانكليز ، قد خلق في فرنسا شعورا حديثا ، كان قوة كبيرة لها وهو

« الشعور القومي » . ولقد ارتبط هذا الشعور ، ارتباطا وثيقا بالاخلاص والولاء ،
للاسرة الحاكمة . ومن ثم فقد كان الفرنسيون يتفاخرون باستقلالهم ، ووحدتهم ،
ويعبرون عن هذه الوحدة ، بالشعارات التالية : « دين واحد ، وقانون واحد .
وملك واحد » .

ولقد حاول الملك (شارل الثامن) من (١٤٨٣ — ١٤٩٨) ، الذي كان
يحلم احلاما توسعية صليبية كبيرة ، تودعه الى ملكية القدس ، ان يستغل هذه
القوة لتأسيس امبراطورية ضخمة . ولذا فهو الذي افتتح العصر الحديث الاوربي بـ
« الحروب الايطالية » وشجعه على ذلك بالذات انه كان يمتلك مدفعية قوية . اذ ان
صناعة المدافع كانت قد تقدمت تقدما كبيرا في فرنسا . وهذا ما سيشار اليه عند
الحديث عن (الحروب الايطالية) .

الدولة البورغونية :

وسميت كذلك نسبة الى « مقاطعة بورغونيا » ، وتقع الى الشرق من فرنسا .
وقد استطاع اميرها « فيليب لوبون » (١٤١٩ — ١٤٦٧) ، ان يضم اليه ،
ويوحد ، جميع البلاد التي تشكل « الاراضي المنخفضة » . وكان ينظر الى نفسه
على انه امير فرنسي ، وانه يأتي في المرتبة الاولى من امراء فرنسا . ومع انه لم
يتخذ لقب ملك ، الا انه بسلطته وبمظاهر بلاطه الفخمة والمترفة ، كان يتشبه الى
حد كبير بملك فرنسا . بل انه اسس في عام ١٤٣٠ « فرقة الشعلة الذهبية » ليجمع
الفرسان حوله .

وقد حاول خلفه « شارل الجسور » ان يوحد املاكه في دولة واسعة ، بين
فرنسا والامبراطورية المقدسة . الا انه اصطدم بملك فرنسا « لويس الحادي عشر »
ووقعت الحرب بينهما . ولقد سعى سعيًا حثيثا لدى الامبراطور ، لينال لقب « ملك » ،
الا انه اخفق . وعند وفاته هاجم لويس الحادي عشر ممتلكات بورغونيا . وكانت
ابنة « شارل الجسور » ، (ماري دوبرغونيا) ، هي الوريثة الوحيدة له ، وقد
تزوجت من « مكسمليان هابسبورغ » . وقد احتفظت فرنسا من هذه الامارة بـ
« بيكارديا » و « دوقية بورغونيا » ولكن وريثة الامارة حملت الى زوجها مهرا ،

« الاراضي المنخفضة موحدة » ، و « الفلاندر » ، الذي كانت تنظر اليها فرنسا على انها جزء منها .

ولقد اشرنا سابقا عند الحديث عن الامبراطورية المقدسة ، ان زواج « فيليب لوبو » ابن الامير مكسمليان من زوجته « ماري دوبرغونيا » ، بـ « حنا المجنونة » وريثة عرش قشتالة واراغون ، فتح الباب لابنهما — أي لحفيد مكسمليان — وهو « شارل الخامس » كي يرث امبراطورية ضخمة .

ف « شارل » هذا الذي سيصبح امبراطورا على الامبراطورية المقدسة . هو امير بورغوني الاصل . وعندما اصبح ملكا على اسبانيا ، فانه لم ينفك ابدا عن كونه « فلمنكيا » (أي من الاراضي المنخفضة) ، بل حاول حتى عام ١٥٢٩ اعادة تكوين ملك اجداده ، واستعادته . وقد ساعده في ذلك مستشارون من الاراضي المنخفضة .

ج - ايطاليا :

لقد كانت نقطة مشعة في الخريطة الاوربية ، ومركز جذب ترنو اليه جميع الشعوب في اوربا . فايطاليا بالنسبة اليهم لم تكن ككل البلاد : اذ اليها تنهب قلوب المسيحية بصفتها مركز البابوية ، والمحج الموعود ، كما ان فيها العاصمة السابقة للامبراطورية الرومانية الزائلة ذات الحضارة الرائعة . هذا بالاضافة ، الى انها كانت متقدمة على جميع اوربا بحياتها الاقتصادية ، وتشكيلاتها الاجتماعية ، ومنظماتها السياسية المتنوعة ، وحياتها الفكرية الحرة والرفيعة . الا ان ايطاليا كانت تعاني مأساة ، لانها لم تستطع ان تكون « وحدة سياسية واحدة » تتمكن فيها القوى السابقة من تحقيق ذاتها ، وابعادها المختلفة . فايطاليا كانت « مصطلحا جغرافيا » فحسب ، وهي منقسمة الى عديد من الدويلات : ففي الوسط والشمال ، كونت « المدن » جمهوريات مستقلة ، يتزعمها كبار التجار ، وبعض هذه المدن القوية مدت سيطرتها على المناطق المجاورة . الا ان الاسر الكبيرة للتجار ، كانت في صراع فيما بينها على السلطة . وصغار الحرفيين والعمال في ثورة ، للبؤس الذي كانوا يعيشونه ، نتيجة الازمات الاقتصادية ولحرمانهم من الحقوق السياسية .

وكانت نتيجة هذه الحروب الاهلية ، تخريب المؤسسات الديمقراطية لهذه المدن . وحلول نظام الحكم الفردي فيها ، أو الدكتاتوري . وقد كانت هذه (الجمهوريات) أو (الدكتاتوريات) في حرب شبه مستمرة فيما بينها ، مستخدمة جندا مرتزقة غرباء ، يقودهم قادة منهم أي « الكوندوتيري » .

وفي نهاية القرن الخامس عشر ، وبعد بعض رص نسبي للصفوف ، فاز ايطاليا بقيت منقسمة الى عدة دول ، هي :

في الجنوب تقوم « مملكة نابولي » وتحكمها اسرة اراغونية ، فهي اذا مستعمرة اسبانية كما ان « صقلية » و « سردينيا » كانا تتبعان ايضا لاراغون . وفي الشمال تكونت امارة قوية هي دوقية بيه مون وسافوا التي امتدت على منحدرات جبال الالب في الشمال الغربي من ايطاليا . وفي الشمال الشرقي انتصبت « البندقية » ، وقد حكمتها ارستقراطية مدت سيطرتها على الارض الصلبة ، وعلى الشاطئ وجزر دالماشيا . وفي « دوقية ميلانو » قام آل « فيسكوتتي » أولا ، ثم آل « سفورزا » ، بتشجيع الزراعة في سهل لومبارديا ، وتنمية صناعة الحرير حتى غدت الدوقية قوة اوربية . هذا في الوقت الذي ضعف فيه شأن « جنوة » ، نتيجة تقدم الاتراك في البلقان ، والانقسامات الداخلية التي كانت تعانيها . وفي الوسط هناك « دول البابا » تحت زعامة البابا ، وعدد من « الامارات الصغيرة » الا ان فلورنسة كسفتها جميعا بقوتها ، وازدهارها الاقتصادي ، والفني ، والفكري ، تحت زعامة اسرة مصرفية كبيرة هي « آل مديتشة » واميرها الكبير « لورانزو الفاخر » .

الحروب الايطالية (١٤٩٤ - ١٥٥٩) : ان انقسامات الايطاليين على انفسهم ، ومطامع ملوك فرنسا ، واراغون ، باباطاليا الغنية ، والمتقدمة حضاريا ، كانت في الواقع هي الدوافع الكبرى للحروب الايطالية . فالملك « شارل الثامن » ملك فرنسا ، كان يحلم بتأسيس امبراطورية واسعة ، تمتد الى جنوب ايطاليا ، فقبرص ، فبيت المقدس ، بل والقسطنطينة ، بعد ان بطرد الاتراك العثمانيين منها (١) . وحدث ان ابن عمه « دوق دانجو » كان يدعي حقوقا وراثية له على عرش نابولي ،

(1) Hauser et Renaudet, op. cit. 72 - 73.

فعند وفاته وانتقال ملكه الى ملك فرنسا ، قام هذا الاخير بالمطالبة بحقوق الارث على المملكة الايطالية في الجنوب . وليحقق شارل الثامن احلامه ، فانه قام بتنازلات عن مقاطعات فرنسية ، لكل من فردينان ملك اراغون ، وللإمبراطور مكسمليان الامبراطور الجرمني المقدس . وتقدم في عام ١٤٩٤ ، على رأس جيش قوي الى ايطاليا ، ودخل نابولي منتصرا في عام ١٤٩٥ . واثناء مروره بروما اخذ من البابا الامير « جم » ، اخي السلطان العثماني « بيازيد الثاني » ، وكان رهينة لديه . وعند وصوله الى نابولي توفي الامير التمس ، ويقال قتل بالسهم .

الا ان « شارل الثامن » لم يتمتع طويلا بهذا النصر ، فقد اخل وجوده في ايطاليا بالتوازن ، الذي كانت الدويلات الايطالية تسعى لايجاده فيما بينها . ولذا فقد تشكل تحالف من البابا ، وفلورنسة ، وميلانو ، والبندقية والملكين الكاثوليكين ، ضده ، سمي « بالعصبة المقدسة » . وقد وضعت هذه العصبة اهدافا لها : الدفاع عن المسيحية ضد الاتراك العثمانيين ، واعادة الهيبة الى كرسي البابوية ، والدفاع عن حقوق الامبراطورية الرومانية المقدسة^(١) . وعندما شعر ملك فرنسا بالخطر يتهدهده فانه اسرع لمغادرة نابولي . وشق طريقه عائدا الى فرنسا ، بعد ان تمكن من الانتصار على اعدائه عسكريا في معركة « فورنو Fournoue » في شمال ايطاليا ، في ٦ تموز ١٤٩٥ ، وضاعت بذلك منه مملكة نابولي .

ولم تنته المشكلة الايطالية وحروبها بعودة شارل الثامن الى مملكته ، بل ان الملك « لويس الثاني عشر » الذي خلف « شارل الثامن » على العرش (١٤٩٨ - ١٥١٥) ، ادعى هذه المرة حقه في وراثة عرش « ميلانو » عن طريق جدته من آل فيسكوتتي . وبالفعل فانه احتل الدوقية ، واسر اميرها عام ١٥٠٠ . ثم اتفق مع « فردينان داراغون » لاقتسام نابولي التي احتلها الطرفان بسهولة ويسر . الا ان الاختلاف قام بين الفرنسيين والاسبان ، ونجح هؤلاء الاخرون في طرد الفرنسيين منها في عام ١٥٠٤ ، وتنازل الملك لويس عن حقوقه فيها .

ولكن طموح البابا « جول الثاني » (١٥٠٣ - ١٥١٣) ، اجج الصراع ثانية

Hauser et Renaudet, op. cit, P. 72 - 73.

(١)

في ايطاليا • فقد نظم تحالفا ضد البندقية (عصبة كامبرة عام ١٥٠٨) ادخل فيه فرنسا ، والامبراطور مكسمليان ، وفردينان داراغون • وهدف البابا تأديب البندقية لتملصها من نفوذه ولا تتزاع ممتلكاتها البرية منها^(١) • وقد هاجم الفرنسيون البنادقة وانتصروا عليهم في معركة « اغنادل » عام ١٥٠٩ • واقتسم الحلفاء املاك البندقية على البر الايطالي • ولكن البابا ما لبث ان خشي ازدياد النفوذ الفرنسي ، والامبراطوري في ايطاليا فخرج من العهبة ، وانضم الى البندقية • واستطاع أن يكون تحالفا ضخما ضد فرنسا ، دخل فيه اصدقاؤها بالامس : اسبانيا والامبراطور ثم استقطب الدول الايطالية ، وانكلترا ، والسويسريين • وعلى الرغم من انتصارات القائد الفرنسي (غاستون دوفوا) في بادىء الامر ، فان فرنسا لم تقو على التحالف الكبير ، ولذا فقد انهزمت في معركة (نوافارة) عام ١٥١٣ ، التي تم فيها الصلح بين الاطراف المتنازعة وفقدت فيه فرنسا ايطاليا الشمالية •

الا انه ما ان وصل الملك فرانسوا الاول (١٥١٥ — ١٥٤٧) الى العرش حتى عادت الاحلام الايطالية تعاوده • فاجتاز جبال الالب عام ١٥١٥ ، واعاد فتح ميلانو ، بعد ان انتصر انتصارا ساحقا على المرتزقة السويسريين في معركة « مارينيان » (١٥١٥) • ووقع مع البابا (ليون العاشر) « اتفاق بولونيا » الذي يعترف فيه البابا بحق الملك في اختيار الاساقفة وكبار رجال الدين • كما وقع مع السويسريين ما يسمى « بالصلح الدائم » ، وبموجبه يسود السلام بين سويسرة وفرنسا ، وتقدم سويسرة لفرنسا ما تريده من الجنود المرتزقة • وقد بقي هذا الاتفاق قائما حتى الثورة الفرنسية •

وبدا ان توازنا قد قام في ايطاليا : فملك فرنسا ساد الشمال ، وملك اسبانيا ساد الجنوب • الا ان الحروب الايطالية ستعاود لهيبتها في القرن السادس عشر ، وضمنها الصراع بين فرنسا والامبراطورية الرومانية المقدسة ، ممثلة بالصراع بين (فرانسوا الاول) والامبراطور (شارلكان) •

(1) W. Langer, An Encyclopedia of World History U.S.A. 1948
P. 393 - 394.

ثالثا - علاقات أوروبا بالعالم الخارجي :

٢ - مع الدولة العثمانية : في اواخر القرن الثالث عشر ، كانت آسيا الصغرى منقسمة بين عدد من الدويلات الصغرى التركمانية ، التي كان من اهدافها الاولى القيام بالجهاد ضد الامبراطورية البيزنطية واعداء الاسلام . وقد استطاعت احدهما بقيادة زعيمها « عثمان » ان تستولي على « بورصة » في عام ١٣٢٦ . وتدرجيا توسع الاتراك العثمانيون في آسيا الصغرى ، وعلى الارض الاوربية ايضا ، منتزعين من بيزنطة الاراضي التي لا تزال تمتلكها . وفي عام ١٣٨٩ ، سحقوا الجيش الصربي في معركة « كوسوفو » . وعندما تداعى الاوريون الى صليبية جديدة لدرء الخطر الاسلامي التركي الجديد ، فان العثمانيين حطموا قوات هذه الحملة الاوربية المشتركة في معركة « نيكوبوليس » في عام ١٣٩٦ .

وفي هذا الوقت كان (تيمورلنك) زعيم التتر ، قد خرج من آسيا الوسطى واحتل بلاد فارس ، والعراق ، وشمال الهند ، وتقدم نحو آسيا الصغرى . وهزم الاتراك العثمانيين في معركة (انقرة) عام ١٤٠٢ ، واسر سلطانهم (يازيد الاول) .

الا ان العثمانيين عاودوا النهوض ، واستعادوا ما فقدوه . وقد عمد القائد المجري الشهير « جون هونيادي » على ايقاف تقدمهم امام « بلغراد » ، كما عرقل تحركهم في البانيا « اسكندر بك » . الا ان العثمانيين كانوا قد صمموا على الخلاص من الدولة البيزنطية ، ولذا فان السلطان « محمد الثاني » قام بمحاصرة « القسطنطينية » ، وبعد شهرين من الحصار فتحت المدينة عنوة (٢٩ ايار ١٤٥٣) وقتل الامبراطور البيزنطي الاخير . وبذلك زالت « الامبراطورية الرومانية الشرقية » من الوجود بعد ان عاشت الف عام ، بعد سقوط الدولة الرومانية الغربية .

وعمل السلاطين العثمانيون خلال السنوات التالية ، أي في القرن السادس عشر ، على اخضاع الامارات الرومانية ، وهنغاريا ، كما عملوا على ضم سورية ، ومصر ، والعراق ، وشبه الجزيرة العربية ، كما مدوا نفوذهم الى شمالي افريقيا ،

وسادوا الجزائر ، وطرابلس الغرب ، وتونس ، وبقيت بلاد المغرب الأقصى وخدم
خارجة عن سيطرتهم •

وقد ادى التوسع العثماني هذا الى شعور اوربا بالخطر المحدق بها ، ولذا
فان البابا لم يتوقف عن مطالبة الدول الاوربية بالتكفل لايقاف هذا الزحف .
الا ان الدول الاوربية التي بدأت تشعر نتيجة نمو مفهوماتها القومية ، بالانقسام
التدريجي عن « القضية المسيحية » ، ما كانت تستجيب لتلك النداءات الا اذا
كانت تحقق لها مصلحة ما • بل يلاحظ انها شرعت تعقد صلات مع الدولة
العثمانية ، هي في غالب الاحيان صلات ود وتقارب ، وذلك لتضمن لها هذه
الدولة مصالحها التجارية في انحاء امبراطوريتها ، وبخاصة منها فرنسا ، وانكلترا .

ب - دخول اوربا بتحالك مع افريقية السوداء : منذ مدة طويلة والاوربيون
يذهبون الى الموانئ المغربية باحثين عن الذهب الآتي من داخل القارة • وقد
كان في هذا الداخل دول افريقية قوية مثل :

- امبراطورية مالي : وتضم بلاد السنغال والنيجر الاعلى • وقد رأت
ازدهارا كبيرا تحت حكم (كانغو موسى) : فقد كانت اسواق « غاو »
و « تومبوكتو » تجذب العديد من التجار • وقد ادهش هذا الملك ، بترفه وكرمه
العرب المسلمين انفسهم اثناء قيامه بالحج الى مكة •

ولكن في نهاية القرن الخامس عشر، حل محل مالي امبراطورية « سنهالي » •
وقد توضع عند منعطف النيجر ، ولم تدم طويلا اذ سارت سريعا نحو الانحدار •

وعلى شاطئ « خليج غينيا » ، كانت هناك شعوب اقل عددا ، وذات حضارة
أصيلة خاصة بهم ولم يعتنق هؤلاء الدين الاسلامي • وحوالي اواخر القرن
الخامس عشر ، دخل هؤلاء بتماس مع الاوربيين • فمنذ عام ١٤٢١ كان الامير
البرتغالي (هنري الملاح) يرسل سنويا نحو الجنوب بعثة بحرية ، وكان يبحث
عن طريقة لانشاء علاقات مع شخصية غامضة وغير معروفة تماما لديه ، وهي
شخصية « حنا الراهب » • وهذه الشخصية في الواقع كانت « نجاشي الحبشة » ،
الملك المسيحي ، الذي لم يلتق به احد من الاوربيين بعد ، والذي يمكنه بحسب

اعتقاده أن يضم قواه الى قوى الغربيين لسحق الاسلام^(١) .

وقد تقدم الملاحون البرتغاليون شيئا فشيئا على طول الشواطئ الافريقية موجهين من قبل العلماء الذين احاط الامير بهم نفسه . وفي عام ١٤٣٤ اجتازوا « رأس بوجادور » على الساحل الصحراوي ، وفي عام ١٤٤٥ وصلوا الرأس الاخضر في السنغال ، وفي ١٤٨٥ مصب الكونفو .

ان وصول الاوربيين الى تلك البقاع ، بلبل الطرق التقليدية للتجارة في القارة الافريقية . فالتبادلات التجارية اخذت تجري في موانئ الساحل الغربي ، وفقدت القوافل الصحراوية اهميتها ، كما شرع باستثمار مناجم جديدة للذهب . وبالإضافة الى ذلك فان البرتغاليين اخذوا يحصلون عن طريق مبادلة سلعة بسلعة ، على التوابل والعبيد السود الذين لاقت تجارتهم رواجا كبيرا بعد كشف امريكا . والتي اثارت صدمات دامية وعنيفة بين القبائل للحصول على اسرى يبعونهم رقيقا .

وقد حاول الاوربيون نشر الدين المسيحي في صفوف السكان ، وتكونت ~ مجموعات صغيرة من المسيحيين السود في بقاع متفرقة . الا ان هذه التطورات لم تمس سوى الاقاليم الساحلية ، اما افريقيا الوسطى الداخلية ، فقد بقيت مجهولة من الاوربيين حتى القرن التاسع عشر .

ج - مع الشرق الأقصى ان علاقات اوربا مع الشرق الأقصى كانت ضئيلة ، ففي أواخر القرن الثالث عشر واولئ الرابع عشر ، عرفت الصين ، ، بزعامة سلالة جنكيز خان المغولية ، ازدهارا كبيرا . واستطاع عذد من الاوربيين الاقامة فيها ، وتشيد كنائس مسيحية . الا ان الثورة اندلعت في الجنوب في عام ١٣٦٨ ضد تلك الاسرة المغولية . وقامت اسرة حاكمة صينية جديدة هي اسرة « مينغ » التي بقيت على الحكم حتى ١٦٤٤ . وتفوقعت الصين على نفسها ، وتوقف تقدمها في الميدان التقني .

Bruley et Compagnons, op. cit. P. 68.

(١)

اما في الهند فكان المسلمون قد فتحوا شمالها ، واقاموا عاصمتهم في «دلهي»
وتكونت الامبراطورية المغولية الاسلامية . الا انهم لم يستطيعوا السيطرة على
بقية شبه الجزيرة الا لبعض الوقت . وبذلك بقيت دول هندية قائمة حتى أواخر
القرن السادس عشر . وقد كانت الهند ، كالصين ، مركز حضارة اصيلة ومتألقة ،
وكانت على علاقات تجارية مع مسلمي مصر ، وجنوبي شبه الجزيرة العربية ،
وشرقها ، ومع عرب شرقي افريقيا . والاوربيون الذين استطاعوا زيارتها فكانوا
قلة قليلة جدا .

البشائر الأولى

القرن السادس عشر في اوربا

(١٤٩٢ - ١٦١٠)

تمهيد :

ان القرن السادس عشر يمثل مطلع العصور الحديثة ، وفجرها المشرق المتلألئ . ولقد اختلف حول حدوده الزمنية : فالواقع الحسابي يجعل بدايته عام ١٥٠١ ، ونهايته عام ١٦٠٠ ، ولكن العرف التاريخي يسمح عادة ببعض المرونة في اختيار الحدود الزمنية للعصور ، والقرون ، والحقب . فالمؤرخ الفرنسي الشهير « ميشله Michelet » ، الذي عاش في القرن التاسع عشر ، تحدث عن القرن السادس عشر ضمن امتداد واسع ، لانه بالنسبة اليه هو « عصر النهضة » بكل ألقه ومظاهره . ولذا قال ، انه من السليم والصحيح مد هذا القرن من « كولومبس » مكتشف امريكا ، و « كوبرنيكوس » القائل بكروية الارض ، ودورانها حول الشمس ، الى « غاليله » . وبذلك يتجاوز الحدود الزمنية الفعلية للقرن السادس عشر ويغطي على قسم من القرن السابع عشر . بينما يرى المؤرخ الفرنسي المعاصر « هوزر Hauser » ، بان هذا القرن يمتد بين (١٤٩٢-١٥٩٨) ، وهو العام الذي توفي فيه الملك « فيليب الثاني » ملك اسبانيا ، وصدر فيه « منشور نانت » في فرنسا ، الذي وضع حدا للحروب الاهلية الدموية بين الكاثوليك والبروتستانت ، وكان يمثل التسامح الديني الذي هو منعطف هام في الفكر الاوربي .

ويذهب مؤرخون آخرون الى القول - مستندين في ذلك الى الضور
الاوربي الديني والسياسي - بأن المرحلة الممتدة من عام (١٤٩٤-١٦٦٠) تكون
مرحلة واحدة . بل ان كثيرا من المؤرخين يرون ان نهاية القرن السادس عشر هي
حوالي عام ١٦٢٠ . أو ١٦٤٠ ، وذلك بالنسبة لتكامل « التطور الاقتصادي »
الذي تم في هذه الفترة .

وفي الحقيقة ان جميع المؤرخين في تحديدهم لامتداد القرن السادس عشر
يستندون الى تجانس بعض مجموعات من الاحداث وترباطها ، الا أن بعضهم
يشتط فيتحدث عن ثلاث حقب في القرن السادس عشر ، أو حقبتين ، بتدئ
الاولى عام ١٤٥٠ ، وتنتهي الاخيرة في منتصف القرن السابع عشر . ان هذا
الجدل حول امتداد القرن السادس عشر ، هو في الواقع اقرب الى الجدل البيزنطي
ويجعل من القرن السادس عشر ما يشبه الاسطورة (١) . الا انه يمكن القول ان
الحدود التي تعارف عليها اغلبية المؤرخين هي الممتدة بين (١٤٩٢-١٥٩٨)
و (١٤٩٢-١٦١٠) على اعتبار ان عام (١٦١٠) هو تاريخ وفاة الملك « هنري
الرابع » ملك فرنسا ، الذي اوقف « الحروب الدينية » ، كما انه عام قريب من
وفاة « الملكة اليزابيث » عام ١٦٠٣ ملكة انكلترا التي يمثل عصرها « عصر النهضة » ،
هذا بالاضافة الى انه عام نصر علمي باهر ، اذ تم فيه اختراع « غاليله »
للتلسكوب .

والقرن السادس عشر بالنسبة لاوروبا قرن غني جدا بالاحداث الضخمة ،
والتطورات الكبرى ، والشخصيات الرائدة واللامعة في كل مجال من مجالات
الحياة . ففيه ظهر مصلحون دينيون من امثال « لوتر » و « كالفن » و « زوينغلي » ،
وانتشرت في سمائه الفنية نجوم ساطعة من امثال « ليوناردو دافنشي »
و « ميكيل آنجلو » و « رفائيل » و « تيسيان » . وفي الميدان السياسي عجز بالفعاليات
الكبيرة ، كنمو مفهوم الدولة القومية ، وتشابك العلاقات الدولية ، وانفجار
صدامات ضخمة ، منها الحروب بين ملك فرنسا ، والامبراطور الجرمني المقدس

(1) Morineau (Michel), Le XVIe siècle, Paris 1969, P. 35:

والحروب بين الكاثوليك والبروتستانت ، ثم الثورة في الاراضي المنخفضة مطالبة بالاستقلال عن اسبانيا ، والصراع في البحر المتوسط بين الاتراك العثمانيين ، واوربا ، واسبانيا منها بخاصة ، وفي اوربا الشرقية . بين الاتراك ايضا واوربا . بعد ان تقدم العثمانيون حتى فيينا عام ١٥٢٩ . وفي بحران هذا النشاط الحربي ، قامت علاقات سياسية اقتصادية سلمية ، بين العالم الاسلامي ممثلا بالدولة العثمانية نفسها ، وبين اوربا .

وطيلة هذا القرن ، فان الكشف الجغرافية التي ابتدأها الاسبان والبرتغال تابعت سيرها ، وانبرى لها الانكليز ، والفرنسيون ، والهولنديون .

ان تاريخ القرن السادس عشر بحسب قول المؤرخ « جول ميشله » هو « بطل » : « لانه اظهر قوة الانسان وحده امام السلطات والتقاليد . فقد سادته روح انسانية واحدة تفوق بقيمتها مملكة ، بل امبراطورية ، بل مجموعة دول ، بل قد تفوق النوع الانساني كله »^(١) لقد ولد في القرن السادس عشر الفكر الحر . وحقق فيه فتحان ضخمان في تاريخ الانسانية : « كشف العالم » و « كشف الانسان » ، وفيه نمت فكرة التسامح الديني . فبالنسبة للمؤرخ « ميشله » ، كان كل من « كولومبس » و « كوبرنيك » و « ولوتر » و « غاليله » ، ابطالا عظاما ، اذ تحدوا البابا وسلطة الكنيسة ، وسلطة الامبراطورية ، والعصور السالفة ، والعقائد المسائدة ، والرأي العام .

أما بالنسبة للمؤرخ « هوزر » فان القرن السادس عشر يمثل ثورتين : ثورة في « الفكر » وفي مفهوم « الجمال » ، وثورة في « المعتقد والاخلاق والدين » . ويطلق عادة على الاولى ، للتبسيط اسم (النهضة La Renaissance) وعلى الثانية ، (الاصلاح الديني La Reforme) . والثورتان اذا ما نظر اليهما من الخارج هما « عودة الى الماضي » . عودة الى القديم الكلاسيكي ، والى المسيحية الاولى . ولكن اذا تعمقنا فيهما نرى انهما حركتان متشابهتان ومتواصلتان ،

(1) Morineau, op. cit. P. 16.

وما هما الا تأكيد لوجود (الانسان الفرد) وثورة للضمير الانساني على كل القيود الجماعية السالفة (١) .

فليس هناك من تاريخ يجب ان يفسح فيه المجال لدراسة التطور الفكري والفني اكثر من تاريخ هذا القرن . فلا يمكن للدارس فهم الاحداث السياسية فيه اذا لم يضع دائما نصب عينيه هذه الحقيقة وهي ان هذا القرن هو قبل كل شيء قرن « النهضة » و « الاصلاح الديني » .

وان هذه (الفردية) نفسها التي تميز الحركة الانسانية (الهومانيست) و « الحركة الاصلاحية الدينية » تفسر « الثورة الاقتصادية » التي هي من خصائص هذه الحقبة بما حملته من توسع تجاري ، ونمو نقدي جديد ، واقتضارات اولية للرأسمالية . كما انها تفسر ايضا التطورات على الصعيد السياسي : « فالجمهورية المسيحية » الجامعة تنحل ، وتنشأ « الدولة الحديثة » ويصطدم بعضها ببعضها الآخر ، فتبحث عن السلام « بالتوازن » وتنمي في مواطنها شعورهم بقوميتهم .

ان هناك ايضا حادثا آخر كبيرا يملا هذا القرن ، وما هو الا نتيجة للحركات الثلاث - الآنف الذكر - الفكرية ، والاقتصادية والسياسية ، وهذا الحادث هو (اتساع ساحة التاريخ) : فأعمال الكشف الجغرافي التي ابتدأت في أوروبا قبل قرن من الزمن تقريبا ، أدت الى ظاهرة من أهم الظواهرات في ذاك القرن بل وفي العالم المعاصر . فاوربا القرن السادس عشر ، قد تظهر لابناء حضارة العصور الوسطى ، وكأنها قد غدت مركزا للعالم . وليس هذا وهما ابدا ، اذ أن جراءة المغامرين الاوربيين ، قد وضعت بالتحاك عوالم كان بعضها بعيدا جدا عن بعضها الآخر ، بل انها فتحت بالعنف ، عوالم كانت مغلقة ، أو منطوية على نفسها . ويمكن القول انه يشاهد في القرن السادس عشر انتصار التفوق الاوربي : فالدوران حول افريقيا ، وكشف جزر الهند الغربية (الاتيل) ، واحتلال المكسيك ، والبيرو ، وفتح اليابان للتجارة الاوربية ، كلها امور قام بها الاوربيون ، واوجدت للمرة

(1) Hauser et Renaudet, op. cit. P. 1 - 2.

الاولى « تاريخا عالميا » بالمعنى الصحيح . اذ لوحظ ان تلك الانسانيات المتميزة عن الاوربيين ، في البقاع الجديدة ، لها هي الاخرى ماضيها وحضارتها . ومع ان القرن السادس عشر ليس له المعنى نفسه بالنسبة لليابان ، التي كانت تحكمها اسرة « اشيكاجا » الشوغونية ، والصين ، التي كانت تحت سيادة اسرة « مينغ » ، والهند ، التي تكونت فيها امبراطورية « بابر المغولي » الاسلامية ، وايران التي سيطر عليها الصفويون الشيعة ، الا انه ترك بقيمة الجديدة واحداثه آثارا دعت لتحركها باتجاه أو بآخر^(١) .

ويضيف المؤرخ « مورينو » المعاصر ، الى صفات القرن السادس عشر تلك أنه كان بداية « الصراع الاجتماعي » في اوربا : فقد قامت نتيجة الثورة الاقتصادية السالفة الذكر ، ونمو الرأسمالية التجارية ، هوة بين المجموعات البشرية العاملة في حقل الانتاج . وظهرت روح نضال حقيقية للطبقات ، حلت محل الانسجام القديم الذي كان يسود العلاقات الانسانية في العصور الوسطى^(٢) .

هذا ما فطن اليه « كارل ماركس » في عام ١٨٤٨ ، ف اشار الى ان القرن السادس عشر يمثل مرحلة حاسمة في التاريخ الاجتماعي ، مرحلة حل فيها نمط الانتاج الرأسمالي محل الانتاج الاقطاعي . فقد قال : « ان اكتشاف امريكا ، والالتفاف حول افريقيا قدما للبورجوازية الوليدة ميدانا جديدا للعمل والنشاط : فالا سواق في الهند ، والصين ، واستعمار امريكا ، والتجارة الاستعمارية ، وتضاعف وسائل التبادل ، والسلع بصفة عامة ، كل هذا اعطى التجارة ، والصناعة ، والملاحة دفعا وتقدما لم تعرفه من قبل . ومن ثم ادى الى نمو سريع « للعنصر الثوري » وتمثله البورجوازية آنذاك ، في المجتمع الاقطاعي ، الذي كان سائرا في طريق الانحلال » . وهكذا نشأت طبقة من « البروليتاريا » من سكان المدن والعمال ، وان كان شعورها الطبقي وتنظيمها لا يزالان ضعيفين . الا ان البؤس الذي كانت تعيشه والظروف المحلية المحيطة ، كانت تدفعها بين حين وآخر الى القيام باتفاضات

(1) Ibid, P. 2.

(2) Op. cit. P. 19.

تحاول بها طرح نير الاقوياء . لكن هذه المحاولات كانت دون جدوى ودون امل .
والشيء ذاته يقال عن تحركات الفلاحين .

ان ما قدم سالفا عن الخصائص العامة للقرن السادس عشر ، وموقف بعض المؤرخين الاوربيين منه ، يعطي صورة غنية عن هذا القرن ، ويبرز اهميته . وبالتالي يبين مدى تشابك قضاياها واحداثه . فالتصدي لكتابة تاريخه ليس عملية سهلة ، ولا بد من الاختيار في ميدان وقائعه . ومع ان عديدا من المؤرخين الغربيين قد انبرى لدراسة هذا القرن ، فان كل واحد منهم ركز على بعض النواحي دون الاخرى . ولكن اذا اخذ مجموع القرن بشموله فانه يمكن تمييز التيارات الكبرى التالية فيه :

- ١ — كشف العالم أو ما يطلق عليه دائما تعبير « الكشف الجغرافية » .
- ٢ — الثورة الاقتصادية .
- ٣ — النهضة بمظاهرها الفكرية والفنية .
- ٤ — الثورة الدينية : « الاصلاح البروتستانتى » و « الاصلاح الكاثوليكي » المضاد .
- ٥ — نشوء الدول القومية الكبرى بنظامها الملكي الاستبدادي المطلق .
- ٦ — التطور في العلاقات الدولية ، ويدخل ضمنه الصراعات المختلفة ، والتنظيم الجديد لهذه العلاقات .

الفصل الثاني

كشف العالم او الكشف الجغرافية

لقد قامت حركة الكشف الجغرافي في اوربا منذ مطلع القرن الخامس عشر كما اشرنا الى ذلك سافا ، الا انها لم تحقق هدفها الاولي الكبير إلا في أواخر القرن الخامس عشر ، عندما توصلت الى كشف القارة الامريكية عام ١٤٩٢ ، وأتبعته بكشف الطريق الموصلة الى الهند ، بالالتفاف حول افريقيا وعبور رأس الرجاء الصالح عام ١٤٩٧ . ولقد توبعت الكشف الجغرافية في القرون التالية ، ولا زال العالم الغربي حتى الآن يسعى في هذا الميدان ، لكشف المناطق المجهولة من الكرة الارضية .

ولقد كانت « الكشف الجغرافية الكبرى » بالنسبة لزمانها ، فتوحا علمية جديدة ، اثارت دهشة الناس وفضولهم ، وبشت في نفوسهم روح المغامرة والانطلاق ، وولدت تنافسا وتزاحما بين الدول ، وسباقا اشبه بمحاولات « غزو الفضاء » اليوم . وفي الحقيقة لقد كانت الكشف الجغرافية فجر عهد جديد — كما اشرنا لذلك سابقا — فتح امام البشرية آفاقا واسعة جدا .

واذا ما استقصيت العوامل التي دفعت باوربا نحو القيام بحركة كشفها تلك ، فانه يمكن اجمالها بالنقاط التالية :

١ - عوامل اقتصادية :

وهي أهم العوامل الدافعة : فقد كانت اوربا في القرن الخامس عشر تشكو

من ندرة المعادن الثمينة لديها ، ومن ثم قلة النقد المتداول ، مما اعاق التجارة الاوربية ، وخلق بلبلة في الامور النقدية . ويرجع ذلك الى نضوب مناجم الفضة في أوروبا ، وانقطاع وصول الذهب من السودان عبر افريقيا الشمالية الى بكميات ضئيلة^(١) .

فأنت أوروبا ان تبحث عن تلك المعادن في البلاد الآسيوية ، التي ذكرت الاخبار الشائعة وكتابات الرحالة « ماركو بولو »^(٢) (١٢٥٤ - ١٣٢٣) انها تحوي الكثير منها . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان أوروبا كانت بحاجة الى التوابل (الفلفل ، والقرنفل ، وجوز الطيب ، والزنجبيل) وغيرها ، التي لا تنتجها ارضها وذلك لاستخدامها في تركيب الادوية ، وفي الطعام ، ولا سيما في تقديد اللحوم . وكانت هذه التوابل مرتفعة الاثمان جدا في أوروبا : فقد كانت تأتياها من جنوب شرقي آسيا ، محمولة على سفن عربية او هندية - عربية ، توصلها الى شمال الخليج العربي أو شمال البحر الاحمر . ومن هنا كانت القوافل البرية تحملها الى سلاطمة الشرق « كالاسكندرية ، وبيروت ، وطرابلس » حيث يشتريها البنادقة ويقومون بتوزيعها في بلاد الغرب . وقد كان المماليك في سورية ومصر يتقاضون اثمانا عالية لها من البنادقة . وتأتي ارباح هؤلاء الاخيرين الضخمة لتضاف لتلك الاثمان الباهظة ، لتجعل اسعارها في أوروبا فادحة . وامام هذا رأيت أوروبا ان تصل الى البلاد المنتجة للتوابل مباشرة ، بالالتفاف حول افريقيا ، او بالاتجاه غربا في

(1) Braudel (F), La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II. Paris 1949. P. 369 - 374.

(٢) رحلة بندقي ، رافق ابيه وعمه في رحلة لبلاد الصين عبر عكا ، فارمينيا ، فكرمان ، فهرمز ، فكشفر ، فبكين . وقد وضعهم (قبلاي خان) امبراطور الصين ، تحت حمايته عام ١٢٧٥ . وبقوا في الصين ١٦ عاما . وفي عام ١٢٩١ عاد ماركو بولو الى ايطاليا ، وزار في طريقه البحرية ، سومطرة ، والشواطئ الغربية للهند ، وحط في هرمز ثانية . ومنها اخذ الطريق البرية عبر بلاد ايران ، فطرابزون ، فالقسطنطينية . وقد كتب ماركو بولو تقريرا عن رحلته، ونشره عام ١٢٩٩ . وكان له صدى ضخم في أوروبا ، حتى ان المؤرخ الانكليزي « فيشر » ينظر اليه على انه ثورة ، تعدل في اهميتها التوسع الضخم في المعرفة البشرية الذي حدث بعد قرنين من الزمن ، ونجم عن رحلات كريستوف كولومبس .

History of Europe. London. 1948. P. 413.

المحيط الاطلنطي ، وذلك لتحصل على حاجاتها دون الوسيط العربي المملوكي ، والاحتكار البندقي ، وتخفف من خسارتها لنقدها الذهبي في مثل تلك التجارة .

ويجب الا ينسى في هذه العوامل الاقتصادية ، الاتجاه القومي - الاقتصادي ، بعد اتضاح اسواق تجارتها ، للحصول على المال اللازم لبناء كيائها السياسي وتوسيع اسواق تجارتها ، للحصول على المال اللازم لبناء كيائها السياسي والعسكري .

هذا بالاضافة الى حسدها للبندقية ، التي وصلت لاج ازدهارها الاقتصادي ، وسيادتها السياسية على شرقي البحر المتوسط ، وتجارته ، بفضل تلك التجارة . وكانت دول البحر المتوسط الاوربية ، اكثرها رغبة في انتزاع هذا الاحتكار التجاري من يدها ، ولا سيما اسبانيا ، والبرتغال والمدن الايطالية الاخرى . وهذا لا يمكن ان يتم الا باقامة وسيلة مباشرة للاتصال مع الشرق ، او بتعبير آخر بالبحث عن طريق أخرى غير الطريق المألوفة .

٢ - عوامل دينية :

وتتلخص في متابعة اوربا حربها الصليبية ضد المسلمين : فعلى الرغم من أن تلك الحروب التي ابتدأتها تهاجم في اسبانيا (حرب الاسترداد) وحملاتها الصليبية على المشرق العربي الاسلامي ، والمغرب العربي الاسلامي ، قد شارفت النهاية في ظاهرها ، فإن الروح التي تولدت من ذلك الصراع الدموي العنيف كانت روحاً ترمية انتقامية عند بعض الملوك والامراء . وبهذه الروح ، ارادوا مطاردة العرب المسلمين ومهاجمتهم في عقر دارهم ، واخضاعهم لسيادتهم ، وانتزاع ما يملكون من خيرات ومكاسب اقتصادية . ولتحقيق هذا الامر فانهم شرعوا يبحثون عن ذلك البلد المسيحي الواقع على طريق التوابل ، والذي قيل لهم انه قريب من ارض المسلمين ويحكمه الراهب يوحنا^(١) ، حتى يتحدوا معه في صراعاتهم ضد الاسلام .

(١) انظر حول الراهب يوحنا ما كتب في :

L. Halphen, L'essor de l'Europe XIe-XIII siècle. Paris 1940, PP. 435-436.

وهذا البلد . الغامض الموقع في اذهانهم ، قد يكون (الحبشة) ، بل ان « ماركوبولو » بين لهم في كتابه ان خان « كته Cathay » (أي الصين) كان قد اعتنق المسيحية . ولعلمهم رأوا فيه حليفا آخر ضد الاسلام . وكانت بعثة « كوفيلهام » البرتغالي عام ١٤٨٦ الى شرقي افريقيا عبر الاسكندرية ، والسويس . تهدف الى هذا الغرض ، بالاضافة الى بحثها عن طريق الهند . وقد وصل « كوفيلهام » الى سواطيء افريقيا الشرقية ، والى « سوفالا » ، الميناء الشهير تمهيدا للالتفاف نحو افريقيا^(١) ، كما انه زار الحبشة وقربه النجاشي اليه ، وبقي فيها حتى وفاته عام ١٥٤٥ .

وهذه الروح الصليبية الانتقامية نفسها هي التي املت على البرتغال مهاجمة سواحل « المغرب الاقصى » منذ مطلع القرن الخامس عشر ، واملت على اسبانيا احتلالها لعدة مراكز على سواحل المغرب ، والجزائر ، وتونس ، وطرابلس الغرب ، في مطلع القرن السادس عشر .

ومقابل هذه الروح المسيحية السلبية ، كان هناك روح ايجابية ، ترغب في كشف مناطق جديدة للتبشير بين سكانها بالدين المسيحي ، وجلبهم الى حظيرته وزيادة عدد المؤمنين به .

٣ - عوامل فكرية :

لقد اخذت اوربا منذ القرن الثالث عشر تستيقظ من سبات العصور الوسطى الفكري ، وبدأت تتحرر تدريجيا من المعتقدات الوهمية والخرافية ، ولا سيما في ميدان المعرفة الكونية . فقد نسي الاوربيون خلال عصورهم الوسطى علم اليونان القائل بكروية الارض ، وسيطرت على فكرهم الخرافات حتى تخيلوا ان المحيط الاطلنطي يكتنفه الظلام الدامس نحو الافق الغربي ، ويسود سماءه طير الرخ الجارح ، وان المياه في جنوبه تشتد حرارتها حتى تصل الى درجة الغليان ثم تسقط في هوة كبيرة ، الى غير ذلك من الاوهام .

(1) G. L. E. op. cit. Vol. 3, P. 613 (Covilha).
— Hauser et Renaudet. op. cit. P. 55.

الا ان احتكاك اوربا بالانتاج الفكري العربي الاسلامي بدد تلك الجهالات، ولا سيما بما قدمه العرب في ميدان الفلك ، والجغرافيا ، سواء أكان اتاجا ذاتيا ، كمؤلفات **ابي الوفاء البوزجاني** (١) ، **والفرغاني** (٢) ، **والبتاني** (٣) ،

(١) **ابو الوفاء البوزجاني** : محمد بن محمد . ولد في بوزجان بين هراة ونيسابور وعاش في بغداد ونوي فيها ٢٢٨-٢٨٨ هـ / ٩١٠-٩٦٨ م . فلكي ورياضي . وقد اعترف الباحثون الاوربيون في تاريخ العلوم بانه هو واضع النسبة المثلثية (الفل أو المماس) وانه اول من استعملها في حلول المسائل الرياضية . له عدة مؤلفات في الرياضيات والفلك . ومنها « الكامل » وهو في حركات الكواكب ، و « رسالة في الهيئة » و « زيج الواضح » وغيرها .

— الزركلي . الاعلام ١٣ مجلدا (مع المستدركات) بيروت الطبعة الثالثة . ج ٧ ص ٢٤٤

Carra de Vaux, The Legacy of Islam ed. by Th. Arnold and A. Guillaume. P. 390.

— جلال مظهر : اثر العرب في الحضارة الاوربية بيروت ١٩٦٧ . ص ٢٨٦ — ص ٢٨٧

(٢) **الفرغاني** : من علماء الفلك ايام الخليفة العباسي المأمون وكان لا يزال حيا سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م . وقد حدد الابعاد بين الكواكب واقطارها وقد بقي تأثيره قائما في اوربا حتى زمن كوبرنيك .

— جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٨٨

(٣) **البتاني** : ابو عبد الله محمد بن جابر بن سنان الحراني الصابي المعروف عند الاوربيين في العصور الوسطى باسم Albatenius . ولد قبل ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م في حران او ما جاورها . وكان مسلما على الرغم من ان اسرته صابئة . عاش معظم حياته في الرقة وانتقل الى بغداد . ونوفي قرب سامراء عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م . وهو من اكبر الفلكيين العرب . له عدة مؤلفات اشهرها « الزيج » . ترجم كتابه للالينية مرتين في القرن الثاني عشر . ونشر في المانيا عام ١٥٣٧ ، وفي بولونيا عام ١٦٤٥ . وكان قد ترجم للاسبانية في القرن الثالث عشر .

←

وابن يونس المصري (١) ، وجابر بن افلح الاندلسي (٢) و الطوسي (٣) .

→

— نللينو : « البتاني » . في دائرة المعارف الاسلامية المعربة . القاهرة د.ت .
المجلد ٣ ص ٣٣٦-٣٣٨ ، ومحمد مسعود ، المعلق على البحث في هامشها .

— الاعلام ج ٦ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

— جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(١) **ابن يونس المصري** : علي بن عبد الرحمن المصري ، ابو الحسن ، فلكي واديب .
توفي عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩ م بالقاهرة ، وكان مصاحباً للخليفة الفاطمي (الحاكم
بامر الله) . وله عدة مؤلفات أشهرها « الزيج الحاكمي » ، وهو مطبوع في
اربعة مجلدات . وقد ترجمت بعض فصوله الى الفرنسية عام ١٨٠٤ م ، وقال
عنه « غوستاف لوبون » المؤرخ « وضع ابن يونس في القاهرة زيجه الحاكمي
المشهور فانسى كل زيغ قبله في العالم ، حتى عني به فلكيو الصين ، فذكره
احدهم عام ١٢٨٠ م » .

— هـ . سوتر : (ابن يونس) . في دائرة المعارف الاسلامية المعربة مجلد
١ . ص ٣٠٤ - ٣٠٥ .

— الاعلام ج ٥ ص ١١٢ .

— جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٢٩٠ .

(٢) **جابر بن افلح الاندلسي** : ولد في اشبيلية في اواخر القرن الخامس للهجرة / اواخر
الحادي عشر الميلادي ، وتوفي في قرطبة في منتصف القرن الثاني عشر تقريباً
منتصف السادس الهجري . له عدد من المؤلفات الفلكية وقد نقل بعضها للاتينية
وطبعت عام ١٥٢٣ . ويعترف الاوربيون بان كتبه كان لها اثرها في تاريخ
المثلثات .

قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ص ٣٥٧ .

— جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٩١ .

←

والبيروني (٤) ، وغيرهم في الفلك . وكتب ابي زيد البلخي (٥) والاصطخري (٦)

→

(٣) **الطوسي** : محمد بن محمد نصر الدين الطوسي ٥٩٧-٦٧٢ هـ / ١٢٠١-١٢٧٤ م
فيلسوف وفلكي كبير . قربه « هولاءكو » وبنى له في مراغة مرصدا عظيما ،
وقرر من يرصد الكواكب فيه . صنف مؤلفات لا يزال معظمها مخطوطا ، ومن
المطبوع « تحرير اصول اقليدس » ، و « المقالات الست » . ومن ابرز مؤلفاته
« البارع » في علم الهيئة والبلدان و « التحصيل في النجوم » و « الشكل
القاطع » الذي ترجم للاتينية ، والفرنسية ، والانكليزية .

— الاعلام ج ٧ ص ٢٥٧-٢٥٨ (وفيه المصادر العديدة التي تتحدث عنه) .

— جلال مظهر المصدر نفسه ص ٢٩١ .

(٤) **البيروني** : محمد بن احمد ، ابو الريحان البيروني الخوارزمي (٣٦٢-٤٤٠ هـ /
٩٧٣-١٠٤٨ م) رياضي ، وفلكي ، وفيلسوف ، ومؤرخ ، من اهل خوارزم
واقام قليلا في الهند . ينظر اليه بعض علماء الغرب (سخاو) على انه اعظم
عقلية عرفها التاريخ . كان مقربا من محمود الفزنوي . ولقد اكد البيروني كروية
الارض ، وان جميع الاجسام تنجذب نحو مركز الارض . ولاحظ ان بعض
الظواهر الفلكية يمكن تحليلها بافتراض ان الارض تدور حول محورها مرة كل
يوم ، وتدور حول الشمس مرة كل سنة . له عدة مؤلفات « الآثار الباقية
عن القرون الخالية » ، وقد ترجم للانكليزية ، و « الجواهر في معرفة الجواهر »
و « القانون المسعودي » في الهيئة والنجوم والجغرافية وغيرها .

— السيوطي : بغية الوشاة في طبقات اللغويين والنحاة . مصر ١٣٢٦ هـ . ص ٢٠ .

— ياقوت الحموي : ارشاد الاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) ٧ اجزاء

مصر ١٩٠٧ - ١٩٢٥ . ج ٦ . ص ٣٠٨ .

— الاعلام . ج ٦ . ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

— جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٢٩٢ .

(٥) **ابو زيد البلخي** : احمد بن سهل (٢٣٥-٣٢٢ هـ / ٨٤٩-٩٣٤ م) احد كبار علماء
الاسلام في الشريعة ، والفلسفة ، والادب ، والجغرافية . ولد في احدى قرى
بلخ . له عدة مؤلفات في فنون عدة ، من اشهرها « صور الاقاليم الاسلامية » .

←

→

— ابو حيان التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ٣٠ اجزاء، مصر ١٩٣٩ ج ٢ ص ١٥ .
— الاعلام . ج ١ . ص ١٣١ .

(٦) **الاصطخري** : ابراهيم بن محمد الاصطخري المتوفى ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م . ساح
في بلاد العرب وبعض اجزاء الهند ، وبلغ المحيط الاطلنطي . واليه ينسب كتاب
« صور الاقاليم » و « مسالك الممالك » .

— الاعلام . ج ١ . ص ٥٨ .

(٧) **ابن خرداذبة** : عبيد الله بن احمد ، المتوفى حوالي ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م . مؤرخ
جغرافي من اهل بغداد . وعمل عاملا للبريد للخليفة العباسي . من مؤلفاته
« المسالك والممالك » .

— الاعلام ، ج ٤ . ص ٣٤٢ .

— حداد والحسامي . تاريخ الحضارة العربية . دمشق د.ت . ص ٢٢٨ .

(٨) **المقدسي** : محمد بن احمد البشاري ، شمس الدين ، المتوفى حوالي (٣٨٠ هـ /
٩٩٠ م) . ولد في القدس ، وعمل في التجارة ، ورحل كثيرا . صنف كتابه
« احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » وفيه كثير من الخرائط .

— الاعلام . ج ٦ . ص ٢٠٣ .

— تاريخ الحضارة العربية ص ٢٢٨

(٩) **ابو علي احمد بن عمر ابن رسته** : عاش في النصف الثاني من القرن الثالث
الهجري / بين التاسع والعاشر الميلادي ، في مدينة اصفهان ، ولا يعرف شيء
كثير عن حياته . صنف كتابه « الاعلاق النفيسة » ولم يصل منه سوى جزء
وهو مطبوع .

— فان اردنك : ابن رسته . في دائرة المعارف الاسلامية العربية . مجلد
١ . ص ١٦٦ .

(١٠) **ياقوت الحموي** : (٥٧٤-٦٢٦ هـ / ١١٧٨-١٢٢٩ م) مؤرخ ، ومن كبار
الجغرافيين ، والادباء . كان عبدا ثم اعتق . عمل بالتجارة ، ونسخ الكتب ،
وساح كثيرا . من كتبه « معجم الادباء » و « معجم البلدان » .

وغيرهم كثير في الجغرافيا ، او كان ترجمة للكتب اليونانية القديمة الكبرى ، واشهرها « المجسطي » لـ « بطليموس » (١٣) .

وهكذا ارتد الاوربيون الى الافكار القديمة عن كروية الارض ، وظهرت ملامح « نهضة جغرافية » ، كانت العون الاكبر لحركة الكشف الجغرافية في

→

— الاعلام . ج ٩ . ص ١٥٧ .

— جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٣١٣ .

(١١) **الادريسي** : محمد بن محمد بن عبد الله الادريسي الحسني (٤٩٣-٥٦٠ هـ / ١١٠٠-١١٦٥ م) من كبار الجغرافيين العرب . ولد في سبته ، وتعلم في قرطبة ، ورحل حتى انتهى امره في صقلية . فقربه صاحبها « روجر الثاني » النورمندي وله وضع كتابه الشهير « نزهة المشتاق في اختراق الافاق » . وقد ترجم الى كثير من اللغات الاوربية .

— سيبولد (ك.ف) : (الادريسي) في دائرة المعارف الاسلامية العربية . مجلد ١ . ص ٥٤٧ .

— الاعلام . ج ٧ . ص ٢٥٠ .

— جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٣١٤ - ٣١٦ .

(١٢) **ابو الفداء** : اسماعيل بن علي الملك المؤيد الايوبي (٦٧٢-٧٣٢ هـ / ١٢٧٣-١٣٢١ م) مؤرخ . وجغرافي ، واديب ، وواسع المعرفة . له عدة مؤلفات اهمها في التاريخ « المختصر في اخبار البشر » ، وفي الجغرافيا « تقويم البلدان » .

(١٣) **بطليموس (كلود)** : فلكي ، ورياضي ، وجغرافي ، يوناني ، عاش في القرن الثاني الميلادي (حوالي ٩٠-١٦٨ م) . وقضى معظم حياته في الاسكندرية ، وكان مؤلفه الكبير « المجسطي » « Almageste » الذي عرض فيه نظام الكون . ومن كتبه ايضا « الجغرافيا » ، الذي طبع عدة مرات في القرن السادس عشر .
G. L. E. Vol. 8 P. 892.

تقدمها • وقد ساعد على هذه النهضة الجغرافية ، بالإضافة الى اخذ المعرفة العربية في هذا الميدان ، ما قدمته البرتغال في شخص اميرها (هنري الملاح) للمعرفة الجغرافية من خدمات • واهمها انشاء مراكز للدراسة الجغرافية ، ولرسم الخرائط ، وارسال بعثة بحرية في كل عام الى الجنوب ، كانت تعود وقد ازدادت معرفة بسواحل افريقيا فتعمل على انشاء تلك الخرائط المصورة • وقد عمد الى ترجمة كتاب بطليموس عام ١٤٠٩ الى اللغة اللاتينية •

وفي هذا المجال يجب ألا ننسى (حركة الترجمة) الواسعة التي ابتدأها عدد من المفكرين الاوربيين ، والجامعات ، منذ القرن الثالث عشر ، وتابعوها خلال القرون التي تلت ، وكانت تتوخى نقل امهات الكتب العربية الى اللغة اللاتينية، وما ترجمه العرب من المؤلفات القديمة^(١) •

وقد ساعد على انتشار الكتب المترجمة أو المؤلفة حديثا ، « اختراع الطباعة » وانتشارها صناعة علمية في معظم انحاء اوربا ولا سيما في ايطاليا ، والبندقية منها بالذات •

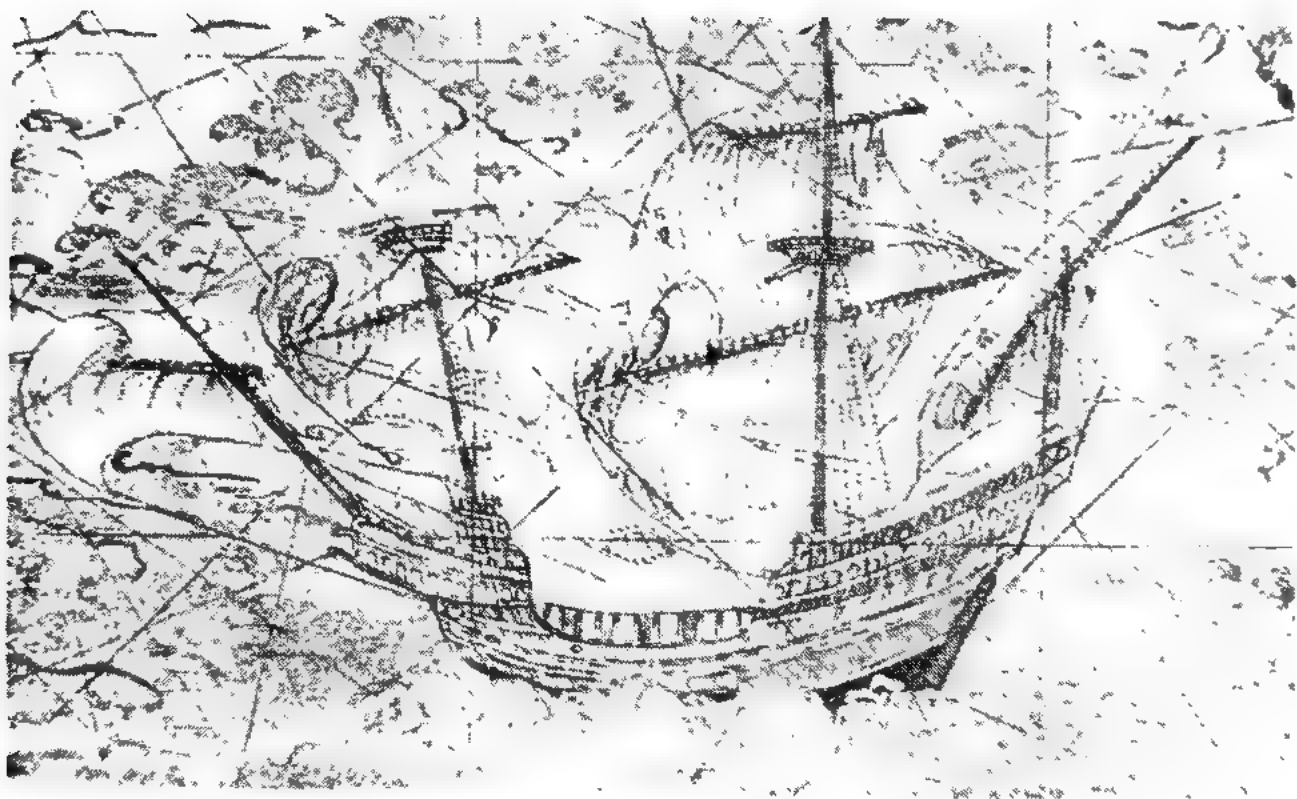
٤ - عوامل تقنية :

وفي الحقيقة ، ما كان بوسع الاوربيين الانطلاق في المحيطات ، لولا التقدم الذي احرزوه في (فن الملاحة) في القرن الخامس عشر • وقد ألحنا الى بعض مظاهره سابقا : فالسفن المتوسطة (التي تجوب البحر المتوسط) كانت ثقيلة وبطيئة ولا تصلح الا للسير على السواحل ، وقد اكتشف في القرن الرابع عشر (سفن الكاراكيل) القشتالية الخفيفة والمرتفعة •

(١) انظر تفصيلا اكبر حول « حركة الترجمة وادوارها » في :

— جلال مظهر • المصدر نفسه • ص ١٦٦ فما بعد •

كما اكتشفت دفة القيادة المحورية ، التي ساعدت بقوة عملها على زيادة ابعاد السفن • ثم زودت « الكاراكيل » البرتغالية في القرن الخامس عشر ، بأشرعة مربعة لتستفيد من الرياح الخلفية ، وبأشرعة مثلثة — أو لاتينية كما تسمى — للملاحة عندما تكون الرياح معاكسة تماما للاتجاه الذي يراد السير فيه • وبذلك وجدت تدريجيا « السفينة السريعة » ، والقادرة على مواجهة الرحلات المحيطية ، الطويلة الامد • (الشكل ٨) •



الشكل ٨ — سفينة الكاراكيل

وفي الوقت نفسه تطورت ، « تقنيات الاتجاه » ، مما ساعد على الابتعاد عن الشواطئ ، وشق عاب البحار المجهولة :

— فالبوصلة بابرتها المغناطيسية عينت اتجاه الشمال • وقد ادخل البرتغاليون عليها تحسينات في القرن الخامس عشر •

— و « عصا يعقوب » (المنظار البحري) ، والاسطرلاب العربي (الشكل ٩)



الشكل -٩-

اسطرلاب، عربي

سمح لهم بحساب عرض مكان عن طريق قياس ارتفاع النجم القطبي ،
او الشمس عن افق ذلك المكان . الا ان تعيين طول مكان بقي ضعبا عليهم
تقديره ، اذ كانوا لا يزالون يقيسون الزمن بالساعة الرملية .

— و « الخرائط » ، و « الكرات » المصنوعة حديثا اعانتهم هي الاخرى على تحديد
مكانهم ، وضبط خط سيرهم ، واشهر هذه الكرات كرة « مارتن بيهاييم
Martin Behaim » (١٤٩٢) ، التي تلخص المعارف الجغرافية للاوربيين عشية
الكشف الكبرى . ومن اشهر الخرائط التي رسمت في تلك الحقبة كذلك
« خريطة توسكانلي » الفلكي الايطالي ، الذي رسم خريطة بحرية قبل
عشرين عاما من رحلة كولومب ، هدف من ورائها الاثبات انه يمكن الوصول
الى الهند عن طريق العرب . وقد ارسل هذه الخريطة مع رسالة مفسرة الى
قس برتغالي لينقلها الى ملك البرتغال . وقد يكون كريستوف كولومب قد

اطلع على نسخة منها (١) .

٥ - عوامل سياسية :

ان نمو « مفهوم الدولة القومية » خلال القرن الخامس عشر جعل الدول الأوروبية تندفع نحو المغامرات الاستكشافية لتثبت وجودها الجديد ، وتدعم اقتصادها وتحقق نفوذها السياسي على أكبر رقعة من الممتلكات في أوروبا وخارجها . وفي الوقت نفسه ، تحطم السيادة السياسية للقوى القائمة ، كالبندقية مثلاً والاسلام ، لو قد امتزجت العوامل السياسية (هذه) بالعوامل الدينية ، والاقتصادية السالفة ، مزجا ، غداً من الصعب تمييز واحدة عن الأخرى تمييزاً كاملاً . فاحتلال العثمانيين لمدينة القسطنطينية هز أوروبا دينياً ، اذ سقطت عاصمة المسيحية الشرقية أخيراً بيد الاسلام ، بعد ان وقفت صامدة ما يقارب القرون الثمانية . وهزها سياسياً ، لأنها لم تكن قد أبعدت الخطر الاسلامي في إسبانيا ، وشمال إفريقيا بعد ، حتى نفذ إليها هذا الخطر مرة ثانية من الشرق ، وبشكل كاسع ومخيف ، مهدداً كياناتها السياسية الجديدة . وهزها اقتصادياً ، لان الاتراك العثمانيين باحتلالهم القسطنطينية ، وسيطرتهم التدريجية على شرقي البحر المتوسط ، أغلقوا في وجه أوروبا الطرق الموصلة الى الشرق الأقصى وخيراته .

فبحث أوروبا عن طريق جديدة تحملها الى الشرق الأقصى ، لم يكن هدفه اقتصادياً ودينياً فحسب ، وإنما القضاء سياسياً أيضاً على القوة الاسلامية الناهضة من جديد .

ولقد أخذت شبه جزيرة أيبيريا على عاتقها ، تحقيق أمنية الطريق الجديدة للهند بدولتيها البرتغال وإسبانيا . اذ ان موقعها الجغرافي على مفترق المحيط الاطلنطي ، والبحر المتوسط ، ملائم جداً للقيام بعملية الكشف ، وإرسال بعثات

(١) انظر الرسالة في :

Dupâquier (J), et Lachiver (M.) : Les Temps Modernes. Col. Bordas
Paris 1970. P. 8.

ملاحية نحو الشاطئ الغربي لافريقيا او عبر المحيط الاطلنطي • كما ان الملاحين الجنوبيين المتحمسين لهذه الطريق وجدوا في حكام شبه الجزيرة تشجيعا ودعمًا .
منذ القرن الرابع عشر •

اولا - كشف البرتغاليين طريق الهند :

لقد بينا سابقا ان البرتغاليين قاموا برحلات متتابعة خلال القرن الخامس عشر على سواحل افريقيا الغربي ، وصلوا خلالها الى رأس بوجارور (١٤٢٦) ، فالرأس الاخضر (١٤٤٥) ، فخط الاستواء (١٤٧١) ، فمصب الكونغو (١٤٨٥) ، وفي عام (١٤٨٧) عبر « بارتلمي دياز » جنوب افريقيا الى شرقها في عاصفة هوجاء ، جعلته يطلق على الرأس الموجود في اقصاها الجنوبي اسم « رأس العواصف » • الا ان ملك البرتغال « حنا الثاني » اعطاه اسم « رأس الرجاء الصالح » تيمنا •

وبعد عشر سنوات من رحلة «دياز» تلك كانت «الرحلة الكبرى» بقيادة « فاسكو دوغاما » • وقد وجدت صعوبات كثيرة لاعدادها ، اهمها رفض البحارة القيام بها ، بعد ما قصه بارتلمي دياز عن احوال رحلته السابقة ، الا انه تغلب عليها • وابتحر « فاسكو دوغاما » من « لشبونة » في ٨ تموز ١٤٩٧ ، مع اربع سفن كارافيل ، و ١٦٠ بحارا (عشرة منهم كانوا محكومين بالاعدام) • وسافر فاسكو دوغاما السواحل الغربية للقارة الافريقية واجتاز رأس الرجاء الصالح وحاذى الساحل الشرقي لافريقيا • وفي « مالندي » شمال « زنجبار » (على ساحل تنزانيا اليوم) ، استعان بملاح عربي هو « احمد شهاب الدين بن ماجد^(١) » ليده

(١) انظر حول حياته ، ومؤلفاته ، وابداعه المصادر التالية :

Gabriel Ferrand, Shihab Eldine Ibn Majid in Encyclopédie de l'Islam.

lère ed. T. IV P. 377.

و - محمد قطب الدين النهروالي المكي • البرقا ليمني في الفتح العثماني • ص ١٨-١٩ •

و - ليلي الصباغ : افريقيا الشرقية في مطلع العصر الحديث (القرن العاشر - السادس عشر) بحيث قدم الى ملتقى الفكر الاسلامي الثالث عشر في تامنراست في الجزائر شوال ١٣٩٩ هـ / ايلول سبتمبر ١٩٧٩ •
و - الاعلام • ج ١ • ص ١٩٠-١٩١ •

على طريق الهند . وساعده هذا الملاح العالم ، على اجتياز المحيط الهندي ، حيث كانت الرياح الموسمية الصيفية عوناً كبيراً له في دفع مراكبه نحو الشواطئ الهندية . ووصل الى « كاليكوت » حيث اتصل بالامير الهندي هناك في ٢٠ ايار ١٤٩٨ ، والتقى بعدد من التجار العرب المسلمين . وقد دامت الرحلة اكثر من عشرة اشهر بقليل . ولكن فاسكو دوغاما كان قد اكتشف الطريق الحقيقية للهند ، وهي الطريق الاقصر التي ستستخدمها جميع المراكب الاوربية حتى حفر قناة السويس . ومع انه خرج بعد كريستوف كولومب بخمس سنوات ، فانه كان الاول الذي حمل الى اوربا مراكب مشحونة بالتوابل . فقد عاد في ايلول ١٤٩٩ الى لشبونة بمركبيه الطافحين ، وقد قدرت الارباح الناجمة عن بيعها بستين مرة من تكاليف رحلته . وبذلك سال لعاب المغامرين ، والبحارة ، والتجار . وقد عاود الرحلة ثانية عام ١٥٠٢ مع واحد وعشرين مركبا ، وحطم سيادة العرب على المحيط الهندي .

وقبل سنتين أي في عام ١٥٠٠ كان اسطول « الفاريز كابرال A. Cabral » متجها نحو بلاد الهند ، عندما دفعته الرياح نحو شواطئ (البرازيل) من امريكا الجنوبية . ولم يكن كابرال الاول الذي اتخذ الطريق البحرية نحو الغرب للوصول الى الهند . واذا كان قد بدا واضحا للبرتغاليين امكان الوصول الى الهند بالسير حول شواطئ افريقيا ، فان الاسبان كانوا قد سبقوهم وبجراً في البحث عن طريق الى الهند بالاتجاه غربا .

وصول فاسكو دوغاما الى كاليكوت :

كتب مرافق لفاسكو دوغاما مذكراته ، وتحدث عن وصولهم كاليكوت قائلاً : « في هذا اليوم نفسه (الاحد ٩ ايار « مايو » ١٤٩٨) ، وحوالي المساء ، رسونا على بعد ميلين تحت مدينة (كاليكوت) ، على بعد نصف ميل تقريبا من الشاطئ . وعندما استقرينا هناك جاءت اربعة مراكب من البر تلاقينا . كانوا يريدون ان ان يعرفوا من أي بشر نحن . فاعلموا عنا ، وارونا كاليكوت . وفي اليوم التالي

عادت المراكب نفسها ترسو قرب مراكنا ، فارسل القبطان احدها ثنائنا الى كاليكوت ، والذين رافقوه ، حملوه الى (مغربيين) من تونس يجيدان القشتالية والجنوية . وقد اظهرا دهشتهم من وصولنا ، وسألاه عما نبث على هذا البعد ، فاجابهم اننا نبث عن مسيحيين وعن توابل . فاجاباه لم لا يرسل الى هنا كل من ملك قشتالة وفرنسا والبندقية سفنهم ، واجابهما بان ملك البرتغال لا يريد ان يسمح لهؤلاء بارسال احد الى هذه النواحي ، فردا عليه قائلين نعم ما يفعل ! واطعماه الخبز القمحي والعسل . وعندما طعم عاد الى المركب . وجاء احد المغاربة معه ، وأخذ يقول ... حظا حسنا حظا حسنا ... كثير من الياقوت ، كثير من الزمرد . يجب ان تشكروا الله الذي قادكم الى ارض كلها غنى^(١) .

ثانيا - كشف الاسبان لامريكا :

وكان الرحالة الذي قام بالكشف الكبير وخاض عباب المحيط الاطلنطي ، هو كريستوف كولومب (١٤٥١-١٥٠٦) وقد كان ابن فاسج من مدينة جنوة . وقد عمل عميلا لبعض المصرفيين في المدينة ، ثم اخذ يظهر اهتماما ، هو واخوه ، بالخرائط المنشورة عن العالم ، وباخبار الكشوف الجغرافية البرتغالية على سواحل افريقيا الغربية . ويذكر انه عشر على احدى الخرائط^(١) ، التي اعطت للعالم الكروي المعروف انذاك ، سعة تفوق واقعه ، مما جعل المسافة المحيطية التي تفصل غربي اوربا ، وبلاد الصين (كاته) ، واليابان (زيبانغو) ، تبدو مسافة قصيرة ، يمكن ان تقطعها السفن في بضعة اسابيع . وقد تبني هذه الفكرة ، وانتقل الى البرتغال ليعرض على ملكها « جان الثاني » في عام ١٤٨٤ ، ارسال بعثة معه الى الهند عن طريق الغرب . الا أن العلماء المحيطين بالملك ، اظهروا شكوكا في حساباته . وبعد ان اخفق في عرض مماثل على ملك انكلترا ، فانه اتجه الى فرديناند وايزابيلا ،

(11) Dupâquier et Lachiver, op cit. P. 7.

(١) انها خريطة (صورة العالم Imago Mundi) التي صنعها بيردابي (Pierre d'Ailly) وقد طبعت في لوفان - (في بلجيكا الحالية) - وتمثل كروية الارض ، وتعيد الخط الذي وقع فيه « ماران الصوري » ، بحيث مد العالم المعروف على (٢٥٢) بدلا من (١٨٠) كما فعل بطليموس .

ملكي اراغون وقشتاله (اسبانيا) ، وقدم لهما المشروع ، الذي يمكنه من الوصول الى الهند بطريق الغرب ، وتجهيز الخزان الكبير ضد الاتراك المسلمين ، وبالذهب الذي يتم جمعه ، يصار الى تجهيز حملة مسيحية تستعيد القدس . واذا ما نجح في تحقيق هذه الامور ، فان الملكين الكاثوليكين يعطياه لقب « اميرال البحر المحيط » ونائب الملك في الاراضي الجديدة ، ويكون له الحق بشن ^١ —
٨

الارباح .

وامام مدينة غرناطة المسلمة ، المحاصرة عام ١٤٩١ ، حصل كريستوف كولومب من الملكة ايزابيلا ، على التصريح باعداد ثلاث سفن متينة لرحلة المحيط . وخرج من « بالوس » بسفنه الثلاث ، ورجاله التسعين ، وذلك في الثالث من شهر آب عام ١٤٩٢ . وكان يحمل رسالة من ملكي اسبانيا الى الخان الكبير (أي ملك الصين) وقد توقف اولاً في جزر « قناريا » وبعد مشاق عديدة ، وتمرد من بحارته ، لاحت له في ١٢ تشرين الاول عام ١٤٩٢ الارض ، ورسا في احدي (جزر بهاما) ، التي اطلق عليها اسم « سان سلفادور » . وبعد خمسة عشر يوماً هبط في (كوبا) ، ظاناً نفسه انه في جزيرة « زيبانغو » أي اليابان . ثم حاذى سواحل « سان دومنغ » التي اطلق عليها اسم « هيسبانيولا » وعاد الى اسبانيا ، في ١٥ مارس عام ١٤٩٣ . حيث استقبل استقبالاً فخماً وكانه بطل منتصر ، مع انه لم يحضر معه سوى قليل من الذهب والقطن ، وبعض رجال من تلك الاراضي البعيدة .

وقام كريستوف كولومب بعد رحلته تلك بثلاث رحلات اخرى ، بين عام ١٤٩٣ و ١٥٠٤ . وخلالها تم اكتشاف « الاتيل الصغرى » ، ولامس ساحل امريكا الجنوبية ، ثم كشف ساحل امريكا الوسطى . الا ان رحلاته لم تكن نصراً تجارياً ، فهو لم يحضر التوابل البتة . واذا كانت رحلاته ابتدأت بالنصر والمجد فانها انتهت بالبؤس والذل . فبعد رحلته الثالثة ، سجن وعذب اذ لم يغفر له الاسبان ، انه لم يأت لهم بالذهب والتوابل . ولذا اتهم بانه لم يكتشف الطريق الحقيقية للهند . ومات فقيراً بائساً في عام ١٥٠٦ ، في مدينة « ولد الوليد » . ومع انه سطر فيما بعد ، على المباني التي اهديت لذكراه الجملة التالية القائلة بأنه :

« اعطى الى قشتالة وليثون عالما جديدا » ، فان كريستوف كولومب توفي ومعه مؤمن بأنه وصل الى بلاد الهند . ولقرون عدة بقي الناس يتحدثون عن « بلاد الهند الغربية » وهم يقصدون « امريكا » ، مقابل الهند الشرقية التي وصل اليها فاسكو دو غاما .

ولما كان الفلورنسي «امريكو دو ثيسبوشي» ، هو الاول الذي قال ان البلاد التي وصلها كريستوف كولومب هي في الحقيقة قارة جديدة ، وليست الهند ، فقد اطلق اسمه على الكشف الجديد ، وسميت القارة بـ « امريكا » وذلك في الخريطة التي صنعها عام ١٥٠٧ « مارتن ولزي مولر M. Walseemüller »^(١) . وجاء الاسباني « بلبوئا Balboa » ليؤكد عام ١٥١٣ ذلك ، بعد ان اجتاز برزخ بناما برا ، وكشف الامتداد اللامتناهي للمحيط الهادي .

ولابد من الملاحظة ان هذه الكشوف الكبيرة لم تقم بها القوى البحرية التقليدية (البندقية وجنوة) ، وانما دولتان جديدتان لما يمض على انهاء الحكم العربي الاسلامي فيهما سوى فترة حديثة . فكيف ستقتسم هاتان الدولتان اسبانيا والبرتغال العالم ؟

منذ عام ١٤٩٣ لجأ الطرفان الى البابا « اسكندر بورجيا » ليحدد لهما مناطق نفوذهما وجاءت معاهدة « تورد وسيلاس Tordesillas » عام ١٤٩٤ لتثبت الحدود بين امبراطوريتيهما في المستقبل . فقد كان البابا «اسكندر السادس» قد اعلن قبل توقيع المعاهدة بأنه يعطي للاسبان « جميع الجزر والارض اليابسة الموجودة أو التي ستكتشف غرب خط يرسم على بعد ١٠٠ ميل غرب جزر اصور» . اما المعاهدة السالفة فقد حصل فيها البرتغاليون على نقل هذا الخط الى الغرب مسافة اكبر . الا ان الدول الاخرى لم تعترف بهذا التقسيم . وفي نهاية عام ١٥٢٩ وقعت معاهدة بين اسبانيا والبرتغال اقامت خط تقسيم في المحيط الهادي شرق جزر « الملوك »^(٢) .

Bruley et Compagnons, op. cit. P. 77.

(١)

Ibid. P. 78.

(٢)

ثالثا - ماجلان يقوم بالدورة حول الارض :

وبينما كان البرتغاليون يفرضون سيادتهم على طريق الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، كان الاسبان يبحثون عن هذا الطريق بمحاولتهم الالتفاف حول امريكا من الجنوب . ففي ٢٠ ايلول عام ١٥١٩ انطلق (فرماو ماجلان) ، وهو ملاح برتغالي ، في خدمة اسبانيا ، من مدينة (اشبيلية) مع خمس سفن شراعية و (٢٣٤) رجلا ، ومؤنا تكفي لعامين . فاستكشف شاطئ (البرازيل) ، واكتشف (خليج ريودو جانيرو) في الفاتح من كانون الثاني ١٥٢٠ ، ثم (ريودولابلاتا) . وفي شهر آذار ١٥٢٠ كان عند خط عرض (٤٩°) جنوبا . وكان البرد شديدا فقرر أن يقضي الشتاء على ساحل باتاغونيا . وبقي ثلاثة اشهر ، وحدث ضده تمرد من بحارته حتى اضطر الى الاستيلاء بالقوة على ثلاثة من مراكبه .

وعاود رحلته في ٢٤ آب ، واكتشف في الاول من تشرين الثاني ممرا نحو الغرب ، بين امريكا ، وارض النار ، وهو الذي يسمى اليوم (مضيق ماجلان) . وفي الثامن والعشرين من تشرين الثاني ، وبعد كثير من الجهود ، والآلام ، تمكن النفوذ الى محيط سماء ماجلان « البحر الهادي » . وعندئذ ابتداء عبورا منها كما بدا له لانهاياودام ثلاثة اشهر وعشرين يوما ، لم تشاهد القافلة البحرية خلالها سوى جزيرتين فقيرتين . ومات عديد من البحارة بمرض « السخربوط Scorbout »^(١) . ووصل البحارة الباقيون الى (جزر الفيليبين) في شهر نيسان ١٥٢١ . وهنا قتل (ماجلان) في معركة مع سكان البلاد . ولم يبق من بعثته الاستكشافية حينئذ سوى مركبين (١٠٨ و) من البحارة .

وبعد ان استكشف نائبه « جان سيباستيان ديل كانو J. S. Del Cano » (جزر الملوك) و (بورنيو) ، فانه اخذ طريق العودة في ٢١ ديسمبر ١٥٢١ ، باتباعه طريق رأس الرجاء الصالح ، وفي قلب منطقة السيادة البرتغالية ، بينما كان ماجلان يفكر بالعودة عن طريق امريكا الجنوبية . وفي الثامن من شهر ايلول عام

(١) مرض عام من اعراضه الضعف ، والالام في المفاصل والاطراف ، ونزيف في اللثة ، وتخلخل في الاسنان ، وقد يؤدي الى الموت ، وسببه نقص فيتامين (C) في الطعام وسوء التغذية .

١٥٢٢ هبط (١٨) رجلا من بحارة ماجلان في اشبيلية ، وعاد مركب واحد هو « مركب النصر » « Victoria » . وكان ماجلان قد ارسل مركبا آخر ليخبر عن كشف الممر (أي ممر ماجلان) . وقد جلب مركب النصر معه ، حمولة ثمينة تضم (٣٥٠٠٠) كيلو ، من القرنفل ، وجوز الطيب ، والزنجبيل ، تغطي تكاليف البعثة . وبرحلة ماجلان ، اثبتت كروية الارض عمليا ، واكتشفت الطريق الغربية للهند . ومن سوء حظ اسبانيا كانت هذه الطريق طويلة جدا ، لا يمكن ان تدخل باب المنافسة مع الطريق البرتغالية .

رابعا - الافق الجديد لاوروبا :

لقد كان المنتظر والمحتم ان يكون لكشف امريكا نتائج ضخمة . ومع ذلك ، فقد اعتبرت لمدة طويلة عائقا في وجه الوصول الى الهند . وكان جميع الناس يغبطون البرتغاليين على نجاحهم ، ولا سيما ان تجربة ماجلان السالفة الذكر والهامة جدا على الصعيد العلمي ، لم تؤد لفتح تيار تجاري . ومن ثم ، فان الملاحين الاوربيين ، بقوا لقرنين يبحثون عن ممرات جديدة تحملهم الى الهند . فبنذ عام (١٤٩٧) كان الملاح البندقي (جان كابوت J. Cabot) ، وهو يعمل لحساب ملك انكلترا ، يسعى للالتفاف حول امريكا من الشمال . وقد اكتشف اثناء ذلك جزيرة (الارض الجديدة) ، وسواحل (لابرادور) . بينما حاول ابنه (سيباستيان Sebastien Cabot) ، على العكس من ذلك ، ان يلتف حول آسيا من الشمال ، ووصل الى (اركانجلسك) في عام (١٥٥٢) . وبعد الاستكشافات التي قام بها (جاك كارتيه Jacques Cartier) الفرنسي عام ١٥٣٤ ، في خليج (سان لوران) في كندا ، والملاحين الانكليز (ديفيس Davis) عام (١٥٨٧) و (هدرسون) عام (١٦١٠) والفرنسي (صامويل شامبلان S. Champlain) عام (١٦٠٧) ، في شمالي امريكا ، تبين ان الممر الشمالي - الغربي غير صالح طريقا تجارية . كما ان امل الوصول الى الهند بطريق الشمال الشرقي قد خاب بعد ان قضى المستكشف (بارتنز Barentz) - وهو هولاندي - شتاء قاسيا في « زمبيل الجديدة » عام ١٥٩٦ ، في الشمال الغربي من سيبيريا .

ومن المؤكد ان هذه الاستكشافات كان لها اثر كبير على اذهان الناس خلال تلك الحقبة الزمنية : فلم يكونوا يعرفون سوى حوض البحر المتوسط ، الذي كانوا ينازعون المسلمين ملكيته بضراوة وعنف . وخارج هذه المنطقة المألوفة لديهم ، كان عندهم بعض المفهومات الغامضة عن افريقيا السوداء وعن آسيا ، اللتين كانوا يتصورونها مسكوتتين بشعوب ثرية جدا ، ويخشى بأسها .

وفجأة وجدوا انفسهم بتماس مع عالمين جديدين : الامبراطوريات الآسيوية الكبيرة التي ادهشهم تنظيمها ، وحضارتها ، ووقفوا امامها خاشعين ، وسكان امريكا الذين اثاروا لديهم الطمع والشره . فخلال اقل من جيل ، تعرف الاوروبيون بعالم متنوع تشغل المحيطات فيه مكانا غير متوقع ، حتى ان العلاقات فيه ، ظلت لعدة قرون لاتتم الا عبرها . ان هذا الاكتشاف دون شك كان حادثا هاما في التاريخ الانساني .

وهكذا لم تعد الحضارة المسيحية تعيش وحدها مع الحضارة العربية الاسلامية بل اكتسبت عليها تفوقا ماديا وسباسيا حاسما ، لان الاوربيين كانوا الاول الذين اكتشفوا العالم وسيعملون لعدة قرون على سيادته .

وبالمقابل ، فان الجغرافيا الاقتصادية لاوروبا قد تغيرت : فالواجهة المتوسطية (المطلة على البحر المتوسط) الغنية اصابها انحطاط نسبي ، وتركز الاهتمام على شاطئ الاطلنطي ، فزهت مدن (اشبيلية) و (لشبونة) أولا ، ثم (انقرس) و (امستردام) و (لندن) فيما بعد . ففي النصف الاول من القرن السادس عشر بلبل التوسع الاوربي العالم .

نتائج الكشف الجغرافية :

كان للكشوف الجغرافية السالفة الذكر اذا ، آثار بعيدة المدى في حياة اوربا ، وفي حياة العالم ، وأولى هذه النتائج ، وفي الميدان السياسي :

١ - تكوين الامبراطوريات الاستعمارية : أو بتعبير آخر بدء الغزو الاستعماري الاوربي للمناطق الجديدة التي اكتشفت . فلقد اندفع الاوروبيون في مختلف البلدان،

ومن مختلف الفئات الاجتماعية (نبلأ صغار ، متعلمون ، محاربون قدماء ، مغامرون فقراء ، رجال دين) نحو استعمار المناطق الجديدة ، بالحرب والعنف بالدرجة الاولى ، والغزو الفكري بالدرجة الثانية . ومن اولى الدول الاوربية المساهمة في هذا المجال ، البرتغال ، واسبانيا ، اللتان وجدتا في مغامرتهما الجديدة استمرارا لحربهما الصليبية ضد العرب ، ووسيلة لنشر الدين المسيحي ، ومدد على البقاء الجديدة ، وطريقا للحصول على الذهب والفضة والاحجار الكريمة والعبيد .

آ - الامبراطورية البرتغالية :

لقد كانت البرتغال هي الاولى التي وصلت الى (الهند) ومن ثم كان ههما احتكار طريق التجارة عبر المحيط الهندي ، وفرض سيادتها الوحيدة على كل الطرق البحرية فيه . ولقد ابتداء (فاسكودوغاما) نفسه العمليات العسكرية ضد الهند عام (١٥٠٢) .

وبعد ست سنوات (١٥٠٨) قام (المايدا) ، الذي عين نائبا للملك في الهند ، بتحطيم اسطول امير (كاليكوت) . وجاء خلفه (البوكيرك) لينزع من الهند (غوئا) في عام (١٥١٠) ، ويجعلها عاصمة للامبراطورية البرتغالية ، ويقيم مراكز محصنة على الشاطئ الغربي للهند .

وفي عام ١٥١١ استولى على (مالاقا) ، واسس مراكز تجارية في (جزر الملوك) . وبعد وفاته في عام ١٥١٥ ، حاول البرتغاليون مد سيطرتهم الى (كاتتون) في الصين . الا ان غزو الامبراطورية الصينية كان فوق امكاناتهم ، فاضطروا للاكتفاء بفتح مركز تجاري فيها . في (مكاو) عام ١٥٥٨ ، وفي ١٥٤٢ دخلوا بتماس مع (اليابان) .

ولم تكتف البرتغال بهذه السياسة والسيادة ، اذ ان هذا لم يقطع دابر التجارة العربية . ولذا ، فانها وهي تمد نفوذها على شواطئ الهند ، وتجوس سواحل الصين على المحيط الهادى ، كانت تشن حربا قاسية لا هوادة فيها ، ضد العرب على سواحل افريقيا الشرقية ، بعد ان استولت على مدنهم الزاهرة ، وخربتها ، مثل مسمبيج ، وكلوة ، ومباسا ، وغيرها . كما لاحقتهم في سواحل شبه الجزيرة العربية ، بل في الهند ذاتها . لقد كانت حربا صليبية يقودها « تجار

الفلل والقرنفل والزنجبيل « ضد العرب . فكل شيء في نظر هؤلاء ، كان مباحا تجاههم ، من حرائق لمدنهم ، ومذابح لاسراهم ، وحرقت لمراكبهم مع الجماعات التي تحملها ، وتقطيع للانوف والاذان الى غير ذلك من مظاهر الوحشية^(١) وتمكنوا من الاستيلاء عام ١٥٠٦ على جزيرة (سوقطرة) قرب باب المندب . وفي عام ١٥٠٧ على (هرمز) في مدخل الخليج العربي . محاولين سد المنفذ الرئيسيين للعرب المسلمين الى المحيط الهندي ، وتجارة الهند . كما تركزوا على الساحل الغربي للخليج العربي في الاحساء ، وفي عمان .

وحاولت مصر المماليك ان تقف في وجه هذه الحملة الضارية ، وسيرت اسطولا لطرده البرتغاليين ومساعدة (السلطان محمود) سلطان (كجرات) في الهند ضدهم . وقد انتصر الاسطولان المصري والكجراتي في بادىء الامر ، الا ان البرتغاليين عادوا فهزموهما عام ١٥٠٩ . وهاجم البرتغاليون (عدن) في عام (١٥١٣) ولكنهم لم يفلحوا بالاستيلاء عليها . وعندما ضم العثمانيون مصر عام (١٥١٧) ، وبلاد العراق في عام (١٥٣٥) ، شعروا بمسؤوليتهم الكبرى في الدفاع عن شبه الجزيرة العربية ، والاماكن المقدسة فيها ، وفي ضرورة استعادة النفوذ الاسلامي على الطريق التجارية في المحيط الهندي ، وانتزاعها من البرتغاليين . وبالفعل فقد سيرت هذه الدولة عدة حملات بحرية^(٢) ، بعضها انطلق

Hauser et Renaudet, op. cit. P. 65 - 66

(١)

(٢) مثل الحملة التي ارسلتها بقيادة واليها في مصر خادى سليمان باشا عام ١٥٣٨ وحاصرت ديو ثلاثة اشهر ، وحملة « بيري ريس » عام ١٥٥١ ، وحملة « سيدي علي ريس » . وقد بقيت الدولة العثمانية ترسل حملاتها في الواقع حتى ١٥٨٩ ، حيث ارسلت واحدة باتجاه المدن العربية في افريقيا الشرقية ، لمساعدتها في ثورتها ضد البرتغاليين ، كمدينة « ممباسا » . الا ان الاهتمام العثماني بالمحيط الهندي ضعف بعد هذا التاريخ ، لانشغال الدولة العثمانية بقضايا اخرى ، وللوهن العام الذي اصابها ، الا انها كانت قد انشأت على ساحل « ارتيريا » الحالية (ولاية الحبش) ومن اهدافها حماية البحر الاحمر من البرتغاليين والاوربيين عامة . وبذلك ضمنى النفوذ الاسلامي فيه . فعلى الرغم من وجود البرتغال في المحيط الهندي فان السفن الاسلامية الحاملة للحجاج والسلع ، ظلت قادرة على الوصول لجدة ، والسويس ، دون صعوبة . كما ان تجارة التوابل عبر مصر ، رأت بعض انتعاش في منتصف القرن السادس عشر .

عبر البحر الاحمر فموانيء اليمن ، الى بلاد الهند نجدة لسلطان « كجرات » فسي الهند ، وبعضها الاخر عبر الخليج العربي . الا ان تلك الحملات لم تعط مردودا أو نصرا . ولقد استشرى امر البرتغاليين حتى دخلوا البحر الاحمر عدة مرات ، وهددوا ميناء جدة . بل ان البوكيرك انذر بالاستيلاء على الاماكن المقدسة ، ونبش جثة الرسول الكريم (ص) . وتحالفوا مع الحبشة المسيحية ضد امير دولة (عدل) المسلمة (احمد غران) ، الذي كان قد دخل الحبشة مجاهدا ، وقاتحا ، بعد ان كانت دويلته وهي على الحد الجنوبي الشرقي للحبشة تابعة لها .

وهكذا سيطر البرتغاليون على طريق الهند . الا ان الاسبان الذين دخلوا المحيط الهادىء برحلة ماجلان ، حاولوا بلوغ جزر التوابل من ناحيتهم . وبعد صراعات وخصومات مع البرتغاليين ، استطاعوا ان يستقروا في عام ١٥٦٩ في (جزر الفيليبين) .

ولم يهتم البرتغاليون ببلاد الهند فحسب ، وانما عملوا حثيثا لاستعمار الشريط الساحلي في البرازيل اعتبارا من عام ١٥٣٠ ، مؤسسين فيه (مراكز) ذات صبغة تجارية عسكرية . وشرعت زراعة قصب السكر تنمو نموا كبيرا ، بفضل احضار العبيد من (غينيا) ، وبيعهم للعاملين في الزراعة من البرتغاليين . وكان هذا بداية الاتجار بالرقيق الاسود وحمله من افريقيا الى امريكا .

وقد غدت التجارة البرتغالية من احتكار الدولة : ففي كل عام كانت تنطلق اربع سفن كبيرة أو خمسة من (لشبونة) الى بلاد الشرق الاقصى ، والى ميناء « غوئا » غربي الهند بالذات ، وتعود محملة بالمنسوجات القطنية ، والتوابل ، والاحجار الكريمة ، من (سيلان) والحرير ، والعطور . وكانت الارباح المتدفقة هائلة . وقد رافق المبشرون الدينيون التجار ، ومن اشهرهم (فرانسوا كسايه) الذي كان يسعى لمحاربة اخلاقية الاستعمار ، ثم انتقل الى اليابان حيث اقام فيها عامين .

ان الامبراطورية التي بنتها البرتغال كانت امبراطورية هشة على الرغم من المراكز الحصينة التي اقامتها . اذ ان الاسبان ، والعرب ، والانكليز ، والهولانديين ،

كانوا يهددون باستمرار سيادتها عليها • هذا بالإضافة الى قلة عدد سكان البرتغال بالنسبة لسعة هذه الامبراطورية • واستحالة تأمين قوى عسكرية لمحاربتها وحمايتها من نقمة السكان المحليين ، واطماع الدول الاخرى • ومن ثم بقيت الامبراطورية البرتغالية على شكل مراكز محدودة على الشواطىء ، ولم تتوغل نحو الداخل التوغل الذي قامت به اسبانيا •

ب - الامبراطورية الاستعمارية الاسبانية :

لم يقنع الاسبان بارخبيل (الاتيل) بل اندفعوا لاحتلال القارة الامريكية حيث وجدوا فيها دولا منظمة تنظيميا قويا • فهناك :

١ - **المايا Mayas** الذين تبنوا خلال الالف الثالثة قبل الميلاد في الجنوب الشرقي من المكسيك • وقد كانت حضارتهم متقدمة ، كما يشهد بذلك « معبد المحاربين » في (شيشن - ايتزا Chichen Itza) • وكانوا يعتمدون على زراعة الذرة • وكان التقويم الذي يستخدمونه ادق من التقويم الاوربي • وكان كهنتهم قادرين على التنبؤ بالكسوف والخسوف ، مما يدل على معرفة فلكية متقدمة • كما عرفوا الارقام ولهم نظام رقمي يظهر الصفر فيه •

وقد غادروا مدنهم في القرن التاسع ، واقاموا في شمال شبه جزيرة (يوكاتان Yucatan) حيث دعموا في القرن الثاني عشر بمهاجرين جدد • الا ان حربا اهلية قضت على هذه الحضارة المتألقة قبل مجيء الاسبان اليهم •

٢ - بالمقابل فان امبراطورية الازتيك كانت تسود امريكا الوسطى منذ القرن الرابع عشر • وكان الازتيك منتظمين في قبائل وعشائر ، ومستعدين دائما للحرب • وكان المجتمع يتألف عندهم من كهنة ، ونبلاء ، واحرار ، وعبيد • ويعبدون آلهة عديدة ، منها الشمس • ويعتقدون ان آلهتهم تتغذى من الدم الانساني • ولذا فان همهم هو الحصول على اسرى ، ليضحوهم للالهة بنزع قلوبهم من صدورهم • والمحارب الذي يقوم باسر (٤) افراد كان يعتبر من طبقة اعلى • ولقد كان (الازتيك) يجهلون بعض التقنيات البدائية كالدولاب مثلا • وكانوا لا يعرفون

(تعدين الحديد) الا انهم يستخدمون (النحاس) على نطاق واسع ، وكان وفيرا في هضبة (المكسيك) . وكانت كتابتهم تشبه الكتابة المصرية القديمة ويدونون على الحجر ، والجلد ، ولحاء الشجر ، كتابات سحرية ومخططات مدن وحسابات . وكانت السنة لديهم (١٨) شهرا ، كل شهر (٢٠) يوما يضاف اليها (٥) ايام لا يعطونها اسما .

أما فهم فجدير بالاهتمام : فالهرم المدرج في (مكسيكو) (تنوخ تيتلان Ténochtlan) ، المكرس لاله الحرب ، كان مزينا بالتماثيل ، وبالنقوش البارزة . وقد بنيت العاصمة (مكسيكو) على بحيرة ، وكان يسكنها ما يقارب ١٠٠٠٠٠٠ نسمة .

٣ - والى الجنوب أي في أمريكا الجنوبية قام (الاينكا Incas) وقد توضعوا في قلب سلسلة جبال الأنديز (بيرو وبوليفيا اليوم) . وقد فرضوا انفسهم على (الهنود الكيشوا) خلال القرن الثاني عشر . وكان يسير الامبراطورية ، (الانكا) « ابن الشمس » . وتذكر سلطته على شعبه بسلطة فرعون مصر . وكانت المركزية شديدة ، وساعد عليها شبكة طرق متشعبة ودقيقة . وكان يقوم بتنفيذ اوامر (الانحان - الاله) اربعة نواب للملك ، وحكام المقاطعات ، والموظفون . وكانت عقوبة اية حركة تمرد الاعداء . وكان عدد سكان (كوزكو Cuzco) العاصمة القائمة على ارتفاع ٣٤٠٠ م ، ٢٠٠٠٠٠٠ نسمة . وقد بنيت بموجب مخطط هندسي ، ويطل عليها من الاعلى معبد الاله الشمس .

لقد كان (الاينكا) يجهلون الكتابة ، الا انهم كانوا يعرفون الحساب ، والصياغة ، والنسيج . ويعرفون كيف يشقون قنوات الري ويعتنون بها . وكان العمل عندهم الزاميا ، فكل رجل من الشعب يتلقى قطعة من الارض عليه العمل فيها . وكان يزرع دون مقابل ممتلكات (الانكا) الامبراطور . ويزرعون الذرة والبطاطا ، ونباتات مدارية اخرى ، على مدرجات . وكانت منتجات ممتلكات الانكا تكس في مخازن الحبوب العامة ، وتستخدم لطعام الموظفين ، والجنود ، وحتى الشعب في حالة المجاعة . وكانوا عندما يحرثون ، ويزرعون يتدوون عادة باراضي اليتامى ، والارامل ، والاشخاص الذين أقعدتهم الشيخوخة ، او المرض .

وعندما يذهب الرجال للحرب فان زوجاتهم يصبحن بحكم الارامل ، ولذا فان
الاخرين يقومون بزراعة اراضيهم • وآخر الاراضي التي كانوا يفلحونها كانت
اراضي (الانكا) الملك ، ويقومون بعملهم فيها بفرح وبملابس الاعياد •

وفي الواقع لقد دهش الاسبان عندما دخلوا غازين ومستعمرين ، الى ارض
امريكا ، امام الحضارات التي رأوها امامهم • الا انهم لم يحترموها وانما عملوا
على القضاء عليها بوحشية •

الغزاة الاسبان المستعمرون Conquistadores

لقد قام الاسبان بغزو بقعاع تلك الحضارات بحفنة من الرجال ، عرفوا
« بالقاتحين Conquistadores » • وهم نبلاء قشتاليون ، متكبرون ، وقساء •
وكان « النعش للذهب » يفرق نفوس اكثرهم ، ويشوه عواطفهم الانسانية ،
ويحرك روح المغامرة لديهم • وقلة منهم كانت مندفعة للتبشير بالدين المسيحي •
وبذلك اتخذت عملية الغزو الاستعماري في جزء منها صورة حملة صليبية •

احتلال المكسيك :

في ربيع عام ١٥١٩ ، هبط (فرنان كورتيز) على ساحل المكسيك مع (٦٠٠)
رجل ، وفي اواخر عام ١٥١٩ كان على مدخل مدينة مكسيكو حيث استقبله
الامبراطور « مونتيزوما Montezuma » في بادىء الامر بالترحاب • واستطاع
(كورتيز) بال ١٦ حصانا التي احضرها ، وقطع المدفعية العشر ، ان يؤثر على الهنود
الحمير ويدفع الشعوب الخاضعة لللازيك ، الى التحالف معه ، حتى ان بعضهم
ظن في لحظة من اللحظات بأن الاله الاكبر (كيتز الكوتل Quetzalcoatl) جاء
ليستعيد مملكته • اذ كانوا يعتقدون انه بعد ان تحول الى رماد ، سيعود بسحابة
بيضاء ويكمل عمله الخلقى •

الا ان (كورتيز) ما لبث ان ابان وجهه الصحيح ، واخذ يتصرف كسيد مطلق
وحطم الاصنام • فثارت (مكسيكو) ، واضطر الاسبان الى الهرب في ليلة ٣٠
حزيران عام ١٥٢٠ • الا انه بمساعدة الشعوب المعادية لللازيك ، هيا كورتيز عملية

اعادة الاحتلال : فحاصر الطرقات المؤدية الى العاصمة ، وقطع القناة التي تغذي بالماء . فانتشر الجذري ، ولم يقدر الامبراطور الجديد الشجاع (غاتيموق) (Guatemoc) من منع (كورتيز) من استعادة المدينة في ٢١ آب عام ١٥٢١ . ونهبت (مكسيكو) وخربت كلها تقريبا . ولما لم يجدوا ذهباً بالكمية المنتظرة . فان (غاتيموق) عذب ، ثم اعدم في عام ١٥٢٥ .

وقام كورتيز الذي عينه (شاركان) (قائدا عاما لاسبانيا الجديدة) باخضاع البلاد كلها ، وباعادة تنظيمها (١٥٢٧ - ١٥٤٤) .

احتلال بلاد الاينكا :

لم يجد الاسبان في المكسيك الذهب الذي كانوا يبحثون عنه بشراهة . الا انه على بعد ٤٠٠٠ كم الى الجنوب ، وفي قلب الانديز ، تحقق حلمهم على يد مغامرين (فرانسوا بيزارو) و (ديفود الماغرو) .

ففي عام ١٥٣٢ ، وباتفاق مع شارلكان ، جمعا جيشا صغيرا ، ودخلا الى (الانديز) ، واسرا الانكا (اتاهوالبا Atahualpa) (غدرا . وطلب (بيزارو) فدية خيالية لفك اسره ، وهي ان يملأ الحجرة التي يقيم فيها حتى ارتفاع قامته ، ذهباً واحجاراً كريمة . وقد اقتسم (بيزارو) ورفاقه هذا الكنز الثمين ، بعد أن بعث بالخمس الى شارلكان . واجبر (اتاهوالبا) على اعتناق الديانة المسيحية ، ثم قتل في ٢٩ آب عام ١٥٣٣ . وبعد ثلاثة اشهر ، احتلت مدينة (كوزكو) وفي عام ١٥٣٥ ، اقام (بيزارو) على الشاطئ عاصمة البيرو الجديدة وهي (ليما) ، والتجأ آخر (إنكا) الى الجبال ، حيث حزم أمره على المقاومة .

الا ان (بيزارو) و (الماغرو) لم يلبثا ان دخلا في صراع فيما بينهما ، قتل الاثنان خلاله . واضطرت القوى الاسبانية ان تمضي عشرة اعوام لاعادة النظام (١٥٤٤ - ١٥٥٤) والهدوء . وفي عام ١٥٧٢ قبض على (الانكا) الاخير ، وقطعت رأسه في الساحة الكبرى في (كوزكو) .

تنظيم الامبراطورية الاسبانية :

بينما كان البرتغاليون يستقرون في البرازيل ، فان الاسبان كانوا يوسعون

امبراطوريتهم ويحصنونها : فمن ناحية الشمال توقفوا عند حدود الصحراء ولم يتجاوزوا ابدا (كاليفورنيا المنخفضة) ، على الرغم من استكشاف (كورونادو Coronado) الذي بلغ (وادي كولورادو الكبير) في عام ١٥٤٠ • الا ان عملية الاحتلال كانت تسير قدما في الجنوب : فاحتلت (شيلي) ، واقامت منذ عام ١٥٣٥ مؤسسات على (ريودو لابلاتا) وبخاصة مدينة (بوينس ايرس) •

لقد بحث الاسبان طويلا ، ودون جدوى عن بلاد (الدرادو El-dorado) ذلك الملك الاسطوري الذي يغطي جسمه كله بالتبر ، قبل ان يستحم في البحيرة المقدسة • الا انهم اكتشفوا صدفة في بلاد البيرو ، وفي عام ١٥٤٥ ، منجم الفضة في (بوتوزي Potosi) وذلك على ارتفاع ٤٠٠٠ م •

وبينما كان البرتغاليون ، والاسبان ، يتقاسمون سيادة العوالم الجديدة ، فان الانكليز والفرنسيين ، كانوا يحاولون ان يدخلوا باب التنافس معهما • الا ان الطرفين لم ينجحا في ان تكون لهما حصتهما من تجارة الهند • ولكنهما بالمقابل حصلا على مكاسب كبيرة من (القرصنة) على حساب الاسبان ، والبرتغاليين : ففي عام ١٥٢٢ قاد القرصنة الفرنسيون الى ميناء (ديب) في فرنسا ثلاث سفن اسبانية ، اسروها وهي طافحة بالذهب ، والاحجار الكريمة • وبدءا من منتصف القرن السادس عشر اندفع الانكليز والفرنسيون بجراً نحو استعمار الاراضي الجديدة •

ظهور امريكا اللاتينية :

منذ منتصف القرن السادس عشر ، كانت الامبراطورية الاسبانية فسي امريكا منظمة تنظيمياً متينا ، ودقيقاً : فقد اسست مدن على نمط المدن الاسبانية ، وفتحت الجامعات وبدأت (حضارة جديدة) بالتكون • وشيدت الكاتدرائيات والقصور التي حفوظ فيها على النمط الاسباني • وادخل في كل مكان الدين الكاثوليكي والفرق الدينية ، ودواوين التحقيق (محاكم التفتيش) •

وطبقت الادارة المعنية ، والدينية ، على النموذج القشتالي • والف « مجلس الهند » الذي اتخذ مقره في (اشبيلية) ، وكلف بقيادة الادارة الاستعمارية

وعين نائبان للملك ، في كل من (مكسيكو) و (ليما) ، يمثلان ملك اسبانيا ، واحاطا نفسيهما بالابهة ومظاهر الترف ، والزهو . والى جانب فائبي الملك انشئت ابرشيتان ، تضم كل واحدة عدة اقسام دينية . وتضاعفت الاديرة التي اسسها الدومينكان والفرانسيسكان .

كما نظم استعمار تلك البقاع واستغلالها على النمط الاوربي : فقد تبليت التقاليد الزراعية السائدة ، بادخال الحصان ، وزراعة الرز ، والتوسع في زراعة الكرمة ، وتربية الثيران الصغيرة ، الى غير ذلك من الامور . ولكن غنى هذه المستعمرات بقي معتمدا على ذهب المكسيك ، وفضة البيرو . وكانا ينقلان الى اوربا بقاقلتين من الغلايين (الغليون نوع من السفن الكبيرة) ، كائنا تغادران في كل عام (اشبيلية) ، أو (قادس) ، باتجاه (قرطاجنة الجديدة) وتعودان محملتين حمولات ثمينة . أما احتكار التجارة ، فقد حفظ للاسبان ، حتى الذين يتاجرون ايضا مع الفيليبين .

ان هذه الثروات المكتسبة ، حصل عليها الاسبان نتيجة العمل القسري الذي فرض على الهنود ، آكان في المناجم ، ويدعى نظام (الميتا Mita) (١) او في المزارع الواسعة (الهاسيندا Haciendas) التي اعطيت لمستعمرين من الاسبان ، ويسمى (نظام الانكوميندا Encomienda) .

لقد كان المستعمرون يعاملون الهنود كما يعاملون الارقاء ، او اقنان الارض فانتشرت بينهم المجاعات والابوثة . وعشا كان ما اعلنه البابا على الملا ، بأن هؤلاء الهنود بشر ، وانسان كغيرهم ، ويجب الا تقيد حريتهم ، والا يحرموا من املاكهم والا يسترقوا ، وايده شارلكان في ذلك . ولقد حارب بعض رجال الدين بحماسة وبشدة الاضطهاد الاسباني ، ومنهم بخاصة الاسقف (لاس كازاس Las Casas)

(١) كان على السكان الاصليين ، ان يعملوا يوما في الاسبوع ، في مناجم الذهب والفضة ، من شروق الشمس الى غروبها ، ولا يعطون راحة سوى ساعتين فقط . وقد خفف هذا النظام في القرن الثامن عشر ، الا انه لم يبلغ حتى ١٨٢١ . وقد اسهم في اقفسار هضاب البيرو المرتفعة ، بسبب عدم تألف السكان مع هذا العمل ، وبسبب حوادث المناجم ، والهروب الى السهل .

عام ١٥٤٢ • وفي كتابه « تاريخ الهند الغربية » الذي نشره عام ١٥٤٣ ، شجب بشدة الطرز التي استخدمت في الاحتلال ، ونتائج الاستعمار ، وما جرته من بلاء على السكان الاصليين •

وفي الحقيقة اقترت بعض المناطق من سكانها بسرعة ، بسبب تلك المعاملة القاسية • فشرع الاسبان يحملون من افريقيا ، زنوجا للعمل في المزارع المستحدثة ، ولا سيما في الاتيل • وبذلك نشأ « نظام الاسترقاق الاسود » الذي اخذ بتفريغ افريقيا الغربية من سكانها وتخريبها ، وقد بقي قائما حتى القرن التاسع عشر • ولا تزال الولايات المتحدة تعاني نتائج لان في « مشكلة الزنوج » على اراضيها •

وفي (امريكا اللاتينية) تم التزاوج بين العناصر البيضاء الوافدة ، وبين الهنود ، والزنوج • ونجم عن ذلك فئة مولدة خليطة هم (الميتيس Métis) او الخلاسيون • الا ان هؤلاء كانوا محقرين ، ولا يمكنهم الوصول الى أي عمل او منصب هام ، بل كانوا يمنعون من ان يصبحوا قساوسة • وقد بقي هذا التمايز الطبقي ، حتى القرن التاسع عشر ، عندما قامت المستعمرات الاسبانية ، والبرتغالية بثوراتها •

الفصل الثالث

الثورة الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية

لقد كان للكشوف الجغرافية نتائج اقتصادية بعيدة المدى في حياة اوربا والعالم على السواء ، بل كانت ثورة اقتصادية غيرت الحياة الاقتصادية الاوربية تغييرا عميقا ، ولا سيما التجارة منها .

١ - فقد تغيرت الجغرافية الزراعية والحيوانية :

اذ حمل المستعمرون من اوربا كثيرا من النباتات الى امريكا كالقمح ، وقصب السكر ، والكاكاو ، والنيلىج ، والكرمة . وكذلك الحيوانات كالثور الصغير ، والغنم ، والخيول . وبالمقابل فان امريكا عرفت اوربا بنباتات لم تكن تعرفها كالذرة ، والفاصولياء ، والبطاطا ، والتبغ ، والبندورة ... الخ . ولكن هذه التغيرات لم تحمل معها تطورا مباشرا في طرق الزراعة وتقنياتها ، ولذا بقيت الاطر السابقة على ما هي عليه مع تعديلات محدودة . وبقي اهتمام الفلاح منصبا على زراعة القمح للاغنياء . والشعير والشيلم والشوفان ، للفقراء . وقد بقيت البلاد تتعرض للمواسم السيئة ، وتخضع للسجاعات ، وللاارتفاعات الفاحشة في الاسعار . الا ان الهام في التطور الزراعي . ظهور المزارع الاوربية الكبيرة في البلاد المستعمرة ، التي تملكها الاورسون ، واستغلوها لصالحهم ، واستخدموا في فلاحتها السكان الاصليين والزنوج .

٢ - ان الثورة الاقتصادية الحقيفيه كانت في الواقع في ميدان التجارة . فالكشوف الجغرافية الكبرى بلبت أسس التجارة السابقة : فالسفن البرتغالية والاسبانية اخذت تجلب من الشرق ، ومن الغرب الامريكي ، حمولات ثمينة

احتكرتها الدولتان الايريتان • وبذلك غدت (لشبونة) سوق التوابل الكبير و (اشبيلية) ميناء الاتصال مع امريكا • وكان على الدولتين توزيع تجارتها في اوربا ، للتزود منها بالمقابل ، بالبضائع المختلفة : كالقمح ، والاقمشة ، والاسلحة • وكانت الموانئ المستفيدة من التجارة الجديدة : (هامبورغ) في الشمال على الارض الالمانية ، و (بريستول) في انكلترا ، والموانئ الفرنسية على الاطلنطي ، و (انفرس) في الاراضي المنخفضة ، التي قام رخاؤها على النقل البحري ، وشهرة بورصتها ، والتسهيلات التجارية فيها • وشاركتها هذه الشهرة مدينة (ليون) الداخلية في فرنسا ، التي كانت مركزا كبيرا للمبادلات العالمية • أما موانئ البحر المتوسط ، التي انحرف عنها خط التجارة العالمي ، نتيجة تحوله الى الاطلنطي ، والمحيطات الاخرى ، فقد اصبحت بركود نسبي • ومنها مدن ايطاليا ، والبندقية بخاصة ، التي فقدت احتكار نقل التوابل ، الذي كان بيدها سابقا ، حتى اضطرت الى استيراد فلفلها الخاص من لشبونة • الا ان هذه المدن ، او جمهوريات ايطاليا التجارية ، لم تفقد فعاليتها الاقتصادية وازدهارها ، اذ تابعت الحصول على ارباحها عبر البنوك ، والصناعة النسيجية ، والتجارة ذاتها • فالبحر المتوسط على الرغم من سقوطه عن عرشه السابق ، بقي محافظا على قيمته التجارية كوسيط بين الشرق الاقصى ، واوربا • كما ان العالم العربي لم يفقد دوره ، كمقر للطرق البرية المتجهة الى ذلك الشرق الاقصى ، او الوافدة منه • فمقابل نشاط الطرق البحرية المحيطية ، عملت التجارة الاوربية متعاونة مع العرب على ارضهم ، في احياء الطرق البرية ، ولا سيما الطريق الصحراوية ، التي تصل بلاد الشام بالعراق ، ومنها الى الخليج العربي ، فالمحيط الهندي • اذ ان هذه الطريق على الرغم من صعوبتها ، تبقى اقصر من طريق رأس الرجاء الصالح ، واكثر أمنا • ومن ثم ، اخذت الدول الاوربية ، تسعى لعقد اتفاقات تجارية مع (الدولة العثمانية) المسيطرة على العالم العربي في القرن السادس عشر ، وكذلك مع (الدولة الصفوية) في ايران • ونجم عن ذلك ما يسمى في تاريخ العلاقات العثمانية - الاوربية « بالامتيازات » •

ومع ان العلاقات التجارية بقيت محافظة على مظاهر الماضي في بعض جوانبها في بادئ الامر ، الا انها في الواقع اخذت تنطلق تدريجيا من تلك المظاهر •

فعلى الصعيد المالي : ازداد اعتمادها على المصارف • فمن المعروف ان المصارف وجدت اولاً في المدن الايطالية ، حيث كانت مشروعاتها التجارية تحتاج الى اموال ضخمة ، ولا سيما في (فلورنسة) • بل ان الاسرة الحاكمة نفسها في هذه المدينة ، وهي اسرة (مديتشي) كانت من اصحاب المصارف • ولقد نشطت البنوك وتأسسها ، بعد الكشف الجغرافية ، ولا سيما بعد ان سمحت البروتستانت الكالفنية بالتعامل بالفائدة ، واصبح النقد ذاته سلعة ، وانتشرت مضاربات البورصة واشتدت الحاجة الى النقد المتنوع لشراء مختلف السلع • وفما بعض هذه البنوك في القرون التالية ، الى حد التحكم في اقتصاد البلاد التي يعمل فيها ، وفي سياستها ، كبنك (امستردام) في هولاندة ، و (بنك انكلتره) في انكلتره •

وعلى الصعيد المالي ايضا ، يلاحظ انتشار استخدام الطرق الحسابية ، التي ادخلها الايطاليون في العمل التجاري ، واكتسبوا كثيرا منها من العرب • وشرع (رجل الاعمال) يستعمل (الشيك) ، و (الحوالة) ، اللذين يجنبانه اخطار نقل النقد عبر الطرقات • كما انه اخذ يستفيد من رؤوس الاموال التي وضعتها المصارف تحت تصرفه •

هذا ، وقد استفادت بعض البيوتات التجارية الكبيرة ، وبخاصة في المانيا الجنوبية ، من هذا التطور في طرق التجارة العالمية ، فاتجهت بتجارها نحو المحيط الاطلنطي ، ووسعت علاقتها التجارية الى ابعد مدى ، واوجدت عملاء لها في مراكز انصباب السلع كلشبونة ، وانفريس ، واشبيلية ، واخذت تساعد الحكومتين الاسبانية ، والبرتغالية ، المحتكرتين لسلع المستعمرات ، في توزيع تلك السلع ، فاثري اصحابها ثراء فاحشا • ومن هؤلاء (آل فوغر Fugger) و (الويلسر Welser) من اوغسبورغ في المانيا وغيرهم ، الذين اصبحوا من الممولين الكبار ، بل اشبه بمصارف متنقلة ، لها تداخلاتها السياسية ، وتمويلاتها للملوك ، والاباطرة • وهؤلاء لم يعتمدوا على تجارة السلع والبضائع فقط ، وانما عملوا في تجارة (النقد) التي درت عليهم ارباحا خيالية • فالقرن السادس عشر كان بدء (قوة الرأسمالية المصرفية) •

وبمناسبة الحديث عن (النقد) فانه لا بد من التأكيد انه ازداد استخدامه

النقد زيادة كبيرة وجاء استثمار المعادن الثمينة في أمريكا ليدفع التقدم النقدي قدما بل ويضخمه . فقد كان هناك ذهب (الانتيل) و (المكسيك) أولا (اربعة اطنان في المتوسط سنويا اعتبارا من عام ١٥٥٠) ثم فضة (البيرو) التي استخرجت بكميات كبيرة من منجم (بوتوزي) بدءا من عام ١٥٥٦ . فبين عامي (١٥٨٠-١٦١٠) كان يصل الى اسبانيا سنويا ٢٠٠ طن من الفضة .

وبالطبع ترك التضخم النقدي هذا اثره الكبير في الاسعار ، فشرعت بالارتفاع . وكان الارتفاع في بادىء الامر بطيئا (٥٠٪ في الثلث الاول من القرن السادس عشر) ثم تسارع بدءا من عام ١٥٣٥ حتى تضاعفت الاسعار خلال الثلث الثاني من القرن . وبعد تباطىء خفيف عاودت الحركة تصاعدها . وغدا المستوى في عام ١٦٦٠ اربع مرات اكثر ارتفاعا في المتوسط عما كان عليه قبل مائة عام . (انظر الشكل ٩ مكرر) .

واول البلاد التي تأثرت بارتفاع الاسعار هذا كانت (اسبانيا) ، ثم انتقل الامر الى اوربا الغربية . وفي الواقع ، لقد اخذت اسبانيا تشتري اكثر فاكثر منتجاتها من الخارج (كالحبوب والمنسوجات من فرنسا مثلا) وهذا ادى لتصدير مستمر لمعادنها الثمينة او نقدها .

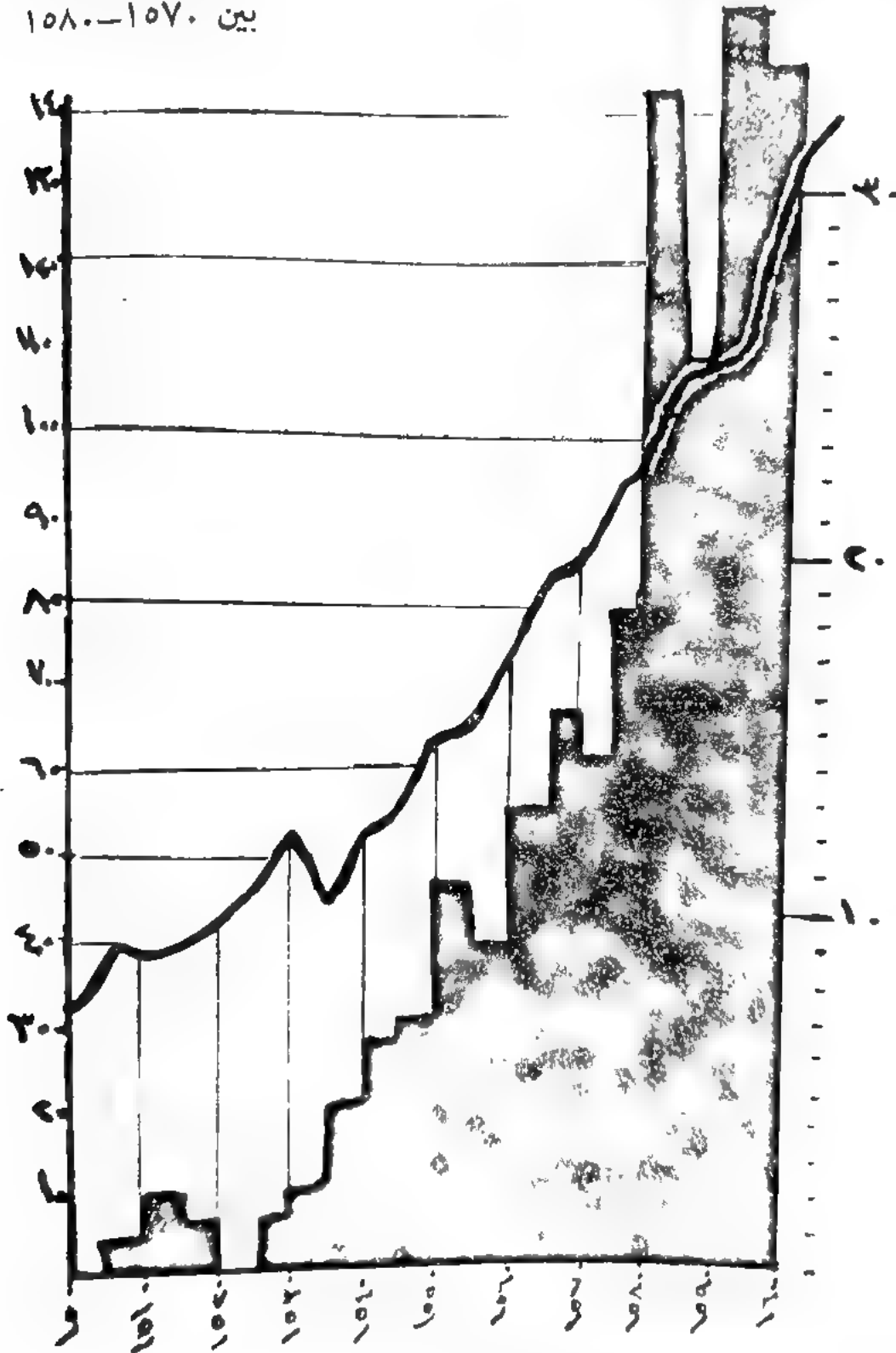
ولم تتأثر اوربا وحدها بازمة النقد وانما تسربت الى كل منطقة البحر المتوسط ، والى الدولة العثمانية والبلاد العربية التابعة لها ، ولا سيما ان مبادلات تجارية نشيطة كانت قائمة بينها وبين البلاد الاوربية .

وقد ادهش ارتفاع الاسعار التصاعدي في اوربا المعاصرين وصدمهم . ولم يستطيعوا ان يفهموا تفهما صحيحا ظاهرة التضخم النقدي هذا . فبالنسبة لبعضهم لم يكن ارتفاع الاسعار سوى نتيجة انخفاض قيمة النقد ، وهذا امر كان كثير الحدوث في تلك الحقبة . اما ان تكون كثرة الذهب والفضة ، وهما « ثروات ثمينة » قادرة على اثارة غلاء الاسعار ، فهذا امر لم يكونوا مستعدين البتة لتقبله أو تصديقه .

الا ان القاضي الفرنسي (جان بودان) اوضح عام ١٥٦٨ ، بان هذا الارتفاع

أسعار السلع
وغدت نسبتها (١٠٠)
بين ١٥٧٠ - ١٥٨٠

المعادن الثمينة
بملايين البيزوس (العملة الإسبانية)



خطان بيانيان متقابلان يوضح أحدهما (المملوء) ، تدفق الذهب والفضة
وثانيهما (الخطي) ، ارتفاع الأسعار
الشكل (٩) مكرر

في الاسعار هو نتيجة مباشرة لتدفق المعادن الثمينة . اذ ان الطلب على السلع غدا اكبر ، فمن الطبيعي ان ترتفع اسعار المنتجات ، وبالتالي ان ينشط الانتاج الزراعي والصناعي . كما أخذ المفكرون يربطون ظاهرة « تفجر الاسعار » هذه بنمو « عدد السكان » أيضا أي بزيادة عدد المستهلكين .

ومن التطورات في حقل التجارة ايضا تكون الشركات الكبرى للتجارة البعيدة . لان التجارة العالمية الواسعة التي كانت الكشوف الجغرافية سببا لها ، بحاجة الى رؤوس اموال ضخمة لتجهيز الاساطيل التجارية وحمايتها وشراء السلع ... الخ من الامور . ومن الشركات الكبرى التي كونت وكان لها دورها الهام في التاريخ « شركة الليفانت » الانكليزية التي اتخذت احد مراكزها مدينة (حلب) ، و« الشركة الهولندية الشرقية المتحدة » ، التي نشأت من تجمع ثماني شركات ، واخذت تصرحها من الدولة بحق عقد المعاهدات مع ملوك البلاد المتاجر معها ، وتجهيز الاساطيل وتسليحها ، وتجميع الجنود . وعلى غرارها كانت « شركة الهند الشرقية الانكليزية » التي قامت باستعمار الهند .

ومن التطورات التجارية ايضا تحسين الطرق الداخلية في كل دولة من الدول ، ووسائل النقل فيها ، وتطوير النقل البحري كذلك ، من ارتقاء بيناء السفن والبحث عن قوة اخرى غير الرياح لتسييرها ، والسعي لايجاد وسائل افضل تعين الملاحين في تحديد مواقعهم ، وتحفظ سلامتهم . الا ان هذه التطورات في طرق المواصلات بقيت بطيئة .

وهنا لا بد من الملاحظة ان الدول قد اتجهت الى تنمية اساطيلها التجارية والحربية ، لحماية قوافلها التجارية من القرصنة ، وممتلكاتها وما وراء البحار من عدوان الدول الاخرى ، ولتوسيع تلك الممتلكات . فالى القرن السادس عشر يرجع اهتمام اسبانيا وفرنسا ، وانكلترا ، بتنمية اساطيلها .

ومن الضروري الاشارة في نطاق التطورات التجارية ان حركة النقل التجاري عبر بحر البلطيق قد تضاعفت ست مرات خلال القرن السادس عشر . فقد كان الخشب ، والقطران ، والفرو ، والقمح البولوني ، كلها تنتقل من الشرق الى

الغرب • والملح ، والاجواخ ، والتوابل ، من الغرب الى الشرق • وحل معز
« العصبه الهانسية » السابقة في التجارة . الروس ، والالمان ، وبخاصة الهولنديون
حتى انه كان بيدهم في عام ١٦٠٠ (١٦٠) من مراكب النقل التجاري هذا .

٣ - اما في ميدان الصناعة فقد بقي النظام الصناعي الحرفي قائما ، ويقدم
المواد الضرورية للحياة اليومية ، والملابس اللازمة للفلاحين • وكانت « النقابات »
تفرض تنظيمات صارمة وقيودا شديدة • ولكن لما كانت لا تمتد الى كل مكان ، ولا
تحتوي جميع المهن ، فقد استطاع رجال جريئون ان يؤسسوا مشروعات صناعية
حرة ، بهدف زيادة الانتاج ، امام الحاجة الملحة لبعض المصنوعات • بل ان بعض
النجار اخذ يلجأ الى الفلاحين في القرى ، ليقوموا بصنع ما يلزم لهم من سلع .
مقابل تقديمهم المادة الخام لهم ، ووسيلة الانتاج ، ثم يقوم هؤلاء بجمع المصنوعات
وبيعها • وهذا « النظام المنزلي » في الصناعة بدأ بالانتشار في انكلترا خاصة ،
وهو تملص من نظام « النقابات » السائد في المدن ، والذي كان قيذا على
التطور الصناعي • وهكذا تزايدت تدريجيا (الاعمال الصناعية الكبيرة) ، الا ان
الصناعة الكبيرة بمفهوم القرن التاسع عشر كانت نادرة بل يمكن القول لا وجود
لها • ويمكن القول ان صناعة التعدين كانت الصناعة الاكثر تطورا في هذا
القرن ، لحاجة المدفعية لها • وقد توسعت المناجم في انكلترا ، والمانيا الجنوبية ،
(بالنحاس والفضة) وبقي الفحم الحجري قليل الاستثمار • وقد ظهرت عدة
مصانع للحديد ، والنحاس • وكان البرونز اكثر استخداما من الحديد في صناعة
المدافع • ويلاحظ ان الصناعة المعدنية هذه ، كانت مستهلكة كبيرة للخشب ، وقد
نظمها بدقة وصرامة فرانسوا الاول في فرنسا ، وكذلك صناعة الزجاج • وقد
نشأت ، نتيجة ذلك التطور ، ارستقراطية من ارباب صناعة الحديد ، والزجاج ،
وتحتهم تقوم كتلة الحرفيين ، التي بقيت تعمل كما هو الحال في العصور الوسطى •
وقد حافظت الصناعة النسيجية على مكانتها الاولى ، الى جانب صناعة التعدين ،
كصناعة الجوخ في الريف الفلاماني ، وفي المدن الايطالية ، والانكليزية • وصناعة

الحرير في البندقية ، وفلورنسة ، وجنوة ، وتور ، وليون . وصناعة المنسوجات القطنية الأكثر شعبية ، في فرنسا ، والاراضي المنخفضة .

اما الطباعة وهي الصناعة الثورية بحق ، فقد ازدهرت في المدن الكبيرة (اقرس ، البندقية ، وليون) . ولم تكتف بالاحرف اللاتينية بل ظهرت المطابع بالاحرف العربية ايضا .

٤ - **تنامي المسؤولية الاقتصادية للدولة :** ان الكشوف الجغرافية بما درته من اموال على الدول المستعمرة ، ضاعفت في الواقع من مسؤولية « الدولة القومية الحديثة » في الميدان الاقتصادي . وورثت الدولة بذلك عمل المدينة في العصور الوسطى ، أي ان الدولة بمجموعها اخذت تنظم النشاط التجاري، وتستغله لمصلحتها . فملكا لشبونة ، وبرشلونة ، هما اللذان كانا يشرفان على نشاط بلادهما التجاري ، بل ويحتكران معظم المنتوجات الجديدة الواردة من البلدان المكتشفة . ولم تكن اسبانيا والبرتغال هما الوحيدتين اللتين اتبعتا هذا الطريق ، بل كانت هناك انكلترا، وفرنسا ايضا ، ولاسيما بعد ان رأت الدول ، في الربع الاخير من القرن السادس عشر . ذبولا في الازدهار الاقتصادي ، نتيجة التبللات النقدية ، والحروب الدينية ، والاهلية ، والدولية ، التي اعاقت التجارة ، وخربت المدن . وهكذا عمل المصلحون الاقتصاديون ومنهم (كولير) في فرنسا في القرن التالي على وضع اسس اقتصادية تبناها الدول . واطلق على ذلك التنظيم الاقتصادي السائد في معظم الدول اسم « الميركانتيليزم Mercantilisme » ويتضمن هذا النظام ، ان الدولة تشرف على النظام الاقتصادي وتحميه من منافسة الدول الاخرى . ولما كان يعتقد ان الثروة الموجودة في العالم هي ثابتة ، فانه كان على كل دولة ان تجذب اليها الذهب والفضة . ويكون ذلك بزيادة صادراتها الى الخارج ، والتقليل من وارداتها . ومن هنا كانت ضرورة تشجيع الصناعة الوطنية ، وتنظيم التجارة ، واحتكارها ، وايجاب مستعمرات ، واستثمارها لصالح الدول المستعمرة فقط . وهذا النظام هو في الحقيقة السياسة الاقتصادية للقرن السابع عشر .

النتائج الاجتماعية وانفكرية للتطورات الاقتصادية والكشوف الجغرافية :
عشت اوربا في القرن السادس عشر تطورات اجتماعية كان اثر التسرع
الاقتصادي فيها واضحا ، وان كانت هذه التطورات في ذاتها استمرارا للتغيرات
التي اشير الى وجودها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، مع تسرع
اكبر ، واهمها :

١ - تتابع الزيادة السكانية في اوربا : وهذا ما ساعد على دفع النشاط
الاقتصادي قدما . فحوالي عام ١٦٠٠ أي في آخر القرن السادس عشر واول
السابع عشر ، كان يسكن ايطاليا (١٢) مليون نسمة ، واسبانيا (٧) ملايين .
واقل من ذلك في انكلترا ، وربما (٢٠) مليوناً في الامبراطورية المقدسة ، و (٢٠) مليوناً
في فرنسا . وقد تبدو الارقام ضعيفة بالنسبة للوقت الحاضر الا انها تفصح عن
زيادة بالنسبة لعصرها .

٢ - وبالمقابل يلاحظ زيادة عدد سكان المدن ففي ١٥٠٠ كان هناك مدينتان
يزيد عدد سكانهما عن (١٠٠٠٠٠) نسمة ، اما في ١٦٠٠ فقد غدا هناك (١١)
مدينة . لكن شروط الحياة في هذه المدن لم تتحسن : فالوفيات بين الاطفال كانت
ضخمة ، فقد كان يموت في الاحياء غير الصحية بمعدل طفل من اربعة أو ثلاثة
قبل بلوغه السنة .

وقد تأثر سكان المدن بارتفاع الاسعار اكثر مما استفادوا : لان الاجور التي
ارتفعت بدورها ، كانت قليلة بالنسبة لتصاعد الاسعار . وبذلك تكونت
(بروليتاريا) حقيقية في المدن مكونة من المشترين الحرفيين ، والشركاء ، أي
مساعدى معلمي الحرفة ، الخاضعين لرؤساء النقابات ، الذين كانوا يعينون الاجور،
ويتفقون مع السلطة ضد العمال . وقد حدث في عام ١٥٣٩ اضراب شهير ، قام
به عمال المطابع في ليون . امتد ثلاثة اشهر . فما كان من السلطة الا ان منعت كل
تجمع للعمال عام ١٥٤٥ ، كبرا كان ام صغيرا ، واطلقت يد ارباب الحرف
باختيار عمالهم من الفرنسيين أو الاجانب (١) .

وقد بتي احتراف المهنة يجري - كما كان عليه الامر في العصور الوسطى -

(١) انظر الامر الملكي الذي اصدره ملك فرنسا بهذا الشأن في :

Dupâquier et Lachiver, Op. cit, P. 27.

بالتدرب عليها عند (معلم) من معلمها ، الا ان فرص المتمرن أو الشريك للوصول الى رتبة « المعلمية » بقيت ضئيلة .

٣ - ان التطور الاقتصادي وارتفاع الاسعار لم تستفد منه طبقة النبلاء الصغار ، التي كانت ضحية هذا التطور . فالضرائب الني كان يدفعها اليهم فلاحوهم لم تعد كافية لسد حاجاتهم . فلكي يعيشوا في بحبوحة اضطروا للقيام بالحرب ، ووضع انفسهم اكثر فاكثرا ، في خدمة من يكون قادرا على الدفع لهم . وبالفعل قدموا خدماتهم للملوك والامراء الذين يدفعون لهم ، وكانوا مستعدين لكل المغامرات . وقد عملوا في هذا المعسكر ، أو ذاك خلال « الحروب الدينية » . ففي كل بلاد اوربا آنذاك كانت الحروب الاهلية متناوبة مع الحروب الخارجية .

اما الطبقة البورجوازية فقد اغتنت نتيجة التجارة البحرية الكبيرة ، واشترت اقطاعات ارضية كاملة ، ومعها لقب النبالة ، وسحقت الاسر القديمة العريقة بمظاهر ترفها وفخفختها المفرقة . ولذا انصرف المجتمع الثري الى التنافس في مضمار الترف ، ودخل في هذا التنافس الملوك والامراء انفسهم .

وكانت (الكنيسة) لا تنظر الى ثرائها نظرة تقدير وانما نظرة شك وحذر . الا ان افراد هذه البورجوازية كانوا ينظرون الى ثرواتهم كدليل الرضا والحماية الالهية . وكانوا مستعدين لتلقف الافكار الجديدة ، وقد كونوا في المدن حيث ازدهروا علما مغلقا على نفسه ، بعيدا عن الشعب الذي يستخدمونه في اعمالهم . وقد عملوا على القبض على المؤسسات في المدن ، وعلى بناء « قصور المدينة » حيث تقيم السلطة الحاكمة كدليل على قوتهم الاقتصادية والسياسية النامية .

ويجب الا ينسى في هذا التطبق الاجتماعي الفلاحون ، الذين لم يطرأ على حياتهم تغيير يذكر . سوى انصراف بعضهم الى عمل حرفي أو صناعي : (كالغزل وصنع الادوات والنسيج) الى جانب عمله الزراعي . وقد ظلت حياتهم بشكل عام يسودها الفقر ، وتتناوبها المجاعات ، وتبلبلها الحروب ، ويطنى عليهما الجهل .

واذا كان للكشوف الجغرافية وآثارها الاقتصادية تلك النتائج الاجتماعية ،

— ١١٣ — تاريخ اوربا في العصر الحديث

فقد كان لها بالطبع منعكساتها الفكرية على المجتمع الاوربي والعالمي . فآثر امر واضح وفعال في تطور المعرفة البشرية ، ونموها في مختلف الميادين : فقد اتسعت ساحة المعلومات الجغرافية ، وازدادت دقتها ، وتقدم من جراء ذلك علم الجغرافيا . وعلم الخرائط . وكذلك خطأ علم النبات ، وعلم الحيوان ، والتعدين ، وعلم الفلك ، خطوات كبرى نحو الامام ، وذلك بفضل ما اكتشفه الانسان من نبات جديد ، وحيوان جديد ، ومجموعات من النجوم ، بالاضافة الى اثبات كروية الارض عمليا . فهذه الفتوحات العلمية الجديدة كانت مجالا فسيحا للعلماء كي ينكبوا على دراستها وبحثها .

واثارت الحضارات المختلفة التي احتك بها الاوربيون ، ولا سيما تلك التي لاقوها في امريكا ، اذهان الباحثين ، فانعكفوا على دراسة مظاهرها . والامر نفسه يقال عن الحضارات الشرقية ، الهندية ، والصينية ، بل العربية الاسلامية . وبذلك نمت المعرفة التاريخية نموا كبيرا ، وتدعمت الحركة الانسانية واسرعت خطاها .

وصحب حركة الكشف الجغرافية ، كما اسلفنا القول ، انتشار المسيحية عن طريق المبشرين . فبعد ان كانت مقتصرة في العصور الوسطى على معظم اوربا وعلى اجزاء محدودة من آسيا وافريقيا ، فانها امتدت بعد الكشف الجغرافية على امريكا الشمالية والجنوبية ، واخذت تشق طريقا اوسع في افريقيا وآسيا . ولاسيما بعد ان تأسست فرقة « اليسوعيين » التبشيرية عام ١٥٣٤ ، وقام البابا بتنظيم العمل التبشيري ضمن « لجنة الدعاية » .

وفي الواقع أن الآثار الفكرية للكشف الجغرافية عديدة ، فبالاضافة الى ما ذكر سابقا ، هناك ما خلفته في الادب ، وفي موضوعاته التي طرقها . وما كتاب « يوتوبيا » « لتوماس مور » الانكليزي سوى مثال حي على ذلك .

وخلاصة القول ان التطورات الاقتصادية اوجدت في اوربا « روحا مادية » قوية اثرت في الفكر الديني ، وجعلته اكثر واقعية واهتماما بشؤون الدنيا ، كما ان الآفاق الجديدة الواسعة اضعفت الثقة بالكنيسة وتعليمها ، مما مهد الجو لتقبل افكار « الاصلاح الديني » .

الفصل الرابع

النهضة الاوربية

التعريف بالنهضة :

لقد أشرنا في التمهيد « للعصر الحديث » ، وخلال الحديث عن المظاهر الفكرية في اوربا في اواخر القرن الخامس عشر ، ان فكر الانسان الاوربي شرع ينفذ عنه عقلية العصور الوسطى ، ويتملص تدريجيا من معظم مظاهر تراثها . ان نمو هذه الحركة الثورية التحررية في الفكر ، وفي جميع مظاهر النشاطات الانسانية ، هي بايجاز ما يمكن ان يطلق عليه اسم « النهضة الاوربية » .

ان الصورة التي لدينا عما يسمى « بالنهضة » في اوربا ، رسمها بالدرجة الاولى المؤرخ الفرنسي « ميشله Michelet » . عام ١٨٥٥ والسويسري « بوركهاردت Burckhardt » عام ١٨٦٠ . فكلاهما جعل من « النهضة » مرحلة من التاريخ الانساني تتميز بصفات خاصة . فهذه المرحلة بالنسبة اليهما تنافس جذريا « مرحلة العصور الوسطى » ، وتحتوي بشكل كامل جميع سمات « العالم المعاصر » الذي عاشا ضمنه في القرن التاسع عشر . ففي نظر « بوركهاردت » ان هذه المرحلة هي من فكر الشعب الايطالي المستيقظ ، الذي وعى نفسه . فهي اذا نتاج في العقلية ، أو بتعبير آخر ، ان « النهضة الاوربية » كما اسلفنا القول هي خروج اوربا على عقلية القرون الوسطى ، والانطلاق نحو مسار جديد في التفكير . « فالكنيسة المسيحية » ممثلة بالبابا ، ورجال الدين ، كانت مسيطرة بتعاليمها على الاوربيين ، وكان حملة الثقافة والعلم الوحيدون هم رجال الدين ، فمنهم العلماء ، ومنهم الفلاسفة . وكانت كلماتهم هي الثقة والحجة فكل ما يقولونه

صحيح ، وما يأمرزون به يطاع طاعة عمياء . وكان هذا في الواقع عائقا في ارتداء العلوم ، والمعارف . لان العلم عندهم هو ما وجد في الكتب المقدسة ، التي كرلهم وحدهم حق تفسيرها . أما الثقافة اليونانية القديمة ، والرومانية ، فهما ثقافتان وثنيتان عمدت الكنيسة الى حجبهما عن ناس اوربا . وبذلك اغلقت الفكر الاوربي ضمن حواجز الدين ، كما ارادته هي وشرحته ، فقتلت روح البحث والتجديد فيه .

ولم تكتف بذلك بل عمدت الى النهي عن التسرع بجسأل الحياة الدنيوية ونعيمها ، ودعت الناس الى الفقر والتقشف ، بل وتعذيب النفس ، وحرمانها . لاز ذلك هو الطريق الى السعادة الابدية في الآخرة . وبذلك يلاحظ انها تدخلت في كل دقائق حياة الفرد من ميلاده الى وفاته ، وسيرتها ضمن الحدود والقواعد التي ارتأتها .

ففي عصر (النهضة) أو (عصر احياء اوربا) نبذ الاوريون تدريجيا هذه التعاليم الكنسية ، وعادوا الى كتب الاغريق ، والرومان القديمة ، والى كتب العرب المسلمين الاصيلة ، او المترجمة عن اليونانية ، يدرسونها ، ويتدارسونها . الى جانب « الكتاب المقدس » ، فبعثوا دراسة فلسفة ابن رشد في مدرسة (بادوا) الايطالية . واثارت هذه الدراسات لهفتهم العلمية للاستزادة ، فشرعوا يبحثون رينقبون عن الكتب اليونانية ، واللاتينية القديمة ، وكذلك عن الآثار الغنية في اطار الحضارتين القديمتين . وهذا ما عرف باسم « الحركة الانسانية » أو « الهومانيسم Humanisme » . وهكذا اتيج للاوريين تعرف الحضارات الاوربية المزدهرة قبل ظهور المسيحية . وهذا ما فتح امامهم ابواب موازنة هذه الحضارات بحضارة العصور الوسطى ، التي عاشوا فيها ، ومكنهم من الانفتاح على مبادئ ، واتجاهات ، لم يألفها الفكر البشري في العصور الوسطى . ولعل اهم تلك الاتجاهات ، والافكار ، والمبادئ ، النظر الى الحياة الانسانية على انها غاية في ذاتها ، وان الانسان مركز لها ، ومقياس لكل شيء فيها . ومن ثم لا بد من احترام ذاتية الفرد ، والاعتراف بوجوده الكامل : فكرا ، وروحا ، وجسدا ، والاعتراف بحقوقه : كحرية التعبير عن نفسه في الآداب ، والفن ، والعلم

والدين ، والسياسة ، وربط مركزه الاجتماعي بكفائاته ، ونشاطه الحياتي ، لا بأصله ، ونسبه ، كما كان سائدا في العصور الوسطى . فالإنسان إذا ليس عاجزا امام الطبيعة ، بل هو قادر على كشف اسرارها ، وحل القضايا التي تواجهه في دنياه ، بدلا من الاستسلام للظروف والاضاع السيئة ، على أمل ان يجد حياة افضل في العالم الآخر .

فإنسان عصر النهضة هو « الإنسان الفرد » المتعشش للابداع . وللمجد الشخصي . وللنفخار ، وكانت الحقائق الموضوعية التي توصلت اليها « العصور القديمة » . هي سنده في العودة الى الواقع . والى اكتشاف العالم الخارجي . والإنسان . اللذين تجاهلتها العصور الوسطى . واحتقرتها . وسط النصوص المقدسة . والتلاعب بالالفاظ . ومن هذا الاتجاه نشأ تذوق « العلوم الانسانية » . والاندفاع نحو البحث ، والدراسة ، وانكباب الانسان على التفكير بمشكلات حياته الدنيوية ، اكثر من استغراقه في بحث القضايا الدينية . ان « الحركة الانسانية » إذا اكدت على مفهوم (الفردية Individualisme) . واشتط الكثيرون في تحقيق هذا المفهوم في الحياة الخاصة ، والعامية ، مما ادى الى نبذ الروابط الاجتماعية ، وسيطرة الاثرة والانانية على النفوس . فالفرد غدا هو نفسه قانونه الاخلاقي الخاص ، ومن ثم نما تشككه بالدين ، وغدا لا دينيا او علمانيا .

وبكلمة موجزة عمل « الانسانيون » على تفسير النصوص اليونانية ، واللاتينية ، والعربية ، وعملوا على كشف ما فكرت به العصور القديمة ، وما فكر به الفلاسفة المسلمون بالانسان ، وبالعالم ، وكيف ادرك الطرفان « فن الحياة » وكيف فهما « الجمال » .

وفي الحقيقة كان « للفردية » التي نادت بها الحركة الانسانية اثرها الكبير في الحياة الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية ، حتى انه يمكن ارجاع كثير من الحوادث التاريخية الكبرى التي تميز مطالع العصور الحديثة اليها . كالثورة الاقتصادية ، والتوسع التجاري ، والتضخم الرأسمالي ، وانحلال الدولة المسيحية الواحدة ، وظهور الدول القومية الحديثة .

فالنهضة اذاً هي المرحلة التي خرجت فيها اوربا العصور الوسطى على ثقافتها الدينية ، ووحدتها السياسية واللغوية ، وتبنت ثقافة دنيوية ، وعاشت في أطر وحدات سياسية قومية متميزة ، لها لغاتها الخاصة وكياناتها •

ولا بد من الملاحظة مرة أخرى ، أن « النهضة الاوربية » لم تحدث فجأة ، وانما جاءت تدريجيا وعلى مرحلة طويلة امتدت ثلاثة قرون تقريبا (من القرن الثالث عشر الى القرن السادس عشر) • وهذا التحول الثوري في الفكر والفن بخاصة يختلف من حيث بدايته ، ومدته ، وقوته ، من دولة اوربية الى اخرى • فبينما ظهرت تبشير النهضة في اوربا ، في ايطاليا منذ القرن الثالث عشر ، وبلغت اوجها في القرن الخامس عشر (الكواتروشنتو) ، واولئل السادس عشر • فان مثلا مثل فرنسا ، واسبانيا ، وانكلترا ، وهولاندة ، لم تستجب للتطورات الجديدة الا في أواخر القرن الخامس عشر • ولم تثمر النهضة ثمرا يانعا الا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، حيث كانت اندفاع النهضة في ايطاليا قد اخذت تضعف ، وتآلقها يخبو •

ويمكن ان يلاحظ الى جانب ما ذكر سابقا ، ان كل امة اوربية اشتهرت في الحقيقة بمظهر من مظاهر تلك النهضة : فتبنت ايطاليا بالنهضة الادبية ، والفنية ، والمانيا بالنهضة الدينية او (الاصلاح الديني) • أما في فرنسا وانكلترا ، فقد ظهرت النهضة متنوعة الصور ، وبأطرها الادبية والفنية ، والدينية ، والعلمية •

العوامل التي ادت الى ظهور النهضة :

لا بد للادرس ان يتساءل عن الاسباب التي ابرزت هذه التطورات في اوربا في هذه الحقبة الزمنية • وفي الواقع يمكن ان يرجع انبثاق النهضة الى العوامل الآتية :

اولا - اثر الحضارة العربية الاسلامية :

فقد قال المؤرخ « غوستاف لوبون »^(١) لولا الحضارة العربية الاسلامية لتأخرت النهضة في اوربا عدة قرون . وبالفعل ، لقد كان لاتصال اوربا بالحضارة العربية الاسلامية الاثر الكبير في تلك النهضة . فمن المعروف انه بينما كانت الغزوات الجرمنية تستقر على الارض الاوربية في مطلع العصور الوسطى ، وتسدل ستارا كثيفا على الحضارة الرومانية فيها ، كان الاسلام يظهر في شبه الجزيرة العربية ويمتد بمثله وقيمه الانسانية الرفيعة الى الشام ، والعراق ، وفارس ، وبلاد ما وراء النهر ، والسند في قارة آسيا ، والى مصر ، والسودان ، وبلاد المغرب في افريقيا ، والى الاندلس وصقلية وجنوبي فرنسا وايطاليا وكريت في اوربا . وصهر الفكر الاسلامي في تلك الربوع في بوتقته الخلاقة افضل عناصر الحضارات المعروفة كاليونانية ، والفارسية ، والهندية ، فنمت « الحضارة العربية الاسلامية » وترعرعت ، وكانت اعظم حضارة عرفت العصور الوسطى في جميع المجالات . ولم تبق هذه الحضارة حبسية جدرانها ، بل انها تجاوزت حدود الخلافة الاسلامية والدويلات ، التي اينعت في ظلها ، وشعت على العالم المعروف آنذاك وبخاصة اوربا . ولقد تم التحاك بين الحضارة العربية الاسلامية ، واوربا العصور الوسطى ، عبر اربعة مراكز رئيسية هي :

- أ - الاندلس التي فتحها العرب في اواخر القرن الاول الهجري / الثامن الميلادي وبقي حكمهم فيها حتى سقوط غرناطة بيد الاسبان في سنة ١٤٩٢ .
- ب - صقلية وجنوبي ايطاليا اللتان فتحهما العرب في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، وامتد حكمهم لصقلية حتى اواخر القرن الحادي عشر الميلادي .
- ج - شرقي حوض البحر الابيض المتوسط الذي شهد نشاطا تجاريا واسعا مع المدن الايطالية ، وحروبا عنيفة بين اوربا والعرب ، في ديار بلاد الشام ، تدعى (بالحروب الصليبية) ، وكان من نتائجها الاولى ، انشاء الاوربيين على ارض تلك الديار ممالك ، استقر بعضها ما يقارب القرنين .

(١) « غوستاف لوبون G. Le Bon » طبيب وعالم اجتماعي فرنسي (١٨٤١ - ١٩٣١) ، ومؤرخ له عدة مؤلفات ، منها « حضارة العرب La Civilisation des Arabes » وقد ترجم للعربية . « وحضارات الهند » و « علم نفس الشعوب » وغيرها .

د - جنوبي شرقي فرنسا الذي اقام فيه العرب المسلمون من ٧٣٧ م وانتهى
نهاية القرن العاشر . وتوغلوا منه الى سويسرا عام ٩٣٥ م (١) .

ففي « بلاد الاندلس » اينت الحضارة الاسلامية ، واجتذبت الجامعات
الاسلامية فيها ، ومنها جامعة « قرطبة » ، ودور الكتب ، طلاب العلم من اوربا .
فوفدوا اليها ليتعلموا على علمائها ، ويفتروا من معارفها ، ويتعرفوا الحياة
الاقتصادية والفكرية ، للعرب فيها ، بل ومعتقدهم الديني ، ثم ليعودوا الى
اوطانهم ، حاملين معهم ثمار ذلك الاحتكاك . ومن هؤلاء الذين درسوا في
اسبانيا ، واشتهر اسمهم « الراهب جرير Gerbert » (٢) ، الذي أصبح
« البابا سيلفستر الثاني » (٩٩٩-١٠٠٣) ، والذي كان له اثر في الفكر الاوربي
الديني ، اذ ينظر اليه على انه من طلائع الاصلاح الديني . كما ينسب اليه نقل
الارقام العربية الى اوربا ، التي اوجدت تطورا عميقا في العلوم الرياضية .

ورافق دراسة الاوربيين في اسبانيا المسلمة ، « حركة ترجمة » واسعة للكتب
العربية الى اللاتينية : الكتب العربية الاصلية ، والكتب العربية المترجمة عن
اليونانية ، كتب ارسطو (٣) ، وافلاطون (٤) ، واقليدس (٥) ، وبطليموس ،

(١) انظر حول العرب في تلك المنطقة :

G. Le Bon, La Civilisation des Arabes PP. 323 - 327.

P. Riche, Grandes Invasions et Empires (V^e - X^e) Larousse de Poche

Paris 1968. P. 220.

(٢) انظر حوله جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ١٦٣ - ١٦٨ .

(٣) ارسطو فيلسوف يوناني (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) كان تلميذا للفيلسوف
افلاطون مدة عشرين عاما . ثم أصبح استادا « لاسكندر المقدوني » . اشتهر
بمعرفته الواسعة جدا والعميقة ، ومؤلفاته الكثيرة وكشوفه العلمية المتنوعة .
فهو اول من اوجد علم التشريح ، والفيزيولوجيا المقارنة ، والمنطق ، وتاريخ
الفلسفة وغيرها . الا انه تميز بالذات في حقل الفلسفة التي تعتمد على « الواقعية »
G. L. E. Vol. I. P. 571

(٤) افلاطون فيلسوف يوناني (٤٢٨ - ٣٤٧ ق.م) كان من تلاميذ الفيلسوف
سقراط ، وقام برحلات كثيرة الى مصر ، وبرقة ، واطاليا الجنوبية ، وصقلية .
وفي اثينا انشأ حلقة فلسفية (الاكاديمية) . خلف افلاطون ٢٨ حوارا
Dialogues ومن اهمها (الجمهورية) ، و (القوانين) . وكل (المحاورات)
تطرح سقراط وهو يناقش ويجادل .

Ibid, Vol. 8. P. 553.

وغيرهم . وتناقل علماء الغرب ، وفلاسفتهم ، أسماء الفلاسفة العرب وعلمائهم

أمثال ابن سينا (٦) وابن رشد (٧) والرازي وغيرهم ، ومعارفهم .

وكانت مدينة « طليطلة » التي سقطت بيد الأسبان عام ١٠٨٠ م . هي المركز الهام للترجمة في القرن الثاني عشر حيث أسست مدرسة خاصة بذلك فيها .

→

(٥) **أقليدس** رياضي يوناني من القرن الثالث ق.م درس الرياضيات في الإسكندرية حوالي ٣٠٠ ق.م وقد عرف بكتابه الشهير (العناصر) . الذي كان يمثل أرفع الهندسي النموذجي .

(٦) **ابن سينا** : وهو أبو علي الحسين بن عبد الله ويسميه الأوربيون « Avicenne » (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ / ٩٨٠ - ١٠٣٧ م) . ولد بالقرب من بخارى وتلقى علمه فيها . وقد درس الفقه ، والمنطق ، والهندسة ، وعلم النجوم . والطبيعات ، والطب ، والالهييات . وقد نظر إليه في الشرق على أنه أمام العلوم كلها . وكان أثره في الطب كبيرا وقد ألف فيه كتابه (القانون) . كما تميز بالفلسفة وله فيها كتابه (الشفاء) . وقد ترجم الكتاب الأول إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر (ترجمة جيرار الكريموني) ، وطبع في أواخر الخامس عشر ثلاثون طبعة . وترجم إلى معظم لغات العالم ، وبقي أساسا لتعليم الطب في جامعات فرنسا ، وإيطاليا حتى أوائل القرن التاسع عشر .

— ده بور : ابن سينا . في الموسوعة الإسلامية العربية . مجلد ١ . ص ٢٠٣ وتعليق محمد ثابت الفندي عليه .

— جلال مظهر المصدر نفسه . ص ٢٤٢ فما بعد .

(٧) **ابن رشد** : أبو الوليد محمد بن أحمد . وقد عرف عند الغربيين باسم « أفروس Avirroes » . ولد بقرطبة ٥٣٠ هـ - ١١٢٦ م . وكان جده قاضي الجماعة فيها ، ودرس الفقه والطب ، وانتقل إلى مراكش حيث قرره خليفة الموحدين « أبو يعقوب يوسف » إليه . وولي القضاء بأشبيلية . وقرطبة درس أرسطو وشرح عددا من مؤلفاته . واتهمه بعض الفقهاء بالمروق عن الدين ، فأحرقت مؤلفاته في الفلسفة . له عدة مؤلفات ، وما صل منها بالعربية « تهافت التهافت » ، وهو رد على كتاب الفزالي « تهافت الفلاسفة » وبعض شروح على كتب أرسطو . وقد ترجمت كتبه إلى العبرية ، واللاتينية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كما ترجمت في الخامس عشر والسادس عشر ، وكان لها أثرها الكبير في أوروبا حتى منعها رجال الدين المسيحيون في القرن الثالث عشر .

ولابن رشد كتاب في الطب سمي « الكليات » وقد ترجم هو الآخر ، وكان له شأنه في أوروبا ، وأن لم يضارع كتاب (القانون) لابن سينا .

— كارادوفو : ابن رشد . في الموسوعة الإسلامية العربية . ج ١ ص ١٦٦ وحاشية جميل صليبا على البحث .

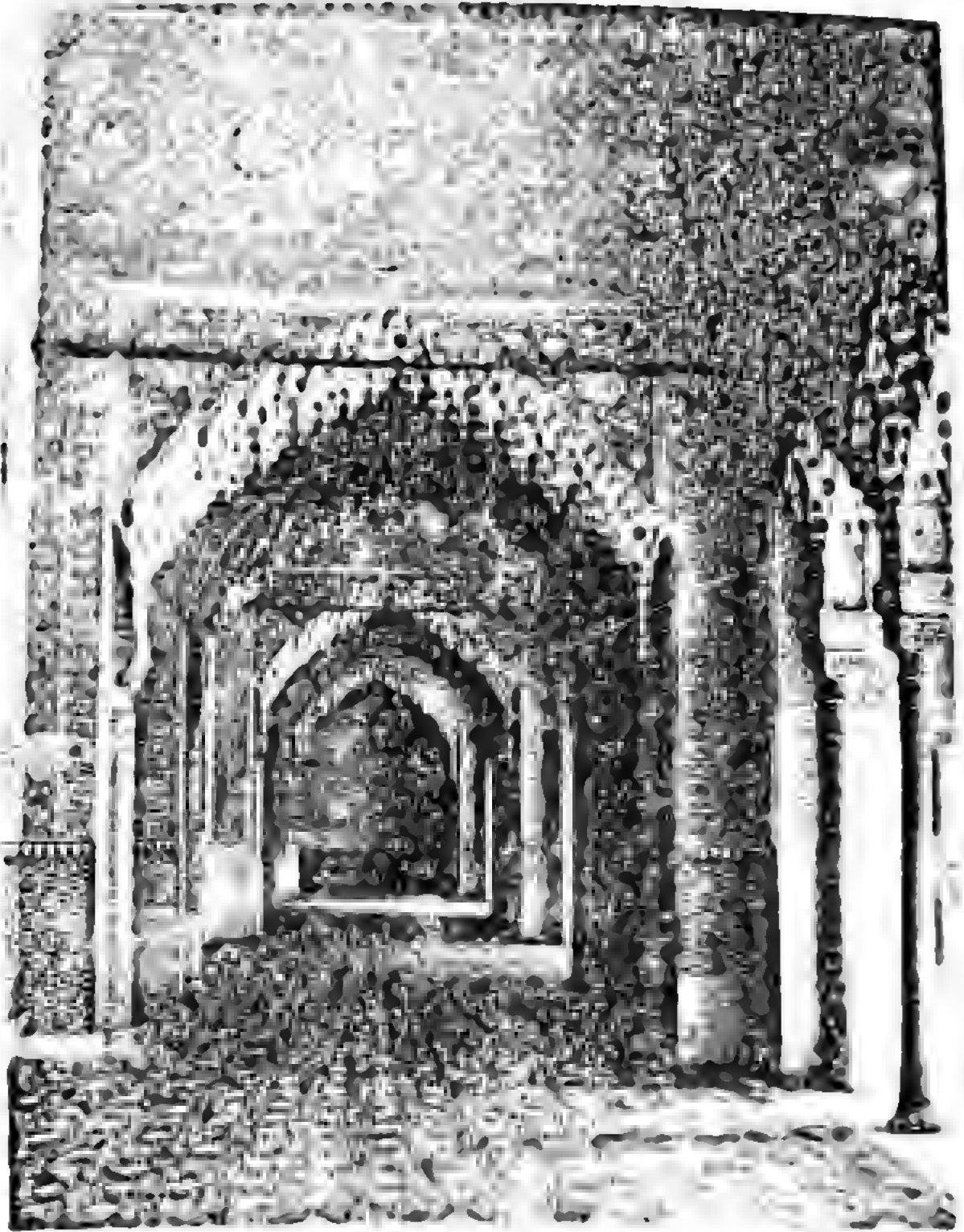
الاعلام : ج ٦ . ص ٢١٢

ومن اشهر المترجمين فيها «جيرار الكريموني» الايطالي الاصل (١١١٤-١١٧٨م).
وقد اتم ترجمة حوالي ثمانين مؤلفا في مختلف العلوم والمعارف .

وبقيت معالم الحضارة العربية الاسلامية بجذورها ثابتة ومستعقة على الارض
الاسبانية . حتى الى ما بعد قضاء الاسبان والبرتغال على كل النفوذ السياسي
العربي فيها . بل اذ كثيرا من المنجزات الحضارية العربية ، افادت هؤلاء فسي
كشوفهم الجغرافية التي قاموا بها ، وفي تطوير الحياة الاقتصادية ، وذلك قبل
ان يتم نفي بقاياهم من اسبانيا في مطلع القرن السابع عشر . وبذلك تكون «الحضارة
العربية الاسلامية» قد لعبت دورا فعالا في الحركة الانسانية الاوربية ، بنقلها
التراث اليوناني القديم الى اوربا ، عبر ترجمتها له ، وبايصالها لها فكرها الفلسفي
والعلمي الذاتي والمبدع ، وفنها الرفيع . (انظر الشكلين ١٠ ، ١١ كنموذج للفر
الاسلامي في غرناطة) .

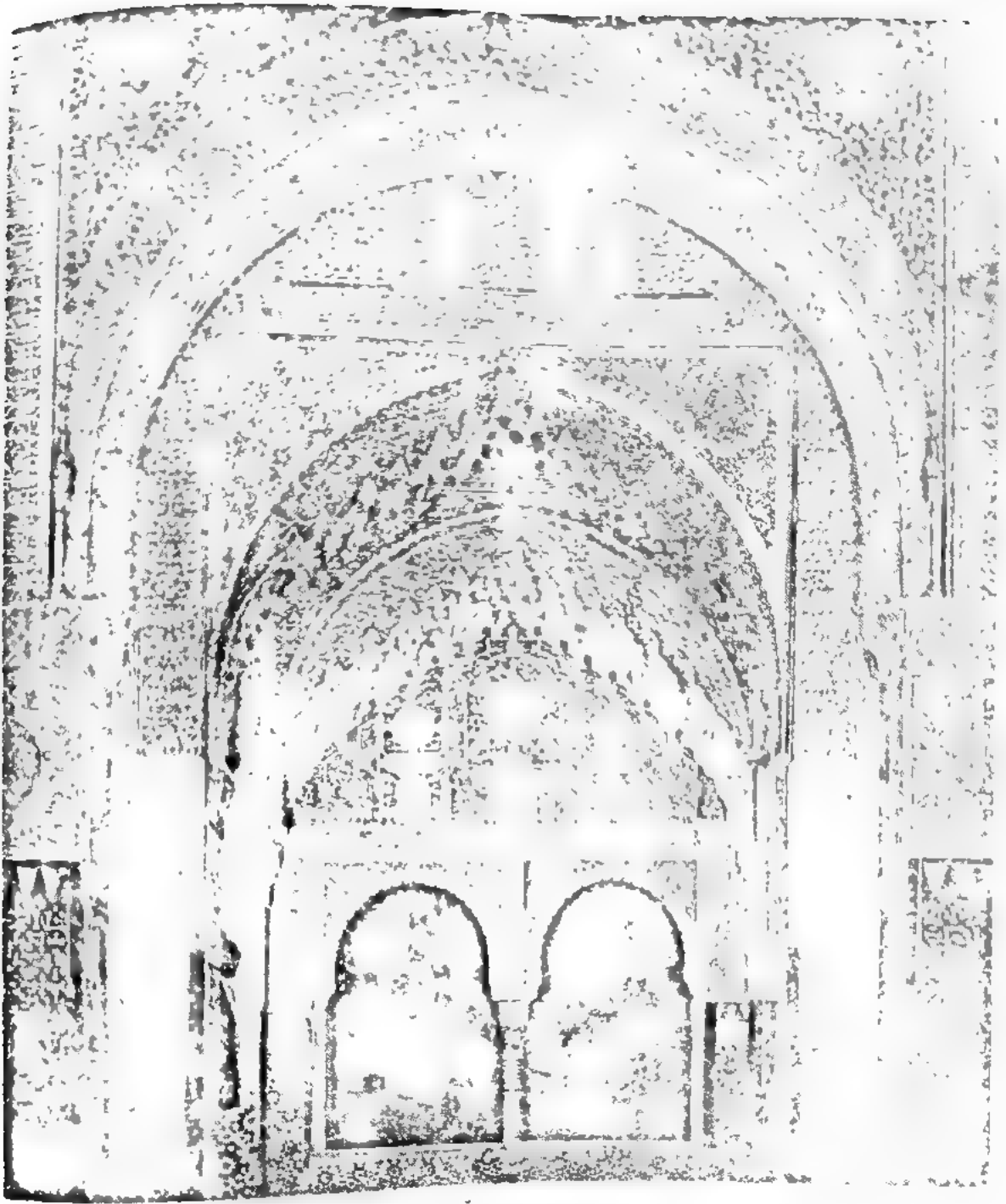
أما في صقلية ، حيث أقام المسلمون ما يقارب مائتين وثلاثين عاما ونيف ، وفي
جنوبي ايطاليا مدة اقصر ، فان الحضارة العربية الاسلامية وجدت فيها مرتعا
خصيبا . وعندما انتزع (النورمان) هذه البقاع من العرب ، فانهم لم يبعدوا الى
اقتلاع جذور الثقافة العربية المتمكنة فيها ، بل انهم على العكس ، حاولوا ان يجذبوا
اليهم ائمة العلماء العرب ، من امثال (الشريف الادريسي) ، الجغرافي ، العربي ،
الكبير . كما اسسوا جامعة « نابولي » التي اخذت على عاتقها ترجمة الكتب
العربية الى اللاتينية ونشرها في انحاء العالم الغربي ، وكذلك مدرسة (سالرنو)
للطب التي اشتهرت فيها شخصية « قسطنطين الافريقي » (١٠٢٠-١٠٨٧ م) .
وقد قام قسطنطين هذا بترجمة بعض الكتب الطبية العربية الى اللاتينية .

والى جانب المسكين السابقين اللذين تسربت عبرهما الحضارة العربية
الاسلامية الى اوربا ، فقد كان هناك الاحتكاك العربي - الاوربي في بلاد الشام ،
ومصر ، عن طريق الاعمال التجارية اولا الحروب الصليبية ثانيا . فهذه الحروب
كانت على الرغم من هزيمة الغرب فيها نعمة عليهم ، اذ اتاحت للاوروبيين ، وبخاصة
لأولئك الذين اقاموا في بلاد الشام ابان الحروب الصليبية وبعدها ، فرصة واسعة
للاتصال بالحضارة العربية الاسلامية . ومن ثم فانهم اخذوا الكثير عنها في



التكفل - أ -
مقايمة الملوك في العصر العثماني

النواحي الاقتصادية - منذ القرن الذي أعظمها عند بحث التجارة سابقا -
والاحتماء ، م المكنية ، والحام كثيرا من مؤلفات العرب في العلوم ، والرياضيات ،



الشكل - ١١ -
من قاعة الملوك في قصر غرناطة

والفلسفة ، ه حملوا معهم عند عودتهم الى بلادهم بعض الفنون والصناعات ،
كالصناعة الحريرية الراقية والتوسع في صناعة الورق .

اما المسلك الرابع ، الذي تم فيه احتكاك الاوربيين بالعرب والحضارة

العربية الاسلامية . فقد كان جنوب شرقي فرنسا حيث استقر العرب في البروقنس ومقاطعة آرل ، ما يقارب قرنين من الزمن ، وحتى اوائل القرن العاشر ، وتركوا اثرا كبيرا في مجتمع تلك البقاع من الناحية الاقتصادية . والفكرية . والاجتماعية . بل ان بعض الباحثين يرون ان شعر التروبادور الذي ظهر في هذه المنطقة كان متأثرا تأثرا كبيرا بالشعر الغنائي العربي وكذلك الموسيقى^(١) .

ومن ذلك العرض الموجز يتضح ان الاحتكاك بالحضارة العربية الاسلامية عبر المسالك السالفة الذكر ، بل وعن طريق الاحتكاك التجاري كذلك مع المغرب العربي الافريقي نفسه ، كان عاملا اساسيا في تقدم مختلف نواحي الحياة في اوربا ، وفي تحرير اذهان الاوربيين من كثير من الاوهام والخرافات وفي دفعهم في طريق التفتح الحياتي و « الاحيائي » وفي سبيل البحث . وانتقيب ، وانتحس بظواهر الجمال ، مما مهد لانبثاق النهضة الاوربية .

ثانيا - حالة الاستقرار النسبي في اوربا : ولا سيما في غربها وشمالها . وبدء ظهور الدول القومية ، والملكيات المركزية الاستبدادية المستندة الى البورجوازيات التجارية . ففي القرن الثالث عشر هدأت غارات (النورمان) ، وفي منتصف القرن الخامس عشر انتهت حرب المائة عام ، والانشقاق البابوي ، وظهرت حكومات قوية في الدانمارك ، والنرويج ، وفرنسا ، والسويد ، وانكلتره ، واسبانيا . وحتى ترضي تلك الحكومات ، البورجوازية التجارية التي تعتمد عليها ، وتفسح لها مجال الارباح التي ترغب بها ، كان عليها ان توفر النظام والسلام في داخل حدودها . ومن ثم فانها عملت بكل ما في وسعها لتجعل القانون يسود فوق العادات والتقاليد المحلية . وهذا الامن النسبي في الدول الناشئة حديثا اوجد الجوا لملائم لكي تنتش بذور النهضة وتنمو .

ثالثا - تقدم الحياة الاقتصادية ، ونمو التجارة بخاصة وتزايد الثروة . وهذا قد ظهر مبكرا ، وبشكل واضح في المدن الايطالية ، لسيطرة تلك المدن ، وبخاصة البندقية على تجارة البحر المتوسط ، او بالاحرى تجارة الشرق في اوربا . فعبّر

(١) انظر حول الموضوع ، جلال مظهر . المصدر نفسه . ص ٢٥٢ فما بعد .

هذه التجارة كانت تنقل المنتوجات من الشرق . ولا سيما التوابل . وانحررت الى اوربا . وفي الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه هذه التجارة الهامة . فسر الدول القومية الناشئة حديثا . كانت تعمل على تنمية اقتصادها الخاص ، وزيادة حجم التبادل التجاري فيها ، وفيما بينها . وتسعى الى توسيع اسواقها . ولقد ادى النمو التجاري هذا الى قوة الطبقة البورجوازية الرأسمالية ، مما مهد للانفجار التدريجي للنظام الاقطاعي ، المستند الى الارض والزراعة ، والذي كان من المؤسسات الرئيسية في العصور الوسطى . ومن ثم قيل « ان مجتمع النهضة هو صنعة نمو البورجوازية ، والرأسمالية ، والملكية الاستبدادية المطلقة » . اذ عملت هذه « الطبقة الجديدة » على تشجيع العلم ، والادب ، والفن ، مستفيدة مما تملكه من مال ، ومنافسة بذلك لطبقة النبلاء الاقطاعيين المتدهورة اقتصاديا واجتماعيا .

رابعا - تشجيع الراسماليين وحكام : من ملوك ، وامراء ، وبابوات ،
رجال الفكر الحديث والادب والفن . فقد تباهى هؤلاء وتباروا في ان يجعلوا اماراتهم وممتلكاتهم وقصورهم كعبة يؤمها كبار الادباء ، والشعراء ، والشعبيين . وتنافسوا في اقتناء الكتب النادرة ، والمخطوطات القديمة ، اليونانية ، واللاتينية . والعبرية . والعربية . وارسلوا البعثات الى الشرق للبحث عن تلك المخطوطات ، واقاموا المكتبات الثمينة . واشتهر في هذا الميدان أمراء فلورنسة (آل مديتشة) ، وامراء ميلانو (آل سفورزا) ، وملوك فرنسا واشهرهم (فرنسوا الاول) في القرن السادس عشر (١٥١٥ - ١٥٤٧) ، الذي انشأ مكتبة ضخمة عرفت فيما بعد في باريس باسم « المكتبة الوطنية » ، كما اسس « كلية فرنسا » لتكون مركزا حرا للدراسات الانسانية ، والبحوث العلمية . أما في انكلترا فان ملوكها (آل تيودور) لم يكونوا اقل حماسة للادب والفن من ملوك فرنسا ، واشتهر منهم الملك (هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) ، والملكة اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) .

ولقد سار (البابوات) في روما على النهج نفسه فعملوا على تقريب الادباء والفنانين اليهم واستعانوا بهم ، لاحاطة انفسهم بمظاهر العظمة ، والابهة ،

ومنافسة الامراء ، والملوك • ومن اشهر هؤلاء البابا « جول الثاني » (١٥٠٣ - ١٥١٣) و « لئون العاشر » (١٥١٣ - ١٥٢١) •

خامسا - النهضة المبكرة في ايطاليا : ومن عواملها الكبرى ، الى جانب ما ذكر سالفا في اطار العوامل العامة ، **مجد ايطاليا التاريخي** لما كانت مركزا للحضارة الرومانية القديمة : فأرضها تعج بالآثار الفنية الغابرة ، ومكتبات اديرتها زاخرة بالمخطوطات اللاتينية واليونانية السالفة • فما كان على الايطاليين ، وقد تفتحت اعينهم على نمط جديد من الحياة ، والتفكير ، الا ان يبحثوا ، وينقبوا ، ليعثوا تراث الاجداد ، ويحتذوا حذوه •

والى جانب هذا ، فان انتقال كثير من العلماء والمفكرين الاغريق الى ايطاليا ، حاملين معهم العديد من المخطوطات الاغريقية ، بعد فتح الاتراك العثمانيين للقسطنطينية ، جعل الايطاليين بتماس مباشر مع الفكر الاغريقي • هذا بالاضافة الى ان بلاد اليونان نفسها قريبة من ايطاليا ، وصلات التجاور ، والتزاور • والتجارة ، قائمة بين الطرفين مما سهل على الايطاليين نقل التراث اليوناني في الاداب والفنون •

فايطاليا ، وقد سبقت غيرها من البلدان الاوربية في ميدان النشاط الاقتصادي والاهتمام بالحياة الانسانية الواقعية المادية ، من ترف وبذخ ، وتحرر ، وبالحياة الادبية والفنية ، فانها كانت مركز اشعاع حضاري لبقية اجزاء اوربا ، وبخاصة انها كانت محجا للكثير من المسيحيين على اعتبار انها مقر للبابوية زعيمة المسيحية • وبذلك انتقل اليها طلاب الادب ، والفكر ، والفن ، ليدرسوا في جامعاتها العديدة (جامعة سالرنو ، وبولونيا ، وسين ، وبادوا ، وبافيا ، وتورينو وغيرها) ، ويطلعوا على معالم اليقظة فيها ، ثم يعودوا منها الى بلادهم ، حاملين معهم بذور الفكر الجديد ، وتأثيرات المدارس الادبية والفنية السائدة فيها ، والكتب المطبوعة ، كما ان مفكري ايطاليا وفنانيها قصدوا بالمقابل ، البلدان الاوربية ، فنشروا فيها افكارهم وآدابهم وفنونهم •

سادسا - استخدام الحروف المتحركة في الطباعة ، ونمو صناعة الطباعة كما

اسلف القول . ولا سيما في البندقية . مما ادى الى طباعة الكثير من الكتب بسرعه ودقة . ونفقت قليلة . وسهل سبل تداولها لمعظم فئات الشعب . فوصلت مؤلفات الفلاسفة ، الاغريق والعرب . الى ايدي الناشئة ، وكذلك الكتاب المقدس . فتعرفوا الافكار السائدة في الحضارات الاخرى ، واصول الكتاب المقدس ، كما تضاعف نشر الكتب التي تتحدث عن الفن القديم .

مظاهر النهضة :

١ - النهضة الفنية وتمثلت بولادة فن جديد ، تبدى بخروج فن التصوير ، والنحت ، والعمارة ، والموسيقى ، عن مألوف فن العصور الوسطى . ولقد ولد هذا الفن الجديد في ايطاليا . وكان بالنسبة لمبدعيه ، هو « الاحياء » للفن الحقيقي الذي اختفى منذ العصور القديمة . وكان (الفلورنسيون) اول من ثار على التقاليد الفنية السائدة في العصور الوسطى ، واحتقروا (الفن القوطي)^(١) وعادوا الى البنى الفنية التي قلدوا بها العصور القديمة .

ولكن الفن الجديد لم ينتصر مباشرة ، اذ ظلوا ينون حتى في القرن السادس عشر ، كنائس غوطية في انحاء اوربا ، كفرنسا ، واسبانيا ، وحتى في ايطاليا ذاتها أم « الفن الجديد »^(٢) .

ولقد استخدم الفنانون « الحديثون » تقنيات جديدة : ففى فن العمارة استعادوا طرائق البناء عند الرومان ، وفي النحت ، استندوا الى معرفة متقدمة

١١- هو الفن الذي ازدهر في اوربا بين القرن الثاني عشر والرابع عشر . والعنصر المميز فيه هو البنية « الحبيكية Ogival » « للسقف ، أي ان السقف يكون على شكل حبك او عصيات بارزة تتصالب مع بعضها ، وتكون زاوية ينتهى اطرافها بصورة عامة على خط المراكز . كما اعتمد هذا الفن المعماري على الاقواس المنكسرة ، وعلى الدعامات الضخمة بدل الاعمدة في داخل الكنائس بصفة خاصة . وفي الخارج هناك شبكة من الدعامات ، تسند الجدران والسقف وتنتهى بانصاف اقواس . كما يتميز بنوافذه المفطاة بالزجاج الملون ، الذي يسمح بدخول النور الى الصالات الواسعة . وفي الواقع كان « الفن القوطي » في عمارة الكنائس عملاقا بسعة قاعات كنائسه ، وارتفاع اسقفها (٤٢ م في كنيسة اميان في فرنسا) . الا انه يتميز في الوقت نفسه بالانسجام الذي يوحى بالتوازن والانتظام . ومن اشهر الكاتدرائيات المبنية على هذا النمط « الفن الكاتدرائية شارتر » في فرنسا . كما تميزت الكنائس القوطية بغنى تزييناتها الخارجية التي اعتمدت على تماثيل المسيح ، ومريم العذراء ، والقديسين .

جدا ودقيقة ، للجسم البشري الذي لم يترددوا في تمثيله عاريا • وفي الرسم ، اعتمدوا على قوانين « علم المنظور » ليعطوا انطباعا بالعمق ، كما استخدموا الرسم بالزيت الذي كان « الفلامانيون » قد شرعوا باستخدامه منذ القرن الخامس عشر ، والذي يعطي للصورة ملامح ارق واغنى • وفي الوقت ذاته ظهر (المنظر الطبيعي) في الفن ، وبرزت صورة الحياة الانسانية العادية ، بدل قصر الرسم على الامور الدينية كما كان عليه الامر خلال العصور الوسطى • واقتبس الفنان احيانا موضوعاته من الميتولوجيا اليونانية ، والاساطير الرومانية •

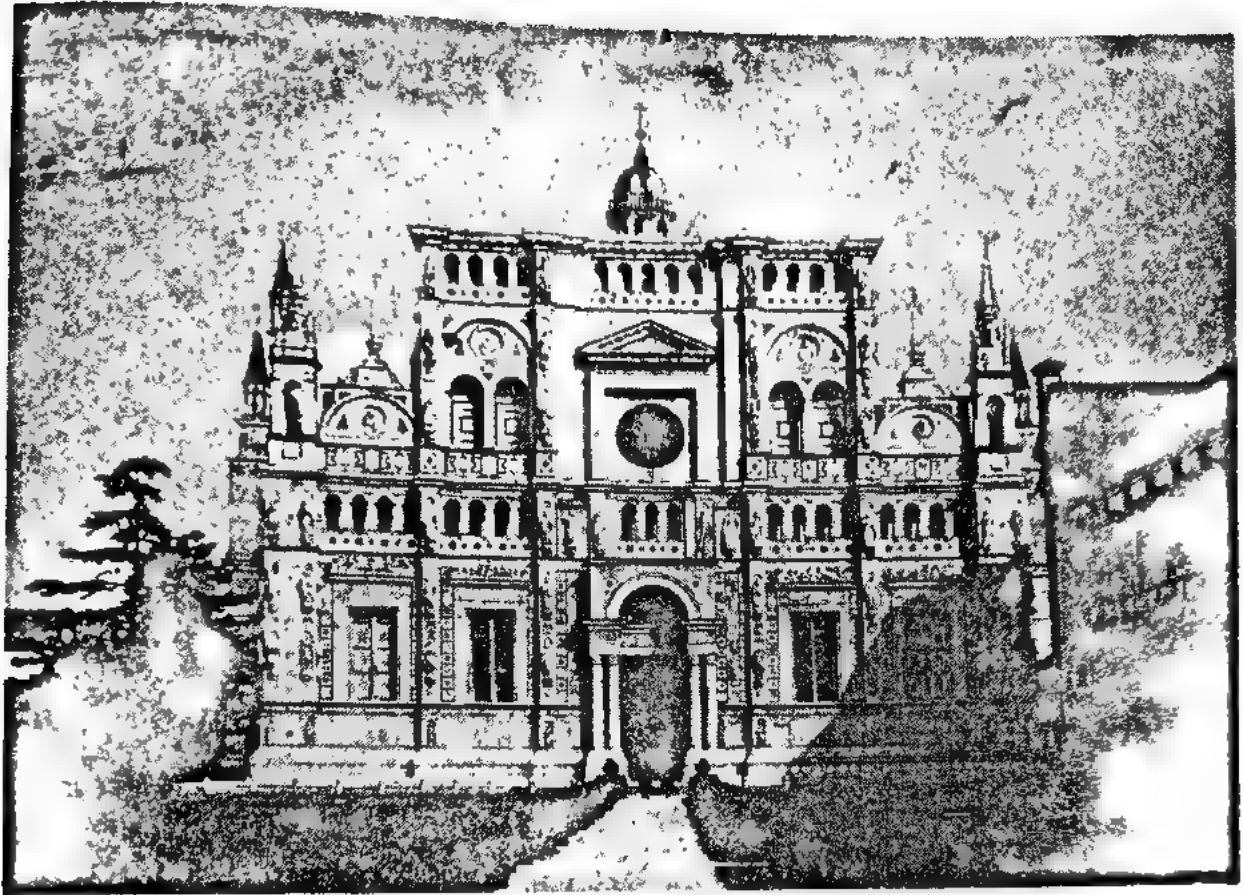
ان هذه العودة الى الفن القديم ، الذي اتخذ نموذجا منذ الآن فصاعدا ، هي (احياء أو نهضة) ، طالما كان هناك ، كتاب ، وفنانون ، وجمهور ، يحسون انهم قد وجدوا في هذا الفن تراثا جميلا واصيلا ، خاصا بهم ، وتقليدا نشأ على الارض الايطالية ، وحطمت جزءا منه الغارات الجرمنية ، وغضبة المسيحية ضد كل ما يمكن ان يذكر بالوثنية فيه •

لقد اتجه الاهتمام نحو آثار الابنية الرومانية ، وشرع بالتنقيب عنها ، وسعى الكثيرون لتكوين مجموعات من الآثار القديمة لديهم • وهكذا عمل المهندسون المعماريون ، على اقامة القصور الشامخة للامراء ، والملوك والاغنياء البورجوازيين ، وعلى بناء الكنائس الرائعة ، وطبقوا فيها اصول فن العمارة الروماني ، واليوناني^(١) (انظر الشكل ١٢ ، ويمثل كنيسة باقيا) ، وزينوها جميعا باجمل (الفريسكات) • فعلى طلب من البابا (سيكستوس الرابع) ، رسم (رفائيل) ، (اريستو) ، و (افلاطون) ، على جدران الفاتيكان • إذ في اعتقاد ذلك الوقت كان القدماء هم الذين اكتشفوا القوانين الخفية للانسجام الجمالي ، التي خلق الله العالم بموجبها •

ولم يرتق هذا الفن الجديد ، في الواقع ، في ايطاليا ، الا بفضل الظروف

(١) كان رائدهم ما كان قد ألفه المهندس المعماري الروماني (فتروفوس Vitruvius) في القرن الاول ق.م ، والمسمى «De Architectura» وقد نشر هذا الكتاب عام ١٤٨٦ ، وتالت طبعاته في القرن السادس عشر •

G.L.E. Vol. 10. P.859.



— الشكل ١٢ —

كنيسة باقيا

الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، السائدة في شبه الجزيرة . لان كل (مدينة) ، كانت تريد ان تتألق اكثر من جارتها ، وكل اسرة كبيرة تود ان تبرز الاخريات . وهذا يشرح ميلاد مفهوم تشجيع الامراء ، والبابوات للفن ، والادب والعلم .

ان النهضة الفنية ولدت في فلورنسة ، وانتشرت في القرن الخامس عشر (الكواترو شنتو) ، بفضل الدعم المالي والمعنوي لآل مديتشي . وقد كان الفنانون يشغلون مكانة كبيرة في المجتمع ، فقد كان الامراء — كما اشرنا الى ذلك — يقدمون لهم الرعاية الممتازة . وقد اسهم البابوات انفسهم في هذا المضمار ، بل ان « شارلكان » الامبراطور الروماني المقدس ، و (فرانسوا الاول) ملك فرنسا ، كانا يحضران الفنانين الايطاليين الى اسبانيا ، وفرنسا ، مقابل نفقات كبيرة . والفنان كان اشبه بالبطل ، الذي يفرض نفسه في جميع الميادين : فهو نحات ، ورسام ،

واديب ، واسع المعرفة • وهو يوقع على اعماله ، ويظهر ذاته ، بينما كان لا يفعل ذلك خلال العصور الوسطى ، ولذا فان معظم الاعمال الفنية كانت خلالها مجهولة الهوية •

لقد تعرفت فرنسا ، عبر « الحروب الايطالية » ، التي وضعت الفرنسيين بتماس مع الايطاليين ، على هذا الفن الجديد ، واتبع (فرانسوا الاول) خطة الامراء الايطاليين في حماية الفن ، كما اسلفنا القول •

ولقد انجبت ايطاليا في هذه المرحلة التاريخية فئة من الفنانين ، ظلت اسماءهم نجوما لامعة ومشعة في قلب الحضارة الغربية ، بل الانسانية ، حتى الوقت الحاضر • ومن هؤلاء :

ليوناردو دافنشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) الفلورنسي ، ذي العبقرية الموسوعية • فهو رسام ، ونحات ، ومهندس ، وعالم ، وحياته تشبه الاسطورة • (انظر صورته بيده في الشكل ١٣) • وقد كان يقول انه بإمكانه الوصول الى معرفة حقيقية للعالم بفضل الرسم • وكان تلميذا للفنان (فيروشيو) ، ويهيء بعناية لوحاته ، ويخط عليها الاشكال ، بالوان مظلمة وفاتحة ، قبل ان يضع الالوان الاكثر حيوية ، وقبل ان يعود الى تحديد الحواف الرئيسية للاشكال بالرسم • وكان يحيط رسمه بوشاح اثري بفضل طريقة التظليل (Sfumato - شبه الظل) ، التي استخدمها • ولقد شرح هو نفسه طريقته هذه بقوله : « ان نورا شديدا لا يعطي ظلالا جميلة • فاحذر النهار الشديد الضياء • وتأمل اثناء المغيب ، او خلال الضباب ، وعندما تكون الشمس ملفعة بالغيوم ، سحر الرجال والنساء ورقتهم ، اولئك الرجال والنساء ، الذين يمرون من الطريق المظلمة ، بين الجدران السوداء للمنازل ، فهذه هي افضل اضاءة • فليخفف ظلك شيئا فشيئا في النور ، وليقلش كالمدخان ، او كمنام موسيقى عذبة • تذكر ان بين الضياء والظلمة مرحلة وسطى ، تأخذ من الاثنين : فتكون ضياء مظللا ، او نهارا قاتما »^(١) • ويلاحظ ان منه كله رقة ،

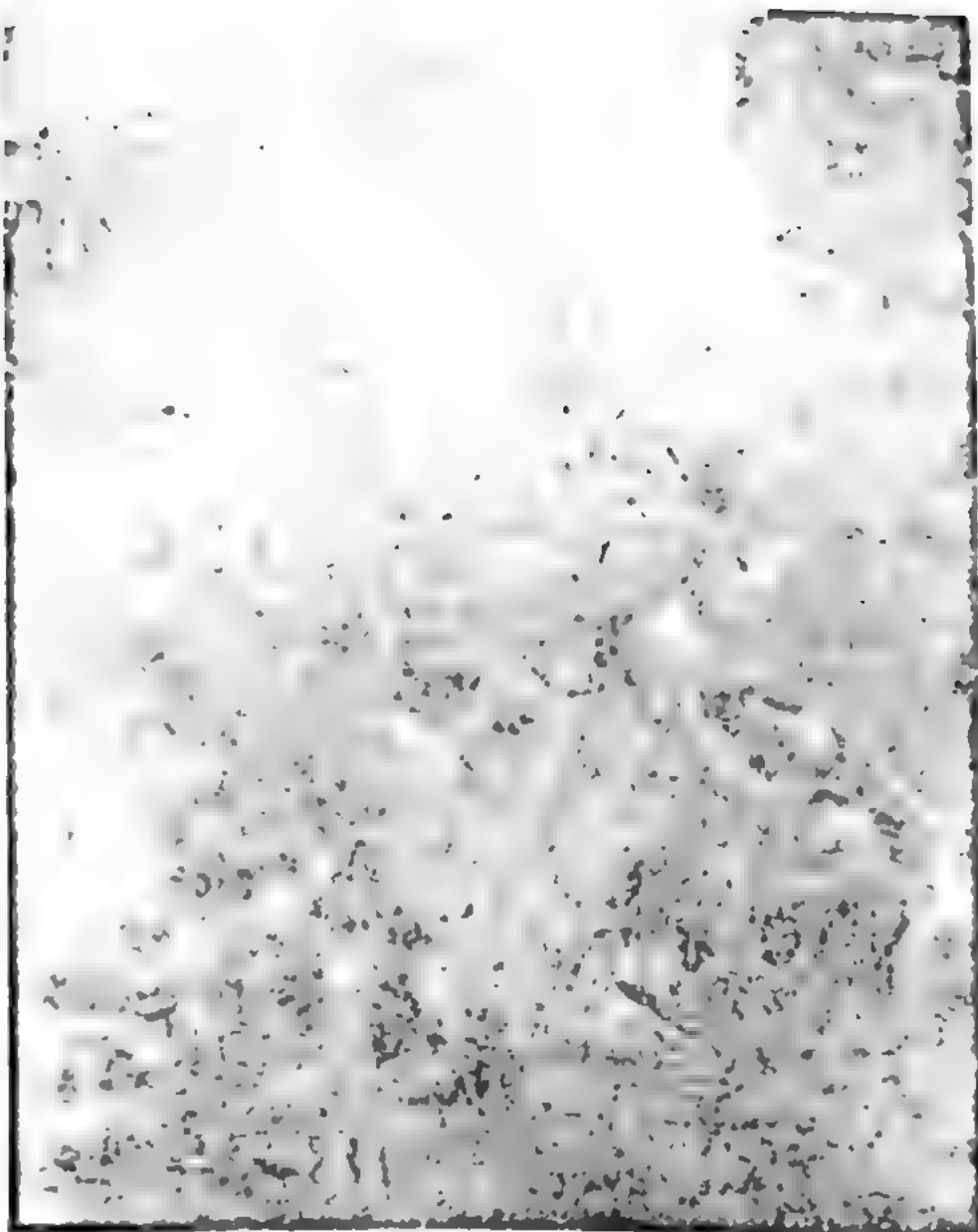
(1) Dupâquier et Lachiver, Op. cit, P. 32.



الشكل - ١٣ -

ستوناردو دافنشي بريشته

ونعموة ، ودقة ، واثيرية . ومن سوء الحظ ان رسومه لم تصل الينا محفوظة حفظا
حسنا . ومن اشهر لوحاته : (البشرى) ، وهي من اول اعماله ، وقد رسمها عام
١٤٧٢ ، و (القديسة أنا والعذراء) (الشكل ١٤) ، و (الجوكوندا) ، و
(العذراء عند الصخور) و (الاله باخوس) (الاله الخمرة عند اليونان) ، وفريسة



النكل - ١٤ -

القديسة حنا والعذراء

(لينوناردو دافنشي)

« العشاء الرباني الاخير » - في مطعم (دير القديسة مريم) في ميلانو ، شمالي
إيطاليا .

وفي ميلانو ، حيث استدعاء الدوق (لودوفيك لومور Ludovic Le More)
ابنًا بصناعة تمثال ضخمة (فرانسوا سفورزا) ، والد الدوق . لقد كان مقررا

- ١٣٣ -

ان يكون ارتفاع هذا التمثال ، الذي عمل به ستة عشر عاما ، ثمانية امتار ،
الا انه لم ينجزه ابدا .

ولقد عمل في ميدان الهندسة عملا طويلا ، ومبدعا : فقد اهتم باقامة قنوات
على انهار في ايطاليا ، وحلم بحفر قناة في فرنسا على نهر (السولونيو) ، عندما
استدعاه (فرانسوا الاول) اليها . وقد سجل ملاحظاته الهندسية في دفاتره ،
وخط رسوم مشاريع عديدة ، وتصور كل انواع الآلات وارسى قواعد الميكانيك ،
واستشف حركات الارض . لقد درس الجيولوجيا ، والحيوانات ، والنباتات ،
وشرح جثا ، مما سمح له ان يدرس العضلات دراسة دقيقة طبقها في رسومه .

وقد انطلق من ذهنه كثير من الاختراعات المعاصرة ، التي كانت صعبة التطبيق
في زمنه ، فقد فكر في جعل ما هو أثقل من الهواء يطير في الجو ، وقد سبقه الى ذلك
العالم العربي الاندلسي (عباس بن فرناس)^(١) . وفكر في الغوص في اعماق
البحار ، واحداث ثورة في « فن الحرب » ، عندما أشار الى آلات جديدة ،
« كعربة الهجوم » ، او ما يشبه الدبابة . فقد ذكر في احدى رسائله ما يلي :
« سأصنع عربات مغطاة ، لا يمكن ان تتأثر بالهجوم عليها ، وهي قادرة على
التوغل بين صفوف الاعداء بمدفعيتها ، وان تخترق أي شكل من أشكال الجيوش
مهما كان عددها ، ثم يتبعها المشاة دون عقبات أو خسارة »^(٢) .

وشلت يده اليمنى في آخر حياته ، وتوفي عام ١٥١٩ في قصر (كلو) ، قرب

(١) عباس بن فرناس عالم ، وفيلسوف ، وشاعر ، وفلكي ، من الاندلس . عاش
في قرطبة وتوفي عام ٢٧٤ هـ / ٨٨٧ م . وعاصر الخليفة الاموي عبد الرحمن
الثاني بن الحكم . اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة في الاندلس
وصنع (الميقاتة) ، لمعرفة الاوقات ، واراد ان يطير نفسه ، فاكتمى بالريش
وصنع له جناحين ، الا انه لم ينجح ووقع .
الاعلام . ج ٤ . ص ٣٧ .

(٢) Dupâquier et Lachiver, Op. cit, P.33. كما اشار في رسالة وجهها عام
١٤٨٢ الى دوق ميلانو ، ان لديه اختراعات عديدة ، مثل نموذج لجسور
خفيفة ، ومتينة ، وسهل نقلها ، لمناوبة العدو او الهرب منه ، وانه قادر على
افراغ الماء من الخنادق عند حصار مكان ، وبناء جسور عديدة ، وآلات اخرى
ضرورية لعملية الحصار .

(امبواز) في فرنسا . ولم يستطع ان يكون له مدرسة في فلورنسة ، لانه لم يعيش فيها وقتا طويلا . الا انه ليس هناك اليوم من ينكر عبقرية الموسوعية ، وفعالياته العملاقة . ففي كثير من النواحي يبدو ليوناردو دافنشي متقدما على عصره .

رافائيل Raphael (١٤٨٣-١٥٢٠) :

ويمثل مدرسة (روما) التي ازدهرت في القرن السادس عشر ، بعد ان اصاب مدرسة فلورنسة الفنية الوهن ، بسبب تأثير (سافونارولا) الذي توصل الى الحكم فيها بعد سقوط اسرة مديتشة عام ١٤٩٤ ، والذي عرف بصرامته الدينية ، وعدم تشجيعه للفنانين ، وحرقة جميع اللوحات المستقاة من مصادر وثنية .

وقد عرف عن رفايل ، بانه كان منفتح الذهن ناعم الملمس (انظر صورته بريشته في الشكل ١٥) . وقد زين « قاعات الفاتيكان » ، وتبنى في رسومه التركيب الهرمي ، العزيز على ليوناردو دافنشي . وقد عين مهندسا لكنيسة (القديس بطرس) ، وتوفي وهو في السابعة والثلاثين من عمره . وقد تميز فنه بالتركيب المتين في لوحاته ، وبجمال اللون ، وبالعظمة المقرونة بالركة . وهذه الميزات جعلت منه احد كبار الرسامين في ميدان الرسم الحديث . وقد قرب به البابا (ليئو العاشر) اليه ، وترك اثرا طويلا لامد في الفنانين الايطاليين . وفي الحقيقة لقد مارس فنه في (الصورة) ، وفي (الفريسكة) الكبيرة . ولقد اقتبس من الفلسفة موضوعات اكبر لوحاته . وتظهر بالذات في (قاعة التوقيع) في الفاتيكان ، حيث توحى فريسكاته فيها بمفهوم الرحلة الانسانية نحو الافكار ، والمثل ، ومن المثل الى الله . فقد زين الجدران باربعة لوحات هي (العدالة) ، و (مدرسة أثينا) (الشكل ١٦) ، و (البارناس) ، و (انتصار سر القربان المقدس) . وقد نظر الى رفايل على انه يمثل « كمال النهضة » ، وقد لقب بالالهى^(١) . وفي الحقيقة كان سريع الابداع ، وكان يترك لتلاميذه مهمة اتمام معظم رسومه .

(1) Milza (P), Berstein (S), et Monneron (J.-L), Histoire des XVI^e, XVII^e, XVIII^e siècles - Paris 1970. P. 33



الشكل - ١٥ -

الفنان رفائيل

ميكل - آنج (آنجلو) : انه مثل ليثوناردو دافنشي عبقرية عالمية ، وقد عاش بين عامي (١٤٧٥ - ١٥٦٤) . وكان نحاتا بالدرجة الاولى ، ورساما ، وشاعرا . واسمه بالايطالية (ميكل - آنجلو بثوناروتي) . (انظر صورته بريشته في الشكل ١٧) .

ولد في « جمهورية فلورنسة » . ولقد لفت انتباه (لورنزو الفاخر دو مديتشة)



الشكل - ١٦ -

فريسة مدرسة أثينا

(رفائيل)

منذ سن الخامسة عشر ، فرعاه • وفي عام ١٤٩٦ كانت اقامته الاولى في روما ، حيث نحت فيها تمثالا للشفقة (البيتا Pieta) ويمثل العذراء ، وهي تحمل جسد المسيح • وهو موضوع من موضوعات العصور الوسطى ، ولكن ميكيل آنج (عرف كيف يث فيه قوة رائعة مع حنان جديدين • وعند عودته الى فلورنسة نحت التمثال العملاق للنبي (داود) ، الذي وضع في ساحة قصر الامير وكان من قطعة رخام واحدة •

وقد استدعاه البابا « جول الثاني » عام ١٥٠٥ ، وكلفه بصنع التماثيل التي يجب ان تزين الضريح الفاخر ، الذي اوصى به هذا البابا لنفسه ، في كنيسة « القديس بطرس » • وعمل في ذلك اربعين عاما دون ان ينتهي • الا ان بعض المنجز مما نحت ، هو من اقوى ما نحت في الفن الحديث ، ولا سيما تمثاله



الشكل - ١٧ -
الفنان ميكيل - آنجلو

الضخم (موسى) ، وهو مستند الى الواح شريعته . (انظر الشكل ١٨) . ولهذا التاريخ يرجع تمثاله (العذراء وطفلها) .

وكانت طباعه صعبة ، فتخاصم مع البابا (جول الثاني) ، الا انه وافق على تزيين سقف كنيسة (السيستين) ، على الرغم من انه لم يكن لديه أية



الشكل ١٨ -

تمثال النبي موسى

(ميكيل آنجلو)

تجربة في (الفريسكة) . وكان السقف بطول ٤٠ م ، وعرض ١٣ م ، وكان ميكيل آنجلو يعمل ببطء ، وهو معلق على صقالة ، وتتناهب الشكوك ، والوساوس ، وهو في مشاحنات دائمة مع البابا ، حتى انه منعه اخيرا من دخول مكان عمله . وبعد اربعة اعوام (١٥٠٨ - ١٥١٢ م) ، انجز العمل . وفي احاطة فنية هندسية ، رسم ميكيل آنجلو « الفصول الدرامية للخلق » ، مفسرة تفسيراً جديداً ، ونقل الى الرسم رؤياه القوية كنهات . ان لوحة « خلق آدم » مثلاً ، وهي اشهر فريسكاته ، يظهر فيها آدم ، ويده تلامس يد الخالق ، ليستمد منه القوة والصفاء . ولكن ما ان ابتعد عنه حتى كان الشقاء والخطيئة له بالمرصاد (انظر الشكل ١٩) .



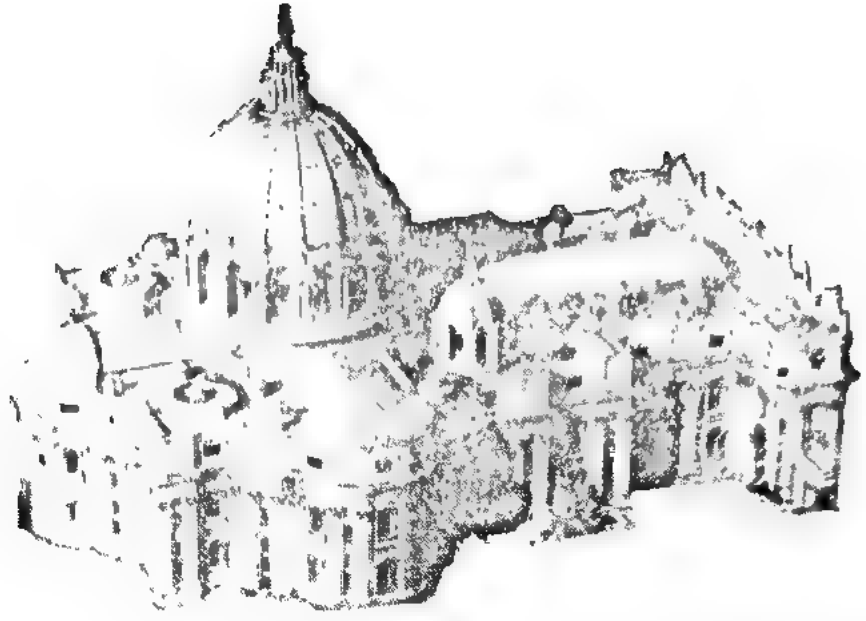
الشكل - ١٩ -

فرسكة خلق آدم (من سقف كنيسة السيكيستين)

(ميكل - آنجلو)

وقد قام ميكل آنجل بعد ذلك بأمر من البابا (كليمان السابع) ، بنحت
أضرحة (لورنزو مديشة) ، و (جوليان مديشة) في فلورنسة .

وكان في الثانية والسبعين من عمره ، عندما أسلمه البابا توجيهه الأعمال
المعمارية في كنيسة القديس بطرس . وبذلك خلف (برامانت) ، الذي وضع
المخطط الرئيسي ، وكذلك (رفائيل) . فاقام فوق السقوف المقبية قبة عملاقة بقطر
٤٢ م وارتفاع ١٢٣ م (انظر الشكل ٢٠) .



الشكل - ٢٠ -

قبة كنيسة القديس بطرس

(ميكيل - أنجلو)

ان اعمال ميكيل آنج تشع عظمة تتجاوز الانسان وتتدفق منها رهبة ، وجدية
قد ترجان طبيعته الفلسفية ، وطباعه الحزينة ، وكان يقول : « ان ألف لذة
لا تعادل الما واحدا » •

مدرسة البندقية :

لا بد ان يفرد لمدينة (البندقية) مكان خاص في الدراسة الفنية ، اذ ان غناها
الاقتصادي . ووجودها كدولة مستقلة عريقة في ايطاليا ورغبة تجارها النبلاء الدين
كانوا يقودونها . في اظهار تألقها ، وعزلتها النسبية عن البر الايطالي ، وبناءها الخاص
على البحر . وعلاقتها مع الشرق . كل هذا . جعل الفن فيها يزدهر ، نسن خط
اصيل ، مغاير لخطوطه في باقي ايطاليا . علما بأن « النهضة » قد تأخرت فيها
قليلا عن بقية المدن الايطالية . وظلت تتابع تقاليد الوسيطة . حتى بدايات القرن

السادس عشر • الا ان فنانها ومنهم ، (جيوفاني بليني ^(١)) ، استخدموا مبكرين التقنيات الفلامانية في الرسم ، مما اعطى لفن البندقية مظهرا شاعريا جديدا : انسجام رقيق في الالوان ، واشراق في المناظر ، ونعومة حزينة على الوجوه • ولقد ذهب تلامذة (بليني) بعيدا في قبول (الفن القديم) ، وبحثوا عن ايجاد جو خاص بكل موضوع ، ومن اشهر هؤلاء (تيسان Titien) ١٤٧٧-١٥٧٦) الذي رسم صورا عديدة لفينوس ، ولعدد من الاشخاص ، تدعوللالعجاب ومنها صورة الملك فرانسوا الاول ، (الشكل ٢٢) ، (انظر صورته بريشته في الشكل ٢١) • وقدم ايضا مركبات فنية رائعة • وكان استخدام اللون لديه ، استخداما حارا ، ومبدعا ، وجديدا ، بحيث فتح الباب لظهور (فن الباروك) ، الذي ازدهر في القرن السابع عشر ، وبشر من بعيد ببعض اشكال الرسم المعاصر ، كما فعل (لوتنتورة Le Tintoret) (١٥١٨-١٥٩٤) ، الذي تفيض لوحاته بالحركة والتوتر الدرامي •

وفي ميدان الفن المعماري تمثل الكمال الكلاسيكي في انتاج الفنان «بلاديو Palladio» ، في الكنائس ، والقصور ، التي شيدها • وقد ألف كتباً في الهندسة المعمارية ، بقي أثرها حيا مدة طويلة من الزمن • ويمكن القول ان (مدرسة البندقية) في الرسم بعظمة مناظرها ، وفخامة هندستها المعمارية ، وبمعنى الوجود الانساني فيها ، وحسية الاشكال ، كانت اساسا (لعلم الجمال الحديث) •

الفن في بقية ايطاليا : وفي ايطاليا الشمالية ، بين روما والبندقية ، نمت فعالية فنية اقل روعة وعظمة ، ولكنها غنية جدا • فقد كانت بلاطات الامراء ، والمدن ، توصي على قطع فنية • وكان الفنانون الذين وفدوا من روما بعد نهبها

(١) G. Bellini : من اسرة اشتهر عدد من افرادها بالنبوغ (١٤٢٩ - ١٥١٦) تميز باستخدام اللون عنصرا من عناصر التعبير ، وترجم العاطفة الدينية ترجمة مثيرة • فجميع ملراواته يجمعن الناحية البشرية ، والدينية ، جمعا مدهشا • وكان الاول في تحقيق ذلك الانسجام بين المنظر الطبيعي ، والوجه ، وبسحر عجيب • ومن لوحاته الشهيرة « العذراء والطفل » و « القديسون » •



الشكل - ٢١ -

الفنان تيسبان

عام ١٥٢٧ ، ينشرون بعض فنهم المكتسب من العبقريات الكبيرة . الا ان هذا الجيل الجديد من الفنانين ، ما عدا ندرة منهم ، كان يفقد حس الاصاله . فقد اهتم بخاصة ، بتقليد المعلمين الكبار ، والتعليق على ما صنعوا ، وبذلك ابتداء « نقد الفن » لا الابداع . وانتشر بالتدرج الاقتناع ، بأن الاساس في الفن ،



الشكل - ٢٢ -

الملك فرانسوا الاول

بريشة تيسان

هو مهارة الوصول الى الجراح . او في « الفن المتصنع » **Maniérisme** « او انطوائني » . وتبدى حركة « تصنع الفن » هذه ، بالتعقيد المربك ، والعمل التقني .. هذه الحركة مهمة في تاريخ الفن . لان الفن الايطالي بصورته هذه ، التي يسهل تقليدها ، انتشر في كل اوربا .

الفن في بقية انحاء اوربا : لقد ظهر التأثير الفني الايطالي في كل مكان :

وكانت آلية نفوذ التأثير الايطالي الى البلاد الاوربية ، هي نفسها تقريبا في كل بقعة : فهناك امير راع ، او مشجع ، يأخذ الامر على عاتقه ، فيستدعي فنانين ايطاليين يدخلون فنهم ، وتعليمهم الفني . وفي الوقت نفسه ، كان هناك فنانون من البلاد الاوربية ، يذهبون الى ايطاليا ، لاقتباس الفن . الا انه يلاحظ في شمال اوربا ، ان « الفن الغوطي » ، بقي يقاوم الفن الجديد . ومع ذلك ، فان بعض الاتجاهات الجديدة اتضحت الى جانب القديسة .

في فرنسا : لم يكن الذوق الفني الايطالي قد تسرب الى فرنسا في مطلع القرن السادس عشر ، وبقي الفن الغوطي حيا فيها . الا ان حب الامراء الاقطاعيين الكبار للفخامة ، والترف ، والفنون ، هيا الجو للتطور ، الذي حدث بعد الحروب الايطالية مباشرة . فقد بهر ملوك فرنسا (شارل الثامن ، ولويس الثاني عشر ، وفرانسوا الاول) بترف البلاطات الايطالية ، وارادوا تقليدها . ومن ثم استدعوا اليهم فنانين ايطاليين ليزينوا لهم قصورهم ، بينما ابقوا هندسة تلك القصور ، وبنائها ، بايدي الفنانين الفرنسيين . وبهذا التركيب الفني ، الفرنسي - الايطالي بلغت القصور المشهورة في فرنسا ، المسماة بـ « قصور اللوار » ، والتي من اشهرها قصر « شامبور » ، و « بلوا » . وقد اطلق على هذه المرحلة من النهضة الفنية في فرنسا « النهضة الفنية الاولى » وتمتد من (١٥٠٩ - ١٥٣١) .

ولما انتشرت المؤلفات عن الفن المعماري القديم ، وازداد التأثير الايطالي ، حدث تحول اكثر عمقا في الفن الفرنسي : فقد تخلى الفنانون تقريبا عن التقاليد المحلية لصالح اساليب الفن القديمة ، وبذلك حدثت « النهضة الفنية الثانية » (١٥٣١ - ١٥٥٩) . اما بعد عام ١٥٥٩ ، فقد غدا الفن ثقيل ، وبولغ في اثرائه ، وترك « التصنع » الايطاليون بصماتهم فيه . وشمل على ذلك « قصر فوتتبيلو » . وشمل « الفن التزييني » الجديد في فرنسا ، بصفة خاصة ، اعمدة ، وتماثيل ، وتيجان أعمدة ، وافاريز ، وواجهات ، وكلها زينت بالرسوم التزيينية العربية ، والنقوش الغريبة .

وقد تميز « فن النحت » في فرنسا ، في القرن السادس عشر ، أكثر مما كان عليه « فن الرسم » ، والذي يبدو وكأنه كان مجهولا . وكان الفنانون

الايطاليون ، والفلامانيون ، هم الذين يعملون في هذا الميدان ، في فرنسا . ولذا ظهر وكان النهضة الفنية في فرنسا مستوردة من الخارج . واشتهر في فن النحت، في فرنسا ، اسم « جان غوجون » (١٥١٠-١٥٦٤) ، الذي نحت « حوريات نبع الابرياء » في باريس . (الشكل ٢٣) .



الشكل - ٢٣ -

حوريات نبع الابرياء في باريس
للفنان جان غوجون

وصفوة القول ، لقد سعى الفنانون الفرنسيون ، ولا سيما في مجال العمران لدراسة آثار الفن اليوناني الروماني في ايطاليا ، وتخلوا تدريجيا عن كل مبادئ العمارة في العصور الوسطى ، ووضعوا قواعد جديدة مقتبسة من الفن القديم ، مما هيا الجو لانتصار « الفن الكلاسيكي » .

وفي شبه جزيرة ابريا : يظهر التجديد الفني اولا في « الفن التزييني » ،

كما في فرنسا ، حيث امتزجت فيه التأثيرات الغوطية ، والاجنبية ومنها العربية .
ولقد ازدهر في اسبانيا (فن الصياغة) بفضل نشاط الفنانين الايطاليين ، الوافدين
الى اشبيلية ، وفالنسيا ، وغيرهما .

الا ان تأثيرهم لم يظهر في ميدان (العمران) ، الا في النصف الثاني من القرن
السادس عشر ، في قصر شارلكان بغرناطة ، وفي قصر « الاسكوريال » ، المبنيين
بين (١٥٦٤-١٥٨٤) . وقد اشتهر من الفنانين ، في ميدان النحت ، (الونسو بيروغيت
Alonzo Berruguete) ، الذي تكون فنيا في فلورنسة ، وفي روما ، بالقرب من
ميكل - آنج . وفي ميدان الرسم نبغ (لوغريكو Le Greco) (١٥٤١-١٦١٤) ،
وهو وريث « المدرسة البندقية » ، الا ان الوانه الحارة التي تشبه اللهب ، كانت
اكثر انسجاما مع اسبانيا ، التي كانت تعيش آنذاك « قرن الذهب » .

في اوربا الشمالية : لقد تسرب الفن الايطالي الى الاراضي المنخفضة ،
وانتشر في المانيا ، وهنغاريا ، وبوهيميا . الا ان معظم الفنانين الكبار ظلوا يقاومون
هذا التأثير ، وبقي بعضهم يسير في طريق الفن الوسيط ، بينما حافظ آخرون على
التقليد الفلاماني . ومع ذلك ، فان اكبرهم (البير دورر) (١٤٧١-١٥٢٨) ، تأثر
بالفن الايطالي تأثرا كبيرا . اذ اقام في ايطاليا ، وغدا واحدا من الهومانيست .
واشهر قطع حفره ، كانت (الفارس) ، و (الكآبة) . وهي تبرز كيف امتزجت
مفهوماته الهومانستية ، مع حرارة حماسه الدينية للإصلاح البروتستنتي ، الذي
كان دورر من انصاره المندفعين .

النهضة الادبية والحركة الانسانية

لقد اشرنا سابقا ، الى ان (الحركة الانسانية) قد ظهرت في نهاية العصور
الوسطى ، وازدهرت حقا في القرن السادس عشر ، وتحكمت في تطور الحياة الفكرية
الاوربية .

فالانسانيون في القرن السادس عشر ، ونسميهم في يومنا هذا « المثقفين »
كانوا من رجال الادب ، والعلم ، الذين يقدسون قبل كل شيء ، العقل ، والثقافة ،

في الانسان . فهما — بحسب رأيهم — اللذان يجعلان الانسان اكثر انسانية .
وكانوا يؤلفون مجتمعا صغيرا ، يضم افرادا من كل الامم الاوربية ، ويرتبطون
فيما بينهم بعلاقات لصيقة ، ويفرضون سلطتهم الفكرية على اوربا كلها ، ويسخرون
من التعليم التقليدي ، الذي كان لا يزال قائما في بعض الجامعات .

وهذا الوسط ، كان يضم في اصوله الاولى جامعيين ، ورجال دين ، وتجارا
ونبلاء صفارا ، ورجال دولة ، واصحاب مطابع ، وغيرهم . وكان الامراء والملوك
يتصلون بهم ، او يحمونهم ويرعونهم ، ويقربونهم اليهم .

وكانت المدن الجامعية ، ومراكز الطباعة ، هي مناطق اشعاع الحركة الانسانية
« كالبندقية » ، و « بال » حيث تقوم اكبر المطابع ، و « ليون » و « بادوا » بسبب
جامعتها الكبيرة ذات الشهرة العالمية . كما اشتهرت « لوقان » في بلجيكا ، حيث
نظم الانساني « ايراسموس » (كلية اللغات الثلاث) ، و « باريس » في فرنسا
حيث أنشأ الملك « فرنسوا الاول » عام ١٥٣٠ (كلية فرنسا Collège de France)
وخصصها لدراسة المواد الجديدة ، كالاغريقية مثلا . وقد نافست هذه المراكز
« الصوروبون » القوي ، والعريق ، الذي بقيت الدراسة فيه تقليدية .

اتجاهات الحركة الانسانية :

تميزت الحركة الانسانية بما يلي :

١ — لقد اتخذت هدفا اساسيا لها ، ان تحدد وتحقق النموذج الاكثر كمالا
والاسمى رفعة ، للكائن البشري ، وللوجود الانساني ، في الفرد ،
والمجتمع .

٢ — يريد الانساني ان يعرف كل شيء ، لان « العالم وحده هو الانسان
الحق » . والمعرفة الرئيسية ، هي معرفة المفكرين القدماء ، وانتاجهم .
ولذا ، فانه كان يبحث عن نصوصهم الاصلية ، ليقرأها بلغتها الاساسية .
ولهذا الغرض ، رأى ضروريا تعلم لغات ثلاث : اللاتينية ، والاغريقية ،
والعبرية ، وجمع المخطوطات القديمة ، الثاوية في الاديرة ، ونشرها .

٣ - ان الحركة الانسانية حركة متفائلة ، وتؤمن بطبيعة الانسان ، واصالة الخير فيه . ومن ثم فانها كانت تريده حرا . وكان « الانسانيون » مريين يتمنون توسيع الطاقات اللانهائية للطبيعة البشرية ، وتنميتها ، لانهم يعتقدون بالتقدم .

٤ - ان الحركة الانسانية حركة اصلاح ، للمجتمع ، والفرد ، على السواء : فمستشارو الامراء والملوك منهم ، كانوا يوجهونهم نحو سياسة مستوحاة من التاريخ ، والانجيل . وبهذه الروح ، كتب « توماس مور » في عام ١٥١٦ كتابه « اوتوبيا » حيث وصف فيه مجتمعا كاملا ، وعادلا ، وسعيدا ، ومتسامحا . والانسانيون يشكون « بالدولة » ويحذرونها ، ويحاربون من اجل السلام ، ويشجبون الحرب .

٥ - كان الانسانيون حريصين على ان يفهمهم اكبر عدد من الناس ، ولذلك استخدموا لنشر افكارهم (اللغات القومية) الى جانب اللاتينية ، وهذا ادى بدوره الى نشأة (الآداب القومية) ونموها .

نتاج النهضة الفكرية الادبية في اوربا :

في ايطاليا ظهر التأثير الانساني في الشعر ، حيث كتب (اريوست) (١٤٧٤-١٥٣٣) قصيدة (رولان الثائر) . وقد اقتبس موضوعها من المصور الوسطى ، الا ان صورها تدين بالكثير للقدماء . وكذلك ، فان (لوتاسو) (١٥٤٤ - ١٥٩٥) جمع في كتابه (القدس المخلصة) اساطير قديمة ، الى جانب الامور الدينية المسيحية .

الا ان التطور الذي طرأ على علم التاريخ كان اكثر اصالة ، ويمثله في هذه الحقبة (ماكيافلي ١٤٦٦-١٥٢٧) ، صاحب كتاب (الامير) ، و (غيشاردان ١٥٨٣-١٥٤٠) مؤلف (تاريخ ايطاليا) . فالاثنان استوحيا من القدماء : (تيت ليف) ، و (تاسيت) ، الا انهما اخذا ، اكثر ما اخذا من تجاربهما كسياسيين . ويعتبر (ماكيافلي) مؤسسا (لعلم السياسة) ، اذ ان كتابه (الامير) كان معالجة

واقعية لنظام الحكم • وقد دعا فيه الى (توحيد ايطاليا) على يد امير قوي ،
وسياسي ، يلجأ الى جميع الوسائل ، لتحقيق حكم ثابت ، وراسخ ، ومهما كانت
تلك الوسائل بعيدة عن المثل الاخلاقية الفردية •

أما في خارج ايطاليا فقد كان اسم الهولاندي (ايراسموس Erasmus)
هو الاسم الانساني الكبير (١٤٦٦-١٥٣٦) • وكان كتابه « مدح الجنون » هجوما
صاعقا ضد مفاسد الكنيسة وسلوك البابوات • وكان مربيا كبيرا ، فقد اعلم
الجمهور المثقف في عهده - اذ لم يكتب الا باللاتينية - بالاسس الكبرى للحكمة
القديمة • وقد اكد بكل مناسبة على « حرية الفكر » ، وبين وجوب (نقد
النصوص) • وقد عينه (شارلكان) مستشارا ، وتراسل معه (فرانسوا الاول)
ملك فرنسا ، و (هنري الثامن) ملك انكلترا ، وقدم له البابا (بول الثالث)
قبة الكاردينال • فقليل من الادباء في التاريخ ، لا قولا مظاهر التجارة التي لاقاها •
وكان سائحا جواجا ، فقد اقام في باريس ، وانكلترا ، حيث التقى بالاديب
(توماس مور) ، وكان صديقه • وفي كل مكان كان يلتقي بعلماء الدين المسيحي ،
ورؤساء المطابع ، والمفكرين ، وكان يعمل معهم ويناقش • وقد كرس جهدا كبيرا
لنشر « العهد الجديد » من الكتاب المقدس ، عام ١٥١٦ ، مع نقد ملحق به ،
وقد لاقى عمله هذا نجاحا كبيرا • ويمكن ان يقال ، ان (ايراسموس) ، يمثل
تماما المثل الاعلى للحركة الانسانية ، الراغبة في قيادة الانسان الى السعادة ، بطريق
دين داخلي عميق ، يغذيه الانجيل • وجاءت « ثورة لوتر الدينية » وما تبعها
لتقضي على هذه المحاولة في الاصلاح • ولم يؤيدها ايراسموس فقد توفي وهو
مخلص لروما ، الا انه ممزق النفس ، ومنطو عليها •

وفي فرنسا فان التطور الادبي كان سريعا : فمع ان تقاليد العصور الوسطى
بقيت حية في الادب الشعبي ، الا ان الحركة الانسانية ثبتت ذاتها • وتبدى هذا
في فريق « البليئاد La Pleiade » ، الذي قطع صلته بالعصور الوسطى ،
وقلد القدماء والايطاليين • ولكنه حرص ايضا ، على ان يثبت ، ان اللغة الفرنسية
تنسجم ، وتتوافق مع الفن الشعري الجديد • ومن الشعراء الكبار في المدرسة
الادبية (رونسار) ، الذي نشر (قصائد في الحب) عام (١٥٥٠-١٥٥٢) • ومن

الناترين (رابله) ، الذي كان احد اقطاب الحركة الانسانية ، وهو مبدع احد الاعمال الادبية الفرنسية الكبرى ، المسمى (بانتا غرويل Pantagruel) (١٥٣٢ و (غارغانتوا Gargantua) ١٥٣٤ . وفيه يقدم « رابله » مفهوم الانسان الذي تفتح بحرية ، وبرنامجا جديدا للتربية .

ومن الناترين الذين ظهوروا بعده ، ودبجوا اول المؤلفات الفرنسية المخصصة لمعرفة الانسان ، كان (مونتين Montaigne) في كتابه (التجارب Les Essais) وقد طرح فيه « فنه في الحياة » ، وآراءه في التربية .

ان ذاك الاحياء للغات الشعبية ، قام في كل انحاء اوربا : ففي المانيا اعطى المصلح الديني (لوتر) للاداب الالمانية اول انتاج ضخم لها ، وهو ترجمة الكتاب المقدس (١٥٢٢ - ١٥٣٤) . وفي انكلترا وضع (توماس مور) في كتابه (اليوتويا) و (فرانسيس بيكون) ، اسس النثر الانكليزي . فقد ظهرت « الرواية الشعبية » واستخدمت اللغة القومية فيها . والقول ذاته ينطبق على اسبانيا والبرتغال . ان هذا الازدهار في (الآداب القومية) ، رافق على الصعيد السياسي ، بناء الدول القومية الكبرى ، ودعاه ، ويسره .

وخلاصة القول ، لقد كانت (النهضة) تجديدا واحياء للفكر الوثني ، مرتبطا بتقديس كل ما هو قديم . ففي ميدان الفنون والآداب ، ظهر رفض واضح لكل الاخلاق الصارمة وقيمها ، مع ميل قوي جدا لكل ملذات الحياة . بل قام بعض المفكرين بالتشكيك في المبادئ الاساسية للمسيحية .

ومع ذلك فقد بقيت (النهضة) دينية ، اذ كان ما يبحث عنه المفكرون آنذاك هو التحالف فقط بين ما هو بشري ، وما هو الهي . ومن ثم كان لآراء الفيلسوف الفرنسي « فيتشينو Ficino » (١٤٣٣-١٤٩٩) ، الذي أخذ من الفيلسوف اليوناني (افلاطون) الفكرة القائلة : « بأن الانسان يمكن ان يرتفع الى معرفة الله ، اما بالذكاء ، أو بمحبة الجمال » ، رواج ونجاح . وهي رؤية متفائلة ، كرؤية الانسانيين ، الذين وجدوا في « المسيح » نهاية المطاف في البحث عن الكمال الذي كان يستقصيه المفكرون القدماء .

وهكذا اعيدت للانسان مكانته ، وكذلك للطبيعة : واعيد له حق التفكير

بجسمه ، وبنشأته المتنوع . ان هذه الفكرة تضعف دون شك دور (المسيح المخلص) ، ولكنها ليست فكرة لا دينية . ومن ثم فالنهضة حررت الانسان الا انها بقيت مسيحية .

النهضة العلمية في القرن السادس عشر

وفي هذا المجال العلمي ، كانت الحركة الانسانية ايضا هي المحررة للفكر الاوربي . لان قراءة مؤلفات القدماء ، مثل « التاريخ الطبيعي » لـ (بليزوس)^(١) و « العناصر » لـ (اقليدس) ، وما اتى به (ارخميدس)^(٢) وغيره من علماء اليونان ، وتعرف الاوربيين بما ابدعه العرب في مجالات العلوم المختلفة ، من معرفة ، وطرائق بحث ، دفع العلماء منهم للبحث عن طرائق جديدة ، وللسير فيها . الا ان هؤلاء العلماء بقوا يتلمسون طريقهم تلمسا ولمدة طويلة .

وقامت محاولات لتأسيس العلم على العقل ، ولكن بقي اناس ذاك العصر مقتنعين ، بان العالم يكون عضوية عملاقة حية ، يحركها نوع من الارادة الالهية ، العاملة في جميع الاشياء .

ولهذا السبب فان العلم تخلص بصعوبة في القرن السادس عشر من « السحر » . فقد بقي الطب متزجا بالتنجيم ، وبقي (علم السيماء Alchimie) ، الذي يحلم بتغيير الرصاص ، وتحويله الى ذهب ، قائما . وما عدا بعض الشخصيات النابغة التي تعتبر طليعية ، فان العلم لم يتقدم الا بعد استخدام الملاحظة، والتجربة .

طلائع النبوغ العلمي :

وهنا تطرح قضية (ليوناردو دافنشي) : فقد خلف الفنان للعالم فسي

(١) بليزوس : عالم روماني ، موسوعي ، عاش في القرن الاول الميلادي (توفي ٧٩ م بانفجار بركان فيزوف) . وكتابه « التاريخ الطبيعي » يحيط بكل العلم القديم .

(٢) ارخميدس : من علماء اليونان ، ومن مدينة سيراكوز في صقلية (٢٨٧-٢١٢) ق.م . له اختراعات عديدة ، وهو صاحب القانون المعروف باسمه ، بان كل جسم يغطس في سائل يفقد من وزنه ما يساوي حجم السائل الذي يزحجه .

(دفاعه) تأملات علمية ، يؤكد فيها اهمية التفسيرات الرياضية ، وينبذ فيها طرائق التفكير الموروثة من العصور الوسطى ، ويشير بنجاح (العلم الحديث) .
فقد وضع الخطوط العامة لقوانين المجموعة الشمسية ، وعلم الجيولوجيا . ومع ان تفكيره كان علميا دقيقا ، فان ميله للرياضيات ، بقي مرتبطا لديه بافكار اخرى لا تمت الى العلمية بصلة . ففي (ليثوناردو دافنشي) ، قد يكون (المهندس) ، و (الميكانيكي) ، هما اكبر من العالم .

وخلاصة القول ، تقدمت الرياضيات ببطء : ففي المانيا تولدت مدرسة (للهندسة) انطلاقا من علم (الخرائط) ، وقد عمل فيها الفنان (البير دورر) ، وبدىء باستخدام الاحرف للدلالة على المجهولات . وفي ايطاليا تقدم علم (الجبر) وحل الرياضيون المعادلة من الدرجة الثالثة ، ومع ذلك فان التقدم يعتبر ضئيلا .
الا انه في ميدان الفلك ظهر (كوبرنيك) البولوني . وقد ولد في (كراكوفيا) عام ١٤٧٣ ، ثم درس في جامعة بولونيا (في ايطاليا) ، وكان من الانسانيين . ولقد استطاع ان يأخذ من الفكر الاغريقي ، الفكرة التي جعلته يضع الشمس لا الارض ، في مركز المجموعة الشمسية . ان نظريته ليست كاملة ، ولكنها بشرت باعمال العالم (كبلر) ، و (غاليله) ، في القرن السابع عشر .

تقدم الملاحظة ونمو علم الطب : لقد ظهر في هذا القرن ميل كبير لدراسة الطبيعة ، ومنه كان تقدم الملاحظة ، وتصنيف الانواع ، والعضويات ، والاجسام . ونشط علم الكيمياء ، ومن علمائه المشهورين (باراسيلس Paracelse) (١) ، والجيولوجيا على يد الطبيب (اغريكولا) (٢) ، وعلم النبات ، والحيوان ،

(١) طبيب وكيمائي سويسري (١٤٩٣-١٥٤١) . اراد ان يجعل من تدريبه الطب في جامعة بال ، مظهرا لنشأة الطب الجديد . فقد درس باللغة الالمانية ، وهاجم جالينوس ، وابن سينا ، والرازي ، واحرق مؤلفاتهم . ويعتبر ابا للطب (الهرمتي Hermétique) ، وهو الذي يقول ان كل شيء في الطبيعة يفسر بالملح ، والكبريت ، والزئبق ، وان المرض ينشأ من اختلال التوازن في جسم الانسان بين العناصر الثلاثة المشار اليها .

(٢) طبيب ساكسوني (١٤٩٤-١٥٥٥) ، اهتم بعلم المعادن ، والتعدين . وفي كتابه (عن المعادن) وصف هام للمعارف الجيولوجية ، والمعدنية ، والتعدينية في عصره .

في كلية الطب في (مونبليه) ، حيث تلقى الاديب (رابليه) الذي ذكرناه آنفا ، علمه . و « جامعة مونبليه » (٣) ، في جنوب فرنسا ، كانت احد المراكز الثقافية الهامة ، وهناك من يقول ، بان العرب كانوا من المساهمين في تأسيسها . وبالفعل كانت تضم اساتذة ثقفوا بالعربية . وكانت تحوي كثيرا من المؤلفات العربية المترجمة للاتينية . وقد تطورت معرفة جسم الانسان تطورا كبيرا بفضل التشريح ، العزج جدا على فنشي : وميكيل آنج . وبرز اسم (فيزال Vésale) صاحب البحث عن « بنية جسم الانسان » ، وقد كان طبيا لشارلكان . وكذلك درس (ميشيل سرفة Servé) (٥) دوران الدم . ومع ميول الاطباء للسحر فانهم بدأوا يلجئون ابواب علوم الملاحظة . وعلى الرغم من اسهام بعض الصناع في ميدان الاختراعات ، الا انه لم يكن ينظر اليهم بنظرة احترام . ومن هؤلاء مثلا ، صانع الفخار (برنار باليسي) ، الذي كانت له افكاره حول المعادن ، والحلاق الجراح (امبرواز باره) Ambroise Paré ، الذي قام بأول ربط للاوعية الدموية ، بدل كيتها بالحديد المحمي ، كما كان يجري سابقا . ويمكن ان نضيف في ميدان العلوم ظهور « علم السياسة » على يد « مكيافيلي » ، كما تطور علم التاريخ ، والبحث فيه ، تطورا ايجابيا ، وخصبا .

- (٣) انظر حولها جلال مظهر المصدر نفسه ص ١٩٠-١٩١ .
(٤) « أندره فيزال » : عالم تشريح بلجيكي (١٥١٤-١٥٦٤) . درس في جامعة لوغان ، ومونبليه ، وباريس . اهتم بالتشريح اهتماما كبيرا ، والف في ميدانه ما يعتبر تجديدا في هذا العلم ، ونقدا لجالينوس ، والقدماء . اتهم بأنه شرح انسانا حيا ، فحكم عليه بالاعدام ، الا ان الملك « فيليب الثاني » حول الحكم لحج الى الديار المقدسة في فلسطين ، واثناء عودته توفي .
(٥) « ميشيل سرفة » عرف كذلك باسم « ميشيل دوفيلنوف » . وهو طبيب اسباني ، و عالم باللاهوت (١٥١١-١٥٥٣) . درس القانون ، والطب ، واهتم بمباحث الدين ، وبضرورة اصلاح الكنيسة . الا انه يبدو متأثرا جدا بالفكر الاسلامي . ولذا فانه رفض الايمان بالثالوث المقدس ، وقال بان الشخصيات الالهية الثلاث ليست سوى تجسيمات لمبدأ وكيان واحد . هاجم كتاب كالفن « المؤسسة » ، ومن ثم سجن اثناء مروره من جنيف ، واعدم . قال بدوره الدم الرئوية قبل (هارفي) ، وقد يكون تائر بما كتبه الطبيب العربي (ابن النفيس) حول ذلك الامر .

الفصل الخامس

الاصلاح الديني

ازمة الكنيسة الكاثوليكية :

لقد اجتازت الكنيسة ، في اواخر العصور الوسطى ، ازمات كبيرة قسمت المسيحيين ، وبلبلت افكارهم . فهناك الانشقاق البابوي (١٣٤٨-١٤١٧) الذي ألحنا اليه ، عندما انتقل البابا الى آفينيون . كذلك حركة (وايكلف) الانكليزية ، و (جان هس) التشيكي في بوهيميا . كما ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر ، بعد ثمانين عاما من حركة هس ، حركة الراهب الدومنيكي (سافونارولا) في فلورنسة ، الذي هاجم بعنف الانحطاط الخلقي والديني في عصره ، وبخاصة رجال الدين ، الذين كان من واجبهـم الاول الاقتداء بسيرة المسيح ، الا انهم انصرفوا الى الحياة الدنيوية ، وحياة الارض بدلا من حياة السماء . وقد استطاع ان يصبح سيد مدينة فلورنسة ، وشرع يصلح في امورها بحسب مبادئه . ولكنه وقع في خصومة مريرة مع البابا (اسكندر بورجيا) ، فاحرق كمهرطق عام ١٤٩٨ .

ولكن اذا كانت تلك الحركات قد بقيت محلية الى حد كبير ، فان ازمة القرن السادس عشر كانت اقساها ، واكثرها انتشارا ، وادت الى ما يسمى « بالاصلاح الديني » الذي كان ثورة دينية حقيقية ، قسمت بعق المسيحية على نفسها ، وانتزعت عددا من (الكنائس القومية) ورعاياها ، من سلطة الكنيسة الباباوية ومعتقداتها ، تلك الكنائس ، والرعايا ، الذين اطلق عليهم اسم البروتستانت .

اولا - اسباب الاصلاح الديني:

ما هي اسباب الاصلاح الديني ؟ سؤال معقد جدا . اعطيت له تفسيرات عديدة

واذا ما أخذ كل تعليل وحده ، فانه يبدو غير كاف ابدا . فهناك مثلا الاسباب القومية
ممثلة في ثورة المانيا على روما . وفي الحقيقة ان تلك الاسباب كان لها دورها
ولكن مذهب لوتر انتشر في بلاد اخرى ، مما يدل على انه كان استجابة لشعور ،
وترقب ، عامين . كما ان الكالفنيه لم ترتبط بقضية قومية .

ومثلا يمكن القول ان للاسباب القومية اثرها ، فان للعوامل السياسية
والاقتصادية ، دورها . وتتمثل في رغبة بعض الامراء ، وبعض الملوك ، في
الاستيلاء على املاك الكنيسة ، وفي تعاطف الرأسماليين والماليين مع مذاهب دينية
تحفز الجهد الفردي ، ولا تشجب القروض بفائدة ، كما تفعل الكاثوليكية . ولكن
حتى في هذا الميدان ، يلاحظ ان (الاصلاح) قد مس الاغنياء والفقراء ،
والشخصيات الكبرى والصغرى ، على السواء .

فاذا كان (لوتر) وهو الماني ، قد اظهر اشمئزازه من بعض عادات الكنيسة
وتقاليدها ، فان هذا لا يكفي لتسوين عمله . فالذي دفعه ليفعل ما فعل ، كان
قبل كل شيء القلق ، والعذاب ، اللذين شعر بهما ، وهو يواجه قضايا (الخلاص)
و (الايمان) . وهكذا تبقى العوامل الدينية لها الاهمية الاساسية ، حتى ولو
تعلقت بأذيالها ، أمور قومية ، واجتماعية ، واقتصادية . وتتلخص هذه العوامل
بما يلي :

— مفاسد الكنيسة وضعف نفوذها على النفوس :

فسلطة البابوات قد تناقصت ، لأن سلوكهم اصبح قابلا للنقد : فهم يفكرون
بالسياسة والحروب اكثر مما يفكرون بالدين ، ويتصرفون وكأنهم رؤساء دول ،
ويقربون افراد اسرهم ، ويحيطون انفسهم ببلاط حقيقي . ولما كان هذا يكلف
غاليا ، فانهم ضاعفوا الضرائب على رعاياهم ، ولا سيما في انكلترا ، والمانيا .

ولم يتجاوز البابوات وحدهم حدودهم ، وانما شاركهم بذلك الكرادلة ،
ورؤساء الاساقفة ، والاساقفة ، ورؤساء الاديرة ايضا . فنادرا ما كان يقيم
هؤلاء في مقرات اعمالهم . وغالبا ما كانوا يكسسون عدة مناصب دينية في

اشخاصهم ، ومعها الارباح الكنسية ، ويهملون ادارة املاك الكنيسة . والاشراف على الرعية ، ويعيشون حياة دنيوية عصرية ، قد يكون فيها كثير من المبادل واللهو والبعد عن القيم الاخلاقية الرفيعة ، بل ان بعضهم لجأ الى بيع الاسرار المقدسة . وبالمقابل لم يكن رجال الدين الادنون يتمتعون الا بدخول ضئيلة جدا . وكانوا هزيلي العلم ، لعدم اهتمام الكبار من رجال الدين بعقد الندوات التعليمية لهم ، او بتوجيههم ، وبذلك اهملوا دورهم معلمين ووعاظا .

وفي الواقع لقد كان علم الالهيات (التيولوجيا) في أزمة ، لان أزمة العصر لم تسمح له باعطاء حلول مرضية للمسائل المثارة .

هذا بالاضافة الى ان اخلاق رجال الدين غدت فاسدة ، وقواعد النظام في الاديرة غير مطبقة .

— الحالة النفسية السائدة لدى الشعوب : فالشعوب في ذلك العصر ، عاشت تجارب طويلة ومريرة : كحرب المائة عام ، والانشقاق الديني ، والطاعون الاسود ، وتقدم الاتراك في شرقي اوربا ، وقد رأوا في كل ذلك عقابا من الله . ولذلك كانوا بحاجة لخدمات دينية اكثر عمقا ، اذ ان الناس كانوا قلقين . ولما رأوا ان الكنيسة لا تعطيهم ما يريح نفوسهم ، فانهم ، منذ القرن الخامس عشر ، اخذوا يكونون (اخوات) ، تجمع المؤمنين الحريصين اكثر فاكثر على خلاصهم الابدي . واتخذ تقاهم ، وتعلقهم بالدين ، صورا من النسك والتصوف .

هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فان كثيرا من المؤمنين في القرن السادس عشر ، لم يعودوا يفهمون عقيدة الكنيسة ، ويصبون لعبادة اكثر بساطة ، وتجردا من مظاهرها الخارجية العديدة ، الهادفة للتأثير في الجماهير .

— الحركة الانسانية : ان التطلعات السابقة ترجع في كثير من مناحيها في الواقع الى الانسانيين . فعادتهم في نقد النصوص القديسة ، دفع بهم الى فحص « الكتاب المقدس » ، اكثر فاكثر ، وبعث ، والى حذف ما كان قد اضيف اليه ، والى إبراز النص الاول والاصيل مرة اخرى . وجاءت الطباعة ، لتكشف « الكتاب المقدس » لعديد من المسيحيين . فبين عامي (١٤٥٧-١٥١٧) ، صدرت

اربعمائة طبعة من هذا « الكتاب المقدس » . فالؤمنون الذين تعلموا من النص
الاصلي ، تمنوا العودة الى (البساطة الاولى) للكنيسة ، والى اصول المسيحية
الاولى .

وفي الحقيقة ، لقد بحث (الانسانيون) ، في « الكتاب المقدس » ومهم
ايراسموس ، عن مظهر للتقى اكثر نقاء . وقد هيات افكارهم القائلة بضرورة حلول
للغة القومية محل اللاتينية في شؤون العبادة ، وبأن الحياة الدينية يجب الا تكون
طقوسا معقدة متتابعة ، وانما ايمان بالله حي وحقيقي ، لظهور المصلحين الدينيين من
امثال لوتر وكالثن وغيرهما .

ويجب الا ينسى ذلك النقد اللاذع ، الذي وجهه « الانسانيون » الى رجال
الدين ، والبابا نفسه ، في كتاباتهم ، ووازنوا فيه بين الكنيسة الاولى ، كما ارادها
المسيح ، والكنيسة في عصرهم . وبذلك نبهوا الازهان الى بعدها عن القيم
والمثل التي اختطتها المسيحية الاولى .

فما قاله الانساني الكبير (ايراسموس) مثلاً في كتابه « مدح الجنون » ناقدًا
البابا بلهجة ساخرة :

« ألم يكن البابوات ، الذين هم نواب يسوع المسيح على الارض ، سيعيشون
حياة حزينة جدا ، وتعمية ، لوسعوا للاقتداء بالمخلص الالهي ، واعماله ، وعقيدته ،
والآلامه ، واحتقاره للاشياء الدنيوية ؟ .. ولو فكروا بان كلمة « بابا » تعني
« الاب » وبلقب « المقدس جدا » الذي يشرفون به ، أفلم يكن ذلك ليوحى
لهم ، وينذرهم ، كي يكونوا جديرين به ؟ واية مجموعة من الملذات ، ومظاهر
الرفاهية من كل نوع ، كانوا سيحرمون انفسهم منها ، لو ارادوا ان يكونوا يوما
متحلين بالعقل والحكمة ؟ فسيحل محل الثروات ، وانواع التشريف ، والسلطة ،
والانتصارات ، والالقاب ، والمناصب ، والوظائف ، وصكوك الغفران ، والخيول ،
والبغال ، والحرس ، والملذات من كل نوع ، التي يحيطون انفسهم بها ، سيحل
السهر ، والصيام ، والدموع ، والصلوات ، والمواظ ، والدراسات ، والتنهدات ،
والصيف التعاسات المماثلة .

« يجب ان لانخاف هذا البؤس من اجل ابائنا المقدسين جدا : فلقد تركوا للقدس بطرس وللقديس بولس ، آلام البابوية ، واعمالها ، واحتفظوا لانفسهم بانواع التشريف والملذات التي تحيط اليوم بالكروسي البابوي المقدس . أتريدون ان يقوم البابا اليوم بالمعجزات ، كما كان يقوم بها في الماضي ؟ وان يجهد نفسه في تعليم الشعوب ؟ وان يشرح الكتاب المقدس باخلاص ؟ وان يصلي بحرارة كما لم يكن امامه سوى هذا العمل ؟ وان يكي كامرأة ، أو كأي تيس ، وأن يحيا في البؤس كأي شحاذ ؟

« ان بابوات اليوم يعملون على ازاحة مظاهر البؤس تلك عنهم ، ولا يحتفظون الا بتلك المباركات اللطيفة التي يتحدث عنها القديس بولس . ولكنهم ليسوا بخلاء تماما ! اذ يجب عليكم ان تروا بأية طيبة واحسان يصدر عن ذلك الحرمان المخيف ، الذي يبعث بكم آلاف الاميال ، ما وراء الجحيم ! » (١) .

ثانيا - مارتن لوتر Maritn Luther - ازمة ١٥١٧ : في هذا الجو الفكري المعبأ ظهر (مارتن لوتر) . ظهر في المانيا ، حيث كانت مفاسد الكنيسة صارخة ، اكثر من بقاع اوربا الاخرى . ولقد تفجرت الازمة في عام (١٥١٧) ، بسبب قضية (صكوك الغفران) .

ولد (مارتن لوتر) عام (١٤٨٣) ، في ساكسونيا . وكان لامعا اثناء دراسته في جامعة (ارفورت) . الا انه ككثير من النفوس القلقة آنذاك ، انخرط في سلك الرهبنة ، وانتسب الى دير الاوغستين (٢) ، وغدا قسا ، ثم واعظا ، في دير (فتمبرغ Wittemberg) عام ١٥١٢ ، فأستاذ في جامعته . وكان كثير القراءة ، والصوم ، والصلاة ، الا ان فكره لم يعرف الهدوء . والسؤال الكبير الذي كان يراوده : هل اعمال الانسان قادرة على انقاذه يوم الحساب الاخير ؟

Dupâquier, Lachiver, op. cit, P.47.

(١) عن كتاب

(٢) طائفة القديس اوغستين الدينية ، هي عدة فرق . وهذه الطائفة قد نظمت في القرن الثالث عشر ، وتؤمن بافكار القديس اوغستين ، والمشاكل التي طرحها ، وبصفة خاصة ، بالله ومصير الانسان ، ذلك المصير المحكوم بالخطيئة ، الذي لا تنقذه الا الرحمة الالهية .

وهده تفكيره بعد مطالعته لتعليمات (القديس بولس) ، بأنه لا ينقذ الانسان سوى ايمانه ، الذي يكشف له في الوقت ذاته ، خطيئته ، والثقة بخلاصه .

وعندما قرر البابا (ليئو العاشر) ان يبيع صكوك الغفران ^(١) للمسيحيين ، كي يكمل بالمجموع من ثمنها ، « كنيسة القديس بطرس » في روما ، ويستفيد من جزء منها كذلك ، (البير دوبرا نديبورغ) ، ليسدد ديونه لدى المصرفي اليهودي (يعقوب فوغر) ، (وهدفه الحصول على اسقفية مايانس) ، قام لوتر في ٣١ تشرين الاول عام ١٥١٧ ، والصق منشورا بـ ٩٥ اعتراضا على تلك الصكوك . وذلك على باب كنيسة القصر ، نفذ فيها ذلك الاجراء . وكان اكثر ما صدمه ، ليس استخدام الدين في الوصول الى المال فقط ، وانما نشر الفكرة القائلة ، بان الانسان قادر بعمل طيب ، ان يكسب خلاصه يوم القيامة ، وكان هذا ضد معتقده . وطلبه البابا انى روما ، فرفض الذهاب ، وعندما ارسل له رسالة ، يطلب اليه فيها ، التراجع عن نقده عام ١٥٢٠ ، فانه حرقها علنا ، فحرمه البابا .

وخلال هذا الوقت نشر كتابه (في حرية المسيحي) ، حيث عمق مذهبه في الخلاص ، و (أسر بابل) ، الذي لم يعترف فيه الا بسرين من الاسرار المقدسة السبعة ^(٢) ، (التعميد) و (المناولة) . واخيرا (منشور الى نبلاء الامة

(١) صك الغفران يمنحه في العادة البابا ، ويسمح للمؤمن بان يغسل خطاياه ، وان يربح الجنة بسهولة اكبر . ويمكن ان يحصل عليه المرء بالصلوات ، او باعطيات للكنيسة . وهذه الممارسة افسحت المجال لمساوئ عدة .

(٢) الاسرار السبعة هي اشارات مقدسة سنهل المسيح لاستدرا رحمة الله ، وتطهير روح الانسان ، وهي سبعة . التعميد ، والتثبيت ، والمناولة (الاوخابريستا) ، وسر التوبة ، ومسحة المرضى ، وسر الكهنوت ، والزواج . اما التعميد فهدفه محو الخطيئة الاولى ، ويكون بغسل المسيحي بالماء ، والتثبيت هو في اتمام التعميد ويجري بين التعميد والمناولة ، ويعني منح المسيحيين روح القدس ، وعطاياه اللانهائية ، ونور الايمان . ويكون بوضع يدي رجل الدين ، المكلف بهذا الامر ، على رأس المسيحي ، ومسح جبهته بالزيت المقدس ، والمسح على الوجنة باليد . اما المناولة ، فهي تناول قليل من النبيذ ، مع قطعة خبز . وسر التوبة ، هو اعتراف المسيحي بخطاياه ، ومنحه المغفرة . ومسحة المرضى هي مسح رجل الدين على الاعضاء الحسية للمريض ، واطرافه ، لينال الرحمة ، ويخفف عنه . وسر الكهنوت ، وهو التكريس الذي يعطي رجال الدين بمختلف مراتبهم ، السلطة لممارسة الاعمال الدينية ، وبخاصة منها الكهانة . فهذه الممارسة ، كانت تعني في الاصل ، « تعليم المسيحيين » . واخيرا سر الزواج ، ويعني تكريس الحب بين المرأة والرجل ، المنتج لتواتر البشرية ، وتكريس البيت الذي يكونانه .

الاملاية المسيحيين) ، حيث انكر فيه سلطة البابا ، ودخل في اصلاح جذري للكنيسة .

• واستدعي الى « الديت الامبراطوري » في (ورمز) عام ١٥٢١ ، ودافع عن افكاره بقوة وشجاعة . فبعد ان جابه البابا ، جابه الامبراطور ، ورفض ان يتراجع ، فحرم من حقوقه المدنية ، وهدد بالموت . الا ان (دوق ساكسونيا) حماه ووصعه في قصره في (وارنبورغ) . حيث عمل لعام ، على ترجمة « الكتاب المقدس » الى اللغة الالمانية ، وجعل منه كتابا شعبيا . ثم عاد الى (فتمبرغ) عام ١٥٢٢ ، حيث تزوج ، وبقي فيها حتى وفاته عام ١٥٤٦ م ، يعمل على تنظيم الجماعات التي آمنت بمبادئه .

ما عقيدة (لوتر) ؟ ان الايمان وحده بالنجاة اليه — كما اشرنا سابقا — قادر على انقاذ الانسان ، اما الممارسة الدينية فلا تفيد في شيء . شيء واحد له قيمته ، هو التواصل بين الله والمؤمن . ومن ثم ، فلا يجب ان يرافق العبادة ، اية مظاهر ، ماعدا التراتيل ، والقراءة المشتركة « للكتاب المقدس » ، والابقاء على السرين المشار اليهما آنفا ، وتكون المناولة بالنوعين : الخبز ، والنبذ . ولم يبق الا ما كان قد قرره المسيح نفسه ، ورفض تقديس العذراء والقديسين . كما ورفض ان تعلق في الكنائس الصور ، ولم يسمح الا بالصليب . والغى عزوئية رجال الدين ، والنذور الديرية . وهكذا ، فاللوترية قامت على الصلة المباشرة بين الله والمؤمن . وانتشرت آراء لوتر في كل ألمانيا ، وكان لها / **نتائجها الهامة :**

١ — فكثير من المدن ، التي كان يحكمها بورجوازيون ، قطعت صلتها بالبابا ، وانضمت الى الاصلاح الجديد اذ ان البورجوازية كانت قد تبنت الافكار الحرة الجديدة ، كما وجدت مصلحتها المادية في هذا التجديد الديني .

٢ — كثير من النبلاء الاقطاعيين الصغار ، الفقراء ، اعتنقوا اللوتريسة ، وصادروا املاك الكنيسة اذ رأوا في ذلك تأمينا لحياتهم المادية ، ودعما لسلطتهم . كما ان عددا من الامراء الكبار ، كأمير براند يبورغ ، وساكسونيا ، تبناوا الدين الجديد . بل أن الرأس الاعلى للفرسان التيوتون قطع صلته بالبابا ، واحتفظ لصلته باملاك فرقته الدينية ، وكان هذا بدء نشأة (دوقية روسيا) . وقد قام هؤلاء

— ١٦١ — تاريخ اوربا في العصر الحديث م-١١

بذلك ، اما للرغبة في وضع ايديهم على املاك الكنيسة ، او لارادتهم في التحرر ، والاستقلال عن سلطة الامبراطور .

٣ - امتزجت الهزة الدينية هذه بحركات اجتماعية : ففي الاوساط الشعبية، قام (توماس منزر Th. Muntzer) ، ونادى بدين المساواة ، وان نهاية العالم قريبة ، وسيكون فيها عقاب الاغنياء . فانفجرت عندئذ ثورة فلاحية ضخمة في (١٥٢٤-١٥٢٥) ، في الصوآب جنوب غربي المانيا ، وقد سلحت نفسها ببرنامج ثوري . الا ان لوتر ظهر امامها رجعيًا ، اذ دعا الثوار اولا للهدوء ، والى السلام ، ثم وجه ضدهم نداء عنيفا ، وطالب بقمع حركتهم ، وذلك باسم واجب الطاعة لسلطة الامراء . وسميت هذه الحرب « بحرب الفلاحين » .

وعند وفاة لوتر (١٥٤٦) كان ثلثا المانيا ، والسويد ، والنرويج ، والدانمارك، لدين كلها بالمذهب الجديد ، والى جانب حركة الاصلاح .

الكنيسة اللوتريّة :

لقد اصبح لوتر اذاً وغصبا عنه ، مؤسس كنيسة جديدة . وقد قامت هذه الكنيسة على سلطة الامراء المتحالفين ، المدافعين عن الاصلاح . ففي (مجمع سبير) (١٥٢٩) ، « احتجاج » ستة من هؤلاء الامراء ، واربع عشرة مدينة ، ضد ارادة الامبراطور ، الذي كان راعبا في العودة الى الوحدة الدينية في المانيا . ومن هنا اتت لفظة « بروتستانت » وتعني « المحتجين » . وفي (صلح اوغسبورغ) عام ١٥٥٥ ، ثبت مستقبل البروتستانتية باعتراف الامبراطور ، واقراره ، بان الرعايا يجب ان يتبنوا دين الامير ، الذي يحكمهم .

وفي هذه الكنيسة الجديدة ، حافظ لوتر على كل مالا يناقض عقيدته ، أي أنه ابقى على الكنائس ، وتسلسل الرتب بالنسبة للرعاة المكلفين بتعليم الكتاب المقدس ، وبالتعميد ، والمناولة . اما « الصلاة » فتقال باللغة العامية .

وقد ثبتت « العقيدة الجديدة » في كتاب « اعتراف اوغسبورغ » الذي

دبجه تلميد (لوتر) ، « فيليب ميلانكتون » ، عام ١٥٣٠ . ولقد الف (لوتر) ،
في اخريات حياته ، عددا من التساييح والانايد الدينية .

وهكذا تم الاصلاح الديني ، وبدا بعقيده في الايمان ، قاطعا صلته الفكرية
بالحركة الانسانية ، الوثيقة بمقدرة الانسان على تحقيق خلاصه ، وكذلك صلته
الواقعية بروما . الا ان الوقائع السياسية التي رافقت حركة الاصلاح ، وساعدته ،
جعلت من عمل لوتر اكبر تمزق هام ، عرفته المسيحية منذ نشأتها .

ثالثا - (الكالفنية) والاصلاح الفرنسي :

في الوقت الذي كان فيه الاصلاح اللوثري يفقد جزءا من قوة توسعه
واتشاره ، ظهرت قوة كبيرة اخرى هي قوة (جان كالفن) .

ولتفهم اصالة (الكالفنية) لا بد من توجيه الانتباه الى اقليمين ، نبتت فيهما
أفكار اصلاحية دينية :

اولا - سويسرة : فقد كان يعيش في مدينة (زوريخ) منها ، الواعظ
(اولريخ زونغلي) ، وكان اكثر تطرفا في اصلاحه من لوتر . فقد اعطى اهمية
أقل لقضية (الخلاص بالايمان) ، والح على ان الانسان لا يمكن ان ينقذ الا
بقرار من الله وحده ، وللابد ، وهذه هي فكرة (القدر الالهي) . ومن ثم
فلاسرار بالنسبة اليه ، ليست الا شعائر رمزية . فهو لا يعتقد ، كما كان يعتقد
لوتر ، بوجود المسيح بالخبز والنبذ ، في المناولة ، ولذلك فهو لا يريد قساوسة ،
ومن ثم فاصلاحه اصلاح جذري . وقد توفي زونغلي عام ١٥٣١ ، ولكن تأثيره بقي
في سويسرة ، ووادي الراين . ومع ان أثره كان اضعف في مدينة « ستراسبورغ »
فان « كالفن » اكتشفه فيها .

ثانيا - فرنسا : وهنا ايضا كانت الحركة اصلاحية تتقدم ، وانما بصورة
اكثر اعتدالا ، وهي « صورة الانجيلية » المستوحاة من (ايراسموس) و
(لوفيفرديتابل Lefèvre d'Étaples) ، والاثنان من الانسانيين . وقد كون
الاسقف « بريسونة Brignonnet » ، في اسقيته ، في « مو Meaux » قرب باريس ،

فريقا يضم « لوفيفر ديتابل » ، وبعض رجال الدين من باريس ، هدفه إعادة روح الانجيل الاولى الى الكنيسة ، دون الاصطدام بالبابا ، أو قطع الصلة به . وكانت تحمي هذه الحركة أخت الملك « مارغريت دانفوليم » . وقد تركت هذه الحركة اثرها في جميع الطبقات الاجتماعية .

وفي الوقت ذاته كانت الافكار اللوترية تتسرب عبر الانسانيين ، ورجال الدين الذين اعتنقوا آراء زميلهم الالماني . وقد ساعد انتشار الكتاب ، والصورة ، على عملية التسرب والانتشار ، لانهما كانا وسيلتين ناجعتين في الدعاية .

وكان الملك (فرنسوا الاول) غير معاكس لهذا الاتجاه الفكري ضمنا : فهناك تأثير اخته من ناحية ، وميوله الشخصية من ناحية ثانية ، والتنافس بينه وبين الامبراطور شارلكان من ناحية ثالثة . وهذه كلها دفعت الى محاباة (اللوترين) ، الذين كانوا لا يطمحون الا بدين اكثر صفاء . الا ان النتيجة كانت ، ان ازداد عددهم ، واستفحل خطرهم ، حتى انهم لصقوا على الجدران في باريس ، وعدد من المدن الفرنسية ، منشورات تهاجم بعنف الصلاة الكاثوليكية عام ١٥٣٤ . فما كان من السلطة السياسية ، الا ان شرعت بالبطش بهم . فتفرقت جماعة (مو) ، وفر اللوتريون ، وكان من بينهم رجل الدين (كالثن) ، الذي نشر بعد عامين كتابه « مؤسسة الدين المسيحي » .

كالثن وعقيدته : ولد كالثن في نوايون (فرنسا) عام ١٥٠٩ ، ودرس دراسة دينية في باريس ، وحقوقية في (بوج) . ثم شرع يتبنى تدريجيا الافكار الاصلاحية بين ١٥٢٨-١٥٣٣ . وفي العام الاخير حزم رأيه فجأة على تكريس نفسه للاصلاح . فقطع صلته بروما ، وفر الى (ستراسبورغ) ، ثم الى (بال) في سويسرة . وهنا كتب باللاتينية ، النسخة الاولى من كتابه السالف الذكر (عام ١٥٤٦) . وهذا الكتاب الصغير في تاريخ الاصلاح أخذ شكله النهائي عام ١٥٥٩ .

ان الانسان بالنسبة لكالثن (خاطيء) ، وغير قادر على انقاذ نفسه بنفسه . فالانقاذ يأتي من الله وحده ، الذي يقدر لكل واحد الخلاص والنعيم ، أو الهلاك

الابدي ، لاسباب لانعرفها • فاولئك الذين قدر لهم الخلاص ، أو (المصطفون) ، يتلقون الايمان بوساطة (يسوع المسيح) ، وعليهم عندها ان يجهلوا انفسهم في طاعة الشريعة المقدسة • ان هذه الطاعة ، هي دليل الايمان الملقى في قلوبهم من الله •

ويدير الكنيسة (رعاة) يعلمون الكلمة المقدسة ، ويمعدون ، ويحتفلون بالعشاء الرباني الاخير ، أو بتعبير ادق « بالجماعة المؤمنة » • وهذه الكنيسة مستقلة عن السلطة السياسية ، ولكنها تحكم بحزم حياة المؤمنين • وليس فيها ذلك التسلسل المتدرج بالمراتب ، القائم بالكنيسة الكاثوليكية •

تأسيس كالفن كنيسة نموذجية في جنيف :

ان كتاب (كالفن) المشار اليه آنفا ، جعل منه الاب الثاني للإصلاح الديني البروتستنتي • وفي (جنيف) التي دانت بالبروتستانتية ، فاستدعته ليقم فيها نهائيا منذ عام ١٥٤١ ، اظهر كالفن نشاطه الذي لم يضعف حتى وفاته عام (١٥٦٤) •

وقد كانت جنيف في الواقع مأوى لجميع البروتستانت المضطهدين • وقد اصدر كالفن فيها « اوامره الكنسية » ، التي فرضت على المدينة اخلاقا صارمة • وكانت الكنيسة فيها تحكم من قبل جماعة من (الرعاة) ، ينفذون تلك الاوامر بدقة وشدة • والى جانب الكنيسة ، هناك (مجلس) يمثل السلطة المدنية ، التي تمثل بالتالي (بورجوازية المدينة) • الا ان هذا المجلس ، اضطر تدريجيا ، الى احناء رأسه امام مطالب (مجلس الرعاة) • وقد حارب أي فرد يحاول ان يمس العقيدة ، أو يخرج عن التنظيمات الصارمة • ولقد منع كالفن المسرح ، والالعب ، والرقص ، ونظم الربا تنظيما دقيقا • ومع كل تلك القيود ، فقد ازدهرت مدينة جنيف ، لان معظم اللاجئين اليها كانوا من الصانع المهرة •

لقد غدت جنيف (روما الكالفنية) ، لاسبب نفوذ كالفن فحسب ، وانما بسبب تأسيس (تيودور دوبيز Théodor de Bèze) (١٥١٩-١٦٠٥) ، « الاكاديمية » • إذ في هذه « الاكاديمية » كان يكون (الرعاة المبشرون) ، الذين بعث بهم الى جميع انحاء اوربا ، لبث العقيدة الجديدة •

كانت كنيسة كالفن في جنيف ، نموذجا قلده جميع الكنائس الكالفنية فيما بعد . والكنائس الكالفنية كنائس مستقلة ، الا انها متجمعة تحت سلطة مجامع قومية ، أو اقليمية .

انتشار الكالفنية : كان انتشار الكالفنية سريعا ، وعاما . فقد انتشرت في سويسرة ، وغربي المانيا ، والاراضي المنخفضة ، وبوهيميا ، وهنغاريا ، وبولونيا ، وفي فرنسا . وقد لاقت رواجاً بين الصناع ، والبورجوازيين بصفة خاصة . كما وجدت تربة صالحة في ايقوسيا (سكوتلاندة) ، حيث بشر بها (جون فوكس) ، وكان ذلك في عهد الملكة (ماري ستيوارت) ملكة ايقوسيا ، وارملة ملك فرنسا (فرنسوا الثاني) . وسميت الكنيسة الجديدة فيها (بالكنيسة البريسبيتريانية Presbytérien) التي كان تنظيمها صورة طبق الاصل عن « كنيسة جنيف » ، والتي تركت اثرها في الاصلاح الديني الانكليزي .

لقد كانت (الكالفنية) على نقيض (اللوترية) ، التي كان من نتائجها تقوية سلطة الامراء ، باعطائهم الفرصة لمصادرة املاك الكنيسة ، وبفرض دينهم على رعاياهم . الا ان (الكالفنية) اسهمت في تقوية روح الحرية والاستقلال ولاسيما عند البورجوازيين . ومن ثم دفعت حركة التاريخ قدما .

رابعا - حركة الاصلاح الديني في انكلترة :

الانغليكانية : لقد كانت انكلترة ، مثل المانيا ، تشكو منذ مدة طويلة ، من المتطلبات المالية للبابوية ، وقد رأينا حركة (وايلكليف) فيها سابقا .

واذا كان الاصلاح الديني قد قام به في المانيا ، وسويسرة ، وفرنسا ، رجال دين مفكرون ، فان الاصلاح في انكلترة ، قام به الملك بنفسه لاسباب شخصية . فقد كان الملك (هنري الثامن) من اسرة تيودور ، يرغب في الزواج ثانية من امرأة في البلاط تدعى (آن دويلين) ، فطلب من البابا ان يلغي زواجه من امرأته (كاترين داراغون) ، التي كانت خالة (شارلكان) الامبراطور . فاحتفظ البابا بجوابه لمدة طويلة ، فما كان من الملك الا ان طلق زوجته عن طريق « رئيس اساقفة كاتربري » ، وتزوج من محظيته . فقرر البابا حرمانه . وامام ذلك ، اعلن

نفسه رئيسا للكنيسة الانكليزية عام ١٥٣٤ ، بقرار من البرلمان ، سمي بـ (قرار السيادة Acte de Suprématie) . لم تكن هذه القطيعة مع البابا هرطقة دينية ، وانما انشقاقا عن الكنيسة ، اذ لم تتغير العقيدة او العبادة . وكان الملك يضطهد الطرفين ، (البابويين) (والبروتستانت) ، على حد سواء ، واغلق جميع الاديرة ، وباع ممتلكاتها . وتدرجيا ، اخذت الافكار اللوترية تنتشر ، فقرر ان تكون الصلاة بالانكليزية ، وان يحتفظ بثلاثة اسرار مقدسة فقط .

وتحت حكم الملك (ادوار السادس) (١٥٤٧ - ١٥٥٣) ، تبنت الكنيسة الانكليزية التي سميت بـ (الانغليكانية) ، (كتاب صلوات) ذا روح كالفنية ، وسمحت بزواج رجال الدين .

وفي عهد الملكة (ماري تيودور) (١٥٥٣ - ١٥٥٨) ابنة (كاترين داراغون) ، وزوج ملك اسبانيا (فيليب الثاني) ، جرت محاولة لاعادة الكاثوليكية . فقد تصالحت الملكة مع روما ، واضطهدت البروتستانت ، ومن هنا جاء اسمها (ماري الدامية) . وعند وفاتها ، خلفتها اختها (اليزابيث) (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ابنة (هنري الثامن) من زوجته (آن دوبولين) .

ولقد اخفت في بادىء الامر نواياها ، الا انها لم تلبث ان قضت على كل تشريع ديني اجنبي ، باصدار (قانون ال ٣٩ مادة) عام ١٥٦٣ . وبه أخذ المذهب (الانغليكاني) شكله النهائي ، المثل في تفاهم بين البروتستانتية والكاثوليكية : فمن الكالفنية ، احتفظ بكتاب الصلوات ، والغاء الاسرار المقدسة ، ماعدا التعميد والمناولة . ومن الكاثوليكية ، حافظ على الاحتفالات الدينية ، والاساقفة ، والطقوس ، الا ان الصلاة كانت بالانكليزية ، ومنعت اقامة الصلاة الكاثوليكية . ان هذه الكنيسة التي تثبت ، واستقرت ، كانت تحديا للكاثوليكية والكالفنية في آن واحد ، ولذا كانت ماثارا لثورات الكاثوليك ، وهجوم الكالفنيين . ولذلك ، فان الاضطهادات لاحقت « المتطهرين » الكالفنيين (البوريتان) ، وجميع المذاهب غير المتطابقة مع الانغليكانية . وكان على الملكة اليزابيث ان تقاوم حتى موتها تلك الصراعات ، كي تفرض سلطتها .

خامسا - الاصلاح - المضاد او الاصلاح الكاثوليكي :

امام التقدم السريع لحركات الاصلاح البروتستانتية ، لم يكن امام الكنيسة الكاثوليكية سوى فرصة واحدة تسمح لها بالبقاء ، وهي اصلاح نفسها . وقد استغرق اصلاحها لنفسها اكثر من قرن ، وقام في بادىء الامر بجهود فردية تمثلت في:

جمعية اليسوعيين :

ففي عام ١٥٣٧ ، اسس (اغناطيوس دولويولا I. De Loyola) (وهو اسباني الاصل) ، (مع فرنسوا كسافيه) ، في مدينة باريس ، (جمعية يسوع) . وقد اخضع المنضمون اليها انفسهم لنظام تدريبي ، وحياتي ، « عسكري » قاس . فهم ، أي « اليسوعيون » ، جنود للمسيح ، يقودهم (قائد) منتخب منهم لمدى الحياة ، ويقسمون يمين الطاعة العمياء للبابا . وكانوا يعطون ثقافة عصرية متينة . واليسوعي يجب ألا يعيش في الدير ، وانما عليه أن يختلط بالناس ، ليشر بعقيدته . وكان منهم المعلمون ، والواعظون ، والمبشرون ، في اوربا وخارجها . وقد تقربوا من الملوك والامراء ، وكان عدد منهم قساوسة خاصين بهم ، ومربين ، يقدمون اعترافاتهم لهم ، وبالتالي ، فانهم كانوا يمارسون تأثيرا كبيرا عليهم ، وعلى اولادهم ، ولا سيما أنهم تبنوا أساليب التربية الحديثة المستندة الى دراسة « الانسانيات » . كما ، ارسوا مثل هذا التأثير في نفوس مجموع المسيحيين عن طريق الوعظ ، والاصغاء الى الاعترافات ، والخدمات التي كانوا يقدمونها ، وبخاصة التعليمية ، والصحية ، والاجتماعية . وقد اعترف البابا بهذه الجمعية عام ١٥٤٠ . وكان توسعها كبيرا اذ بلغ عدد افرادها عام ١٥٨٠ (٥٠٠٠) عضو ، والكليات التي افتتحتها (١٤٤) كلية .

مؤتمر ترانت : ومقابل تلك الجهود الفردية ، حاولت البابوية أن تتخذ بعض اجراءات دفاعية . (فبول الثالث) مثلا ، اعاد (دواوين التحقيق) — أو كما يطلقون عليها احيانا اسم (محاكم التفتيش) — التي كان قد ضعف أمرها منذ العصور الوسطى ، ما عدا في اسبانيا . فهذه المحاكم الرهيبة ، التي كانت تحكم على المهرطقين

بالحرق ، كانت تريد ارباب الجماهير بالامثلة ، وقمع أي تحرك بالعنف ولقد ادى القمع هذا ، الى افناء المخالفين في اسبانيا ، وايطاليا •

كما أسس عام ١٥٤٣ (لجنة الفهرست) التي كانت تضع (قائمة) أو (فهرسا) بالكتب التي يرى بانها خطيرة على العقيدة الكاثوليكية ، ليمنع المؤمنون من قراءتها •

الا ان هذه القرارات لم تكن كافية : اذ ان عددا من الامراء الكاثوليك ، وكثيرين من علماء اللاهوت طالبوا بعقد (مجمع ديني) • وكان هدف بعضهم المصالحة مع البروتستانت ، وهدف بعضهم الآخر اصلاح الكنيسة • واخيرا اجتمع المجلس في (ترانت) عام ١٥٤٥ ، وامتدت اعماله حتى ١٥٦٣ • وكان ذلك ، بسبب الصراعات الفكرية : أولا بين (الايراسميين) - نسبة الى (ايراسموس) - الذين يريدون المصالحة ، وبين « المتشددين » والمتشبهين بأرائهم السابقة • وثانيا بين الامبراطور من جهة ، وملك فرنسا ، والامراء البروتستانت من جهة أخرى • وقد اتخذ (مجمع ترانت) مجموعة من الاجراءات الاصلاحية ، منها أن القساوسة والاساقفة يجب ان يقيموا في مقر اعمالهم ، وان يجري تثقيف القساوسة الصغار في ندوات محلية ، ويمنع ضم اقطاع كنسي الى آخر • واشترط في القس ان يكون قد تجاوز ال (٢٥) عاما ، والاسقف (٣٠) عاما على الاقل •

اما في ميدان العقيدة ، فلم يجر أي تنازل للبروتستانت : فالكنيسة هي التي تثبت العقائد ، وتعلن « الصفة المقدسة » لتعليمات آباء الكنيسة • ويصل الانسان الى الخلاص بالايان ، والاعمال معا • والمسيح موجود فعلا في مواد المناولة • وعلى كل كاثوليكي ان يقبل الاسرار السبعة، وتقديس العذراء والقديسين، وان يقيم الصلاة باللغة اللاتينية • وتبقى السلطة العليا بيد البابا ، وقد دعمت اكثر من السابق • وقبل المبدأ ، بأن البابا وحده قادر على اتخاذ قرارات فيما يخص الايمان ، وهو « الراعي العالمي للكنيسة » •

وهكذا انقذ (الاصلاح المضاد) الكنيسة الكاثوليكية • الا ان صفته الصارمة ، والرجعية ، منعت كل تقارب بين الكاثوليك والبروتستانت • وكان

اليسوعيون يخوضون ، في كل مكان في اوربا ، معركة فكرية حامية الوطيس ، للاختلاف الجوهرى في المعتقد ، واستطاعوا ان ينجحوا ، في ايطاليا والنمسا ، والمانيا الجنوبية . كما عمل هؤلاء اليسوعيون في مجال (التبشير الخارجى) للدين المسيحى الكاثولىكى ، في (الهند) و (اليابان) و (البرازيل) . وكرسوا جهودهم للتعليم ، حيث كانوا مثقفين ثقافة دينية عميقة ، وفي الوقت ذاته ، ثقافة حديثة ، تحيط بجميع المنجزات العصرية للعلوم . ولذلك نجحوا في استقطاب عدد كبير من المسيحيين . والوثنيين على السواء . ولاسيما عندما اكدوا ، ان في قدرة الانسان ان ينقذ نفسه بأعماله في هذا العالم ، فتجاوبوا مع قلق العصر الذي كانوا يعيشون فيه .

وبالاضافة الى نشاط « الجمعية اليسوعية » ، « ومجمع ترانت » ، فقد استنجدت الكنيسة بالفرق الدينية المختلفة . وقد عمل عدد من تلك الفرق على اصلاح نفسه كالكرمليين ، والفرنسيسكان . وظهرت فرق جديدة ، أسهمت هي الاخرى في دعم المذهب الكاثولىكى ، ونشره في العالم .

وصفوة القول لقد عملت الكنيسة الكاثوليكية على اصلاح نفسها ، وتجميع الكاثوليك حولها ، الا انها اخفقت في اعادة وحدة الكنيسة .

الفصل السادس

ملامح الحياة السياسية في اوربا في القرن السادس عشر

١ - العلاقات الدولية وتطورها :

يتميز القرن السادس عشر بتطور في مفهوم العلاقات الدولية ، أو بمعنى آخر بظهور بنى جديدة في السياسة الخارجية لكل دولة . وفي الحقيقة ، لقد ادخل الامراء والملوك في السياسة الاوربية ، تغييرات ، وممارسات جديدة ، اقتبسوا اغلبها من ايطاليا . فقد شرع هؤلاء الامراء ، يتبادلون السفراء ، على نمط ما كانت تفعله البندقية . وبذلك نشأت (الدبلوماسية الدائمة) . وقبلها ، كانت السفارات ، أو البعثات الدبلوماسية ، ذات طابع استثنائي . الا انه منذ القرن السادس عشر ، اصبحت تلك البعثات هي التي تفاوض ، وتعطي معلومات عن سياسة الدول التي تقيم فيها . ففيليب الثاني ملك اسبانيا مثلا ، كان له في فرنسا وانكلترا بعثات دبلوماسية نشيطة .

ومثلما طرأ تغير في (العلاقات السياسية) للدول اثناء (السلم) فانه جرى تطور في (العلاقات الحربية) وفنون الحرب ذاتها . من المؤكد ، ان ادوات الحرب السائدة في العصور الوسطى ظلت باقية ، كالدرع والزرذ ، والخوذ ، والرماح ، والسيوف ، وكذلك تقاليد الفروسية . الا ان ملامح جديدة بدأت تثبت : فالجيوش عدت اكثر فاكثر جيوشا مرتزقة ، وتناقصت قيمة سلاح الفرسان لصالح المشاة ، الذين أصبحوا اكثر عددا . وشرعت المدفعية تلعب دورا متزايدا في المعارك ، كمعركة (مارينيان) التي اشرنا اليها سالفا ، في الحروب الايطالية . وفي الواقع ، لقد كانت

تلك العناصر العسكرية المتغيرة مترابطة فيما بينها : وقد تمكن محارب من ايطاليا هو (غونزالف القرطبي) ان يوجد (وحدة تكتيكية) اطلق عليها اسم ال (كورونيليا) ، وكان لها الفضل في التفوق العسكري الاسباني .

ونادرا ما كانت العمليات العسكرية حاسمة : فحروب القرن السادس عشر لا تشبه ابدا حروب اليوم . فهي اما معارك ، أو حصارات ، ولا جهات فيها ، والانتصار فيها لا يضمن النجاح بشكل نهائي .

ويرجع هذا الى ان الجيوش كانت قليلة العدد ، وتنهك بسرعة ، وغير قادرة على استثمار النصر . لقد كانت الحروب تكلف غالبا ، فاذا طال امدها ، فان الامراء يصبحون عاجزين عن دفع اجور جيوشهم . ان هذه الصعوبات المالية ، بالاضافة الى بطء المواصلات ، كانت هي العامل الرئيسي في تلك الانتصارات المؤقتة التي لاغد لها ، وفي معاهدات الصلح ، التي ليس فيها منتصرون ، ومقهورون ، والتي ميزت صراعات القوى الكبرى في القرن السادس عشر .

والاضافة الى ما ذكر آنفا ، فان اهداف السياسة الاوربية ، أو بتعبير آخر اهداف العلاقات بين الدول ، قد تغيرت . فقد كان الهدف في العصور الوسطى هو « وحدة المسيحية » . وقد سعى البابا ، والامبراطور ، لتأكيدهما ، بممارستها سلطة عالمية ، كما يتنا في مناسبة سابقة . أما الآن فقد غدا ذلك المسعى مستحسلا ، لان حركة (الاصلاح الديني) جاءت لتجز السلطة « الروحية للبابوية » من ناحية ، اصطدمت « السلطة الامبراطورية » التي عمل (شارلكان) على تدعيمها في القرن السادس عشر بمقاومة (الدول القومية) ، من ناحية اخرى .

بل ان (الفكرة العالمية) قد حل محلها فكرة حديثة ، وهي (الامبريالية) . وكانت تعني في ذلك الوقت ، محاولة توسع دولة على حساب الاخرى : فهناك توسع ملوك فرنسا باتجاه ايطاليا ، وتوسع شارلكان ، بغرض انشاء دولة بورغونية قوية . وتوسع فيليب الثاني ملك اسبانيا في البحر المتوسط واوروبا الغربية . الا ان جمعهم احققوا ، لانهم اصطدموا بمقاومة الدول القومية لهم ، التي لم يتردد امراؤها عن الاستنجاد بالراي العام ، وهذا ما فعله الملك فرنسوا الاول بعد معركة (بافيا) .

وخلاصة القول ، ان السياسة الدولية في اوربا توصلت الى ما كانت الدويلات الايطالية قد اكتشفته قبل قرن ، وهو مبدأ توازن القوى . وغدت انكلترا اختصاصية به ، ولاسيما في عهد الملكة اليزابيث ، حتى كان يقال ان القوة الانكليزية تشبه مؤشر الميزان ، الذي حملت كفتاه اسبانيا وفرنسا . وسياسة التوازن هذه ، استخدمتها الدول الاوربية ضد التوسعات . التي أشرنا اليها ، لاجهاضها ، ومنها توسع شارلكان وامبراطوريته .

ب - اخفاق فكرة التوسع الامبريالي - حكم شارلكان :

ارث شارلكان : لقد تكونت في النصف الاول من القرن السادس عشر ، قوة ضخمة في اوربا الغربية : فقد ورث (شارل) من (آل هابسبورغ) ممتلكات بورغونية ، ونمساوية ، واسبانية . وعندما توفي والده الامبراطور (ماكسميليان) عام ١٥١٩ ، رشح نفسه للامبراطورية الرومانية المقدسة ، تجاه منافسه ملك فرنسا (فرنسوا الاول) . وتمكن بفضل المال ، ان يكتسب المنتخبين الى جانبه . ومن ثم غدا امبراطورا في ٢٨ نيسان عام ١٥١٩ تحت اسم (شارلكان) أي (شارل الخامس) .

الامبراطور شارلكان : يمثل شارلكان وجها بارزا في تاريخ اوربا في مطلع العصور الحديثة . وعلى الرغم من صحته الهشة ، وثقافته المحدودة ، فانه ظهر في مستوى المهمة الموكولة اليه . ولقد احاط نفسه بمستشارين قادرين ، ومخلصين . واتقياء ، ومؤمنين بوحدة الكنيسة . ولقد كان لديه شعور قوي بواجباته ، ومسؤولياته .

وان مجرد النظر الى خريطة ممتلكاته ، يوضح الاسباب ، التي فرضت عليه سياسة اخضاع ايطاليا لنفوذه ، اذ انه لاغنى له عنها في مواصلاته . وبالإضافة الى هذا الهدف السياسي فقد كان يدغدغ نفسه حلمان : **اولهما** اتزاع (دوقية بورغونيا) من آل فالوا ملوك (فرنسا) وهو حلمه البورغوني ، **وثانيهما** ان يعيد للسلطة الامبراطورية قوتها السابقة وهيبتها ، أي العودة الى فكرة ، امبراطورية تقوم فوق الممالك الاوربية وتوحيدها ، وتكون المثلثة لوحدة

المسيحية في وجه (الكفار) • ومن ثم ، فانه نظر الى نفسه ممثلا لتلك المسيحية . وبذلك كان لا بد ان يصطدم بالقوى الاوربية الاخرى المنافسة له ، والمضادة لاهداف سياسته •

حروب شارلكان : لقد اصطدم اولا بالقالوا في فرنسا ، وذلك منذ ١٥٢١ • وكان امرا لا يمكن تفاديه ، بسبب مطامعه في بورغونيا ، وبسبب العداء الناجم ، عن المنافسة السابقة على منصب الامبراطورية بينه وبين فرنسوا الاول ، وخشية هذا الاخير من قوته ، ولاسيما ان ممتلكاته ، كانت تطوق فرنسا من الشرق ، والجنوب ، والشمال • وقد فكر (فرنسوا الاول) في التحالف مع ملك انكلترا (هنري الثامن) ، واجتمع معه ، ذلك الاجتماع الفخم في معسكر (الجوخ الذهبي) ، عام ١٥٢٠ • الا ان (هنري الثامن) ، وجد مصلحته مع الامبراطور (شارلكان) ، الذي سعى بدوره للقاءه ، انما بمظاهر اقل بريقا ، من معسكر الجوخ الذهبي •

وقد قامت الحرب بين الطرفين : (شارلكان) و (هنري الثامن) من ناحية ، و (فرنسوا الاول) من ناحية ثانية • وكانت ظروف فرنسا فيها سيئة ، اذ انضم اكبر الامراء الاقطاعيين الفرنسيين وهو « الكونيتابل دوبربون » ، الى الامبراطور ، نتيجة حكم غير عادل ، كان قد اصدره ضده ، ملك فرنسا • كما ان قائد الجيوش الفرنسية (بايار) ، قتل اثناء انسحاب الجيش الفرنسي من ايطاليا ، في عام ١٥٢٤ • ومع ذلك فقد استطاع (فرنسوا الاول) ان يوقف الزحف الاسباني ، وقوات الامبراطور ، في شمال شرقي فرنسا (شمبانيا) ، وان يتصدى للزحف الانكليزي في الفلاندر •

وعندما حاول (فرنسوا الاول) استعادة (مقاطعة ميلانو) ، فانه هزم واخذ اسيرا في معركة بافيا عام (١٥٢٥) • واضطر ، وهو في الاسر في اسبانيا ، ان يوقع (معاهدة مدريد) ، التي تنازل فيها عن مطامحه في ايطاليا ، وعن الفلاندر ، والارتوا ، وبورغونيا •

الا انه عندما حرر ، رفض تنفيذ هذه الاتفاقية • وكون (عصابة) مع البابا والبندية ، والامراء الايطاليين ، الحريصين على التخلص من الوصاية الامبراطورية •

ولم يتردد في التحالف مع الامراء اللوترين (البروتستانت) الالمان . بل ومع الاتراك العثمانيين ، وعقد معهم معاهدة عام ١٥٣٥ ، ضمنت له امتيازات تجارية ، في بلاد الامبراطورية العثمانية ، وهي معاهدة « الامتيازات » المشهورة . وفي الوقت ذاته ، اتفق على أن تكون القوتان الفرنسية والتركية ، في تحالف ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة . وقد اثار هذا التحالف ضجة كبيرة في اوربا ، اذ رأت فيه عارا على فرنسوا الاول ، الذي وضع يده في يد السلطان التركي المسلم ، وكان بالنسبة اليهم هو عدو المسيحية الاكبر . هذا بالاضافة الى تقاربه مع الملك (هنري الثامن) ملك انكلترا .

وعادت الحرب ، وقام شارلكان بمهاجمة « روما » مقر البابوية ، واعمل جنوده النهب فيها عام (١٥٢٧) . واخيرا وقع (صلح كامبره) عام ١٥٢٩ . وتنازل الملك (فرنسوا الاول) بموجبه ، عن وصايته على (الفلاندر) ، (والارتوا) ، وعن مطامحه في ايطاليا . كما تنازل الامبراطور ، عن احلامه في (بورغونيا) ، واصبح شارلكان هو السيد في شبه الجزيرة الايطالية .

واصطدم شارلكان ثانية ، مع (الامراء الالمان البروتستانت) ، الذين شكلوا عام ١٥٣١ (عصبة سمالكاد) . وكانت مقاومة هؤلاء الامراء لشارلكان ، مقاومة دينية وسياسية معا ، طالما انهم كانوا يخشون أي نمو للقوة الامبراطورية على حسابهم . ومع انه انتصر عليهم في معركة (مولبرغ) ، في عام ١٥٤٧ ، لكنه لم يستطع أن يفرق جمعهم ، اذ عادوا الى تكوين العصبة ثانية بعد بضع سنوات ، واتفقوا مع ملوك فرنسا . وفي عام ١٥٥٢ ، استدعوا (هنري الثاني) ، لاحتلال « متر » و « تول » و « فردان » ، من ارض الامبراطورية . وعندما أراد شارلكان استعادة « متر » اخفق .

وكان شارلكان قد اصابه المرض فشرع يتبع سياسة التنازل والتفاهم : ففي عام ١٥٥٥ ، وقع (صلح اوغسبورغ) ، واعترف في (الديت) الذي انعقد في تلك المدينة ، بالمذهب البروتستانت في امبراطوريته . وسمح لكل امير ، ان يختار المذهب الذي يريده في امارته . الا ان هذا لا يعني منح الحرية الدينية

للأفراد ، إذ لم يعترف إلا بالمذهب اللوثري من البروتستانتية ، كما لم تعط حرية انتقاء المذهب اللوثري ، أو الكاثوليكي ، إلا للأمراء فقط ، أما الأفراد فعلى دين ملوكهم ، وأمرائهم • ونص (صلح اوغسبورغ) أيضا ، أن أي أمير ديني يتخلّى عن الكاثوليكية بعد ١٥٥٥ ، فإنه ملزم على تسليم أرضه • وبعد (صلح اوغسبورغ) بعام (١٥٥٦) ، تنازل شارلكان عن العرش واعتكف في دير في اسبانيا ، أقام فيه حتى ١٥٥٨ ، حيث توفي • وبوفاته مات ذلك الحلم الوسيط في تكوين امبراطورية عالمية •

وكان شارلكان قبل اعتكافه ، وتنازله عن العرش ، قد قسم امبراطوريته بين أخيه (فردينان) وابنه (فيليب) • فأعطى لأخيه املاكة النمساوية ، ولقب امبراطور ، وماتبقى وهو كثير ، (اسبانيا وممتلكاتها ، ماوراء البحار ، وما يملك في إيطاليا ، والأراضي المنخفضة) إلى ابنه الذي تسمى بعده بـ (فيليب الثاني) • ولم تتوقف الحرب بين فرنسا واسبانيا ، بل غدت بين ملك فرنسا (هنري الثاني) و (فيليب الثاني) • واستطاع الأخير أن يهزم الفرنسيين ويستولي على « سان كنتان » في شمالي فرنسا عام ١٥٥٧ • إلا أن الفرنسيين تمكنوا ، في العام التالي ، من انتزاع ميناء (كاله) على بحر المانش ، من يد انكلترا ، حليفة اسبانيا •

وأخيرا ، توقف ذلك النزاع الطويل بين فرنسا واسبانيا ، بعقد (معاهدة كاتو كامبريزيس) عام ١٥٥٩ • وفيها تنازلت فرنسا نهائيا عن اطماعها في إيطاليا ، وانكلترا عن (كاله) ، وفيليب الثاني عن بورغونيا ، وكان سلام من انهكته الحرب • إلا أن هذا السلام ، كان محاولة في الواقع ، للتقارب بين المملكتين : فرنسا ، واسبانيا ، الكاثوليكيتين ، لمحاربة « الهرطقة البروتستانتية » • وبذلك اتخذت السياسة الأوروبية مجرى آخر •

ج - الاخفاق النسبي لآخر تجمع أوروبي ضد الدولة العثمانية :

لقد تدعم بناء الدولة العثمانية في القرن السادس عشر ، وتوسعت فتوحاتها • فالسلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) بعد أن هزم الفرس ، واستولى

على بلاد الشام ومصر ، غدا سيد الشرق كله ، وبعث لصالحه الامبراطورية البيزنطية . وجاء بعده ابنه (سليمان القانوني) (١٥٢٠ - ١٥٦٦) . ليطرح ثقله ، وتهديده الرهيب ، لاوروبا الوسطى . فاستولى عام ١٥٢١ على بلغراد ، واتبعها بهنغاريا عام ١٥٢٦ . وفي عام ١٥٢٩ ، وصلت جيوشه الى اسوار (فينا) وعسكرت خلفها . واخيرا ، وضع الاتراك قدمهم في البحر المتوسط ، فاستولوا عام ١٥٢٢ على رودس ، ودعموا حمايتهم لخير الدين بربروس في الجزائر . وعلى الرغم من الحملة ، التي وجهها شارلكان الى تونس ، عام ١٥٣٥ ، والسى الجزائر ، عام ١٥٤٢ ، فان الجزائر بقيت تحت نفوذ الدولة العثمانية . وبذلك ظل الوجود التركي قائما في المتوسط المغربي ، ويهدد اسبانيا ، وممتلكاتها ، في صقلية وجنوبي ايطاليا . كما ان النشاط البحري الجزائري ، والتونسي ، والليبي ، كان يبلبل مواصلات اوربا والامبراطورية . وفي عام ١٥٧٠ ، استطاع العثمانيون استخلاص قبرص من البنادقة ، وازالة كل نفوذ اوروبي في شرقي البحر المتوسط .

ان احتلال العثمانيين لقبرص ، وهي آخر ممتلكات الغرب في الشرق ، اثار الروح الصليبية الاوربية ، وكان المحرك لها البابا (بيوس الخامس) ، وانضم اليه كل من البندقية ، واسبانيا . وفي السابع من شهر تشرين الاول عام ١٥٧١ ، حدثت معركة (ليبانتو) ، بين الاسطول الاوربي المتحالف ، والاسطول العثماني ، وانتصر الاسطول الاول . وكانت فرحة اوربا كبيرة بهذا النصر . ولكن بعد ثلاث سنوات ، استطاع الاتراك استعادة تونس في عام ١٥٧٤ . فحملة التجمع الاوربي السالفة الذكر كانت آخر صليبية ضد التقدم العثماني ، وهي وان استطاعت ان توقف ذلك التقدم ، الا انها لم تتمكن من القضاء على الوجود التركي في شرقي اوربا .

د - يقظة القوميات في اوربا :

لقد شاهد القرن السادس عشر تكون الدول القومية الاوربية وبروزها على مسرح السياسة الدولية ، ولا سيما في اوربا الغربية . ومن هذه الدول الكبرى ، اسبانيا ، وانكلترا ، وفرنسا .

— ١٧٧ — تاريخ اوربا في العصر الحديث م-١٢

اولا - الدولة الاسبانية وحكم الملك فيليب الثاني

تتميز الفترة التي اعقبت عام ١٥٥٩ ، في ميدان السياسة الاوربية ، بالتفوق العسكري الاسباني ، وبالاهمية الكبيرة للقضايا الدينية .

وكان على عرش اسبانيا خلالها الملك (فيليب الثاني) ابن الامبراطور (شارلكان) وقد حكم خلال الاعوام (١٥٥٦-١٥٠٨) . وكان اقوى ملك في اوربا الغربية ، بسبب ارثه الواسع : ففي اوربا ، له ممتلكات في ايطاليا ، وله الاراضي المنخفضة ، وفرائش كوتته ، وفي امريكا ورث المستعمرات الاسبانية في امريكا الوسطى ، وامريكا الجنوبية ، وفي آسيا ، جزر الفلبين . وكان يملك جيشا قويا بالاضافة الى المعادن الثمينة ، ولا سيما الفضة ، التي كانت تزوده بها مستعمراته في امريكا .

واذا كان شارلكان والده ، قد قضى قسما كبيرا من حياته في الاراضي المنخفضة ، فانه على نقيضه ، كان ملكا اسبانيا ، قلبا وقالبا . ولم يغادر ابدا قصره في (الاسكوريال) ، الذي بناه على بعد (٤٠) كم من عاصمته الجديدة (مدريد) . وقد كان معروفا بهدوئه ، وكبريائه ، فلا يكلمه احد الا وهوراكم على ركبتيه . وكان ملكا بوروقراطيا ، يريد أن يفحص كل شيء بنفسه وكاثوليكيًا متعصبا ، وقد وضع كل ثقله في خدمة (الاصلاح الديني الكاثوليكي المضاد) . وكان من اول اعماله حرق (١٢) مهرطقا في الساحة العامة . واضطهد ما يقارب نصف مليون من الموريسك ، (وهم العرب المسلمون الذين الزموا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة عام ١٤٩٢) كانوا مقيمين في جنوب اسبانيا ، ونفى ، وشرد (٥٠.٠٠٠) منهم ، بعد قيامهم بثورة في غرناطة عام ١٥٦٧ .

وفي البحر المتوسط ، فان « فيليب الثاني » ، دخل في صراع مع الاتراك العثمانيين . وكانت قواته قد سيطرت على (وهران) في الجزائر ، وعلى (تونس) ، وحاربت بحارة بلاد المغرب المجاهدين ، واضطدمت مع الاسطول العثماني - كما اشرنا الى ذلك سابقا - في معركة ليبانتو عام ١٥٧١ ، مشتركة مع حلفائها ، ومنهم البابا .

وفي عام ١٥٨٠ ضم اليه البرتغال : ووجد بذلك شبه الجزيرة الايبيرية ، وغدا ملكا للبرتغال ، وسيدا للامبراطورية البرتغالية ، وظلت البرتغال تحت جناح اسبانيا

حتى عام ١٦٤٠ • ولكن مثلما لاقى فيليب الثاني في سياسته مظهر النجاح تلك ، فانه عانى الفشل وذلك في الاراضي المنخفضة ، حيث اندلعت ثورة لاهبة ضد حكمه .

ثورة الاراضي المنخفضة :

لقد تطايرت شرارة الثورة في آب عام ١٥٦٧ • وكانت لها (اسباب) عديدة ومعقدة ، فمنها : فرض ضرائب جديدة ، واعادة تنظيم الدوائر الكنسية ، وتسليل اليسوعيين ، واضطهاد البروتستانت ، منعا للكالفنية من الانتشار • وفوق كل ذلك ، سياسة لا حكيمة ، في فرض الاسبان على البلاد ، حكاما وموظفين ، مما اثار استياء كبار النبلاء ، الذين كان على رأسهم (ويليام دورانج) ، الملقب بـ (الهادي) • ولم تلبث ان تدخلت في تلك الاسباب قضايا اجتماعية ودينية : فصناع المدن الشهيرة ، بصناعة الصوف ، انتشر بينهم المذهب الكالفني ، فأخذوا يطالبون بالحرية لمذهبهم • ويمكن القول ان فيليب الثاني لم يفهم الوضع الاقتصادي ، والسياسي الخاص ، للاراضي المنخفضة • ففعاليتها الاقتصادية ، والفنية ، ونشاطها البحري ، واسطولها التجاري القوي ، دعم شعورها القومي ، وكذلك فعل حكم شارلكان ، الذي كان يرى فيها ، مع بورغونيا ، موطنه الاصلي •

وعندما قامت الاضطرابات ، ارسل الملك لتهدئتها (دوق دالب) الذي أوجد نظاما ارهابيا عنيفا • ومع أنه اعدم (٨٠٠٠) ثائر ، فانه لم يستطع ان يقمع الثورة فاستدعي الى اسبانيا عام ١٥٧٣ • وحل محله الحاكم (فارنيز) ، الذي تمكن ان يعيد الى التاج الاسباني ، (المقاطعات العشر) في الجنوب ، وكانت قد بقيت على المذهب الكاثوليكي ، وذلك تحت اسم (اتحاد آراس) • بينما تابعت (مقاطعات الشمال) كفاحها تحت زعامة (ويليام دورانج) ، ، وكحان عددها سبع مقاطعات ، وكونت اتحادا فيما بينها اطلقت عليه اسم اتحاد اوترخت عام ١٥٧٩ • وقد تحول هذا الاتحاد الى « جمهورية المقاطعات المتحدة » التي اعلنت عزل الملك عام ١٥٨١ ، وتحالفت مع انكلترا ، وفرنسا • وبعد كفاح قاس جدا ، كان على الاسبان أن يمنحوا للشوار هدنة من ١٢ عاما تبدأ من عام ١٦٠٩ •

الا أن اسبانيا ، لم تعترف باستقلال « جمهورية المقاطعات المتحدة » ، الا في (معاهدة وستفاليا) عام ١٦٤٨ •

اما الاخفاق الثاني الذي لاقاه فيليب الثاني ، فقد كان في صراعه مع انكلترا عام ١٥٨٨ • وكان على عرشها الملكة (اليزابيث) ، التي تدين بالبروتستانتية • فقد قدمت العون للكالفنيين الايقوسيين ، وللهوغنوت الفرنسيين ، وكان هذا كافيا كي يحيك الملك (فيليب الثاني) ضدها ، عددا من المؤامرات ، بمساعي سفيره فيها • وكان منها ، سعيه لاحتلال (ماري ستوارت) ، ملكة ايقوسيا الكاثوليكية ، محلها • ولكن اليزابيث استطاعت القبض عليها ، واعدامها •

واضيف الى تلك الخصومة الدينية ، **التنافس البحري** • ففي الوقت الذي كان فيه فيليب الثاني يضيف الى الممتلكات الاسبانية في امريكا،الامبراطورية البرتغالية ، فان الانكليز كانوا قد ابتدؤوا حرب القرصنة ، ضد التجارة الايرية، ووجهوا قراصنتهم (من أمثال هوكنز ، ودريك) ضد السفن الاسبانية ، بسل شعروا يقومون بغارات على المدن الاسبانية نفسها • وبذلك تبدى الصراع من أجل السيادة على المحيطات •

ولما كانت انكلترا قد غدت ملجأ لثوار الاراضي المنخفضة ، فقد قرر (فيليب الثاني) أن يهاجمها أولا ، ثم يلتفت ضد المقاطعات الثائرة في الاراضي المنخفضة • فاذا ما نجح ، فانه يقضي بضربة واحدة ، على المنافسة البحرية ، والهرطقة البروتستانتية • ولهذا الغرض جمع في لشبونة (١٣٠) سفينة ، و(٢٠٠٠٠) جندي ، وقذف هذا الاسطول الكاثوليكي ، أو « **الارمادا التي لا تغلب** » لغزو مملكة اليزابيث عام ١٥٨٨ • الا ان العواصف شتتت السفن،التي هاجمها القراصنة الانكليز بدورهم ، وتحولت الحملة الى كارثة بالنسبة لاسبانيا ، ونصر مؤزر للانكليز ، أي نصر للبروتستانتية ، وفي الوقت ذاته ، نصر لامة تبدت في أوج تفتحها ، وقوتها •

علاقة فيليب الثاني بفرنسا :

لقد كانت فرنسا منذ مذبحة (سان بارتلمي) عام ١٥٧٣ ، غارقة في فوضى

كبيرة ، أراد ملك اسبانيا أن يستفيد منها . فمنذ تكون (العصابة) التي اوجدها (الحزب الكاثوليكي) ، فافهم قدم لرئيسها (الدوق دوغيز) كميات ضخمة من المال . وأرسل في عام ١٥٨٩ جيشا اسبانيا ، لانقاذ باريس — التي تحالفت مع العصابة — من حصار ملكها الشرعي (هنري الرابع) لها . بل فكر في وضع ابنته (ايزابيل) ، من زوجته الفرنسية (ابنة الملك هنري الثاني) ، على عرش فرنسا ، اذ كان يرى انها احق بوراثنة عرش فرنسا الكاثوليكي من « هنري الرابع » ذي الاتجاه البروتستانتى .

وهنا ايضا اخفقت سياسته : لان مهارة (هنري الرابع) ملك فرنسا ، وتحالف بعض الكاثوليك معه ، اديا الى وثبة **الشعور القومي الفرنسي** . وفي معاهدة (فيرفان Vervins) عام ١٥٩٨ ، اضطر فيليب الثاني للتنازل عن مطامحه الفرنسية .

ففيليب الثاني حاول إذا أن يحقق التفوق لاسبانيا ، والنصر للكاتوليكية . ولكنه اخفق في كل مكان ، امام ملوك ، كانوا يدافعون عن مصالح اممهم ، ويسعون لاقامة توازن بينها ، بمنع أية واحدة منها من فرض سيادتها . وسيطرتها على الاخرى .

ومع ذلك ، بدت اسبانيا في عهد الملك (فيليب الثاني) دولة ضخمة وقوية ، ولها امبراطورية شاسعة . وتمتلك قوى اقتصادية كبيرة ، وقوى عسكرية تعتبر الاولى في اوربا . وفي عهده حققت شبه الجزيرة الايبيرية وحدة ارضها بضم البرتغال الى اسبانيا ، ووحدتها الدينية على حساب الموريسك ، واليهود .

وقد وصل عدد سكانها الى عشرة ملايين نسمة ، واقامت بعض صناعات مكنية كالنسيج ، والتعدين في طليطلة . وكانت تنتج الصوف بكميات وافية ، وتمارس نشاطا ماليا واسعا (مثل اسواق مديناديل كامبو) . وفوق كل ذلك ، فقد كان بامكان المعادن الثمينة التي تمتلكها ، والتجارة مع امريكا ، أن تدفعها بقوة الى طريق الرخاء .

ولكن ، ومع كل تلك الامكانيات الاقتصادية ، فان اسبانيا لم تبلغ الشأو

المنتظر ، اذ يبدو انها لم تستثمرها الاستثمار الصالح : فالزراعة فيها تأثرت تأثرا كبيرا باخراج الموريسك منها ، ولا سيما منطقة الاندلس . ويضاف الى ذلك ، الاساءة التي ألحقها (الميستا) ، أي اتحاد « رعاة الغنم » المتنقلين ، بالاراضي الزراعية ، حتى ان اسبانيا اضطرت لاستيراد قمحها من الخارج . والصناعة ما عدا بعض النسيج ، والتعدين ، المشار اليه ، لم تنطلق نحو الامام . لان التجار بقوا يفضلون بيع المواد الخام على المصنوعة . أما (الامور المالية) ، فقد تبلبل وضعها بسبب افلاسات الملك (فيليب الثاني) في اعوام (١٥٥٧-١٥٧٥-١٥٩٧) ، الناجمة عن مصروفات البلاط ، ومرتببات كبار الامراء ، والحروب الخارجية ، وثورة الموريسك ، والاراضي المنخفضة . وكان من نتيجة ذلك ، أن حل الصناع الفرنسيون ، وتجار أوروبا كلها ، والمصرفيون الايطاليون ، محل الاسبان ، الذين اتجهوا الى اعمال غير منتجة .

وهذا الاخفاق الخطير يترجم ذاته ، في اختلال التوازن في المجتمع نفسه : فالبلط الاسباني ، الذي كان ذا تقاليد قاسية ، فرضت نفسها على كل أوروبا ، كان في الواقع واجهة فخمة فقط : فخلف بعض عشرات من أسر (النبلاء الكبار) ، و (رجال الدين) ، كان هناك شعب كامل من (الهيدالغو Hidalgo) (اولاد النبلاء الفقراء نسبيا الذين لا يقومون بعمل) . ومن ثم فان ظاهرة (الفقر) ، التي تسم أوروبا بشكل عام في نهاية القرن السادس عشر ، اتخذت في اسبانيا ابعادا غير عادية . و البورجوازية لم تنم النمو الملاحظ في بلاد أوروبا الأخرى ولم يكن من هم لها ، الا الوصول الى المراتب الشرفية (القاب النبلاء ومناصبهم) .

ويمكن ان تعزى عوامل ذلك التدهور ، بالاضافة الى ما ذكر ، الى كبرياء الارستقراطي الاسباني ، والى التقاليد والافكار الرجعية السائدة حول مفهوم العمل الزراعي ، والصناعي ، والتجاري . والى جانب ذلك ، هناك سياسة « الملك الكاثوليكي » (فيليب الثاني) ، التي لم تكن متناسبة مع القوى الحقيقية لاسبانيا . فحتى تدفق المعادن الثمينة كان له نتائج سلبية ، لانه كان غير قادر على تحريك اقتصاد فعال ، فبلبل المجتمع بارتفاع الاسعار ، واعطاه

مظهر رخاء لا وجود واقعي له . وهكذا ، لم يكن باستطاعة تلك الامبراطورية الواسعة ، أن تزود البلاد بحاجتها من السلع المختلفة ، كما ان الثروة الضخمة المتدفقة ، كانت تتبدد بشراء تلك السلع من الخارج . وبالإضافة الى ذلك ، لم تكن المستعمرات الاسبانية تحصل على السلع المصنوعة من اسبانيا ، مقابل المواد التي تبعثها لها ، ولذا نشطت تجارة التهريب فيها مع اعداء اسبانيا .

إذا ، ما معنى أن يقال ان اسبانيا عاشت في القرن السادس عشر قرناً ذهبياً ؟ وفي الحقيقة ، في الوقت الذي شرعت فيه العظمة السياسية لاسبانيا تميل الى انحدار ، فإن الحضارة فيها تسنمت قمة عالية . ففي كل ميدان من ميادين الفكر ، كان لاسبانيا رواد مبدعون ، اكان في التيثولوجيا ، أو التاريخ ، أو جغرافية العالم الجديد ، أو الادب المسرحي . كما ان بناء الاسكوريال الفخم ، ورسوم الفنان (لوفريكو) يوضحان كيف تمثلت قشتالة ، الدروس الفنية الايطالية ، اكان في الاجسام العارية المصورة ، أو في وقدة الروح البادية في الوجوه .

وقد ظهر فيها في ميدان الادب الديني التصوفي (تيريز دافيللا) ، والشاعر الكبير (جان دولا كروا) . كما انبثقت القصة البيكارية ، أي القصة الشعبية ، التي اتخذت موضوعاً لها حياة المتأمرين والمخادعين والتي ستزدهر في القرن السابع عشر .

وابرز ادباء اسبانيا في هذا العهد ، (سيرفانتس Cervantès) ، الجندي القديم المحارب في معركة « لياتتو » ، الذي اوجد نوعاً ادبياً جديداً هو (الرواية) . وقد اتحف عالم الادب بمؤلفه (دون كيشوت) الذي يوضح فيه كيف ان اخفاقات الانسان ، لا تحطم كرمه ، ولا امله .

ثانياً - تكون انكلترا الحديثة

لقد عرفت انكلترا في القرن السادس عشر تطوراً رئيسياً اعطاها اصالتها الدينية ، وثبت قوتها البحرية . ويمكن اجمال مظاهر تطورها بالنقاط التالية :

١ - دعم السلطة الملكية : أن ضعف عدد النبلاء في انكلترا ، نتيجة لحرب

الوردتين السالفة الذكر ، اتاح تقدم الملكية فيها . وفي الواقع ان دعم النظام الملكي في انكلترا ، يرجع الى شخصية ملكها الاول من اسرة (تيودور) ، وهو (هنري السابع) الذي اورث ابنه « نظاما قضائيا » قويا ، بايجاده (الغرفة المنجمة) ، وهي محكمة من سبعة قضاة ، خمسة منهم يعينهم الملك . كما ترك له **فيضا ماليا** ، ناجما عن ضم الاقطاعات الشاغرة بموت اصحابها ، الى التاج . وهذا اعطى (هنري الثامن) سلطة ، واستقلالا شبيهين بما كان يتمتع به (فرانسوا الاول) ملك فرنسا .

ولكن حتى تبقى تلك السلطة والاستقلال قائمين ، كان من الضروري الا يحتاج الملك الى الكثير من المال . لان فرض ضرائب كثيرة يتطلب دعوة البرلمان ، الذي يراقب مبدئيا مبادرات الملوك ، ويحد منها . ولهذا السبب لجأ (هنري الثامن) الى **مصادرة اموال الكنيسة** . واتبعت الملكة اليزابيث سياسة مالية حكيمة في ادارتها للشؤون الانكليزية . فهذان الامران لم يكونا اجراءين فرضتهما الظروف فحسب ، وانما كانا وسائل في خدمة حكم أكثر فردية ، واشد مركزية .

وفي الواقع استطاعت (الملكة اليزابيث) خلال حكمها الطويل (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ان تتصرف بتلك الحكمة الحذرة . وهي ابنة (هنري الثامن) من زوجته (آن دوبرلين) . وقد كانت تعيش خلال حكم اختها (ماري تيودور) ، في خوف مستمر على حياتها . وكانت ذكية ، ولكنها قاسية وسلطوية ، وقد سعت لايجاد ملكية مطلقة . وحتى لاتجمع البرلمان ، فانها كانت تحكم بقرارات ، وقد ساعدها على ذلك ، « **الصيغة القومية** » ، التي احاطت بها الملكية ، اثناء صراعها مع ملك اسبانيا « **فيليب الثاني** » . فاستطاعت ان تمارس حقوقها الاستثنائية ، في القضاء ، وفرض الضرائب ، مستندة الى « **مجلس خاص** » ، والى رجال اكفاء من امثال **ولسنفهام** منظم كل عمليات القمع ، و **ويليام سيسيل** ، ابي السياسة الاقتصادية ، والمستشارين نيقولا ، وفرنسيس بيكون .

ومع كل ذلك ، فقد كان آل تيودور يحسبون حساب البرلمان ، الذي يعتمد على تقليد عريق ، والذي كان يعارض الملك أحيانا . ومنذ عام ١٥٨٨ ، اخذ

« مجلس العموم » يظهر ارادته في الدفاع عن بروتستانتية متطرفة ، وفكر في الحد من السلطة الملكية .

٢ - دين قومي : ان طرافة الاصلاح الديني البريطاني تأتي من الدور الرئيسي الذي لعبه فيه الملوك ، كما تأتي من الحلول التي تبناها .
فقد اشرنا سابقا ، ان الامر ابتداء بقضية طلاق ارادها الملك هنري الثامن .
الا ان البابا رفض الغاء زواجه بكاترين داراغون (خالة شارلكان) ، فعمل الملك على فصل الكنيسة الانكليزية عن البابوية ، وجعل (البرلمان) يصوت عام ١٥٣٤ على (قرار السيادة) ، الذي جعله رئيسا اعلى للكنيسة القومية . وبعمله هذا ارضى نزعات الشعب البريطاني ، الذي لم يكن يثق كثيرا بابا روما ، وبرجال الدين . الا انه بالنسبة لكل ما تبقى من الدين ، والكنيسة ، فانه ابقاهما كما هما في العقيدة الكاثوليكية .

ولكن هذا الحل ، المفيد للتاج ، لم يكن بالامكان استمراره في حقبة مملوءة بالتقلبات الدينية . فانكلترا اتجهت مع (ادوار السادس) (١٥٤٧ - ١٥٥٣) ، نحو اصلاح اكثر جذرية ، وفي عهد الملكة (ماري تيثودور) نحو ردة كاثوليكية . وفي هذا الوقت كانت (الكالفنية) تنتشر تحت تأثير ايقوسيا (سكوتلاندة) ، واللاجئين ، والوافدين ، من القارة . فازدادت الانقسامات السياسية ، واشتدت الخلافات ، مما هدد وحدة المملكة بالخطر .

- وجاءت (الملكة اليزابيث) لتوجد حلا وسطا . فقد اكدت ثانيا (قرار السيادة) في عام ١٥٥٩ . ومنحت (مجلس العموم) المتطرف في البروتستانتية ، حق تبني « كتاب الصلوات » ، « واعتراف الايمان » ، اللذين يحملان الروح الكالفنية . وهذا حل لم يرض في الواقع احدا : فالكاثوليك التفوا حول ملكة ايقوسيا (ماري ستيوارت) ، واخذوا يسعون كي تكون مليكتهم بدلا من اليزابيث . وهذا ادى الى سياسة قمع قاسية ، وصلت الى اوجها ، بتنفيذ حكم الاعدام بالملكة (ماري ستيوارت) عام ١٥٨٧ ، بعد ان اقيت اسيرة لدى اليزابيث (١٩) تسعة عشر عاما . وكذلك فان الكالفنيين كانوا غير راضين ، ويعترضون باستمرار على الحل الانجليكاني .

الا ان هذا « الدين الجديد » ثبت سلطة التاج على الكنيسة القائمة .
وسمح للاصلاح بامتداد عالمي ، مواز لامتداد الامبراطورية الانكليزية في المستقبل .
ولكنه كان يحمل كذلك ، بذرة الصراعات الدينية ، التي أغرقت الجزيرة الكبيرة
بالدماء ، مترابطة مع الاختلافات السياسية .

٣ - ازدهار اقتصاد حديث : يمثل حكم الملكة اليزابيث اتجاها جديدا في
التاريخ الانكليزي : فعلى الرغم من ان انكلترا بقيت بلدا ريفيا زراعيا ، الا ان
المجتمع الزراعي كان يتطور بوضوح . فالاستيلاء على اراضي البرشيات ،
والطلب المستمر على الصوف من أجل الصناعة ، دفع ملاك الاراضي لتربية
تربية المواشي . ولهذا السبب ، سيجوا ممتلكاتهم ، مما ادى الى فقر الفلاحين
الذين كانوا يعيشون من المراعي المشتركة .

واهم من ذلك التطور ، نمو الصناعة التي نظمها « ويليام سيسيل » .
وساعده على ذلك هجرة العمال من الاراضي المنخفضة ، واستثمار رؤوس الاموال،
المتجمعة من بيع املاك الكنيسة ، ومن دخول التجارة . وقد استفادت من ذلك
التطور الصناعي صناعة النسيج ، والتعدين ، واستثمار مناجم الفحم الحجري ،
الذي حل محل فحم الخشب ، ولاسيما في التدفئة . وما يجب تذكره دائما في
هذا التطور ، هو الاتجاه المركنتيلي لسياسة ويليام سيسيل ، أي تنمية الصناعة
الوطنية للحد من اخراج النقد خارج البلاد . ومن ناحية اخرى ، استخدام
تقنيات جديدة أوجدت ثورة في انتاج الحديد ، والحديد المصهور ، وسحت
نتيجة استخدامها للفحم الحجري ، بظهور صناعات ، كصناعة الزجاج ، والقرميد ،
ونموها .

ولنجاح مثل تلك السياسة الاقتصادية ، كان لابد من دعم مالي صلب ،
وتوسع تجاري . اما الدعم المالي فقد وفره (توماس غريشام Th. Gresham)
مالي البلاط ، الذي اوجد (بورصة لندن) عام ١٥٦٦ . وحول التوسع التجاري ،
فيكفي ان يقال ، انه في هذه الحقبة تأسست العظمة البحرية لانكلترا : فالمكتشفون
والقراصنة الانكليز (من امثال « هوكنز » و« دريك » و« فورميشير » ، و

« كافنديش » ، وغيرهم) كانوا يشقون عذاب البحار ، ويهاجمون الاسبان ، ويحملون الى انكلترة غنائم ضخمة . كما ان الدولة انشأت شركات التجارة الكبيرة ، كشركة الليفانت ، وشركة الهند الشرقية ، أو شجعت على انشائها ، واعطتها احتكارات واسعة ، فشرعت تنافس تجار البلطيق ، والبنادقة ، والبرتغاليين .

وبالاضافة الى ذلك ، فقد اتجهت انكلترة نحو استعمار اراضي جديدة في العالم الجديد : فأسست في امريكا الشمالية (عن طريق والتراله) (مقاطعة فيرجينيا) (احدى ولايات الولايات المتحدة الامريكية اليوم) ، وكذلك مستعمرة « الارض الجديدة » .

وقد مارس الانكليز في عهد « اليزابيث » « تجارة الرقيق الاسود » اذ كانوا ينقلون الزنوج العبيد من الشاطئ الافريقي الى امريكا .

وفي الواقع ، ان ما يميز التطور الاقتصادي الانكليزي في هذه المرحلة ، هو انعدام الافكار المسبقة المضادة لمثل تلك الفعاليات الجديدة ، التي رأينا وجودها في اسبانيا . وهذا جعل الجميع ، من بورجوازيين ، ونبلاء ، ينطلقون للعمل في هذه الميادين . بل ان الملكة نفسها ، بتوظيفها (٤٠٠٠٠) ليرة في تأسيس (شركة الهند الشرقية) عام ١٦٠٠ ، جعلت من الرخاء التجاري عملا قوميا كبيرا .

وقد رافق ذاك التطور الاقتصادي ، تطور اجتماعي : طبقة النبلاء التي ضعف دورها السياسي ، اخذت تمتد طبقتها على الاقتصاد . فحصلت على حق تسييج املاكها — كما ذكرنا — على حساب طبقة الملاك الصغار (اليومن) . فاضطر قسم من الريفيين ان يهاجر الى المدن ، ولاسيما الى (لندن) العاصمة ، التي كانت في تنافس مع (انفرس) ، و (امستردام) ، في الاراضي المنخفضة . واصدرت الحكومة « قانون الفقراء » عام ١٦٠١ ، تمنع فيه التشرّد ، والتسول ، وتلزم المدن على وضع ضريبة لصالح الفقراء ، وتنظيم ورشات للعمل لهم .

٤ — واخيرا فان (العهد اليزابيثي) في انكلترة كان هو مرحلة النهضة الانكليزية : وتتبدى بعض مظاهرها ، بالتدريج ، الذي اخذ يلاحظ في قصور نبلاء الريف ، وبيوت الفلاحين ، وفي البلاط . ولكن يجب أن

لا ينسى أبدا وجود عديد من المشردين ، والعاطلين عن العمل ، الذين حاولت الدولة تشغيلهم في ورشات العمل المنظمة في المدن .

وفي ميدان الناحية الفنية من العسير التحدث عن نهضة انكليزية : فالرسامون الكبار من أمثال (هولباين) و (فان ديك) كانوا من اصل اجنبي . والمهندسون المعماريون بقوا مخلصين للفن القوطي .

اما الميدان الذي لمعت فيه انكلترا في عهد النهضة ، فكان ميدان الادب وذلك تحت تأثير الانسانيين ، والكتاب الفرنسيين . وابرز ما قدمته فيه الادب المسرحي . والاسم الذي كان يغطي جميع الاسماء ، كان « شكسبير » (١٥٤٦ - ١٦١٦) الاديب ، والممثل في (مسرح غلوب) الشهير ، والذي استطاع ان يبدع عالما من الخيال ، والمعارك ، والاعمال النفسية ، والمآسي . وكان عمله « عملاقا وقويا كنهر في حالة الفيضان ، وناعما رقيقا كندى الصباح » ، وفيه تجلت (انكلترا الجديدة) . ومسرحياته كثيرة ، منها على سبيل المثال (عطيل) و (ماكبث) و (هاملت) و (روميو وجوليت) وغيرها .

ويجب الا ينسى ان بدايات النهضة العلمية والفلسفية ، ترجع كذلك الى عهد اليزابيث ، وفي زمنها بدأ اسم (فرنسيس بيكون) (١٥٦١ - ١٦٢٦) يتألق ، وهو الفيلسوف الذي ثبت (الطريقة التجريبية) في العلوم ، وجعل البحث العلمي مستقلا عن الطريقة السكولاستيكية .

ثالثا - فرنسا في القرن السادس عشر

٢ - ملوك فرنسا في القرن السادس عشر : لقد تولى على عرش فرنسا ثمانية ملوك من عام ١٤٨٣ الى ١٦١٠ . واولهم كان (شارل الثامن) (١٤٨٣ - ١٤٩٨) ، وهو ابن الملك (لويس الحادي عشر) . وكان شابا ضعيفا ، اهتماماته موجهة بالذات الى غزو ايطاليا . وكان يؤمن بإمكان حرب صليبية جديدة ، تميده الى الاراضي المقدسة في بلاد الشام ، والى احتلال القدس . وكان زواجه من (آن دوبريتانيا) - كما اشرنا سابقا - مدعاة لضم مقاطعة (بريتانيا) لفرنسا .

وخلفه على العرش ابن عمه (لويس الثاني عشر) (١٤٩٨ - ١٥١٥) ، الذي تزوج من ارملة . وعلى الرغم من اخفاقه في ايطاليا . انه استطاع تخفيف الضرائب ، ونشر العدل ، ولذا لقب بـ (أبي الشعب) .

وعند وفاته انتقل العرش الى ابن عمه (دوق دانغوليم) الذي اصبح ملكا تحت اسم (فرنسوا الاول) (١٥١٥ - ١٥٤٧) . وقد رتبته ام طموح جدا ، فنشأ اميرا يمثل عهد النهضة اكبر تمثيل : فقد كان يحب الترف ، والفخامة ، والمجد . وكان شجاعا ويميل الى الاتفاق بسعة ، ولا سيما انه كان صديقا للفنون والملذات . وبذلك تألفت حياة البلاط الفرنسي في اجواء « فوتينبلو » الفخمة ، أو في قصور « ضفاف اللوار » .

ومع انه كان ذكيا وحيويا ، الا انه لم يظهر انكبابا على القضايا السياسية . وكانت معظم تصرفاته ، نابعة من مزاجه ، اكثر من اعتمادها على حسابات مسبقة ، وتخطيط .

وجاء بعده ابنه (هنري الثاني) (١٥٤٧ - ١٥٥٩) . وكان فكرا مطلقا ، يشبه في كثير من نواحيه (فيليب الثاني) في اسبانيا . فتابع سياسة تثبيت السلطة الملكية وقد توفي اثر جرح ، اصابه اثناء مباراة ، وخلف ثلاثة اولاد ، توالوا على الحكم تباعا وتوفوا دون وريث . فتابعت القبض على السلطة من بعده ، الملكة الام (كاترين دومديتشه) .

والولد الاول هو (فرنسوا الثاني) (١٥٥٩ - ١٥٦٠) وكان زوجا للملكة (ماري ستيوارت) . ولم يحكم سوى عام واحد ، وكان ذا ذهن ضعيف ، وجسم مريض ، فقد توفي في السادسة عشر من عمره .

والثاني هو (شارل التاسع) (١٥٦٠ - ١٥٧٤) وقد ترك والدته (كاترين دومديتشه) تحكم حتى بعد انتهاء فترة وصايتها عليه . وتوفي بعد عامين من مذبحة (سان بارتلمي) ، وقد اثقلت ضميره ذكرى المآسي الدموية ، التي سمح بارتكابها خلال تلك المذبحة .

والثالث هو (هنري الثالث) (١٥٧٤-١٥٨٩) ، الذي انتخب في الوتر نفسه ملكا لبولونيا ، عام ١٥٧٣ . ومع ان الذكاء والشجاعة لم يكونا لينقصاه الا انه عاش حياة تمثل التناقض بأجلى صورته : فهو من ناحية ، منصرف الى اشد انواع التقى المعتمد على الخرافات ، ومن ناحية ثانية ، الى اكثر انواع الملذات فسادا . ولم يكن ملكا محترما . وعندما قل المال في يده اضطر لدعوة « الجمعية العمومية » التي فرضت عليه سياسة حرب ضد البروتستانت ، وقد كان قلقا ، وغيورا ، من نجاح الرئيس الكاثوليكي « هنري دوغيز » ، فعمل على اغتياله . وتوفي هو نتيجة طعنة من خنجر ، وجهها اليه القس (جاك كليمان) .

وترك العرش لابن عم بعيد له هو ، (هنري الرابع) . وكان ابن (انطوان دوبوربون) و (جان دالبره) ملكة النافار . ولكن هذا الملك كان عليه ان يكافح للحصول على ملكه هذا .

ب - فرنسا خلال النصف الاول من القرن السادس عشر :

تتميز هذه المرحلة من تاريخ فرنسا الداخلي ، بالاضافة الى ما ذكر عن بدايات الاصلاح الديني فيها ، بأمر هام هو :

- دعم السلطة الملكية : لقد رأينا سابقا ان فرنسا غدت موحدة تقريبا في القرن السادس عشر ، وكان الملك هو الذي يجسد هذه الوحدة القومية . وكانت السلطة الملكية فيها ، اقوى مما هي عليه في أي بلد آخر ، وكان شعار المشرعين فيها ، (ملك ، أي قانون) .

وكانت الحكومة تتألف من « المستشار » وهو رأس القضاء ، والقابض على اختام الملك . ثم « الكونتابل » وهو قائد الجيوش ، واربعة من سكرتيري الدولة ظهروا في عهد الملك (فرنسوا الاول) ، وبالتدرج اصبح لهم صفة « وزراء » .

وكان (مجلس الملك) او (المجلس الخاص) يتألف من كبار الشخصيات ، الا انه أخذ يفقد تدريجيا اهميته لصالح (مجلس الشؤون) ، الذي كان اضيق تركيبا .

الا ان أثر المقررين من الملك ، والاصدقاء ، والاشخاص اصحاب النفوذ ، ظل ينوء بثقله على قرارات الملك ، ويؤثر فيها .

وليوسع الملك سلطته ويدعمها ، فانه اجبر « الكبار » من الامراء الاقطاعيين على الطاعة ، ولم يدع ابدا « الجمعية العمومية » . وقد قوى سلطته القضائية ، بانشاء (٦٠) محكمة عامة ، تحد من سلطة « القضاء الكنسي » و« الاقطاعي » . كما نشأت « ستة بارلمانات » جديدة في الارياف . ولكن هذه البارلمانات ، التي « تسجل » الاوامر الملكية ، يمكنها احيانا ان ترتفع الى مستوى معارضة الملك ، « بتقديم اعتراضات » رصينة على تلك الاوامر . وفي هذه الحالة يجد الملك صعوبة في فرض ارادته .

وفي المقاطعات ، اقيم على رأس التقسيمات الادارية الوسيطة (من العصور الوسطى) التي بقيت ، « حكام » ، ذوو سلطات عسكرية في الدرجة الاولى ، ويراقبهم الملك عن كثب . كما انه كان يرسل « مفوضين » الى تلك المقاطعات ، يمثلون السلطة الملكية ، ويكلفون بتفتيش الادارات المختلفة ، وبالسهر على تنفيذ قوانين القضاء ، والشرطة ، والمال .

وفي عام ١٥٣٩ ، اصدر فرنسوا الاول (مرسوم فيلر كوتورة Villers-Cotterêt) ويتضمن قرارين هامين ، لتوحيد المملكة : فقد امر ان تكتب جميع قرارات القضاء باللغة الفرنسية لا اللاتينية، وان ينشئ رجال الدين سجلات للتعميد ، والوفيات ، وبذلك اوجد سجلات الاحوال المدنية .

ان تلك الاجراءات التي قوت الملكية المطلقة ، لم تمض دون مقاومة : فطبقة النبلاء ، التي مست مصالحها المادية ، لم تحتل ان تفقد دورها السياسي ، ومن ثم فقد كانت مستعدة دائما لامتناء جواد المغامرة ، وبخاصة ان السياسة الخارجية، وتurf البلاط يكلفان غاليا ، والقدرات المالية الملكية ، في عجز مستمر . وهكذا يلاحظ ، ان الملكية ، وجدت نفسها ملزمة على بيع مناصب الدولة لمن يدفع لها سعرا اعلى ، فتقدم البورجوازيون وسعوا لشراء مناصب القضاء، والاعمال الادارية .

ج - الإصلاح الديني في فرنسا ونتائجه : لقد اوضحنا سابقا كيف انتشرت مبادئ الإصلاح الديني في فرنسا ، وكيف قام فرنسوا الاول بملاحقة الذين دانوا بالمذهب الجديد ، واعدامهم . ففي عام ١٥٤٥ ، اعدم بأمر من (بارلمان ايكس) ، (٣٠٠٠) فرنسي من جبال (فوكلوز) اعتنقوا البروتستانتية ، وارسل البقية ليعملوا في التجديف ، وبيع اطفالهم عبيدا للتراك . وفي عام ١٥٤٦ ، احرق الانساني . العامل في الطباعة ، (اتين دولة E. Dolet) ، في الساحة العامة .

وقد قام الملك ، (هنري الثاني) بتنظيم عملية القهر ، وخنق صوت البروتستانتية ، بأن أوجد محكمة خاصة هي « الغرفة الحارة » . فخلال اثني عشرة سنة ، هي مدة حكمه ، صدر ستون حكما بالموت . وبتوقيعه مع « فيليب الثاني » عام ١٥٥٩ « الصلح الكاثوليكي » في (كاتوكامبريزيس) ، كان الملك هنري الثاني يسعى لجعل يديه حرتين ، في القضاء على المهرطقين البروتستانت .

ولكن على الرغم من القمع والارهاب ، فان « الكالفنية » انتشرت بسرعة في فرنسا ، وانهقد في باريس ، عام ١٥٥٩ ، اول (مجمع ديني) للكنيسة الكالفنية . وفي عام ١٥٦١ كان في فرنسا اكثر من الف كنيسة بروتستانتية .

وبعد ان اعتنق الصناع والتجار المذهب الجديد ، اذا بعدد من النبلاء يتبنونه ايضا . ومن بينهم (انطوان دوبوربون) ملك النافار ، وامير (كونده) ، والامير (كوليني) . وكوّن هؤلاء « حزبا حقيقيا » ، قرر الا يخضع للارهاب ، وان يمتشق الحسام للدفاع عن حرية العقيدة الجديدة . ومقابلهم كان هناك فئة النبلاء من الكاثوليك ، ويكونون فئة قوية ، تدعمها الدولة والملك ، لان الكاثوليكية بقيت الدين المناصل في فرنسا . وكان على رأس هذه الفئة (فرنسوا دوغيز) .

وقد حاولت الملكة (كاترين دومديتشه) ، الملكة الام ، ان تنظم حوارا فني (بواسي Poissy) بين الطرفين ، الا انه بدا ، أن أي تفاهم بين الكاثوليك والبروتستانت ، غدا مستحيلا ، وان الصراع الدموي لا بد آت .

ورافق تلك الازمة الدينية في فرنسا صعوبات اقتصادية خطيرة : كانتشار المجاعة والاضطراب ، بسبب ارتفاع الاسعار ، والاحتكارات الملكية ، وضعف

التجارة البحرية . ولقد تأثر بتلك الصعوبات بعض المدن ، مثل ليون ، وصغار النبلاء ، والملاحون ، قادة الاضطرابات في المستقبل . ولم تكن الملكة كاترين بقادرة على مجابهة الموقف ، ولا سيما ان الصراع لم يكن ذا مضمون ديني فحسب ، بل اتخذ صورة من صور صراع الاقطاعيين ضد السلطة الملكية . فكل من الحزبين « البروتستانتى » و « الكاثوليكي » ، كان حريصا على نصر معتقده ، الا انه في الوقت نفسه كان يود القبض على السلطة ، ولذا لم يتردد في الاستعانة بقوة اجنبية . فالبروتستانت سلموا ميناء (الهافر) الى الانكليز ، والكاثوليك استجدوا بالاسبان . وهكذا عاشت فرنسا حريا اهلية مروعة ، في القرن السادس عشر وفي نصفه الثاني ، عرفت بالتاريخ باسم « الحروب الدينية » .

الحروب الدينية : تتابع على فرنسا من (١٥٦٢-١٥٨٩) ثماني حروب دينية ، فصلت بينها « فترات سلام » ، لم تكن سوى هدن مؤقتة ، مشفوعة بقرارات تسامح ، لم يعقد احد العزم على احترامها . وقد جرت العمليات الحربية في كل مكان ، وفي وقت واحد . وفي الواقع كانت تلك العمليات كمائىن ، وحصارات ، ومذابح ، ومناوشات ، وصدامات دموية ، بين الفئات الدينية المتصارعة . وهكذا كانت فرنسا في حالة اجتياح من الطرفين . ويمكن تمييز ثلاث مراحل في تلك الحروب :

١ - ١٥٦٢ - ١٥٧٢ : اي من مذبحة (واسي Wassy) - في الاول من آذار عام ١٥٦٢ ، حيث قتل رجال « الدوق دوغيز » (وهو رئيس التجمع الكاثوليكي) ، وجرحوا مئة من الكالفينيين ، وهم يؤدون طقوسهم الدينية - الى مذبحة (سان بارتلمي) في ٢٤ آب ١٥٧٢ . وكان الدافعون الى تلك المذبحة ، هم (آل غيز) و (كاترين دومديتشه) الملكة الام . اذ رغب الطرفان في التخلص من (كوليني) البروتستانتى ، الذي دخل في مجلس الملك ، واخذ يحرضه على معاربة الاسبان . وقد استطاعت الملكة الام ، ان تقنع ابنها الملك (شارل التاسع) ، بقتل زعماء البروتستانت . وبالفعل جرت مذبحة (سان بارتلمي) ، حيث قتل (٣٠٠٠) بروتستانتى في باريس ، وكان منهم (كوليني) . ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مرحلة « استحالة التوافق » ، الذي كانت ترغب به الملكة الام

- ١٩٣ - تاريخ اوربا في العصر الحديث م-١٣

« كاترين دومديتشه » ، ويشجعها عليه اعتدال « كولينى » ، الا ان الفتنة المتصارعتين رفضتاه . وجاءت مذبة « سان بارتلمي » لتنتهي هذه المرحلة .

٣ - (١٥٧٢-١٥٨٤) وخلال هذه الفترة كانت الفوضى مستشرية . ومن خلال الحرب ، التي لم تكن لتنتقطع الا لعدم توافر المال بين ايدي احد الطرفين ، برز وجه (هنري دوغيز) رئيس الحزب الكاثوليكي المسيحي ، المسمى « بالعصبة المقدسة » . ولقد حاول الملك (هنري الثالث) ان يكون على رأس تلك العصبة ، الا ان السلطة خرجت من يده ، لصالح الاقطاعيين ، والمدن . وبذلك تخول الصراع الى صراع سياسي ، بدا واضحا في المرحلة الثالثة .

٣ - بعد عام ١٥٨٤ : وخلالها توفي شقيق الملك ، وكان امرا خطيرا ، اذ انتقل حق وراثة العرش الى (هنري دو نافار) ، وكان رئيسا للحزب البروتستانتى . وفكر (هنري دوغيز) ان يبعد الملك عن العرش ، ويستولي على السلطة ، مستندا الى ان أغلبية الفرنسيين يرفضون ان يكون ملكهم بروتستانتيا ، ولا يعترفون له بحقه الشرعي في الملك .

وحاول الملك ان يمنع (هنري دوغيز) من دخول العاصمة ، وان يسيطر بجيوشه على المدينة ، الا ان الشعب تسلم ، واقام المتاريس في وجهه . فيها (هنري الثالث) عملية انتقامية من (هنري دوغيز) ، بأن استدعاه اليه ، ثم أمر حرسه بقتله عام ١٥٨٨ . وكتب في مذكراته قائلا : « ائني الآن أنا الملك ، وقد قررت ألا اتحمل بعد الآن أية اهانات أو مظاهر عنف » . ولكن ما أن انتشر نبأ مقتل (دوغيز) ، حتى ثارت مدينة باريس ، واجتمع « مجلس » من ممثلي احياء العاصمة (وعددهم ١٦ عضوا) ، واعلن خلع الملك ، وأحل الكاردينال (شارل دوبربون) محله ، وسمي (دوق دوماين Duc de Mayenne) وكان أخا لـ (هنري دوغيز) ، قائدا عاما للملكة . ولعلنت اغلبية المقاطعات الفرنسية ولاءها للعصبة المقدسة .

وأمام هذه المحنة ، تصالح (هنري الثالث) مع (هنري دو نافار) ، وحاصرا مدينة باريس . ولكن قسا كاثوليكيا شابا هو (جاك كليمان) ، اصاب الملك بجرح

ميت في أول آب عام ١٥٨٩ • وقبل ان يلفظ انفاسه الاخيرة ، اوصى لهنري
دو ناغار بالعرش من بعده •

د - هنري الرابع ونهضة الملكية من كبوتها :

١ - اعادة دعم السلطة الملكية : لم يكن (هنري الرابع) في البداية سوى
ملك دون مملكة ، اذ لم يعترف به سوى البروتستانت ، وقسم من النبلاء ،
والجيش • وكانت العصبة تسيطر على شمال فرنسا ، وشرقها ، ومدينة باريس •
وكان المتطوعون الكاثوليك في باريس قد استمعوا القوات الاسبانية لنجدتهم •
وكانوا يعملون على اسناد عرش فرنسا الى احدي بنات الملك فيليب الثاني
(ايزابيلا) • ومع أن (هنري الرابع) انتصر على خصومه في عدة معارك ، الا انه
عبثا حاصر مدينة باريس •

ومع ذلك فان تطرف الكاثوليك في العصبة واستدعاءهم قوات اجنبية جعل
سكان باريس يستأوون ، بل والمعتدلين من العصبة يقلقون • وهذا ما أدركه
هنري الرابع ، واراد استغلاله ، ولا سيما أن نشرات الدعاية كانت لصالحه • وأمام
ذلك ، فانه لم يتوان عن التنازل عن البروتستانتية في ٢٥ تموز ١٥٩٣ ، وفي
ابرشية (سان دونيس) • وبعد ذلك بقليل توج ملكا في (شارتر) •

وفي ٢٢ آذار عام ١٥٩٤ ، دخل الى باريس حيث حياه الشعب • ولم تلبث
المقاطعات أن اعلنت ولاءها له شيئا فشيئا •

٢ - ولحل المشكلة الدينية ، اضطر هنري الرابع أن يداري اصدقاءه
البروتستانت القدماء ، الذين نقموا عليه لتنازله عن البروتستانتية • وكان يريد
بصفة خاصة ان يحل السلام بين الفرنسيين ، وان يجعل الكاثوليك والبروتستانت
يتعايشان الى جانب بعضهما بعضا • ومن ثم كان اصداره (منشور نانت)
الذي اعلنه عام ١٥٩٨ ، وحمله جلولا واقعية • فقد تضمن عفوا عن البروتستانت
الناشرين ، (بعد تنازله عن البروتستانتية) ومنحهم حق ممارسة ديانتهم • وانشأ
في بعض البارلمانات محاكم بستة قضاة بروتستانت وعشرة قضاة كاثوليك ،

للنظر في قضايا البروتستانت • واعطى لهم الحق في عقد « مجالس مقاطعات »
أو « مجالس وطنية » على مستوى فرنسا كلها • واخيرا فقد اعطى البروتستانت
حق حراسة عدد من الأماكن الحصينة (قلاع امن) لمدة ثمانية اعوام • ومع ان
هذا المنشور كان له خطورته ، اذ ان تلك الاجراءات قد تهدد بانشاء دولة ضمن
دولة ، فان هنري الرابع نجح في تنظيم التعايش بين المذهبين ، وهذا حدث فريد
في اوربا ، في ذلك الوقت •

ثم انصرف (هنري الرابع) بعد ذلك ، الى تمتين السلطة الملكية بمختلف
الوسائل :

اولا - باعادة النظام ، حيث اعاد النبلاء الى اراضيهم ، وقضى على قطاع
الطرق •

ثانيا - بالتهديد ، حيث ألزم (البرلمانات) على تسجيل (المنشور) ، ونفذ
حكم الاعداد بالمتآمرين • وأهم من ذلك ، فانه سعى **ثالثا -** الى ايجاد التوازن
بين الفئتين المتعاديتين ، بأن ألزم البروتستانت على البقاء في الاطار الذي حدده
المنشور ، واعطى للآخرين ادلة على ولائه للكاثوليكية ، بأن سمح بعودة اليسوعيين
المنفيين • كما انه عمل على اتخاذ مستشارين له من المعسكرين •

٣ - انهاض الاقتصاد وفي هذا الميدان وضع ثقته برجلين : (سولي Sully)
وهو نبيل ريفي ، وجعله الرقيب العام للمالية ، و (لافما Laffemas) وهو من
« المتبيلين » ، وقد عينه مراقبا عاما للتجارة •

أما (سولي) فكان صادقا ومخلصا • وقد أعاد النظام الى حسابات الدولة ،
واوقف السرقات ، ودفع الديون ، وانقص الضرائب المفروضة على الفلاحين ، وزاد
من الضرائب غير المباشرة التي يدفعها الجميع • بل انه استطاع ان يوفر من ميزانية
الدولة ، وان يودع الوفرة في كهوف الباستيل • وللحصول على المال ، توسع في
بيع الوظائف ، ومنح للموظفين حق توريث وظائفهم ، مقابل رسم خاص •

وقد وجه عنايته كلها للزراعة • وكان يقول « ان المرعى والزراعة هما الثديان
الذان تتغذى منهما فرنسا » ، « وهما يعادلان مناجم البيرو وكنوزها » • ومنع

موظفي المالية من مصادرة ادوات الفلاحين ، وشجع الزراعات الجديدة كشجرة التوت ، وجفف المستنقعات ، وحسن اخيرا طرق النقل ، ولا سيما الطرق المائية ، التي كانت تنقل بصفة خاصة المواد الغذائية .

أما (لافما) فكان من مؤيدي السياسة الصناعية ، المنبثقة من تفكير مركنتيلي ، وهدفها منع استيراد المنتجات المصنعة وبخاصة المنسوجات الحريرية . ومن اجل ذلك أراد (لافما) ان ينمي تربية دود القز ، وانشأ المصانع الحريرية ، ولا سيما في (ليون) و (تور) . وفرض قواعد شديدة على الصناعة . وفي الواقع تقدمت الصناعة ، الا ان نتائجها الآتية بقيت ضئيلة ومحدودة ، وظلت (فرنسا هنري الرابع) بلدا زراعية .

وفي ميدان التجارة البحرية قامت محاولات لايجاد « شركات كبيرة » الا انها اخفقت .

٤ - في ميدان السياسة الخارجية : لقد كان على (هنري الرابع) عند تسلمه العرش ان ينهي الحرب مع الخارج . ففيليب الثاني الذي اتى لمساعدة (العصبة)، تابع الحرب لصالحه الخاص ، واكتسح بورغونيا ، وبيكارديا . الا ان (هنري الرابع) استطاع الانتصار عليه عام ١٥٩٥ . ووقعت بين الطرفين - كما اثرنا سابقا (معاهدة فرغان) عام ١٥٩٨ ، وهي سنة وفاة فيليب الثاني ، وحصلت فيها فرنسا على الجلاء الكامل عن اراضيها .

واذا كان (هنري الرابع) قد تنازل نهائيا عن الاحلام الايطالية ، التي دغدغت اذهان سابقه من ملوك فرنسا ، فانه كان قلقا مثلهم ، من قوة آل هابسبورغ ، الذين كانت ممتلكاتهم تحيط بسلكته وتحاصره . ولذا فكر بفك هذا الحصار ففي عام ١٦٠١ انتزع من (دوق سافوا) بعض المناطق (البريس Bresse والبوجه Bugey) ، وحوى الدول الايطالية الصغيرة ، وتحالف مع المقاطعات المتحدة (هولاندة) ، والامراء الالمان البروتستانت . وفي عام ١٦١٠ كان مستعدا لتحدي اسبانيا .

الا ان السياسة ضد اسبانيا ، كانت تعني في ذلك الوقت السياسة ضد

الكاثوليك . ولذلك فان سياسته هذه ، المتحدية لاسبانيا ، اثارت الالهواء الدينية التي لما تهدأ بعد ، ودفعت الكاثوليك المتعصب (رافياك Ravailles) لقتله في عام ١٦١٠ .

وغاب (هنري الرابع) عن فرنسا ولما ينه عمله الكبير في الترميم ، الذي ابتدأه . ونسي الفرنسيون ، حتى الكاثوليك منهم ، احقادهم تجاه سياسته الخارجية ، ولم يحتفظوا الا بصورة (الملك الطيب هنري) الذي كا ن يريد أن يكون لدى كل اسرة ، يوم الاحد ، « دجاجة في قدر طعامها » .

رابعا - اوربا في اواخر القرن السادس عشر

ومن العرض السريع لتطورات اوربا في القرن السادس عشر ، يمكن استنتاج ما يلي :

١ - لقد كان القرن السادس عشر قرن تحولات عميقة : فكشف القارة الامريكية ، واغتنم الامبراطوريات الاستعمارية ، والنهضة الفنية ، والادبية ، والعلمية ، ونجاح الاصلاح البروتستانتى ، تمكنت كلها اخيرا من تفجير العادات وانماط التفكير ، التي كانت سائدة في العصور الوسطى ، وزحزحتها ، ثم ازاحتها .

٢ - غدت اوربا مركز العالم : من الصحيح انها لا تزال تجهل الكثير عن افريقيا ، ووقفت لها آسيا بالمرصاد ، وقاومت توسعها فيها ، الا انها سادت امريكا .

٣ - تميز القرن السادس عشر من الوجهة السياسية باخفاق محاولة شارلكان لاقامة امبراطورية عالمية . وفي الوقت نفسه طغت « المصالح القومية » على المصالح المسيحية . فلم تتردد فرنسا في توقيع تحالف مع الاتراك العثمانيين ، ومع الامراء البروتستانت في المانيا . وبذلك انقسمت اوربا المسيحية على نفسها .

٤ - انتقلت القوى البحرية من الايدي الاوربية المتوسطة الى ايد اوربية اخرى ففي القرن الخامس عشر ، كان كبار البحارة الاوربيين من الجنوبيين أو البعاده ،

وفي مطلع القرن السادس عشر كانوا يرتغاليين او اسبان • وحوالي ١٦٠٠ انتقلت سيادة البحار الى الهولنديين •

٥ - رأت نهاية القرن السادس عشر انحطاط المانيا : فقد مزقتها الصراعات الدينية ، وجزأها النظام الاقطاعي ، فلم تعد المحرك لاوروبا • ومالت مدن الهانس ، والراين ، والدانوب ، الى خراب ، نتيجة توسع الدول المطلة على المحيط الاطلنطي ، وانحطاط طرق التجارة التقليدية ، وضعف السوق الداخلية ، وتدفق الذهب والفضة الامريكين •

٦ - عادت البلاد السكندنافية الى الانفتاح من جديد على الاقتصاد الغربي بعد ان قطعتها عنه السياسة الاقتصادية ، والسياسية ، للعصبة الهانسية على بحر البلطيق • فعلت (كوبنهاغن) محل (لوبيك) ، وغدت مستودعا للتوابل المتجهة الى المانيا • وسادت الدانمارك بلاد النرويج ، ومدت (السويد) نفوذها على فنلندة وفكر لفترة من الزمن بإمكان جمع تاج السويد الى بولونيا ، التي كان على رأسها آل (الجاجلون) • وبذلك كاد بحر البلطيق ان يصبح « بحيرة سويدية » •

٧ - وفي الشرق كانت روسيا تكون حدا بين اوربا وآسيا : فقد نظر اليها كورثة لبيزنطة منذ ان احتل العثمانيون القسطنطينية ، وفتحت ابوابها لتجارة الهولنديين ، والانكليز • وتحت حكم « ايفان الرابع » أو « ايفان الرهيب » (١٥٣٣ - ١٥٨٤) ، توسعت في جميع الاتجاهات ، ضامة اليها الامارات المستقلة في السهل الروسي ، وتجاوزت شرقا جبال الاورال • وفي عام ١٥٧٤ ، اضاف « ايفان الرهيب » للقبه « امير موسكو الكبير » لقب « قيصر » • الا انه في عام ١٥٨٤ انقرضت سلالة الحاكمة ، وابتدأت بالنسبة لروسيا « مرحلة الاضطرابات » ، التي لم تنته ، الا في عام ١٦١٣ عندما تسلم عرش روسيا (ميخائيل رومانوف) ، الذي يفتتح تلك السلالة التي حكمت روسيا حتى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ •

٨ - تمت الوحدة الفرنسية ، اذ ان المقاطعات التي كانت خارجة عن سيادة الملك ، عادت فضمت اليه •

٩ - اتحدت مملكتنا ايقوسيا وانكلترا منذ عام ١٦٠٣ ، حيث وصل الى عرش انكلترا (جيمس السادس) ملك ايقوسيا ، وابن ماري ستيوارت ، وذلك بعد وفاة اليزابيث . واتخذ اسم (جيمس الاول) ملك انكلترا .

١٠ - ان المقاطعات السبع من الاراضي المنخفضة ، طرحت السيادة الاسبانية وشكلت « جمهورية المقاطعات المتحدة » عام ١٥٩٧ ، واعترف باستقلالها رسميا في عام ١٦٤٨ .

١١ - ضمت البرتغال بالقوة الى اسبانيا في ١٥٨٠ ، وبقيت كذلك حتى ١٦٤٠ . حيث قامت ثورة نظمها (جورييرو J. Ribeiro) الاستاذ في جامعة (كوامبره) ، وأيده فيها النبلاء ، ورجال الدين ، وفرنسا . وكان من نتائجها الاستقلال ، ووصول (آل براغزا) الى عرشها .

١٢ - هزم الاتراك العثمانيون النمساويين في بلغراد ١٥٢١ ، والهناغرين في (موهاغز) ١٥٢٦ وحاصروا (فينا) في ١٥٢٩ . وتوقف تقدمهم في البحر المتوسط في معركة (ليباتو) ١٥٧١ ، ووقعوا في عام ١٥٨٥ ، صلحا مع اسبانيا ، اعترف فيه بالوضع الراهن آنذاك . وبدأت مظاهر الضعف تبدو واضحة على الدولة العثمانية بسبب ضعف سلاطينها ، وترك شؤون الحكم للوزراء وانتشار الرشوة والفساد ، وانحطاط التنظيم العسكري ، وتلاعب العسكر بمقدرات السلاطين . ومقابل ذلك كان الفرنسيون ، والهولنديون ، والانكليز ، يوسعون نشاطهم التجاري في الشرق .

الباب الثاني

القرن السابع عشر ١٦١٠ - ١٧١٥

الفصل الأول

السمات العامة للقرن السابع عشر

لقد كان القرن السابع عشر في اوربا « مرحلة ازمة » اصابته كلبنة الانسان في جميع فعالياته الاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية ، والدينية ، والعلمية ، والفنية ، بل في كل كيانه ، والى اعماق قوته الحيوية ، واحساساته ، وارادته ، وقد كانت الازمة شبه دائمة ، مع تغييرات عنيفة متفاوتة في شدتها . وقد تعايش فيه الاتجاهات المتناقضة : فتارة تتهاون وتتمازج ، واخرى تتصارع ، وبذلك تمزق المجتمع بكل مناحي حياته . ولقد عملت الدولة وكل فريق اجتماعي ، وكل طبقة ، والفرد نفسه ، لاعادة النظام والوحدة للنفس والمحيط . وكانت الممركة لاهثة ، وشديدة ، للوصول الى توازن^(١) ، واستطاعت اوربا خلال تلك الازمة أن تحقّق تغييرا حاسما ، وان تخطو خطوة الى الامام ، وتتخلص نهائيا من آثار العصور الوسطى .

ففي الميدان الاقتصادي عانت اوربا ازمة اقتصادية : فما خلفته « الثورة الاقتصادية » في القرن السادس عشر ، وحركة الاستعمار الجديدة ، تفاقم ،

(1) Mousnier, Le XVI^e et XVII^e siècle . Paris 1961.P. 159.

وابرز بشكل اوسع ، العيوب القائمة في البنيتين الديموغرافية ، والزراعية اللتين بدا انهما لم تتغيرا في خطوطهما العامة ، من القرن السادس عشر وحتى اواخر القرن الثامن عشر ، ما عدا في بعض المناطق كالاراضي المنخفضة ، والمقاطعات المتحدة ، وانكلترا الوسطى ، حيث تابعت انكلترا بالذات ثورتها الصناعية الاولى ، التي ابتدأت في القرن السادس عشر .

فالاقتصاد بقي زراعيا بالدرجة الاولى ، وفاض عدد السكان عن امكانات الزراعة ، وانتشرت المجاعة بين حين وآخر . وترجع تلك الازمة الاقتصادية في اساسياتها ، الى التغيرات المناخية التي اثرت على الزراعة ، وازدعت محصولاتها ، وكذلك الى عدم تطوير التقنية الزراعية ، والى تذبذب حركة الاسعار . ويمكن ارجاع السبب الاخير بدوره ، الى عوامل عدة ، منها التذبذب في المواسم الزراعية ، وزيادة عدد السكان ، وقلة النقد المتداول . فبعد ان عاشت اوربا في جبهة من الذهب والفضة ، خلال القرن السادس عشر ، نتيجة اكتشاف مناجمها في القارة الامريكية فان انتاج هذين المعدنين تضاعف في تلك القارة ، بينما كان حجم البضائع المتبادلة في تزايد ، فهبطت الاسعار ، وتباطأت التجارة .

ويجب ان لا ينسى في اسباب هذه الازمة الاقتصادية ، الحروب التي عاشتها اوربا خلال هذا القرن ، وما نجم عنها في البلاد المشتركة فيها ، والتي تجري العمليات الحربية على ارضها .

ولما كان الاعتقاد السائد في دول اوربا الحديثة آنذاك ، ان اقتصاد أي بلد مرتبط بكمية الذهب والفضة التي يملكها ، فقد برز مظهر اقتصادي تبتدئ الدول ، وحاولت ان تجد حلا فيه لتلك الازمة ، وهو « المذهب المركنتيلي » . ففي نطاقه كان على كل دولة ، ليكون لها التفوق الاقتصادي ، ان تشن على الدول الاخرى « حربا نقدية » .

ويترتب على ذلك اتباع السياسة الاقتصادية التالية :

١ - جذب اكبر كمية من الذهب الى داخل البلاد ، وذلك بالتغلب على

المنافسة الاقتصادية ، وبالتصنيع ، وتحسين نوعية السلع المباعة ، وتشجيع التصدير .

٢ - تجنب اخراج المعادن الثمينة خارج البلاد ، وذلك بايجاد اقتصاد اكتفائي ذاتي وبوضع رسوم جمركية مرتفعة على البضائع المستوردة .

وهكذا سعت الدول الاوربية لانشاء مستعمرات لها خارج اوربا . تدر عليها الذهب والفضة ، وتبيع لها منتوجاتها الصناعية ، وتأخذ منها موادها الخام ، وبذلك ربطت اقتصادها بها . كما اسست شركات تجارية ، ومنحتها امتيازات كثيرة لتنشيط فعاليتها ، ومنافسة الفعاليات الاقتصادية للدول الاوربية الاخرى .

وفي الميدان الاجتماعي تفاقمت العداوات الاجتماعية ، التي غذتها النهضة الاقتصادية في القرن السادس عشر . ففئات من البورجوازية تابعت يروزها بالنسبة للطبقات الاخرى ، وان كان ذلك ببطء اكبر مما كان عليه الامر في القرن السادس عشر .

ومن فئات البورجوازية هذه موظفو المال ، والمولون ولا سيما المشرفون الكبار على الخزينة في فرنسا مثلاً . فمنهم من كان يقرض الملك بفائدة ضخمة ، منتظرين جمع الضرائب . وكان يشترك في هذه العملية الاعيان ، وكان هؤلاء (الماليون) يوقعون الاتفاقات مع الملك ، ويوجهون الاحتكارات ، ويبيعون الوظائف العامة . وكان يسهم معهم ، نبلاء ، وقضاة ، وتجار .

ويضاف الى موظفي المال ، (التجار - الصناع) الذين شرعوا يبرزون في هذا القرن بشكل واضح ، ويعملون في صناعة المدافع ، والاسلحة ، والجريز ، والسجاد ، والصوف ، والمؤسسات المعدنية .

وكان هم هذه الفئات البورجوازية الغنية ، الوصول الى الالقاب النبيلة ، والى تقليد طبقة النبلاء في جميع مظاهر حياتها . ويلاحظ ان الملك في هذا القرن ، اخذ يسلم الوظائف لهذه الطبقة ، بدلا من النبلاء . بل ان بعضهم ، ممن قال القاب النبالة ، اضطر في سلك الجيش ، وبذلك بدأ الصراع بين النبلاء ، والبورجوازيين .

وفي الوقت ذاته قوي الخلاف والخصومة بين النبلاء ، والموظفين ، والتجار ، والماليين من ناحية ، وكلهم يملكون اقطاعات ، وبين الفلاحين من ناحية اخرى .
اذ ان ارتفاع الاسعار جعل من الصعب على الفلاحين ، والمزارعين ، دفع الضرائب المتوجبة عليهم ، أكان ذلك للدولة ، أو لاسياد الارض ، ولاسيما في فترة المواسم السيئة ، والمجاعات .

وهكذا كانت تتنامى اللامساواة بين الطبقات ، وتقوى المعارضة ، اذ ان الضرائب والواجبات المالية الاخرى كانت تتجاوز وسائل المستثمر الصغير . وكان من جراء ذلك ، الثورات الفلاحية ، وحروب الفلاحين .

واذا كان النبلاء والموظفون والماليون ، في خلاف وتعارض مع الفلاحين ، فانهم كانوا في خلاف متزايد مع صغار العاملين في الحرف ، بسبب ما كان يصيب هؤلاء الاخيرين من الضرائب ، ولان النبلاء والماليين والموظفين ، كانوا يعملون بشكل عام لصالح (التجار - الصناع) على حساب صغار الحرفيين ، كالبازين واللاحين وغيرهم .

كما ان الدولة كانت تشجع اصحاب العمل (معلمي الصنعة) ضد العمال ، في جهودهم الساعية للقضاء على المنافسة ، وتخفيض الاجور ، والحصول على الحد الاقصى من العمل والربح . وبذلك غدت النقابات اداة في ايدي اصحاب العمل ، لقمع العاملين لديهم .

وفي الواقع ، لقد شرعت « الرأسمالية البورجوازية » تبن معالمها تماما ، ولا سيما في انكلترة ، حيث كان صراع الطبقات مختلفا عما هو عليه في فرنسا ، بسبب النمو المتسارع للرأسمالية فيها ، ولان قسما من طبقة النبلاء انخرط في اعمال الزراعة ، والصناعة ، والتجارة ، فطقة النبلاء التي بقيت بعقليتها السابقة ، تعبش على ارضها ، وضمن عاداتها ، اخذت تحسد النبلاء الذين اغتنوا ، والبورجوازية التي تسلفت سلم النبالة .

ويضاف الى تلك الخصومات الاجتماعية العديدة ، التي كان يعيشها المجتمع الازربي الغربي ، العداوات الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت ، وما نجم عنها

من محاولات كل فريق ايقاع الاذى والضرر بالفريق الآخر . وقد وجد المفهوم البورجوازي دعما له في « الكالفنية » ، بل ان المسيحية غدت لبعض البروتستانت ، « فردية نفسية » : أي أن كل انسان مدعو للقيام بعمل خاص ، من اجل مجد الله ، والخير المشترك . والربح الذي يجنيه صاحبه منه دليل على النجاح ، وعلى ان الانسان قام بواجبه خير قيام . ومن ثم ، فالواجب بحسب اعتقادهم ، هو الربح ، ويكون الله في هذه الحالة قد بارك داك الذي استجاب لنداء العمل . اما الفقر والشقاء فهما عقاب الذنوب والخطايا . وبذلك وصلت الفردية الى مرحلة القسوة ، وذرورة الانانية .

ويلاحظ في هذا القرن ، ان الزيادة السكانية كانت ضئيلة . ومع ذلك فقد خضعت لتذبذبات عديدة خلاله ، يمكن ان تمثل بخط بياني على شكل اسنان المنشار . فالحروب من جهة ، والمواسم السيئة من جهة أخرى ، والابوة من ناحية ثالثة ، (كما حدث خلال الفترات التالية ١٦٣٠-١٦٣١-١٦٤٩-١٦٥٢-١٦٦١ - ١٦٦٢-١٦٦٣-١٦٩٤-١٧٠٩-١٧١٠) أدت كلها الى وفيات مروعة . وقد كان نصف الاطفال في المتوسط يتوفون قبل الوصول الى سن العشرين . ولم تكن اوربا تملك من السكان في هذا القرن ، سوى (١٠٠) مليون نسمة ، تضم فرنسا وحدها منها (١٨ - ٢٠) مليونا .

واخيرا ومع ان « الصراع الطبقي » لم يكن قائما بمعناه الذي تتفهمه اليوم ، الا ان صراعا بين مختلف الفئات ، كما اشرنا ، كان موجودا . وكانت حصيلته اضطرابا داخليا في مختلف الدول الاوربية ، وثورات عديدة : ثورات جوع ، وثورات ضد الضرائب ، وثورات سياسية .

إذا كان القرن السابع عشر عصر تثبيت السلطة المطلقة للملوك ، في معظم الدول الاوربية الكبرى ، وكانت الملكية المطلقة للملك (لويس الرابع عشر) في فرنسا ، هي رمز هذا التطور ، فانه منذ عام ١٦٨٠ أخذت الامور تتغير في اوربا الغربية . فحركة الافكار ، والتقدم العلمي ، كانا يهيئان تغيرات القرن التالي . وجاءت ثورة ١٦٨٨ في انكلترا ، لتضع حدودا واضحة لسلطة الملك ، وكانت

الانتقادات الشديدة ضد سلطة الملك لويس الرابع عشر نفسه ، تعبيرا عن
طليعة تلك التغيرات .

وفي الميدان الادبي والفني : من المعروف ان الآداب والفنون هسي انعكاس
لتطورات المجتمع ، ومن ثم يلاحظ في هذين الصعيدين وجود تيارين متمايزين ،
يتمازجان تارة ، ويتعارضان اخرى : (تيار الباروك)^(١) الذي نشأ في روما في
النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وسمته الاساسية حب الحركة ، والانطلاق
ما وراء القياس والمحدود ، و (التيار الكلاسيكي) وهمه الانسجام ، والمحدود
والقياس ، ويمثله (قصر فرساي) .

ولقد امتد التيار الاول على ايطاليا ، وشبه الجزيرة الايريه ، واوروبا الوسطى
وروسيا ، وامريكا اللاتينية . ودام قرنين من الزمن أي خلال السابع عشر والثامن
عشر . وفي الواقع ان استطالة تأثيره تختلف بحسب البلدان ، فقد عاش مدة اقصر
في فرنسا . وهذا التيار انبثق من النهضة الاولى ، ثم ابتعد عن الذوق الوثني ،
ووضع حبه للفضامة ، ورغبته في الادهاش ، والاثارة ، في خدمة الكاثوليكية
المنتصرة . ففي كل ركن انتشر فيه فن الباروك ، أكان في الكنائس ، أو الحدائق ،
أو الاثاث ، أو تزيين المدن ، أو القصور ، كان يمثل الابهة ، والحرص على التزيينات
الكثيرة ، والفتنة ، وخداع البصر ، وانتصار الحياة . وموضوعات هذا الفن
مثيرة ، وتسعى لايقاظ العواطف ، اكثر مما تسعى لارضاء العقل . فالخطوط تتلوى
بلطف ، وتتعانق وتتداخل .

واشهر ممثلي هذا الفن ، النحات (لوبرنان Le Bernin ١٥٦٨-١٦٨٠) في
ايطاليا حيث اوجد منبر كنيسة القديس بطرس ، وجسد على الرخام نشوة التصوف
« عند القديسة تيريز » .

وفي اسبانيا ظهرت الكنائس ، التي غالى الفنانون في تزيينها ، بل واستوحى
اصحابها من الفن الاسلامي والفن الغوطي . ومن اشهر الفنانين الاسبان

(١) الباروك كلمة اسبانية (Barueco) ، وتعني لؤلؤة غير مستوية ، ولها
نتوءات .

(موريللو Murillo) (١٦١٨-١٦٨٣) ، الذي كان يرسم صور اطفال شحاذين من كانت تعج بهم المدن الاسبانية وأهم لوحاته (الشحاذ) • و(فيلاسكوز Vellasquez) (١٥٩٩-١٦٦٠) ، وهو الرسام العبقرى للملكية الاسبانية ، وهي في ألقها الاخير •

أما في فرنسا فقد برز الفنان (روبنز Rubens) ، الفلاماني الاصل ، الذي تأثر بالفن في ايطاليا ، حيث مكث فيها ثمانية اعوام • ولقد اشتهر بالوانه القوية ، التي فاق بها الالوان الفلامانية ، وبحسه الحركي ، وبرسومه التي تفيض بحب الحياة • ومن اشهر لوحاته « تنويج الملكة ماري دومديتشه » •

وظهر فن العمارة الباروكي في فرنسا في بعض الكنائس ذات القبة (الصوروبون) ، وفي القصور كقصر اللوكسمبورغ • الا انه مقابل تيار الباروك هذا ظهر تيار معاكس يميل الى البساطة ، والواقعية ، وهو التيار الكلاسيكي المتشبه ببعض الفصور ذات الاسقف القرميدية والخطوط البسيطة (قصر كورانس) •

وفي الادب فان « المسرحية » ، وبخاصة الملهمة ، فرضت نفسها ، بعرضها للعواطف ، والاهواء العنيفة • ويمثل هذا التيار في اسبانيا (لوب دوفينا) الذي كان انتاجه خصباً (اكثر من ١٥٠٠ مؤلف كما يقال) • ويظهر في كتاباته ، احتقاره للقواعد المتعارف عليها ، ومزجه المضحك والمأساوي •

وفي فرنسا ظهرت فئة من الادباء ايضا ، امتعت المجتمع المثقف بقصص حب على نمط العصور الوسطى ، وسرد لمغامرات بطولية ، ومأساوية • الا ان فرنسا في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، خضعت لمؤثرات اخرى ، هيأت الجو لتثبيت (التيار الكلاسيكي) •

ففي هذا القرن ، ظهر « ماليرب » الذي سعى في كتاباته كي ينقي اللغة الفرنسية ، ويشر بذلك بالكلاسيكية ، هذا في الوقت الذي انشأ فيه (الكاردينال ريشليو) المجمع العلمي الفرنسي عام ١٦٣٥ ، وكلفه بايجاد معجم اللغة ، وكتاب قواعد • وبرز الشاعر (كورنيي Corneille) (١٦٠٦-١٦٨٤) ، الذي

طبق في (المسرحية المأساوية) القواعد التي تميز المرحلة الكلاسيكية : وهي (وحدة المكان) - أي أن المسرحية يجب أن تدور في مكان واحد - ، (ووحدة الزمان) - أي أن تتم في ٢٤ ساعة - ، و (وحدة العمل) أي أن الأحداث يجب أن تدور حول بطل واحد بارز . وجاء (بوالو Boileau (١٦٣٦-١٧١١) ليثبت تلك القواعد الكلاسيكية ، في كتابه « الفن الشعري » ، و يضع في المرتبة الاولى ، العقل ، وليستعد عن تصوير الحالات الخاصة او وصفها . فهدف الادب الكلاسيكي هو « العام و العالمي » ، ففي الانساني العام يكمن الجمال . ويفضل الادب الكلاسيكي من الموضوعات ، تلك المستوحاة من العصور القديمة ، بدل المستوحاة من الحياة اليومية . ولا يميل الى الحديث عن افاس من العوام او للعوام ، وانا عن الطبقة الارستقراطية ولها . كما ان ديدنه ان يلجهم العواطف ، والاهواء ، العنيفة ، التي تبدت في (فن الباروك) صارخة ، وان يعتمد العقل ، والانتظام ، والا يستخدم على المسرح لغة ، او حركات غير ملائمة . فالانسان يجب ان يكون سيد جسمه ، وعواطفه ، وان يعبر عن ذاته ببساطة ووضوح .

ومن اشهر ادباء الكلاسيك في فرنسا ، بصفة خاصة ، (موليير) و (راسين) و (لافوتتين) .

العلم والفلسفة واذا كان القرن السابع عشر (قرن الباروك) ، والاضطراب ، والشك ، فان الفكر الاوربي حاول ان يخرج من هذا الشك ، وان يدخل عصر البحث العلمي ، و (الثورة العلمية) . وبدت هذه المحاولة في الفلسفة الديكارتية التي انبثقت من فكر العالم والفيلسوف الفرنسي (ديكارت) (١٥٩٦-١٦٥٠) . فقد اعلن ان واجب كل انسان ، ان يسعى للوصول الى معرفة واضحة ، واكيدة ، لكل ما هو مفيد في الحياة ، كقوة النار وعملها مثلاً ، وكذلك الماء والهواء والكواكب والسموات ، وجميع الاجسام التي تحيطنا . ولقد عمل لهذا الهدف طيلة حياته . وقد كتب كتابه الشهير « محاضرة عن الطريقة » Discours de la Méthode الذي نشره عام ١٦٣٧ ، وبحث فيه عن الوسيلة المثلى للوصول الى محاكمة عقلية صحيحة . وكان يود الوصول الى المبادئ الاولى للعلم الجديد وهو « الفيزياء الرياضية » ، وان يقيم منها علماً عالمياً . فالفلسفة كلها اشبه بشجرة جذورها

الميتافيزيك ، وجذعها علم الطبيعة ، واغصانها المتفرعة من الجذع ، هي بقية العلوم الاخرى التي يمكن تلخيصها في ثلاثة : « الطب ، والميكانيك ، والاخلاق » .
ولقد اوصله شكه بعد التأمل ، الى اثبات وجوده ، بوجود فكره . وبذلك اعطى للانسان اسبابا للحياة ، والكفاح ، والابداع . وأكد حرية ارادة الانسان ، وآمن بعقله وبقيمة العلم ، والحياة الاخرى ، وبذلك أوجد « الفلسفة الحديثة » .
ولقد انتشرت آراء ديكارت في كل مكان ، وعلمت مبادئه في معظم البلدان ، وكان لها آثارها المختلفة على عدد من الفلاسفة ، ومنهم (سبينوزا) (١٦٣٢-١٦٧٧) الهولندي ، كما كانت دفعا للعلوم ونموها .

فالقرن السابع عشر قرن تطور علمي رائع ، أكان ذاك في ميدان « طرائق البحث » او على صعيد « الكشف العلمية » : ففي هذا القرن ، ظهر (غاليله) (١٥٦٤-١٦٤٢) ، الذي اكتشف عام ١٦٠٤ قانون سقوط الاجسام ، وهو اول قانون ديناميكي ، واوجد بذلك « الفيزياء الرياضية » . وسعى كي يثبت أن بنية العالم هي بنية رياضية ، وان كل شيء يمكن ان يقاس ، ويعد ، ويوزن . وكان هذا الانتقال من الفكر الوصفي الى الفكر الكمي ، أي الى الدقة ، ثورة فكرية ضخمة . فمنها انبثق فكر ديكارت نفسه ، والعلماء ، والفلاسفة الكبار ، التاليين ، من أمثال (نيوتن) الانكليزي (١٦٤٢-١٧٢٧) ، الذي نجح في تفسير حركة الكواكب ، بالجاذبية التي يؤثر بها كل واحد في الآخر ، أي بقانون الجاذبية الكونية ، ومنها كذلك ، كان فكر فلاسفة عصر الانوار أي (القرن الثامن عشر) ، وفكر اوغست كونت ، وداروين ، وكارل ماركس في (القرن التاسع عشر) ، ومدام كوري ، واينشتاين في (القرن العشرين) أي كل الفكر العلمي والتقني في الحقبة المعاصرة . وقد عاصر غاليله ، في كشفه الكبير ذاك ، الفلكي « كيبلر » (١٥٧١-١٦٣٠) ، الذي وضع قوانين حركة الكواكب السيارة حول الشمس ، وبذلك اصلح نظرية كوبرنيك واخصبها .

كما عاصره كذلك الانكليزي (فرانسيس بيكون) (١٥٦١-١٦٢٦) الذي أراد ان يبنى بحثا متكاملا عن «العلم الجديد» ، واقسامه ، وطريقته ، وشروطه . وقد هاجم اريسطو ، وافلاطون ، ودعا للتوجه مباشرة الى الطبيعة ، ومعرفة قوانينها بالملاحظة ، والتجربة ، وبذلك وضع اسس (منهجية العلم الحديث) .

ولا بد من التأكيد اخيرا ، ان هذا القرن كان زاخرا باسماء العلماء الذين دفعوا العلم قدما، من امثال الايطالي (توريشلي) (١٦٠٨-١٦٤٧) ، صاحب قانون (الضغط الجوي) ، والانكليزي (هارفي) (١٥٧٨-١٦٥٧) ، الذي يعزى اليه كشف الحركة الكبرى لدوران الدم عام ١٦١٨ (وكان الطبيب العربي ابن النفيس قد اشار الى اساسيات دوران الدم في الجسم قبله) ، والفيلسوف العالم ، (باسكال) (١٦٢٣-١٦٦٢) الفرنسي ، الذي اخترع أول آلة للحساب ، وتابع اعمال (توريشلي) عن الضغط الجوي . والهولاندي (هويغنز) (١٦٢٠-١٦٩٥) ، الذي درس (النور) ، ووضع نظرية التموجات الضوئية ، وغيرهم .

وخلاصة القول لقد ولد العلم قويا في القرن السابع عشر بفضل نخبة من العلماء ، وكان هذا دون شك اهم تطور في تاريخ الفكر الاوربي ، والانساني .

الفصل الثاني

التطورات السياسية والحضارية في الدول الأوروبية الكبرى في القرن السابع عشر

لقد اشرنا سابقا ضمن السمات الكبرى للقرن السابع عشر ، انه كان قرن
أزمات سياسية كما كان قرن أزمة اقتصادية ، واجتماعية ، وفكرية ، وفنية . ويطلق
أحيانا على هذا القرن من الوجهة السياسية اسم « عصر الحكم المطلق » ، على
اعتبار ان السلطة المركزية في دول أوروبا ، وسلطة الدول بعامة اخذت بالتزايد خلال
هذا القرن ، ولا سيما في فرنسا بالذات . اذ ان الحروب الطويلة التي عاشتها تلك
الدول ، جعلتها بحاجة مستمرة للمال ، مما دفع ملوكها الى تأكيد مركزية السلطة
اكثر فأكثر ، والى التدخل المتواصل في حياة الأمة .

ومن السمات السياسية الأخرى في تاريخ هذا القرن بروز دول أوروبية جديدة
الى الوجود ، اولها ، **المقاطعات المتحدة** ، او ما نسمية اليوم (هولاندة) ، التي
انتزعت استقلالها كما رأينا في اواخر القرن السادس عشر . وقد رأت هذه الدولة
أكبر رخاء لها خلال الربع الثالث من القرن السابع عشر . ولعبت دورا هاما في
التوسع الاستعماري والتجارة العالمية ، وعرفت مع الرخاء الاقتصادي نهضة فنية
وادبية غنية .

أما الدولة الثانية التي برزت قوية في الربع الأخير من القرن السابع عشر ،
ولبت منذ ذلك الوقت ، دورا خطيرا في التاريخ الأوروبي والعالمي ، فكانت
(روسيا) بزعامة قيصرها (بطرس الأكبر) (١٦٨٢-١٧٢٥) .
والدولة الثالثة الصغيرة المساحة فهي (بروسيا) التي قامت في الشمال

الشرقي من اوربا ، واستطاع اميرها ان يحصل من الامبراطور الجرمني المقدس
على لقب ملك في مطلع القرن الثامن عشر عام ١٧٠١ •

اولا - تطور فرنسا في القرن السابع عشر

ان اكبر ما يميز التاريخ السياسي الفرنسي من الناحية الداخلية ، هو السير في
طريق دعم الملكية الاستبدادية المطلقة . وقد تم هذا في عهد الملكين لويس
الثالث عشر ، ولويس الرابع عشر •

١ - عهد الملك لويس الثالث عشر (١٦١٠-١٦٤٣)

أ - بدايات حكم الملك لويس الثالث عشر (١٦١٠-١٦١٧) لم يكن الملك
لويس الثالث عشر ليبلغ من العمر سوى تسعة اعوام عند وفاة (هنري الرابع)
أبيه ، ولذا عينت والدته (ماري دومديتشه) وصية عليه • ولم تكن لها تلك
القدرة السياسية التي كانت لكاترين دومديتشه قبلها ، ولذا فانها لم تلبث أن
وقعت تحت تأثير بعض المغامرين الايطاليين ، من امثال (ليثونوره غاليغاي) ،
وزوجها (كوثشيني) • وقد عينت الملكة الاخير مارشالا لفرنسا ، واعطته لقب
مركيز ، ولعب دور الوزير الاول ، ولم يكن من هم له سوى الاغتناء والحصول
على الثروة •

وبينما سعى الملك الراحل (هنري الرابع) لمقاومة قوة البيت النمساوي ،
وتفوقه بالتحالف مع جميع خصومه ، فان « ماري دومديتشه » ، وقعت تحت تأثير
الكاثوليك المواليين لاسبانيا ، فزوجت ابنتها لملك اسبانيا ، وابنها الملك لويس
الثالث عشر من (حنا النمساوية) اخت ملك اسبانيا •

وقد احس (الهوغنوت) اي (البروتستانت) بالقلق من جراء هذه السياسة
فاخذوا ينظمون صفوفهم ، ويقوون مراكزهم الحصينة التي منحت لهم في « مرسوم
فانت » ويجندون الجيوش ، وجعلوا على رأسهم « دوق روهان » صهر الوزير
السابق (سولي) •

ومثلما شعر الهوغنوت بالاستياء ، فان « النبلاء الكبار » ، الذين اخضعهم
الملك السابق ، واجبرهم على الطاعة ، وجدوا ان الوقت قد حان ليكون لهم

دور فعال في الحكم • فقام عدد من « امراء الدم » ، كالامير (كونده) ، بالمطالبة بالمناصب ، والمال • وحتى تهدى ماري دومديتشه هذه الفئة ، فانها شرعت بدفع المال لهم ، مما كان (سولي) قد جمعه ووفره في خزينة الدولة • وعندما نفذ ذلك الاحتياطي المالي ، ادعى اولئك الامراء ، اسراف الملكة في النفقات وضغطوا عليها **للدعوة (الجمعية العمومية) عام ١٦١٤** • وكانت تضم نوابا عن النبلاء ، ورجال الدين ، وبورجوازية المدن • وقد اراد النبلاء استغلال هذا الاجتماع ، ليخصوا انفسهم بمناصب الدولة • فبدلا من دراسة الحالة المالية للدولة ، اصطدم نواب النبلاء مع نواب الطبقة الثالثة بعنف • ولم تصل مناقشاتهم الى نتيجة ما ، فطردهم الملكة عام ١٦١٥ ، وصرفت المجلس •

وبدا عندها (كونشيني) في ذروة مجده • وادخل في «مجلس الملك» الرجال الذين يريدونهم ، ومنهم (اسقف لوسون Luçon) (أي ريشليو Richelieu) الذي لعب دوره الكبير في تاريخ فرنسا •

ب - الحكم الفعلي للملك وريشليو (١٦١٧ - ١٦٤٢)

وامام تلك الاضطرابات، رأى الملك، وقد بلغ السن الشرعية لتسلم العرش (١٤ عاما) ، ان يتحرك بنفسه ويخرج من عزلته ، واستضعافه ، فأمر قائد حرسه ، بقتل (كونشيني عام ١٦١٧) • وثقى والدته الى (بلوا) ، واجبر (ريشليو) على مغادرة البلاط ، واسلم رئاسة الوزارة الى واحد من اصدقائه ، وهو (البير دولوين Albert De Luynes) • ولقد اصطدم الاخير بتمردين : **احدهما** ، قام به النبلاء (الاعيان) بتحريض من (ماري دومديتشه) واستطاع ان يقضي عليه عام ١٦٢٠ ، **وثانيهما** فجره البروتستانت في الجنوب • وتوفي دولوين عام (١٦٢١) •

وحاول لويس الثالث عشر ان يحكم وحده ، وقد تردد بين نصائح أمه ، التي استدعاها ثانية الى البلاد ، ونصائح الامير (كونده) قريبه • ولثلاث سنوات من (١٦٢١-١٦٢٤) كان ريشليو ، الذي عاد مع الملكة ، وله نفوذ كبير عليها، يهيء الجو لكي يعود الى السلطة • ولقد استطاع ان يتقرب من الملك ، حتى شعر هذا الملك انه لاغنى له عنه • ونجح ريشليو في دخول مجلس الملك عام ١٦٢٤ ، ولم يلبث ان تصرف كرئيس له •

وصل ريشليو الى السلطة ، وهو في الاربعين من عمره • وهو من اسرة نبيلة من (بواتو) ، دخل سلك الكهنوت ، ليحافظ للأسرة على اسقفية لوسون • وكان ريشليو فكرا محيطا ، ونفاذا ، ويمتلك قدرة عجيبة على العمل • وقد احاط نفسه بمستشارين اكفاء ومخلصين ، مثل (الاب جوزيف) • واخضع كل شيء للسلامة العامة ، « فاذا كانت الجريمة ضد أمن الدولة ، فيجب اغلاق باب الرأفة » • وقد قام بينه وبين ملكه ، تعاون وثيق مكنته الايام • واخذ الملك يحس بود حقيقي لريشليو ، ولكنه كان يشعر دائما بانه هو الرأس • وكان ريشليو يقول « ان غزو الاقدام الاربعة المربعة التي هي مساحة قاعة الملك ، كان اصعب علي من غزو جميع ميادين القتال في اوربا (١) » • ومنذ وصول ريشليو الى السلطة ، فانه طرح امام الملك برنامج عمله ، الذي يتلخص في جملته التالية :

« القضاء على حزب الهوغنوت ، وسحق كبرياء النبلاء (الاعيان) ، وتوجيه رعايا الملك كل الى واجبه ، ورفع اسم الملك بين الامم الخارجية الى المكان الذي يجب ان يكون فيه (٢) » •

ج - ريشليو والبروتستانت

منذ ان صدر منشور (نانت) ، الذي اعطى للبروتستانت حرية العبادة ، كان تحت تصرف هؤلاء الاخيرين عدد من الاماكن الحصينة ، ويكفون «جسما» منفصلا عن الدولة - بحسب قول ريشليو - • وقد اوضح سابقا كيف حاولوا ان ينظموا انفسهم عسكريا ، وكيف تمردوا على الملك في عام ١٦٢٠ ، مما اضطر الملك عام ١٦٢٢ ، وبعد عدة معارك ، أن يترك لهم اماكنهم الحصينة ، ويعود فيؤكد لهم امتيازاتهم الممنوحة لهم في مرسوم نانت • وما ان وصل ريشليو الى الحكم حتى واجهته ثورة اخرى منهم ، في منطقة (بريتانيا) وفي وسط فرنسا (السيئين) • فتفاوض معهم ريشليو ، الا انه كان يجهل للقضاء عليهم (١٦٢٥-١٦٢٦) •

(١) ، (٢)

E. Bruley, R. Cloet, S. et P. Coquerelle, avec la collaboration de Genet, La fin du Moyen Age et l'Epoque Moderne (1328 - 1715) Paris 1963 P. 165.

وفي عام ١٦٢٧ ، وعندما نزل الانكليز الذين كانوا في نزاع مع فرنسا ، في جزيرة (ره) ، فان زعيم البروتستانت (سوبيز Soubise) ، الذي اتى معهم نزل في المدينة البروتستانتية الحصينة (لاروشيل) ، واستقبله السكان بالترحاب . فقرر ريشليو ان ينتهي من الطرفين . وقد استطاع ان يطرد الانكليز من جزيرة (ره) ، ثم حاصر مدينة (لاروشيل) . وحتى يمنع الانكليز من تموين المدينة ، اغلق المرسى بسد صخ من الخشب ، والمدفعية . وبعد حصار دام عاما ، اضطرت المدينة الجائعة للاستسلام عام ١٦٢٨ ، ولم يتبق من سكان المدينة البالغ عددهم ٢٧٠٠٠ نسمة سوى ٥٠٠٠ .

الا انه على الرغم من سقوط المدينة ، فان البروتستانت تابعوا ثورتهم في اللانغدوق ، حتى عام ١٦٢٩ ، حيث هزمتهم القوات الملكية ، واضطرتهم للخضوع . و انتهت الحرب باصدار الملك (غفو آله Grâce d'Alé) عام ١٦٢٩ . وفيه احتفظ البروتستانت بالضمانات المدنية ، والدينية ، المحددة في منشور نانت ، الا انهم فقدوا اماكنهم الحصينة ، وحق عقد مجامع دينية دون تصريح من الملك . أي غدوا رعايا فرنسيين كغيرهم .

د - ريشليو والنبلاء الاقطاعيين : لم يكن كفاح ريشليو للبروتستانت سوى المرحلة الاولى من برنامجه . فقد اراد ان يدعم السلطة الملكية في الداخل ، عن طريق اخضاع النبلاء لها ايضا . فعمد الى ارسال مراقبين مؤقتين ، لمراقبة الحكام والموظفين في المقاطعات . ولم يلبثوا ان اخذوا لقب (مراقبي العدالة ، والامن ، والمالية) . وامر بازالة تحصينات القصور الاقطاعية ، ومنع المبارزة ، واستخدام مع المتمردين ، والثوار ، من هؤلاء النبلاء ، اشد انواع القسوة . وعندما حاول احد النبلاء الشباب ، تحدي امر الملك بمنع المبارزة ، قطعت رأسه عام ١٦٢٧ . ودفع كل من حاول رفع رأسه من نبلاء الاسر الكبيرة - وفي معظم الاحوال كانت تشجعه اسبانيا على ذلك - حياته ثمنا لتلك الجرأة . وهكذا لما ثار (هنري دومونترنسي) ، حاكم اللانغدوق ، في عام ١٦٣٢ ، فان رأسه قطعت . ولاقى مصيرا مماثلا حظي الملك (سان مارس Cinq-Mars) ، لانه تأمر ضد ريشليو وتفاوض مع اسبانيا .

ولم يكتف بذلك ، بل فرض الطاعة على البرلمان . حتى ان الملك خاطب احد

رؤساء البرلمان عام ١٦٢٨ قائلا : «على ركبتك امام مليكك، ايها الرجل الصغير» .
وفي عام ١٦٤١ حدد حق ابداء الاعتراضات ، الذي كان للبرلمانات .

وقد سعت (ماري دومديتشه) ، لابعاد ريشليو ، عندما رآته هي وحاشيتها
قد منح (صلح عفو آله) للبروتستانت ، بعد ان كانت تظن انه سيكون عوناً لها
في سياستها الكاثوليكية . وكادت تنجح في عام ١٦٣٠ ، الا ان الملك الذي اثر
فيه وشاية الملكة على ريشليو في بادئ الامر ، لم يلبث ان ارتد على نفسه، واعاد
لوزيره ثقته به . وعندها اضطرت الملكة ، الى مغادرة المملكة ، والالتجاء الى
الاراضي المنخفضة .

وبذلك قوى ريشليو السلطة المركزية الملكية ، وقضى على جميع التحركات
الداخلية ، حتى ثورات الفقراء التي اندلعت في الغرب (نورمنديا) ، نتيجة
زيادة الضرائب ، وذلك بشدة وقسوة ، ودون اية رحمة .

هـ - القوة العسكرية والمستعمرات : وقد عمل ريشليو على تطوير ما ثبت
وينمي عظمة الملك ، الا وهو الجيش ، فجعله يتألف من (١٥٠٠٠٠) جندي .
وقوى الاسطول الحربي لتحقيق سياسته الخارجية من ناحية ، ولدعم التوسع
الاقتصادي لفرنسا ، وتأسيس المستعمرات ، التي هي مصدر للثروات من ناحية
أخرى . ووسع موانئ الهافر ، وبريست ، وطولون ، وحصنها . وانشأ
الشركات التجارية . على صورة الشركات الهولندية . واقام مؤسسات تجارية
في السنغال (سان لويس ١٦٣٨) ، وفي كندا (مونتريال ١٦٤٢) ، وفي مدغشكر .
وعند وفاته كان هناك بضع مئات من المستعمرين في كندا ، واكثر من (٧٠٠٠)
فرنسي في الاتيل (غواد لوب ، والمارتينيك) . الا ان هذه الاندفاع البحرية
ضعفت فيما بعد ، وكبح جماح التوسع الاستعماري .

و - العناية للملك وحكمه : واراد ان يكون الموجه للرأي العام وللфكر .
فمنح حمايته لجريدة فرنسا (الغازيت Gazette) . وهي جريدة انشئت عام ١٦٣١
من قبل الطبيب (تيثوفرست رنودو Th. Renaudot) وكانت اول صحيفة فرنسية .
وأسس عام ١٦٣٥ « الاكاديمية الفرنسية » كوسيلة لمراقبة الادباء من ناحية ،
والظهور بمظهر المشجع للاداب من ناحية أخرى .

ز - حروب ريشليو : وبعد ان ازاح ريشليو العقبات التي وقفت في وجه السلطة الملكية ، اراد ان يثبت قوة الملك في الخارج ، كما ثبتها في الداخل .
فعاد الى الصراع مع آل هابسبورغ ، بان ارسل ضدهم الجيوش الى ايطاليا .
وقد اصطدمت سياسته هذه باتجاهات الحزب الكاثوليكي ، والملكة الام ، والملكة حنا النمساوية نفسها . وقد اشرنا الى نتائج ذلك الصدام ، الذي كاد ان يكلف ريشليو فقدان حظوته عند الملك ، وابعاده عن منصبه (عام ١٦٣٠) . الا انسه بقي قائما ، وتابع سياسته الخارجية ، في حرب الثلاثين عاما ، التي سنبحثها مفصلا فيما بعد .

وفي عام ١٦٤٢ توفي ريشليو ، وتبعه بعد ستة اشهر فقط الملك لويس الثالث عشر . وفي الواقع ، لقد خلف ريشليو فرنسا ، وقد توسعت حدودها ، وسارت في طريق الرأسمالية التجارية . الا انه كان رجل دولة ، اكثر منه رجلا اداريا . وقد قام باصلاحات تتطلب مالا ، وهو لا يملك هذا المال ، مما اضطره الى فرض ضرائب ثقيلة ، وصم آذانه عن انات البؤساء . ومع كل القسوة التي ضرب بها ثورات اولئك الفقراء في المقاطعات ، فان تلك الثورات لم تتوقف ، بل توالى وتفاقت بعد ١٦٣٥ ، بسبب الحرب الطويلة ، (حرب الثلاثين عاما) ، وما حملته من ضرائب جديدة . فعندما توفي ريشليو ، تنفس الفرنسيون الصعداء ، ولم يكن العمل الذي ابتدأه قد انجز بعد . لقد اخاف خصوم السلطة الملكية ، ولكنه لم يستطع ان يجعل الملك قويا الا في الظاهر . ولذلك فان الاضطرابات عاودت سيرتها ، منذ وفاة الملك لويس الثالث عشر في عام ١٦٤٣ .

٢ - عصر الملك لويس الرابع عشر ١٦٤٣-١٧١٥

يقسم عهد الملك لويس الرابع عشر الذي خلف لويس الثالث عشر ، الى مرحلتين رئيسيتين :
المرحلة الاولى : وتمتد من (١٦٤٣ - ١٦٦١) . وخلالها كان الكاردينال مازاران الذي حل محل ريشليو ، هو المسير للسياسة الفرنسية .

المرحلة الثانية : وتمتد من (١٦٦١ - ١٧١٥) . وفيها تسلم زمام المبادرة الملك لويس الرابع عشر وكان « هو الدولة » .

المرحلة الاولى (١٦٤٣ - ١٦٦١) :

٢ - مازاران : لقد كان لويس الرابع عشر ، في الخامسة من عمره ، عندما حضرت والده الوفاة ، فاخذت الوصاية عليه والدته « حنا النمسوية » . ولم تكن لها خبرة بالسياسة ، واحايلها ، آنذاك ، فاسلمت الامر الى الكاردينال مازاران الايطالي الذي كان موضع ثقتها . وكان الوضع في البلاد متأزما ، والاستياء من حكم ريشليو السابق عاما . فكبار النبلاء ، الذين قصص ريشليو اجنتهم ، ناقمون ، والبورجوازيون الذين تضررت مصالحهم متململون ، والشعب الفقير الذي سحقته الضرائب ممتعض ، والفلاحون المعرضون لنهب المحاررين ، ورجال المال ، قلقون .

وكانت الصعوبة الكبيرة التي تعانيها الدولة ، هي حاجتها للمال ، بسبب نفقات الحرب ، واعطيات النبلاء ، الذين كان مازاران يفضل ان يشتريهم بدلا من ان يحاربهم .

ومازاران، الحاكم الجديد، كان سياسيا كبيرا ، ورجلا حازما ، كونه ريشليو ، الا انه لم يكن مشابها له . ولكن على الرغم من الصفات التي لا تنعته بالاستقامة، والشرف ، فانه تابع باصرار السياسة التي يريدتها ، واوصلها الى هدفه منها ، دون ان يكثرث بالعداوات التي اثارها ، والاحقاد التي ولدها . ويمكن القول بايجاز ، انه كان « الثعلب بعد الاسد » ، أي تابع سياسة ريشليو ، انما بوسائل مختلفة .

ب - حروب الفروند : ولقد اصطدم مازاران اول ما اصطدم بالبارلمان الذي لم يحرك ساكنا قبلا ، خلال الوصاية على الملك لويس الثالث عشر . ويرجع ذلك الى انه فرض ضرائب خاصة جديدة على البضائع الداخلة الى مدينة باريس ، وعلى المساكن الجديدة المبنية في العاصمة . واوجد مناصب جديدة ، وانقص المرتبات ، وبذلك اغضب البورجوازية . وفي الواقع تجمعت عوامل النقمة لدى جميع فئات الشعب ، ووحدت بينها ، من نبلاء وبورجوازيين ، وشعب مدينة باريس العاصمة . واخذ الناس يتجولون في الطرقات وهم ينشدون ، ويغنون ، تلك المقاطع الشعرية التي تهدد مازاران ، والتي أطلق عليها اسم (المازاريناد) . وفي هذا المناخ المتوتر ، انفجرت ما يسمى في التاريخ الفرنسي بـ (حروب الفروند)

أو (حروب المقلع) • وقد سميت بذلك تشبيها لها بلعبة الاطفال المشاغبين ، المعروفة بهذا الاسم • الا انها في الحقيقة كانت ثورة خطيرة مهددة للملكية الفرنسية • اما « بارلمان باريس » ، فقد كان مجلسا من القضاة ، اشترى مناصبهم من الملك ، ويطبقون القانون ، ويقيمون العدالة باسمه • وقد كانوا متعلمين ، واثرياء ويريدون ان يلعبوا دورا سياسيا ، مماثلا لدور البارلمان في انكلترا • وقد ابتدأت (حروب الفروند) عندما اصدر البارلمان « اعلانا من ٢٧ بندا » أيسر (١٦٤٨) ، يطالب فيه بتحديد السلطة الملكية • وصفق الشعب لهذا الموقف لان من ضمن المطالب كان انقاص الضرائب • وتبدى له البارلمان ، وكأنه هو المدافع عن الحرية ضد الاستبداد • وتظاهر مازاران بالقبول ، ولكن لم يلبث بعد فترة قصيرة ، ان اوقف مستشارا من بارلمان باريس • فنصب شعب باريس المتاريس ، وبدأ ما يسمى بـ « **فروند البارلمان** » ، الذي جاء ليضيف الى البلبلة الناجمة عن الحرب الخارجية ، تمزقا جديدا في قلب المجتمع الفرنسي •

واضطر مازاران ، والعائلة الملكية (الملكة والملك الطفل) ، للفرار والاقامة في قصر (سان جرمان آن له) ، اذ غدا البارلمان سيد مدينة باريس • الا ان القوات الملكية برئاسة (كونده) ، حاصرت المدينة ، واضطرتها ان تستسلم في آذار ١٦٤٩ ، ووقع البارلمان مع مازاران (صلح روئي " Rueil) وخضع الثائرون ، وانتهى (فروند البارلمان) •

فروند الامراء :

ولكن مطامع (كونده) في الحكم ، والحلول محل مازاران ، اشعلت الثورة من جديد • فقد كان (كونده) اقوى الاقطاعيين في المملكة ، وقد اعتبر نفسه بانه انقذ الملك • وقد بلغت تطاولاته حدا ، دفع مازاران للقبض عليه في عام ١٦٥٠ • فقام اقرباؤه ، واصدقاؤه ، باثارة المقاطعات (نورمنديا ، وبورغونيا ، والبوانسو ، والغوين) •

وغدا الاضطراب عاما : اذ اوجدته تلك المؤامرات ، والتنافس ، والخianات ، التي كانت تجري كلها ، على ارضية من الحرب ، والبؤس • ووصلت البلبلة الى ذروتها ، عندما افصح (بول دوغوندي P. De Gondi) - الذي اصبح فيما

بعد « كاردينال ريتز » — عن مطامعه في الحلول هو الآخر محل مازاران ، مما اثار مدينة باريس ثانية ضد الملك ، والبت البارلمان ضد مازاران . فاضطر هذا الاخير للهرب الى المانيا في عام ١٦٥١ ، بينما كانت جيوش الملك في كل فرنسا ، تتقاتل مع الفرونديين . فكبار الامراء والقادة ، وجدوا متعة كبيرة في العودة الى عادات الازمنة الاقطاعية ، ومناوشاتها العسكرية ، واسعد كبريات النيبلات ان يلعبن دورا مماثلا لما اتى في الروايات الشائعة آنذاك ، وان يسهمن في الصراع . وقد شوهدت « الاميرة الكبيرة » ابنة عم الملك ، وهي تطلق مدفع باريس على الجيوش الملكية . كما تفاهم امير (كونده) مع الاسبان ضد الملك . ان هذه الصورة المضطربة لفرنسا ، توضح ان الدولة التي سعى ريشليو لتكون قوية ، قد انحلت ، وشرع كل واحد يدافع عن مصالحه الخاصة فحسب .

اخفاق الفروند : لم يكن الملك ، في الواقع ، قادرا على قهر (الفرونديين).

الا ان هؤلاء بدورهم ، لم يكونوا قادرين على تنظيم انفسهم . وهذا هو السبب الاساسي في اخفاق الفروند . هذا علما ان الشعب اخذ يتحرك ، لينضم الى هذه « الثورة » . فالبلاد كانت تعاني ازمة اقتصادية ، واجتماعية ، خطيرة آنذاك : فالمواسم الزراعية سيئة ، والمجاعة والوباء منتشران . وفي الواقع اختلف الفرونديون فيما بينهم ، فالبورجوازيون الحريصون على املاكهم ، وارباحهم ، وحررياتهم ، خافوا الحرب الطويلة ، ولا سيما انهم رأوا (كونده Condé) يحاول ان يفرض الارهاب على مدينة باريس ، و « غوندي » المتآمر ، يلف ويدور لتحقيق مطامحه . وخشي البارلمان نفسه الرجلين ، كما خشي التفجرات الشعبية ، التي لا يمكن التنبؤ بمدى سعتها . ولعب مازاران دوره في هذه الانقسامات بين الفرونديين ، وتمكن اخيرا بمساعدة (تورين) ، ان يجبر (كونده) على الفرار الى اسبانيا عام ١٦٥٢ ، وان يعيد الهدوء الى العاصمة ، التي دخلها الملك لويس الرابع عشر ، ووالدته حنا النمسوية وسط تصفيق الشعب وتهليله . ولحق بهما مازاران ، الذي استقبل هو الاخر من الباريزيين ، استقبال ترحاب وحفاوة . لقد ولدت سنوات الفروند الرابع ، بؤسا عاما ، وعميقا في كل فرنسا . فبالاضافة الى المجاعات ، والابوة ، واكتساحات الحروب ، كان هناك الدمار

الذي لحق الغلات الزراعية حول مدينة باريس ، حيث جرت المعارك الكبيرة ، ونهب الجنود • لقد تعب الفرنسيون من الحروب المتواصلة وفقدوا ثقتهم بالنبل ، وبالبارلمانيين ، على حد سواء • ولذا عاد الحكم المطلق يثبت اقدمه ثانية ، دون ضجيج ، وسط البؤس ، واليأس ، العامين •

لقد كانت (حروب الفروند) اكبر من انتفاضة لا جدوى منها : فهي تجربة حاسمة ، قبل تثبيت دعائم الاستبدادية المطلقة • وقد وقفت فيها البورجوازية المحترقة من النبلاء ، موقفا دفاعيا ، وكان الملك حاميا للطبقي • لقد ارادت اصلاحا للدولة ، والمالية ، ولكنها لم تكن مستعدة للاسهام في ثورة شعبية ، أو في ثورة للاقطاعيين •

وهكذا لم يستطع الفرنسيون ان يحددوا سلطات الملك ، وهذا خلاف ما جرى عليه الامر في انكلترا • فبحاربة ريشليو ، ومازاران ، للعقبات القائمة في وجه الارادة الملكية ، فتحا الطريق واسعا للملكية المطلقة • فمازاران بعد عودته الى باريس ، تابع سياسة ريشليو ، وظل حتى وفاته عام ١٦٦١ ، هو المعلم السياسي للملك لويس الرابع عشر ، الذي جاء في عام ١٦٥٥ ، وهو بلباس الصيد ، وسوطه في يده ، نُبِزَ بقسوة البارلمان على الطاعة • واعيد « المراقبون » الذين الغيت وظائفهم اثناء (حرب الفروند) ، وبسلطات اوسع ، ومنع النبلاء من التجمع دون تصريح ، وكوفىء العاملون المخلصون •

ومع ذلك ، ففي فرنسا التي عاد اليها السلام والهدوء مؤقتا ، كانت هنالك مشكلتان هامتان ، هما الموارد المالية غير الكافية ، والخرائب التي زرعتها الحرب الاهلية والخارجية •

المرحلة الثانية من حكم لويس الرابع عشر (١٦٦١ - ١٧١٥) :

اولا - الحكم السياسي المطلق :

لقد كان لويس الرابع عشر ، عندما استلم السلطة فعليا بعد وفاة مازاران ، في الثانية والعشرين من عمره • ولما كان قد انتظر طويلا ساعة حكمه الفعلية هذه ، فانه اراد ان يكون السيد الحقيقي • لقد كان ذا قامة متوسطة ، وملامح توحى بالهيبة (الشكل ٢٤) • وفي الواقع لم تلعب الكتب والمطالعة دورا كبيرا في تربيته ، الا ان مازاران قد كونه تكويننا عمليا على ممارسة اعمال الدولة •



الشكل - ٢٤ - الملك لويس الرابع عشر

ولقد ابدى في بادىء الامر تنهيا واعيا للامور . واستطاع دائما ان يسيطر على نفسه وان يجيب سائله بكلمة « سارى » . وكان يسيطر على شخصيته اخوانه وجدان يفظ وصامد ، جاء اية تحرة ومحة ، فكان يقول « بالعمل يحكم » ومن اجله يحكم « . ثم مجربا سدسه بعر عما رمزه (الشمس) ونعاره « متفوق على الكل » .

وقد كان « الملك لويس الرابع عشر » يعتقد كما يعتقد معاصروه ان سلطته مستمدة من الله ، ومن ثم فيجب ان يطاع كما يطاع الله نفسه ، وان يتمتع « بسلطة مطلقة » في جميع الميادين . الا انه كان يرى ان من واجبه كذلك ان يحكم لصالح مملكته وخيرها . كما آمن بان الملك يجب ان يطيع قوانين الله ، وقوانين المملكة ، أي التقاليد التي احترمها الملوك قبله ، وهي القيود الوحيدة لسلطته اللامتناهية : كـ بعض الامتيازات التي تمتعت بها بعض المقاطعات ، أو المدن أو المجالس سابقا ، ومنذ ازمة بعيدة .

ان هذا المفهوم للملكية المطلقة كان يؤيده كثير من مفكري ذلك العصر . « فبوسوه Bossuet »^(١) مثلاً شرحه في كتاب عنوانه « سياسة منبثقة من كلمات الكتاب المقدس » ووضح ان الله نفسه قد اراده .

ب - استثناس لويس الرابع عشر للنبل - والبلاط الملكي :

وحتى يطاع الملك من الجميع ، فانه كان يجب ان يطاع من « كبار النبلاء » ، فلويس الرابع عشر لم ينس ثورات النبلاء اثناء (الفروند) . وحتى ينزع نفوذهم من المقاطعات التي يمتلكون فيها ارضا ، فانه جذبهم اليه ، واجبرهم على الاتفاق بسعة ، ومن ثم على الافلاس المادي ، عن طريق حياة اللذة والفخفة التي اتاحها لهم ، أي بشراء الملابس الفخمة ، وبالانهماك في الاحتفالات ، أو اللعب بالقمار . وقد كانوا مجبرين على ذلك حتى يظهروا بمظهر يتناسب مع حياة البلاط ، التي كان يعيشها الملك نفسه . وبذلك لم يعد لهم من هم سوى الحصول على حظوة لدى الملك ، ولا رغبة لديهم اكبر من رغبة احساسه بوجودهم ، وتقويمه لهم ، اذا ما وضعوا انفسهم في خدمته . فقد كانوا سعداء مثلاً اذا ماتلقوا دعوة منه الى قصره في (مارلي) ، أو اذا ماسمح لهم بحضور لحظة ذهابه الى النوم . وحتى يترك الملك اثرا قويا في نفوس رعاياه ، بانه الملك القادر ، والقوي ، فانه عاش في بلاطه وسط ترف لا يصدق . فكل لحظات وجوده : نهوضه من النوم ، وذهابه اليه ، ووجبات طعامه ، كل هذا كان خاضعا لاحتفالات منظمة

(١) بوسوه (١٦٢٧-١٧٠٤) : اسقف فرنسي اشتهر بمواعظه ومراثيه وبلاغته . وكان مربيا ولي عهد فرنسا ، ومن اجله كتب كتابا « عن التاريخ العالمي » . ولديه حس تاريخي عميق .

بدقة • وكان المركز الرئيسي للبلاط (قصر فرساي) ، حيث تم الاستقرار فيه نهائيا عام ١٦٨٢ •

ولم يكن البلاط بالنسبة للويس الرابع عشر مجتمعا متألقا فحسب ، وانما كان تجمعا لكل « النبالة » التي روضها واستأنسها • ففي البلاط كان النبلاء معروفين منه ، فظهورهم فيه يعني استلام معاشاتهم المخصصة لهم • ويقضى على النبيل ، اذا قال الملك عنه بأنه لا يود رؤيته بعد الآن • وقد كانت الشرطة تراقبهم ، وتفتح رسائلهم ، وبذلك كان على النبلاء ان يتنازلوا عن كل ادعاء سياسي ، او مطمع •

ج - الحكومة : ولما كانت سلطة الملك تنبثق من الله ، فانها لا تقسم ابدا • ولذلك فانه لم يتخذ ، بعد مازاران ، وزيرا ، لانه اراد ان يحكم بنفسه • ولكن هذا لا يعني استغناءه عن المساعدين • فقد كان يعاونه مجموعة من (المستشارين) ، ولكنه يحتفظ بالقرارات لنفسه ، بل ان اكثر معاونيه تأثيرا عليه - (كولبير) أو (لوفوا) - لم يكن له من حق ، سوى تنفيذ اوامر الملك • وكان يجتمع مع مستشاريه في « المجلس الاعلى » (وسمي بهذا الاسم لانه كان يجتمع في الطابق الاعلى من قصر فرساي) • وكانت شؤون الدولة العليا موزعة مبدئيا بين ستة معاونين له : « المستشار » وهو رئيس شؤون القضاء ، وحارس الاختام ، و « المراقب العام للشؤون المالية » ، وكان هو « كولبير » ، واربعة من سكرتيري الدولة المختصين • وكان واحد منهم للشؤون الخارجية ، وثنانهم للحرب ، وثنانهم للبحرية ، ورابعهم لمنزل الملك • وكانوا الى جانب اهتمامهم باختصاصاتهم ، يدير كل واحد منهم جزءا من المملكة • واكثر معاونين أهمية (مراقب الشؤون المالية) ، لانه لم يكن يدير تلك الشؤون وحدها ، وانما الاقتصاد كله ، وادارة الدولة •

وكان هناك مجالس اكثر اختصاصا ، وهي فروع من المجلس القديم للملك ، مثل ، (مجلس الرسائل السريعة) ويهتم بالشؤون الداخلية ، ولاسيما العلاقات مع المراقبين ، وادارة المقاطعات ، و (مجلس الشؤون المالية) - ويشرف على خزينة

الدولة والضرائب ، و (مجلس الخصومات) الذي كان بمثابة محكمة ادارية عليا ، ومحكمة استئناف ، ويجب ان يلاحظ ان جميع هذه المجالس لا تنعقد الا بحضور الملك ماعدا (مجلس الخصومات) ، وان « المجلس الاعلى » يلعب دورا اساسيا اذ تتخذ فيه كل القرارات • وكان لويس الرابع عشر حكيما عندما ابعد عنه اعضاء اسرته ، وكبار الاعيان ، وقصره على بضعة اشخاص كبار •

د - الادارة في المقاطعات : ان فوضى المؤسسات الادارية في الاقاليم بقيت قائمة وعديدا من الاحكام الاقطاعيين ، الذين كان لهم دور عسكري بصفة خاصة ، وغالبا شرفي ، استدعوا للبلاط وظلوا فيه • ان التجديد في حكم المقاطعات ، يتمثل في المكانة التي شغلها (المراقبون) للشؤون القضائية ، والامن ، والمالية • فقد كانوا في بادىء الامر مفتشين ، ينتقلون من اقليم الى آخر ، ثم اصبحوا خلال حكم لويس الرابع عشر موظفين ثابتين • فهم من ناحية مرتبطون بمقاطعة ادارية ، ومن ناحية أخرى مرتبطون ارتباطا قويا بالملك • وفي الوقت ذاته كانت سلطتهم تتضخم تضخما كبيرا ، فا (المراقب) كان ملكا في مقاطعته ، له حق القضاء ويهتم بجميع مظاهر الحياة الاقتصادية ، ويتدخل في الحياة الخاصة للناس عندما تتطلب المصلحة الدينية ذلك ، كما يتدخل في شؤون البلديات •

هـ - القضاء : لقد كان في الاساس وظيفة ملكية ، وكان يؤدي باسم الملك حتى في بعض الاقطاعات المتبقية • وكان يقوم به « القضاة » الذين اشترؤا مناصبهم ، وكانوا يتمتعون باستقلال حقيقي • وكان بعضهم اداريين الى جانب عملهم القضائي • واهم المحاكم كانت البارلمانات ، وكان عددها عشرة في بدء الحكم ، ويكون اعضاؤها ارسقراطية قضائية حقيقية • وكان القضاء بطيئا ، ويكلف غالبا •

و - الجيش والشؤون العسكرية : لقد كان هدف لويس الرابع عشر الاساسي خلال حكمه تأكيد اولوية التاج الفرنسي وسيادته في اوربا • فالملكية اذا يجب ان تكون عسكرية قبل كل شيء ، أي يشغل الجيش فيها المكان الاول • وقد اهتم الملك به بنفسه ، الا ان بناء ذاك الجيش الحقيقيين كانوا ثلاثة : (لوتيلية Le Tellier) وكان سكرتير الدولة للشؤون الحربية ، ومتواضعا ومجدا

في عمله • وابنه (لوفوا Louvois) وكان عونته ، ثم حل محله • وكان قاسيا ، وسريع الغضب ، ومحباً للمجد والشهرة • واخيرا (فوبان Vauban) ، وكان محاربا في جيش (كونده) اثناء الفروند • وقد شعر مازاران بتفوقه ، فجعله مهندسا للملك • وكلفه الملك عام ١٦٦٢ بتحسين مدينة (دونكرك) • ومنذ ذلك الوقت اسهم في جميع الاعمال العسكرية ، والحصارات التي جرت خلال حكم لويس الرابع عشر • وكان رياضيا متفوقا ، ومخططا حرييا من الدرجة الممتازة • وكان يعرف كيف يستفيد من التضاريس ، والانهار ، والمستنقعات ، وحتى السدود ، لجعل الاماكن الحصينة ممتعة على العدو • وحتى تتمكن تلك الاماكن من مقاومة المدفعية ، فانه انشأ نظاما من التحصينات الخفية تحميها الخنادق ، ومرتمعات صغيرة من التراب المغطى بالحشائش • وقد بنى خلال اربعين عاما (١٦٦٧-١٧٠٧) أو اعاد بناء ، ١٦٠ مكانا حصينا ، هذا بالإضافة الى الموانئ العسكرية ، مثل « بريست » و « طولون » • كما اوجد طريقة جديدة في الحصار دون ان يريق دماء كثير من الجنود • حتى اصبح يقال « مدينة يدافع عنها فوبان لا تؤخذ ، ومدينة يحاصرها فوبان تؤخذ » • وقد عين عام ١٧٠٣ مارشالا لفرنسا •

وعرف (فوبان) الى جانب اعماله العسكرية تلك ، بأنه اهتم بالاحصاء السكاني كما بحث في الضرائب • وقد عزا بؤس الشعب الى فساد العاملين في الشؤون المالية ، والى سوء توزيع الضريبة • وقد اقترح احلال ضريبة وحيدة ، هي العشر على الدخل ، على جميع رعايا الملك دون استثناء • وقد قدم عمله مخطوطا للويس الرابع عشر ، وغضب الملك مما اتى فيه ، الا انه مع ذلك ، استوحى منه لايجاد ضريبة جديدة هي (العشر) •

وقد طبع فوبان كتابه عام (١٧٠٧) سرا ، الا ان الكتاب صودر ، وصب الملك سخطه عليه ، وتوفي بعد مدة قصيرة •

ويمكن القول اخيرا ، بالنسبة للناحية العسكرية ، ان الجيش فقد صفته الاقطاعية • ومع ان الرتب العسكرية بقيت خاضعة للبيع والرشوة ، الا انهم لوجدوا للضباط الفقراء درجات لاتباع • ووجه اللوم للضباط ، الذين يقعون في البلاط

اكثر من اقامتهم على رأس عملهم ، وعوقب النهب الذي كان يمارسه العسكريون .
وقد ثبت تسلسل الرتب العسكرية حتى تمنع المنافسات عند ممارسة القيادة ، وعمم
اللباس العسكري على جميع العسكريين .

وقد بلغ عدد الجيش في هذه الحقبة قدرا كبيرا ، اذ وصل الى ٤٠٠.٠٠٠
جندي في عام ١٧٠٣ .

وقد كان كل قائد فرقة هو الذي يجمع الجنود لفرقة بطرقه الخاصة . ودعم
هذا النظام في عام ١٦٨٨ بإنشاء (الميليشيا) ، وهي محاولة لايجاد خدمة عسكرية
الزامية تعد جيشا احتياطيا . وكان افراد هذه الميليشيا يختارون بالقرعة ، من بين
العازبين الذي تتراوح اعمارهم بين ٢٠-٤٠ سنة .
وبالاضافة الى كل ذلك ، فان تسليح الجيش قد تحسن ، واستخدمت
البندقية السهلة في الحشو ، التي ارفقت بها الحربة . ودعم سلاح الفرسان الخفيف ،
ونظمت فرق خاصة للمدفعية .

وهكذا اصبح لفرنسا جيش قوي ، قادر على الحركة والعمل ، على
الرغم من ان ضباطه كانوا غير مدربين الدربة الكافية . ومع كل عيوبه فقد بدا
الجيش الاول في اوربا .

وفي الوقت ذاته ، انشأ (كولبير) اسطولا حرييا ففي عام ١٦٦١ لم تكن
فرنسا تملك سوى (١٨) مركب حرب وستة غليونات ، وفي عام ١٦٧٣ اصبح لديها
(٢٥٨) سفينة . واوجد كولبير عام ١٩٧٣ (الخدمة البحرية) وهي نوع من الخدمة
العسكرية الالزامية ، طبقت على سكان السواحل . وشجع القضاة على اصدار
احكام قضائية بالعمل في تجديد السفن . واعتنى بالموانئ الحربية ، وبخاصة
(بريست) و (طولون) و (الهافر) ، وانشئت ترسانة (روشفور) لصنع
السفن .

ز - تنظيم الشؤون المالية : لقد كان (نيقولا فوكه N. Fouquet) هو
المشرف العام على الشؤون المالية ، عندما استلم السلطة الملك لويس الرابع عشر .
ولقد اكتسب ثروة ضخمة من عمله ، فغضب عليه الملك ، وعزله بعد ان سجنه .

وعهد الى (كولبير) ذي الشخصية القوية بهذا العمل ، الذي بقي يديره لعشرين عاما . وقد عمل قبلا مع مازاران ، واوصى به هذا الاخير ملكه . وقد عين في منصبه هذا عام ١٦٦٥ ، واضيف اليه عام ١٦٦٩ سكرتارية الدولة للبحرية . وشؤون الملك .

وقد اوجد كولبير طرائق صارمة ودقيقة للحسابات المالية ، فهناك : سجل يسجل يوما بيوم واردات الدولة ونفقاتها ، وفي آخر العام توضع قائمة بذلك . وبذلك اصبح باستطاعة الملك ان يعرف الحالة المالية في كل لحظة، وان يقوم كولبير بسد العجز ، بل وبتوفير احتياط كما فعل (سولي) في عهد الملك هنري الرابع . وكان باستمرار يلح على ملكه بالاقتصاد من النفقات ولا سيما اثناء بناء (فرساي) .

وقد كانت واردات الدولة تتكون اولا من واردات الاملاك الملكية ، وهذه الاملاك كانت معطاة في معظم الاحوال لاشخاص خاصين . ثم هناك الضريبة المباشرة ، وهي ضريبة الدخل La Taille . وكان الاقطاعيون ورجال الدين ، والمتسلمون للمناصب الملكية، معفيين منها . وكانت تثقل قبل كل شيء كاهل الفلاحين ، اذ لم تكن متساوية التوزيع بين المدن ، والمقاطعات ، وفي بعض المناطق كانت تفرض على كل واحد بحسب ثرائه الظاهر .

اما الضرائب غير المباشرة فهناك ضريبة الملح ، وكانت نسبتها تختلف اختلافا كبيرا بحسب الاقاليم ، مما ادى الى عملية تهريب واسعة لهذه المادة . ثم هناك ضرائب على المشروبات Les Aides والرسوم الجمركية traites القائمة بين كل مقاطعة واخرى . ولما لم تكف هذه الضرائب فقد اوجد كولبير ضريبة (الطابع) ، واحتكر بيع (التبغ) . ولم يتوصل الى اصلاح نمط جباية الضرائب ، ولم يستطع التخلص من ملتزمي الجباية ، الذين يقدمون المال الى الملك ، مقابل ارباح ضخمة يحصلون عليها .

ح - السياسة الاقتصادية لقد كان كولبير مثل معظم معاصريه يعتقد ان كمية النقد المتداولة في اوربا هي ثابتة ، وان قوة الدولة وعظمتها يقاسان باحتياطياتها

من النقد . فيجب اذا تجنب الاستيراد من الخارج ، وتصدير ابر كمية ممكنة . وهذا لا يمكن ان يقوم به الا اذا وضع يده على التجارة البحرية الكبيرة ، التي اغنت الهولانديين ، وقام بصنع المنتجات التي كانت فرنسا تستوردها من الخارج .

الصناعة : فكر كولبير في ان يدخل في المملكة تقنيات الصناعة الاجنبية واسرارها . فجذب امهر العمال ، واكبر معلمي الصناعة في البلدان المجاورة الى فرنسا . وشجع تأسيس « المصانع » : فقد اسس بعضها بتمويل من الدولة ، لانتاج كمية كبيرة من السلع ، فهي « مصانع دولة » تعود للملك وتعمل له ، كمصنع السجاد ، والاثاث ، المسمى « مصنع الغوبلن » . وهناك « مصانع ملكية » يحميها الملك من المنافسة ، ويعينها بكميات من المال . وبذلك انشئت مصانع للمرايا ، والحرير ، والجوخ . وكان على رأسها غالبا صناع اجانب ، او تستخدم عمالا اجانب ، شجعهم كولبير للمجيء الى فرنسا ، للتعرف على اسرار صنعتهم ، بينما منع العمال الفرنسيين من الذهاب الى الخارج .

وحتى تباع المصنوعات الفرنسية للخارج ، يجب ان تكون من نوعية ممتازة . ومن ثم نشر كولبير مجموعة من « التنظيمات » بطرق صناعة هذه السلع ، حتى بتفصيلاتها الدقيقة جدا . واوجد مفتشين ليتحققوا من تطبيق تلك التنظيمات ، وعاقب بقسوة الذين لا يحترمونها .

وقد اثمرت سياسة كولبير اذ امتدحت الدول الاجنبية صناعة فرنسا . الا ان التنظيمات التي اوجدها ، اعاققت فيما بعد تطور الصناعة وقيدتها ، ومنعت المبادرة الفردية . هذا في الوقت الذي كانت فيه تلك المصانع تتقهقر ، اذا ما قطعت عنها المعونة المالية .

الزراعة : واذا كان كولبير قد اهتم بتنمية الصناعة ، فانه لم يظهر اهتماما مماثلا بالزراعة . وكان هدفه ان تكتفي كل مقاطعة بنفسها . ولذا قيد تجارة الحبوب ، ولم يسمع الا لتشجيع « الزراعات الصناعية » الضرورية لنمو المصانع : كالنباتات الضرورية للنسيج ، مثل الكتان ، والقنب ، وشجرة التوت . او (النباتات الصباغية) كنبات الفارانس « اللون الاحمر » ، والنيلج (الازرق) ، هذا علما

بأن فرنسا كانت بلادا زراعية ، والازدهار الصناعي غير ممكن دون رخاء زراعي ،
التجارة والاستعمار : وليحيي كولبير الصناعة من منافسة المنتجات الهولندية ،
فانه فرض رسوما جمركية عالية (١٦٦٧) ، ولم تلبث ان قلقتها الدول الاخرى .
ففرضتها على المنتجات الفرنسية . « وحرب التعرفة الجمركية » هذه ، ساعدت
على توليد العداوة بين فرنسا وهولاندة . ومن ثم ، ففي « معاهدة نيمège
Nimègue » عام ١٦٧٨ ، اضطر كولبير ان يعود الى رسوم جمركية معتدلة ،
ولكي يسهل سبل انتقال البضائع في داخل البلاد ، فانه الغى الرسوم
الجمركية في ١٢ مقاطعة (في حدود الحوض الباريسي Les Cinq Grosses fermes
وشجع الانتقال بالطرق المائية لرخصها ، هذا علما انها بطيئة نسبيا ، وشق عدة
قنوات . الا أن أكثر ما اهتم به كان الطرق الاستراتيجية ، والطرق المؤدية
الى الموانئ الكبيرة .

ان جميع اعماله السابقة في ميدان **التجارة الداخلية** ، كانت تهدف الى
تهيئة **الازدهار للتجارة الخارجية** . وقد اتبع ، ليضمن ذلك الازدهار ، بالاضافة
الى الامور السابقة ، النقاط التالية ، مقلدا بذلك الهولنديين :

أسس بين (١٦٦٤-١٦٧٠) (شركات تجارية) ، اخذت احتكار النقل مع
المستعمرات ، او مع بلاد اخرى ، ومنحها امتيازات مالية ، مثل (شركة بلاد الهند
الشرقية) التي كانت تقوم بالتجارة بين المحيط الهادىء ، والمحيط الهندي ،
و (شركة بلاد الهند الغربية) التي عملت من مركزها في مدينتي «نانت» و«بورديو»
على تنظيم **التجارة المثلثة** (١) . وكانت هذه التجارة تدر ارباحا كبيرة ، من
تجارة السكر ، والعبيد . و (شركة الشمال) التي احتفظت لنفسها بالتجارة في
(بحر الشمال ، والبلطيق) . واخيرا (شركة الشرق أو الليفانت) التي اتخذت
مركزا لها مرسيليا ، وكانت تستثمر الاحتكار الفرنسي لتجارة الامبراطورية
العثمانية .

(١) التجارة المثلثة هي المتاجرة مع افريقيا الزنجية ببيعهم سلعا مختلفة ، وكحولا
مقابل العبيد . وهؤلاء كانوا يحملون لبيعهم في جزر الانتيل ، او جزر المحيط
الهندي ، حيث يأتي التجار الاوربيون منها بالتوابل ، وسكر القصب ، وغيرها .

ومع ذلك فإن التجار الفرنسيين الذين كانوا يريدون (التجارة الحرة) وعلى هواهم ، لم يدخلوا برضاهم في هذه الشركات . وعندما ساءت الأحوال بعد (عصابة اوغسبورغ) فإنهم استعادوا استقلالهم .

تأسيس المستعمرات : لم يكن بمقدور رجال السياسة في ذلك العصر ان يتصوروا التجارة البحرية دون « زرع استعماري » ، يدر على فرنسا التوابل ، والمواد الاولية التي تحتاجها . وهنا اراد كولبير ان ينظم ايضا كل شيء . ففي كندا جهد لزيادة السكان بنظام الاسكان ، وسعى حكامها للتوسع غربا . وكان عدد السكان في كندا عند وفاة كولبير ١٠٠٠٠ نسمة . وقد سعى المبشرون الدينيون نحو خليج المكسيك ، الا ان الملك ، كان يركز اهتمامه بخاصة على الميسيسيبي ، كطريق يوصل الى ذهب المكسيك . وقد استطاع (كاثليه دولاسال Cavalier de la Salle) مثلا ، الذي خرج من كندا ، ان يهبط الميسيسيبي حتى دلتاه عام ١٦٨٢ ، واعطى اسم (لويزيانا) للبلاد التي قطعها (نسبة الى الملك لويس الرابع عشر) .

وفي **مدغشقر** لم تنجح عملية الاستيطان ، اذ عمل السكان عام ١٦٧٢ على قتل المستعمرين الذين استقروا فيها منذ عهد ريشليو . وبعد عامين اسس الفرنسيون (بوند يشيري) و (شاندرناغور) في بلاد الهند . وفي **امريكا الوسطى** (الاتيل) تابع الفرنسيون اهتمامهم بـ (المارتينيك) و (الغوادلوب) . واستقر قراصنة فرنسيون في الجزء الغربي من (سان دومنغ) .

وخلاصة القول تبدى الاقتصاد الفرنسي في ايام كولبير ، بواجهة متألفة ، كما تبدى اقتصادا موحها ، بل مسيرا من السلطة الملكية . وفي الواقع ان (الكولبيرتية) هي الصورة الاقتصادية للحكم الاستبدادي المطلق .

ط - السياسة الدينية للملك لويس الرابع عشر :

كان الدين بالنسبة للويس الرابع عشر من شؤون الحكم . او بتعبير آخر طالما انه قد استمد سلطته من الله فتفسير الكنيسة غدا من واجبه . بل انه مال

في اواخر حياته الى الورع والتقى ، تحت تأثير (بوسوه) ، و (مدام دوماتون) ،
التي تزوجها بعد وفاة الملكة في عام ١٦٨٣ ، ومن ثم فهو نادرا ما كان يفصل
بين اهتماماته الدينية ، ومصالحه السياسية .

١ - الملك والبابوية : وقع الملك في خصومة مع البابا لعشرين عاما . فقد طلب
استقلال الملكية تجاه روما ، على صعيد السلطة الزمنية ، كما طالب كذلك بالقبض
على ادارة الكنيسة في فرنسا . وكان يؤيده في مطلبه (الغاليكاني) هذا ، البرلمان
المعادية لتدخلات البابا . الا ان اغلبيّة الاساقفة كانوا ضد اضعاف السلطة
البابوية ، ومن ثم فانهم لم يكونوا الى جانبه .

وقد توترت العلاقات ، عندما تفجرت قضية « الحق الملكي بواردات الكنيسة »
المسمى (ريفال Régale) . وهو حق السلطة الملكية بجني واردات اسقفية
خلال شغورها ، وباجراء تسميات كنسية فيها خلال الوقت نفسه . ولم يكن الملك
ليتمتع بهذا الحق في جميع انحاء المملكة . فجاء لويس الرابع عشر في عام ١٦٧٣ ،
وادعى تعميمه على كل فرنسا ، على الرغم من معارضة البابا . واراد الملك ان
يتخذ موقفا حاسما بدعم (الغاليكانية) أي استقلال الكنيسة الفرنسية عن البابا ،
مستندا الى تأييد الكنيسة الفرنسية . وقام « مجمع من الاساقفة » تحت دفع
« بوسوه » باصدار (اعلان البنود الاربعة) ، الذي يؤكد استقلال الملك على
الصعيد الزمني ، وتفق سلطة المجمع على سلطة البابوات ، وان بدت الناحية
الاخيرة غير واضحة تماما في ذلك الاعلان .

وغضب البابا لهذا الاجراء ، ورفض مباركة الاساقفة الذين عينهم الملك .
وساءت الاحوال في عام ١٦٨٧ ، حتى ان البابا حرم سفير فرنسا في روما . هذا
بينما كانت الجيوش الفرنسية تحتل (افينيون) التابعة للبابا . ولكن لويس
الرابع عشر لم يصمد تجاه البابا ، بل انهى الامر بالغاء الاعلان السابق عام ١٦٩٣ ،
وذلك تحت تأثير الارهاق الذي اصابه من الحرب الخارجية ، وتحت تأثير حياته
التقية جدا ، الجديدة . وبالمقابل اعطاه البابا حق (الريفال) على فرنسا . الا ان
(الغاليكانية) ، أي المطالبة باستقلال الكنيسة الفرنسية ، لم ينته امرها ، بل
ستبقى حتى نهاية القرن التاسع عشر تنوء بثقلها على علاقات فرنسا والبابوية .

٢ - مهاجمة الجانسينية : لقد رأت فرنسا منذ وفاة الملك هنري الرابع
يقظة كاثوليكية ، عملت على تغيير فكر المجتمع الفرنسي ، وموقفه تغيرا عميقا .
فقد تكونت جمعيات دينية جديدة ، سعت لتعليم الشبيبة على المذهب الكاثوليكي ،
هذا بالإضافة الى تعليم رجال الدين الصغار . وقامت في عام ١٦٠٣ « جمعية
التكريس المقدس » بتنظيم الدعاية الكاثوليكية ، وراقبت البروتستانت ، وحاربت
مساويء الاخلاق ، ولا سيما في المدن . وقد كان لها اثرها المحرك ، حتى أن
مازاران منعها في ١٦٦٠ .

وفي هذا الوقت ، كانت ادارة الكنيسة الكاثوليكية قد اصلحت بحسب
مقررات «مجمع ترانت» ، وبعثت حياة الاديرة السابقة ، وتأسست طوائف دينية
تأملية . وقد تميزت في هذه الفترة شخصية (القديس فانسان دوبول) ، وقد سادت
النصف الاول من القرن السابع عشر . وكانت حياته صراعا ضد البؤس ، وجهدا
متواصلا لكثلكة الارياف . وقد سعى لانقاذ الاطفال الذين يهجرهم اهلهم فأسس
لهم ما يأوي اربعة الاف طفل . وحتى يقطع دابر التسول والتشرد اوجد « المستوصف
العام » ، الذي استقبل في السنوات الخمس بعد الفروند ، ما يقارب (٦٠٠٠) متسول
وعلمهم مهنة يعيشون منها .

وهذه النهضة الكاثوليكية تجسدت صافية في جماعة عرفت بالجانسينية
Jansénistes . فهم كانوا يعتنقون عقيدة (القديس اوغسطين) ، كما كتبها
باللاتينية (جانسينيوس Jansénius) (١٥٨٥-١٦٣٨) . وفي هذا الكتاب الذي
نشر عام ١٦٤٠ فقط ، أيد « جانسينيوس » الفكرة القائلة بأن الانسان منذ
الخطيئة الاولى ، غير قادر على ان يصل الى خلاصه وحده . وان الله لا يمنح
مغفرته ، الا لعدد ضئيل من المختارين ، الذين انتقوا مسبقا . وهذه هي « النظرية
الجبرية » التي كانت تتطلب اخلاقا صلبة ، وايمانا عميقا .

وقد مثل الجانسينية في فرنسا ، في بادىء الامر ، الاسقف (سان سيران
S. Cyran) ، الذي سجنه ريشليو عام ١٦٣٨ . وكان رجل الدين الذي تعترف
اليه راهبات (بوررويال) في باريس ، والذي حول (بوررويال) الى مركز للفكر

والاخلاق الجانسينية . ولم تلبث ان انتشرت العقيدة الجديدة بسرعة : ففي عام ١٦٤٣ عرض (انطوان ارنولد) وجهة النظر الجانسينية المعارضة لوجهة النظر اليسوعية . وقام اليسوعيون بالمقابل بالاعلان بأن الجانسينية هي بعث للكالفنية . وشعر الملك بقوة الجانسينية عندما مال اليها رجال الدين في المقاطعات ، ورئيس اساقفة باريس . فطلب الملك من البابا شجبا رسميا لها ، وشن حملة شديدة ضد (بور رويال) . فاغلق الدير ، وطردت قوات الامن الراهبات الاثنتين والعشرين فيه ، وهتكت حرمة المقبرة .

وعاد البابا في ١٧١٣ فشجب مرة اخرى الجانسينية بصك . ولكن رئيس اساقفة باريس رفض استلامه ، وايده البرلمان في ذلك . وفكر لويس الرابع عشر بدعوة مجمع ديني قومي ، ولكنه توفي قبل ان يستطيع القيام بالامر . ومنذ ذلك الوقت تكون حزب جانسيني ، وقف في وجه السلطة الملكية ، وذلك اثناء القرن الثامن عشر كله .

٣ - **لويس الرابع عشر والبروتستانت** : لقد عاش البروتستانتون في فرنسا منذ (منشور آل) عام ١٦٢٩ رعايا موالين مخلصين . وفي الواقع ان امكان قيامهم بثورة عامة غدا صعبا ، فقد فقدوا كل ما يمكن ان يجعلهم دولة ضمن الدولة . لقد كانوا اقلية ، أي حوالي مليون من السكان فقط ، وكانوا مبشرين بين كالفنيين ولوتريين ، وينتمون الى كل الاوساط . ومع انهم لم يحركوا ساكنا اثناء (حروب الفروند) ، ليستعيدوا امتيازاتهم السياسية السابقة ، فان الملك لويس الرابع عشر قرر مهاجمتهم . فقد رأى ان عليه وهو « الملك الكاثوليكي جدا » ان يكون المدافع عن الكاثوليكية ، وكان يعتبرهم رعايا غير صالحين . فهو لا يزال يؤمن بالشعار القديم القائل « عقيدة واحدة وشريعة واحدة » ، وكان يعتقد ان الاختلاف في الدين يشوه الدولة .

ويمكن تقسيم سياسة الملك تجاه البروتستانت الى ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : وتمتد من ١٦٦١-١٦٧٩ ، اكتفى فيها الملك بتطبيق دقيق لمنشور نانت ، وابتعد تدريجيا البروتستانت من مناصب الدولة . وفي الوقت ذاته

سعى لاعادتهم للكاثوليكية ، بطريق الاقناع ، ثم بطريق المال ، حتى انه اوجد صندوقا خاصا لهذا الغرض .

المرحلة الثانية : وتمتد من ١٦٧٩-١٦٨٥ ، وفيها لم يعد الملك يحترم ابدا منشور نانت ، وذلك تحت تأثير « مدام دومانتون » . فالغى المحاكم المشتركة ، وهدم عدة كنائس بروتستانتية ، ومنع البروتستان من الوظائف العامة ، ومن بعض المهن الحرة ، كما حظر الزواج بين الكاثوليك والبروتستانت .

وابتدا على اثر ذلك سياسة العنف . بل ان « لوفوا » استخدم نظاما اطلق عليه (نظام الدراغوناد) ، ويعني اسكان جنود عند جميع العائلات البروتستانتية فكانوا ينهبونهم ، ويسلبونهم ، ويعذبونهم . وعندما كان يقترب هؤلاء الجنود من قرية ما ، فان جميع سكانها كانوا ينقلبون الى الكاثوليكية .

وكان الملك لويس الرابع عشر ، الذي لم يكن يعلم بحقيقة ما يجري ، يسر لانباء تحول البروتستانت للكاثوليكية ، حتى انه اعتقد ان عدد الباقين في المذهب البروتستانت غدا قليلا في مملكته . ولذا فقد رأى ألا فائدة من الابقاء على منشور نانت ، فالغاه في ١٨ تشرين الاول عام ١٦٨٥ .

المرحلة الثالثة : وتمتد بعد عام ١٦٨٥ . وفيها منع البروتستانت من ممارسة دينهم ، واجبر رجال دينهم على الخروج من المملكة الفرنسية . ولقد امتدح معظم الناس الملك لانه ثبت وحدة الدين ، ما عدا بعض الافكار الجريئة من امثال « فوبان » و « سان سيمون »^(١) . وقد فر كثير من البروتستانت (ربما ١٠٠.٠٠٠ او ٢٠٠.٠٠٠) الى الخارج على الرغم من حظر الدولة عليهم هذا الخروج . ولما كان عديد منهم من الصناع ، والبورجوازيين ، فان بعض المهن، والصناعات ، قد اقفرت تماما من اصحابها .

وفي السيقين (شرق الكتلة المركزية في فرنسا) ، قام البروتستانت بثورتهم

(١) لويس سان سيمون (١٦٧٥-١٧٥٥) . اديب فرنسي ، ومؤلفه المشهور هو (مذكرات) ويتحدث فيها عن الاحداث بين ١٦٩١-١٧٢٣ . واكثر ما اهتم به حياة البلاط بكل دقائقها .

عام ١٧٠٢ ، وكانت الحرب المسماة « بحرب اصحاب القمصان Camisards » ، وهي نوع من حرب دينية قادها (جان كافاليه) ودامت ثمانية اعوام على الرغم من القمع القاسي . وقد ارسل الملك لويس الرابع عشر « الماريشال دوفيلار » مع عشرين الفا من الرجال للقضاء عليها . وقد مارس هذا الاخير سياسة حازمة ، إلا انها عادلة ، وحصل على خضوع جان كافاليه . ومنذ ذلك الوقت لم يعد العنف يستخدم ضد البروتستانت . ويمكن القول ان الكنيسة الكالفينية عادت فنظمت نفسها عند وفاة الملك .

ويتبدى مما ذكر عن سياسة لويس الرابع عشر تجاه الجانسينية، والبروتستان انها كانت سياسة مخففة ، اذ جعلت كثيرا من القوى الفكرية معارضة لحكمه . وناقمة عليه .

ى - نهاية حكم لويس الرابع عشر وصعوباته :

لقد تبع الفترة المجيدة من حكم لويس الرابع عشر (١٦٦١-١٦٨٥) ، وهي التي تحتوي المرحلة الاولى من حكمه الفعلي ، مرحلة صعوبات ناتجة من الحروب . والضائقة المالية (١٦٨٥-١٧١٥) .

فعلى الرغم من تدخل الدولة في الاقتصاد ، فانها كانت في ازمة اقتصادية خانقة ، اذ ان المواسم الزراعية السيئة ، والابوة المنتشرة ، اثقلت كاهل فلاحى اوربا الغربية كلها . ومرتين عرفت البلاد مجاعات مروعة ، وذلك في عام ١٦٩٣ - ١٦٩٤ ، وفي عام ١٧٠٩-١٧١٠ على اثر « الشتاء الكبير » . هذا من ناحية ، ومن ناحية اخرى ، فقد اعاقت الحرب ، التجارة البحرية ، وعانت شركات التجارة صعوبات جمّة .

وحتى قبل موت كولبير في ١٦٨٣ ، فان العجز في الاموال الملكية كان واضحا ، بسبب بناء قصر فرساي ، والحروب المتواصلة ، والمرتبات الكبيرة ، التي خص بها المقربون من الملك . ولذا فقد اضطرت الدولة للجوء الى الامور غير العادية ، « او غير المشروعة » : كتخفيض قيمة النقد ، والقروض الالزامية ، واليانصيب ، وانشاء مناصب جديدة لا فائدة منها .

ولما كانت هذه الاجراءات غير كافية لملء الخزينة ، فانه فكر في ايجاد (ضرائب جديدة) ، ومنها (ضريبة العشر) ، التي وضعت عام ١٧١٠ ، اثناء «حرب الوراثة الاسبانية» وتمثل عشر واردات كل فرد ١٠ (ضريبة الرأس) ، التي وضعت عام ١٦٩٥ ، اثناء حرب عصبة (اوغسبورغ) ، وكانت تؤخذ على الرأس . الا ان هاتين الضريبتين وقعتا مرة اخرى على كاهل الفلاحين ، اذ ان الوسيلة الوحيدة للحصول على المال، دون ارهاق الفلاحين، كان بجعل اصحاب الامتيازات يدفعون ، وهذا ما اقترحه فوبان عام ١٧٠٧ في كتابه « مشروع عشر ملكي » ، الا انه كان من غير الممكن تطبيقه ، ولقد اشرنا سابقا الى ما كان قد اصاب فوبان من اقتراحه هذا .

ان جميع تلك الصعوبات قد اثارت رد فعل ضد الحكم المطلق ، لا عند الروتسنتان فحسب ، الذين كانوا يهاجمون الملكية المطلقة ، وانما عند الكاثوليك ايضا ، من امثال « فينلون » معلم (دوق بورغونيا) ، الذي نقد في كتابه «تليماك» بشكل صريح ومفتوح السياسة الملكية ، ومن امثال بعض النبلاء ، الذين وضعوا مخططات للإصلاح ، تهدف لالغاء المراقبين ، والوزراء ، واعادة السلطة لكبار الاقطاعيين ، ومن هؤلاء (سان سيمون) .

وقد بدا الملك في اواخر حكمه غير شاعر بهذه التحركات ولا بالبؤس المنتشر . ولقد رنا على سنواته الاخيرة حزن عميق ، بسبب الوفيات التي اصابته في اسرته: فقد توفي ابنه ولي العهد ، عام ١٧١١ ، وبعده بعام ، دوق بورغونيا وزوجه، واولاده الصغار . وفي عام ١٧١٤ توفي حفيده .

وعندما توفي الملك نفسه عام ١٧١٥ ، فان موته لم يثر ألما في نفس الشعب ، وانما ارتياحا ، وكان كابوسا قد ازيح عن صدر البلاد .

ك - حضارة قرن لويس الرابع عشر في فرنسا :

الايوضاع الاجتماعية : بقي المجتمع الفرنسي في القرن السابع عشر متأثرا بتأثرا عميقا بالمسيحية ، وفي الوقت ذاته بقي قائما على اللامساواة :

فرجال الدين ، والنبلاء ، يشكلان طبقتين متميزتين ، فهم لا يدفعون ضريبة الدخل مثلا ، بينما الطبقة الثالثة ، لا تتمتع باي امتياز ، هذا علما بان كبار رجال الدين وحدهم ، هم الذين يدخلون ضمن الطبقة العليا من النبلاء ، بينما صغار رجال الدين ، ينعتفون نحو الطبقة الثالثة ويتعاطفون معها .

اولا - عالم الريف : وفي الواقع كان « عالم الريف » يفوق بقية المجتمع بعدده ، اذ يشكل اربعة اخماس الفرنسيين ، الا انه لا يلعب سياسيا أي دور . وفي عالم الريف هذا ، يمكن التمييز بين الفئات التالية :

١ - الفلاحون : وهؤلاء كانوا دوما على ابواب المجاعة ، لان الزراعة كانت تنصف آنذاك بالانحطاط والركود . فالادوات المستخدمة فيها هي ذاتها الخشبية القديمة ، واستخدام السماد ضئيل ، لقلة الحيوانات ، والطرق متخلقة (ومنها طريقة اراحة الارض) ، وكلها تهدف لانتاج القمح ، أو أي حبوب تصلح لصنع الخبز ، وانواع الحساء . واذا كانت زراعة (الدرة) قد بدأت في بعض الاجزاء ، وكذلك (البطاطا) (في الالزاس) ، فهي لا تزال محصورة في مناطق محدودة وصغيرة . واذا كانت فرنسا متقدمة زراعيًا على اوروبا الوسطى ، فانها كانت متأخرة عن انكلترا والمقاطعات المتحدة . ويضاف الى الاعمال الزراعية للفلاح ، بعض العمل الحرفي ، كالغزل على المغزل ، والنسيج . وكان اذا ما اتى صيف غير ماطر ، فهذا يعني المجاعة ، ويصبح الاتصال بين المناطق بطيئا وصعبا ، بسبب انخفاض الماء في الانهار ، لانها كانت هي طرق المواصلات . أما في الشتاء فالطرق البرية موحلة وصعبة السلوك . وكان من الضروري اصلاح الطرقات قبل اية رحلة يقوم بها الملك ، ناهيك عن ارتفاع سعر المواصلات .

وكان يرى في الريف نماذج مختلفة من المناظر فهناك حقول مفتوحة واسعة مع قرى كبيرة وهناك حقول مسيجة مع مزارع ميسرة . والفلاحون فئات : فمنهم الماجورون ، الذين يستخدمون في مواسم الحصاد ، أو قطف الثمر ، وهم يعيشون في دين دائم . والمزارعون وقد يكونون ملاكين ، أو اصحاب

مزارع ، أو عاملين على الارض مقابل جزء من محصولها ، ولديهم محراث ، وحيوانات جر . وبعضهم قد يستدين اذا كان الموسم سيئا ، أو الضرائب ثقيلة جدا . وكانوا يدفعون ضرائب للملك (الدخل ، الرسوم على المشروبات ، وضريبة الملح) ، وللسيد الاقطاعي ، ولرجال الدين (ضريبة العشر) . وكان اكثرهم ثراء اداة طيعة في يد السيد الاقطاعي ، وهو الذي يقوم بجباية الرسوم له من بقية الفلاحين . وكان كل الفلاحين اناسا ، لم يصقلهم لين المدنية . وكانت تحركهم عقيدة دينية راسخة . واذا ما كانت هناك ازمة اقتصادية ، فان عددا من المتسولين ، والجنود العاطلين ، كانوا يجوبون الريف ، ويضيفون الخوف من قطاع الطرق ، الى الجوع ، والابوثة ، التي كان يعانيها الفلاحون .

٢ - **النبلاء في الريف :** لقد افتقروا نتيجة الحروب الدينية ، والازمة الاقتصادية ايام لويس الرابع عشر . ولذا فقد تركوا قسما من اراضيهم دون استثمار ، وباعوا جزءا آخر الى البورجوازيين . ولم يكونوا مثقفين ثقافة رفيعة ، فظلوا يحتفظون بعقليتهم البورجوازية ويزعجهم كل جديد ، ولاسيما المراقبين الذين ارسلتهم الدولة .

٣ - **رجال الدين في الريف :** وكان لهم تأثير كبير على رعاياهم ، وقد كان راعي الكنيسة يعيش في بعبوحة بالنسبة للقس الصغير . وفي الواقع ، لقد كانت القرية تعيش تحت توجيه راعي الكنيسة (القس) ، فهو الذي يمسك بالسجل المدني ، وينظم التعليم الاولي ، ويوزع الاعانات وقت المجاعة والابوثة ، ويحصل (العشر) على المحصول .

ثانيا - الحياة في المدن وتطورها : لقد كان التطور في حياة المدن بطيئا ، وتزايد عدد السكان فيها قليلا . فخلال القرن السابع عشر كان هناك ٥٠-٦٠ مدينة فقط ، يتراوح سكانها بين ١٠ر٠٠٠ - ٨٠ر٠٠٠ ، اما باريس فقد بلغ عدد سكانها ٤٠٠ر٠٠٠ نسمة . وكانت كل مدينة تمثل عالما صغيرا ، يعيش في جمل الاسوار ، وما وراءها تمتد الضواحي . والصفة المميزة لسكان المدن ، انهم جميعا ، يدخلون ضمن (جماعات) . فالحرف منتظمة غالبا في (نقابات) ، مترابطة فيما بينها ، ضمن جمعيات متعاونة ، وتحركها روح دينية ، أي منتظمة

ضمن « اخوات » . ان نصف سكان المدن كان من (العاملين الصغار) ، وكانت الاسرة تتكسب في غرفة ، أو اثنتين ، مع بعض الاثاث ، وهي غارقة في الديون . وكان هؤلاء (العاملون الصغار) ، لا تتاح لهم فرصة العمل الدائم . فقد كانوا يشتغلون بمعدل يومين من ثلاثة ، ونادرا ما يأكلون كفاية جوعهم . حتى ولو كانت نساؤهم واولادهم من العاملين . ومن ثم فانهم كانوا على استعداد للثورة بمجرد الاعلان عن ضريبة جديدة ، ويكونون فئة سكانية مضطربة دائما ، وغير مستقرة .

والى جانب (العاملين الصغار) في المدن هناك **الطبقة الوسطى** من اصحاب الحوانيت والحرفيين الصغار ، والاطباء ، والصيادلة ، ورجال الدين المنبثقين عن هذه الطبقة) . وهذه الطبقة كانت احسن حالا ، واكثر استقرارا . وتعرف القراءه والكتابة .

لقد كان يسود المدينة ويديرها **البورجوازية العليا** وتضم **التجار والصناع** واصحاب **الدخول الكبيرة** ، والمناصب العالية . وهؤلاء لهم ثقافتهم الواسعة . وقد يكونون من المحسنين لواضع ديني في نفوسهم ، الا انهم يحتقرون الشعب . الذي يخافون « اهواءه » . واغنى هؤلاء هم **اصحاب المال** الذين يقرضون الملك ، ويمونون الجيش ويستوردون المواد الغذائية في حالة المجاعات ، ويحتكرونها . ويكونون ثروات خيالية . وهؤلاء كانوا محترقين ، الا ان المجموع يتملقهم . وفي المدن التي لها (بارلمانات) ، فان « **نبلاء الثوب** » كانوا يشغلون اعلى السلم الاجتماعي ، وكانوا يعيشون حياة اكثر صرامة ، وترفا ، من حياة نبالة البلاط . وقد احتفظوا بروح (طبقة خاصة) ، دعست ذاتها ، بتزاوج بين بعضها بعضا ، ولا سيما بين اسر القضاة . وكان لها مطامع سياسية . الا ان هذه الطبقة كبحت جماح مطالبها ، اذ ان الملك لم يترك لها فرصة التعبير عن ذلك . ولكنها ستعمل عبر « البارلمانات » التي سادتها ، لابداء معارضتها ، وبصفة خاصة بعد ان ضعفت السلطة الملكية في القرن الثامن عشر .

كبار النبلاء والبلاط : وليعطي الملك لويس الرابع عشر القا اكبر لحكمه ،

وليخضع هؤلاء النبلاء الذين اقلقت مؤامراتهم طفولته ، فقد جمع حوله وحول الملكة ، والامراء الكبار ، عددا كبيرا من نبلاء السيف ، وكبار رجال الدين . وكان يسيطر اقطاعات هؤلاء ، مشرف ، يعمل دائما على نههم ، وهم يقيمون في باريس ، أو في الاقاليم . ولما كان من الصعب على كثير منهم ان يتابعوا حياة الترف والفخفة ، التي فرضها الملك في بلاطه ، فانهم كانوا سعدا جدا ، اذا ما زوجوا ابناءهم من بورجوازيات غنيات ، واستفادوا بخاصة من المعاشات التي يوزعها الملك على المقربين منه .

واعتبارا من عام ١٦٨٢ ثبت البلاط في اطاره الفخم في قصر (فرساي) ، الذي عمل في عمارته ، المهندس (لوڤو Le vau) و (هاردوان مانسار H. Mansart) ، وخطط حدائقه (لونوتر Le Nôtre) ، تلك الحدائق الجميلة بنفوراتها المائية ، واحواضها ، واشجارها ، وزهورها . أما الذي اشرف على التزيين الداخلي للقصر ، فكان (لوبران Le Brun) . ففي هذا القفص الذهبي الجميل ، عاش لويس الرابع عشر مع نبلائه ، تلك الحياة اللاهية المملوءة بالاحتفالات ، والحافلة بالمؤامرات ، والتي وضع فيها كبار النبلاء تحت ابطه ، وروضهم حتى يكونوا دائما تحت امرته .

لويس الرابع عشر والحياة الثقافية :

لم يرد لويس الرابع عشر ان يسود اوربا بقوة السلاح ، ومجده ، فحسب وانما يبريق الحضارة الفرنسية ولائها . ومثلما كان حاكما مطلقا في الميادين التي اشرنا اليها سابقا ، فانه كان كذلك في مجال الآداب والفنون . وقد عمل الملك على اغداق هداياه ، وكرمه ، على الشعراء ، والفنانين . وشجع كولبير الفنون الجميلة ، ونظمها ، وانشأ الاكاديميات . وهكذا ازدهرت ، حوالي منتصف الفنون الجميلة ، وللويس الرابع عشر ، (الحركة الكلاسيكية) ، التي كان تتاجها الحكم الشخصي للويس الرابع عشر ، وفي الواقع ، من الخطأ أن ينسب نمو هذا التيار الى منارة مشعة على كل اوربا . هي مرحلة نضج لحركة كانت تنمو منذ القرن السادس عشر ، لان (الكلاسيكية) هي مرحلة نضج لحركة كانت تنمو منذ القرن السادس عشر ، عندما عاد الادباء ، والفنانون ، الى تقليد النماذج الادبية والفنية من

العصور القديمة • فقد انبثق من تلك الحركة ، مذهب يخضع الخيال للعقل ، ويتخذ مثلاً أعلى ، الجمال المتسق ، والمنسجم ، الصالح لكل زمان ولكل مكان .
فقواعد الكلاسيكية — — كما ذكرنا سابقاً — هي التوازن ، والجدية ، والقياس ، وهي التي فرضها الفنانون ، والادباء على انفسهم •

وقد شغل « الانسان » ، وهو اكرم مخلوقات الله لاتصافه بالعقل ، الادب الفرنسي كله في هذه المرحلة ، وخضع هذا الادب لقواعد عرضها (بوالو) (١٦٣٦-١٧١١) في كتابه « الفن الشعري » • ودرس الشاعر (راسين Racine) (١٦٣٩-١٦٩٩) في مسرحياته المساوية ، و (مولير) (١٦٢٢-١٦٧٣) في مسرحياته الهزلية الساخرة ، اهواء الانسان ، وبحثا عما فيها من عام وشامل • وكان (لافوتتين) (١٦٢١-١٦٩٥) ، و (لاروشفوكو) (١٦١٢-١٦٨٠) و (لابرور) (١٦٤٥-١٦٩٦) ، من الادباء الاخلاقيين • وصورت (مدام دوسيفينييه Mme de Sévigné) (١٦٢٦-١٦٩٦) في رسائلها ، مجتمع النبلاء والبلاط • وان الاهمية الكبيرة التي اعطيت للقضايا الدينية ، تفسر التأثير الذي مارسه (بوسوه) (١٦٢٧-١٧٠٤) الواعظ ، والفقيه في اللاهوت ، والمؤرخ •

وفي الفن ، ظهر (شارل لوبران) (١٦١٩-١٦٩٠) ، الذي كان في ميده ، كما كان (بوالو) في ميدان الادب ، اذ ثبت له قواعد • وهو الذي زين (قصر فرساي) ، بتلك الطنافس الفخمة ، التي وضع رسوماتها •

ان فن العمارة الفرنسي هو الذي رفع اسم الفن الفرنسي عاليا : كاستخدام الاعمدة فيه ، والافاريز في الواجهة على الاسلوب القديم ، والبحث عن العظمة والانسجام • ويلاحظ هذا بخاصة في « واجهة الاعمدة في اللوفر » ، وفي « كنيسة المحاريب القدماء » (الانفاليد) وفي « قصر فرساي » •

وفي الموسيقى نبغ (لولي Lully) (١٦٣٢-١٦٨٧) ، الذي بفضل حظوته لدى الملك ، لعب الدور نفسه الذي لعبه (لوبران) • وقد جعل من (مسرح الاوبرا) — وهو نوع ادخل من ايطاليا — اول مسرح في اوربا •

الا ان اواخر القرن السابع عشر كانت افولاً للكلاسيكية : فين (١٦٩٠-١٦٩٩)

توفي لوبران ، ولافوتتين ، ولابروير ، ومدام دوسيفنيه ، واتى جيل جديد رفع
لواء الثورة على الكلاسيكية .

ثانيا - المقاطعات المتحدة في القرن السابع عشر

من الدول التي برزت قوية في القرن السابع عشر دولة « المقاطعات المتحدة » .
وقد كانت في نشأتها الاولى سبع مقاطعات ، مستقلة واحدها عن الاخرى ، ولكل
واحدة حكومتها الخاصة . وقد تجمعت تلك المقاطعات ، في نهاية القرن السادس
عشر ، لتدافع عن نفسها ضد ملك اسبانيا . وعندما تحررت فانها كونت (جمهورية) ،
واوجدت مؤسسات مشتركة ، تقوم على ادارتها وتوجيهها .

وقد كانت دولة تبلغ مساحتها (٢٥٠٠٠ كم^٢) ، وعدد سكانها في مطلع القرن
السابع عشر ، مليوناً ونصف ، الا انه غدا في منتصف القرن السابع عشر (١٦٥٠)
حوالي (١٨٥٠٠٠٠) نسمة .

وكانت هذه المقاطعات تحكم من قبل « جمعية عمومية » تضم مندوبين
عن المقاطعات السبع . وكان لا يمكنها ان تتخذ قرارات ، الا اذا كان جميع النواب
متفقين . وتجتمع في العاصمة (لاهاي) أو (لاهاغ) كما ينطقها سكان البلاد .
وفي الواقع ، كان لكل مقاطعة مجلسها ، ورئيسها ، المسمى (صاحب المعاش
le Pensionnaire) ، (وسمي كذلك لانه كان يتقاضى اجرا او معاشا)
وحاكمها أو ال (شتيها ودر Stathouder) ، وكان قائدا للجيش ،

ويعين من بين النبلاء . وكانت (هولاندة) هي المقاطعة السائدة في الجمعية العمومية ،
لأنها اغنى المقاطعات ، واكثرها سكانا ، وتضم اكبر المدن النشيطة ، مثل ميناء
« امستردام » ، و « روتردام » ، والعاصمة « لاهاي » . وتدفع نصف النفقات
المشتركة ، وتقدم اكبر قسم من الاسطول ، وتعتمد على الصيد ، والتجارة .
وكان رئيس « المقاطعات المتحدة » هو رئيس هولاندة ، ويدعى « بصاحب المعاش
الكبير Le Grand Pensionnaire » ، كما كان « الحاكم العام » لمجموع المقاطعات
هو حاكمها . وكان يؤخذ دائما من اسرة (اورانج - ناساو) ، وهي اسرة (ويليام

الهاديء) ، بطل الاستقلال • ولقد نجح بعض افراد هذه الاسرة في الوصول الى منصب (الحاكم) في بعض المقاطعات ، وغدوا في الوقت ذاته رؤساء للجيش ، والبحرية • وكانت هناك شكوك في اذهان النبلاء ، من أن « الحاكم العام » يسمى لاقامة « ملكية وراثية » لصالحه • وكان (الحاكم العام) هو القائد العام للجيش ، والاميرال العام للأسطول •

وعلى الرغم من اتحاد تلك المقاطعات مع بعضها ، فإن الانقسامات الداخلية كانت قائمة بين سكانها • ففيها من الوجهة الدينية ، عناصر كاثوليكية ، واخرى يهودية ، الا ان ثلاثة ارباع السكان من البروتستانت • وكان هؤلاء الاخرون غير متفقين فيما بينهم ، فمنهم المتشددون ومنهم المعتدلون •

وبالاضافة الى تلك الانقسامات الدينية كانت هناك الانقسامات السياسية : فقد كان يشق البلاد حزبان متعارضان ، فمن جهة هناك (انصار آل اورانج) ، ونزعتهم مركزية ، ويؤيدون (الحاكم العام) ، وينتشرون بخاصة في الجيش ، وبين طبقة النبلاء ، وضمن الشعب نفسه المعادي للطبقة البورجوازية • وكان يعيش معظم هؤلاء من الزراعة ، وتربية المواشي • وكانوا يدفعون نحو الحرب ، التي تساعد (الحاكم العام) ، على دعم سلطته على المقاطعات • ومن الطرف الآخر ، هناك (الجمهوريون) ، المؤيدون للرئيس العام (صاحب المعاش الكبير) ، وهم البورجوازيون ، والتجار ، واصحاب السفن • وهؤلاء كانوا يريدون السلام الضروري للازدهار الاقتصادي ، ويؤيدون فكرة احتفاظ كل مقاطعة باستقلال ذاتي كبير •

وبعد انتهاء « حرب المقاطعات المتحدة » مع اسبانيا عام ١٦٤٨ ، وزوال الخطر ، فقدت (اسرة اورانج) فجأة السلطة • فان « الحزب الجمهوري » نشط ، وانتخب (جان دوويت J. De Witt) عام (١٦٥٣) رئيسا للمقاطعات المتحدة ، والفي منصب الحاكم العام وحكم (جان دوويت) البلاد حتى عام (١٦٧٢) حكما رصينا ، وعرفت المقاطعات المتحدة في عهده اوج ازدهارها ورخائها الاقتصادي • الا انه عندما عاد الخطر الخارجي يهددها ، وهاجمها لويس الرابع عشر عام

١٦٧٢ ، فقد حدث انتفاضة شعبية ، اجبرت (الجمعية العمومية) على تسمية « ويليام الثالث » من اسرة اورانج (حاكما عاما) . وكانت لغضبة الشعب كبيرة لدرجة انها قتلت (دوويت) ، وجرت جثته في الطرقات .

وبذلك عاد لآل اورانج نفوذهم وسيطرتهم ، ولا سيما عندما جابه (ويليام الثالث) الملك لويس الرابع عشر من (١٦٧٢-١٧٠٢) . ورفع من شأنه ، صعوده على عرش انكلترا عام ١٦٨٩ مع زوجته ابنة ملك انكلترا . الا ان هذا الامر ، اجبره على ان يترك السلطة الحقيقية « لرئيس المقاطعات المتحدة » ، وكان آنذاك « هاينسيوس Heinsius » .

وبوصول آل اورانج الى السلطة ثانية ، تكون السلطة السياسية للبورجوازية الهولندية قد تضعضعت ، ومعها الرخاء الاقتصادي للمقاطعات المتحدة ، واخذت انكلترا حليفها الجديدة تبرز محلها .

حضارة المقاطعات المتحدة في القرن السابع عشر :

ان القرن السابع عشر زاخر بالمشروعات ، والنشاطات الابداعية ، لسكان اراضي « المقاطعات المتحدة » . فقد كانت هذه البلاد القوة الاقتصادية الاولى في العالم آنذاك ، مع ان الشروط الطبيعية لم تكن ملائمة ابدا لذلك النشاط : فاراضيها يفرقها البحر ، ولذا فان سكانها بجهد عدة قرون استطاعوا ان يكسبوا ارضا من البحر . وكان شعار « الاسد الزيلاندي » ، « اكافح وابرز من البحر » . وقد بنوا لهذه الغاية السدود ، وجففوا المستنقعات (Polders) واوجدوا ارضا صالحة للزراعة محلها ، ومكان المياه المالحة الراكدة . وقد ازدهرت الزراعة على هذه الارض المستصلحة ، وغدت هونده شهيرة بخضرها ، واجبانها ، وازهارها . ولاسيما (التوليب) ، التي كانت ابصاله تباع بأسعار خيالية . وبالإضافة الى هذا المورد الاقتصادي ، فان الهولانديين كانوا يعملون بصيد الاسماك في المياه الباردة لبحر الشمال ، وكون هذا مصدرا اساسيا من مصادر رخاء مدينة (امستردام) .

واذا كانت الزراعة قد نشطت في القرن السابع عشر ، فان الصناعة هي

الآخري قد استفادت من المعارف التقنية ، للعمال اللاجئين ، من مدن (بروج) ،
(غاند) • وغدت (اوترخت) ، و (هارلم) ، و (لايدن) ، تصنع الاقمشة
المتنوعة ، مثل ، المخمل ، والاجواخ ، والاقطان • واشتهرت (ديلفت Delft)
بخزفها ، الذي قلدت به الخزف الصيني • وكان لامستردام مصانمها للتبغ
وتكرير السكر ، وصناعة الماس •

ان ثروة هولاندة الكبرى ، كانت في الحقيقة التجارة البحرية العالية •
فقد عرف عن الهولانديين انهم « قادة البحار » وكانوا يمتلكون (١٠٠٠٠٠) سفينة
يسيرها (١٦٨٠٠٠) بحار ، أي اكثر من اسبانيا ، وانكلترا ، وفرنسا مجتمعة •
ولقد استفادت (امستردام) من انحطاط مدينة (انفرس) ، التي نهبا الاسبان ،
وحرمت من مصبها على البحر • أما البرتغال ، وهي دولة بحرية ناشطة في القرن
السادس عشر ، فانها لم تعد منافسا خطرا • وعمل الهولانديون على الدفاع عن
حرية البحار بمسلكتهم ، وبكتاباتهم •

وقد انشأ الهولانديون مراكز تجارية لهم على كل شواطئ العالم • واقاموا
في المستعمرات البرتغالية القديمة ، فأنشؤوا في الكاب (جنوبي افريقيا) مستعمرة
هي اصل اتحاد جنوبي افريقيا الحالي ، وبذلك قبضوا على ناصية طريق الهند •
وفي امريكا الشمالية اسسوا (امستردام الجديدة) ، التي اخذها الانكليز منهم
عام ١٦٦٤ ، واسموها (نيويورك) • واستقروا في الاتيل (كوراشاو) ، وفي
(غويانا) (سورينام) • وقد امتد نشاطهم حتى (جاوا) حيث اسسوا باتافيا
(اليوم جاكارتا) التي غدت عاصمة الهند الهولاندية • واستقروا في (سيلان)
و (مالاكا) ، وتاجروا حتى مع الصين ، واليابان •

ولم تكن تلك التجارة لتجري عشوائيا ، وانما عملوا على تنظيمها عن طريق
(الشركات الكبيرة) مثل : « شركة بلاد الهند الشرقية » التي أسست عام ١٦٠٢
وكان لها احكار التجارة من افريقيا الجنوبية الى جنوب امريكا ، و « شركة بلاد
الهند الغربية » التي أسست عام ١٦٢١ للتجارة بعبيد افريقيا ، وسكر جزر الاتيل
واخيرا « شركة الشمال » و « شركة الليفانت او الشرق » • وكان لهذه الشركات

الحق في التفاوض مع السكان الاصليين ، وفي بناء الحصون ، وتسمية الحكام في المستعمرات .

وكانت القدرة المالية تتركز في جزئها الاكبر على « مصرف امستردام » الذي اسس عام ١٦٠٩ ، والذي كان تحت تصرفه اكبر كمية من المعادن الثمينة في العالم . وكان التجار يودعون فيه رؤوس اموالهم ، ويحصلون منه على قروض لمشروعاتهم . وبذلك اصبحت « امستردام » ، وهي « بنديقة الشمال » ، سيدة كل الاماكن التجارية الاوربية الاخرى .

الحياة الفكرية والفنية المتألقة : لقد عرفت « المقاطعات المتحدة » في القرن السابع عشر تألقا في الميدان الثقافي . فغناها الاقتصادي، والسمات الخاصة للمجتمع الهولاندي ساعدا على تفتح الاشكال الجديدة للحضارة . ومن هذه المظاهر

الحضارية نشاط فكري : اذ كانت « المقاطعات المتحدة » في الواقع ، ملجأ لاولئك الذين يبحثون عن اجواء الفكر الحر . فبعد جو التزمّت الديني ، المملوء بالاحقاد الذي سادها من (١٦١١-١٦١٩) ، وكانت فيه البلاد على شفا حرب اهلية ، فان البورجوازيين الكبار دعموا سياسة (التسامح الديني) ، التي كانت مختلف المذاهب الدينية بحاجة لها . وقد تمتع بها الجميع حتى اليهود ، الذين رفع عنهم الاضطهاد السابق . ويمكن ان يعزى تسامحهم ذاك ، لرغبة منهم في السلام ، وفي تنمية اقتصادهم ، ولان ضرورات التجارة قد وضعتهم بتماس مع اوساط متنوعة جدا ، وبذلك خففت من غلوّاتهم الديني . وهكذا فان العقول الحرة الاوربية ، وجدت في (المقاطعات المتحدة) ركنها المفضل ، وبخاصة (ديكارت) الذي اقام فسي (لايدن) عشرين عاما . وفي هولاندة نشرت الكتب ، التي لم يكن مستطاعا نشرها في فرنسا ، بسبب المراقبة . بل ان الفيلسوف (سبينوزا) ، وهو لاجيء برتغالي الى امستردام (١٦٣٢-١٦٧٧) ، قدم في كتابه (اللاهوت الادبي Ethique) ، فلسفة عقلية من اجراء ما عرف في ذلك العصر ، وقد شجعت الحرية الفكرية على البحث العلمي : فالهولانديون استخدموا الميكروسكوب استخداما دقيقا . وبنح (هويغنز Huyghens) (١٦٢٩-١٦٩٥) الذي كان اكبر فيزيائي في عصره ، ودرس القوة النابذة للكواكب السيارة .

ومثلما نشط العلم نشطت الصحافة ، وكانت تطبع الصحف ، بصفة خاصة باللغة الفرنسية ، وتقرأ في جميع انحاء اوربا .

٢ - ازدهار فن الرسم : وهذا ما اعطى لهولاندة شهرتها في القرن السابع عشر، فالبورجوازيون كانوا يطلبون لوحات من الفنانين تعالج موضوعات محسوسة ومناظر عائلية ، وصور اشخاص ، ونماذج من الحياة اليومية ، ولهذا السبب انعطف فن الرسم نحو موضوعات ، من السهل فهمها وتعرفها ، لا نحو مركبات فنية واسعة ، دينية ، او اسطورية . وقد ساد هذا الفن في هذه المرحلة ثلاثة اسماء كبيرة : اولها (رامبرانت Rembrandt) (١٦٠٦-١٦٦٩) . وكانت رسومه كلها واقع ، ورصانة ، وقوة مثيرة . لقد استخدم جوا معتما ، ينبثق منه نور مشع، يعطي لرسومه حيوية فائضة . فقد كان له قدرة عجيبة على استعمال تقنية الاضاءة الباهتة ، التي تشبه النور الشاحب في هولاندة نفسها ، ومن اشهر لوحاته (نقابة صانعي الجوخ) . أما الاسم الثاني فكان (فرانز هالز) (١٥٨٤-١٦٦٦) ، ومن لوحاته صورة للفيلسوف (ديكارت) ، ولوحة (مأدبة ضباط جماعة سان ادريان) ، وهي جماعة هولاندية من المحاربين الاثرياء ، كانوا يقيمون كل عام مأدبة يشترك فيها كل الاعضاء . والاسم الثالث هو (فيرمير Vermeer) (١٦٣٢-١٦٧٥) ، الذي اغرق رسومه في نور مخملي ، واشهر لوحاته « السيدة ذات الثوب الازرق » .

ولكن مثلما مالت القوة السياسية والتجارية للمقاطعات المتحدة نحو انحدار في القرن السابع عشر ، فان مدرسة الرسم الهولاندية اصبحت بالضعف في الوقت نفسه ، وفقدت ألقها .

ثالثا - انكلترة في القرن السابع عشر

٢ - سير انكلترة نحو الحكم المطلق في ظل آل ستيوارت :

لقد توفيت (الملكة اليزابيث) عام ١٦٠٣ دون وريث مباشر ، فانتقل العرش الى ملك ايقوسيا (جيمس السادس) ، ابن (ماري ستيوارت) ، الذي اتخذ اسم

(جيمس الاول) ملك انكلترة (١٦٠٣-١٦٢٥) . وكان ملكا مثقفا جدا ، ولكنه كان قبيح الصورة ، وسكيرا ، ومهمل الهندام . ولا هبة له في نفوس الانكليز : فهو غريب عنهم ، في عرفهم ، ولا يعرف الكثير عن بلادهم . وتبعه على العرش ابنه (شارل الاول) (١٦٢٥-١٦٤٩) ، وكان رقيق الحاشية ، ضعيف الطباع كأبيه ، وقد اسلم الحكم لمستشاريه . وكان هم الملكين ان يفرضا على انكلترة الملكية المطلقة القائلة بالحق الالهي المقدس . وقد اساءا التصرف ، عندما اختار الاثنان مستشارين لا يحبهم الشعب ، من امثال : « باكينغهام Buckingham » الذي اثارت نفقاته الجنونية الرأي العام . و « سترافورد Strafford » ، و « لود laud » . رئيس اساقفة كاتبريري . وليثبت الملكان سلطتهما ، فانهما دخلا في صراع مع شعبهما على الصعيد الديني ، والاقتصادي ، والسياسي .

الصعيد الديني : لقد دعم الملكان « الكنيسة الانغليكانية » ، ورأيا ، أن تعود الناس على الطاعة للاساقفة ، يقودهم بالتالي الى إطاعة ملوكهم . فقد كان (جيمس الاول) يقول : « حيث لا اساقفة ، لا ملك » . ولقد وافق (شارل الاول) رئيس اساقفة كاتبريري (ويليام لود) ، على دعم الامور المتشابهة بين العبادة الانغليكانية ، والعبادة الكاثوليكية ، وتوسيعها . ولذا فانه اضطهد « البوريتان Puritains » . أو « الانقياء » وهم من البروتستانت ، الذين قيدوا انفسهم باخلاق صارمة ، وبتفسير حرفي ، ودقيق للكتاب المقدس . وكانوا يريدون (دينا دون اسقف واحتفالات) ، وانما يصلي كل واحد لربه على طريقته . وقد سجن هؤلاء « البوريتان » وجلدوا ، وفضل كثير منهم الفرار من انكلترة ، من امثال « حجاج زهرة مايو Mayflower » (اذ ركبوا السفينة المسماة ، بذلك الاسم) ، الذين هاجروا الى امريكا ، حيث أسسوا اول مستعمرة انكليزية فيها عام ١٦٢٠ ، وهي مستعمرة (ماساشوستس) . كما هاجر بعضهم الآخر الى « جمهورية المقاطعات المتحدة » . ولم يكن الكاثوليك راضين عن الحكم أيضا ، فقد اضطهدوا ، ولا سيما بعد ان حاولوا في (مؤامرة البارود) عام ١٦٠٥ ان يقضوا على البارلمان ، والملك .

وعلى الصعيد الاقتصادي : لم يعمل الملكان على حماية مصالح رعاياهما :

فقد سمحاً للهولانديين بطرد الانكليز من تجارة التوابل ، في الشرق • وللحصول على المال ، ضاعفا « الرسوم الجمركية » ، « والاحتكارات » التي اربكت التجارة • فقد اعطيت شركات التجارة للمقربين منهم ، وحرم منها التجار ، وقبضوا على الصناعة واسعارها ، وارسلوا ببعثات للريف لمراقبة النبلاء ، الذين عملوا على انشاء الاسوار حول مزارعهم الواسعة • وهذا يعني في الواقع افقار المزارعين الصغار الذين لم يعد امامهم من مصدر للرزق ، ولذا هاجروا بحثا عن العمل الى المدن • اذ ان كبار الملاكين الانكليز ، ضموا الى اراضيهم اثناء التسوير ، المراعي المشتركة • وبذلك اثار المملكان غضب التجار ، والصناع ، الذين اغتنوا من نمو الصناعة والتجارة ، وكذلك نبلاء الارياف • ويلاحظ أن أكثر الاوساط تضررا كان ، على الغالب ، « البوريتان » • وبذلك تجمعت المصالح الدينية ، والمادية ، لتولد النقمة ضد الحكم الملكي •

ب - الثورة الانكليزية والقضاء على الحكم الملكي (١٦٤٠-١٦٤٠)

وعلى الصعيد السياسي : ان صغار النبلاء في الريف ، وكبار التجار في الموانئ (ومعظمهم من البوريتان) ، كانوا يكوّنون اغلبية « مجلس العموم »^(١) • وقد سعى المملكان كي يحكما دون دعوة البرلمان ، كما فعلت الملكة اليزابيث ، قبلهما • ولكنهما لم يكونا يتمتعان بنفوذ كنفوذ الملكة ، ولذا فان النواب اخذوا

(١) كان يراقب السلطة الملكية في انكلترا (البرلمان) • وقد تثبتت دعائمه في اواخر القرن الثالث عشر • وكان يتألف من مجلسين : **مجلس اللوردات** ، و**مجلس العموم** • ويضم **مجلس اللوردات** ٨٢ عضوا من كبار نبلاء الملكة و ٢٦ اسقفا من الكنيسة الانجليكانية • ومع انه ظل يلعب دورا تشريعيا اساسيا حتى بداية القرن العشرين ، الا ان دوره في الصراع التشريعي في القرن السابع عشر كان ثانويا • اما **مجلس العموم** فكان يمثل نظريا مجموع الامة ، الا ان اعضاءه كانوا يختارون من فئة قليلة من الناحيين ، ومن الملاكين • وكان يخص الارياف ٩٢ نائبا ، والمدن ٤٠٠ نائب • ان هذه السيادة الظاهرية للمدن كانت تخفي حقيقة ، وهي ان معظم ممثلي المدن - عدا الكبيرة - ، كانوا ينتخبون من بين صفوف ملاكي الارض النبلاء ، والبورجوازيين •

بنقد السياسة الملكية ، اذ ان البرلمان كان يرى ان أية ضريبة جبيت دون موافقته ، هي ضريبة غير قانونية • ومثل على ذلك ، الضريبة المخصصة لتقوية الاسطول ، التي عمت على كل البلاد • وقد ذكر البرلمان الملك (شارل الاول) بحقوق الأمة الانكليزية ، بالوثيقة التي قدمها له عام ١٦٢٨ ، والتي عرفت باسم « مطلب الحقوق » *Petition of Rights*

الا ان خوف « البوريتان » من ان يعيد رئيس اساقفة كاتتري (لود) ، الكاثوليكية الى الكنيسة الانكليزية ، ضاعف النفور من الملك • ولذا قرر البرلمان ان يتخذ عام ١٦٢٩ موقفا حاسما • وعندما حاول الملك ان يحله ، اغلق الاعضاء الابواب ، واصدروا ثلاثة قرارات هي : شجب أية تجديدات كاثوليكية في الدين ، واعتبار جميع الضرائب السابقة غير شرعية ، وكل من يدفعها خائنا • وعلى أثر ذلك اجل اجتماع مجلس العموم •

وحكم (شارل الاول) لاحدى عشرة سنة ، وحتى ١٦٤٠ ، دون بارلمان • ومع انه كان حرا من نقد البرلمان ، الا انه كان بحاجة للمال • واشتدت حاجته اليه عندما ثار عليه (الايقوسيون) ، بعد ان قرر (لود) عام ١٦٣٧ ، ادخال الكنيسة الانغليكانية الى ايقوسيا • فالايقوسيون المتعلقون بكنيستهم « البريسبيترىانية Presbytérienne » ، المماثلة للكاليفية الى حد كبير ، هبوا ضد ذلك الاجراء •

وامام ذلك اضطر (شارل الاول) الى دعوة البرلمان عام ١٦٤٠ • ولكن البرلمان رفض الموافقة على أي مال قبل اصلاح الامور • فاضطر الملك الى فض البرلمان ، بعد ثلاثة اسابيع فقط ، فسمي « بالبرلمان القصير » • الا ان انتصارات الثوار الايقوسيين اجبرته على اجراء انتخابات جديدة ، وبذلك ابتداء عهد « البرلمان الطويل » ، الذي بقي (١٣) عاما (١٦٤٠ — ١٦٥٣) • وفي هذه المرة اتخذ النواب موقف الهجوم : فقد اتهموا « سترافورد » مستشار الملك ، وقبضوا عليه ، وحكموا عليه بالاعدام عام ١٦٤١ • وطبقوا المصير نفسه على « لود » عام ١٦٤٥ •

وفي عام ١٦٤١ ، وافق البرلمان على « الاحتجاج الكبير » Great Remonstrance ونشره ، وكان يحوي خلاصة لمساوىء الحكم .

وفي عام ١٦٤٢ حاول الملك ان يقوم بردة فعل ، فجاء بنفسه الى البرلمان كي يقبض على النواب المعارضين له . ولكن هؤلاء فروا قبل وصوله ، وقام الشعب بحمل السلاح ليزود عنهم . فاضطر الملك لمغادرة العاصمة ، وكان هذا بداية الحرب الاهلية .

الحرب الاهلية : وقد دامت ثلاثة اعوام (١٦٤٢ - ١٦٤٥) . وكان الطرفان المتحاربان هما : « الفرسان » من ناحية ، وقد دافعوا عن سلطة الملك . وكانوا يمثلون الارستقراطية ، ويقف لجانبهم فئة من الطبقة الفقيرة ، التي تحميها الطبقة الارستقراطية . ومعظم هؤلاء من الانجليكان ، وبعضهم من الكاثوليك ، وكلهم يريدون كنيسة بطقوس واساقفة .

و « اصحاب الرؤوس المستديرة » من ناحية أخرى ، (وسموا كذلك لان شعورهم كانت قصيرة بالنسبة لشعور النبلاء) . وهؤلاء كانوا مناصرين للبرلمان ، وكان يشاهد بينهم بعض النبلاء الصغار ، الذين اثروا عن طريق تسوير الاراضي من امثال « اوليفيه كرومويل » . الا ان اكثرهم ، من التجار ، والصناع ، في المدن . ولقد كانوا من « البوريتان » ، ويريدون دينا يستند للكتاب المقدس ، ودون كهنوت وطقوس .

وكانت الحرب الفعلية بين الطرفين ، وتميزت فيها شخصية (كرومويل) الذي نظم جيشا صغيرا عرف بـ (اصحاب الملابس الحديدية) . وقد جمع افراده من الفلاحين الاغنياء ، الذين كانوا يملكون الجياد ، واخضعه لتدريب قاس . بل انه قبل بدء المعركة ، دعا جنوده ، لقراءة الكتاب المقدس ، وانشاد التراتيل الدينية . وكان مقتنعا بانه موحى له من الله ، وانه وجد لخدمة الله ، ومن ثم فلن يوقفه شيء دون غرضه ، بل لم يتردد امام أية قسوة . وفي عام ١٦٤٥ ، احرز « كرومويل » نصرا حاسما على الجيش الملكي ، عند « نيزبي »

Naseby : ففر (شارل الاول) الى ايقوسيا ، ولكن الايقوسين باعوه للبارلمان ، مقابل حفنة من المال .

ج - اخفاق الجمهورية في انكلترا والعودة الى النظام الملكي

اعلان الجمهورية : بعد أن تم سجن شارل الاول ، ابتدأت مرحلة تردد أولية . فالبارلمان الخائف من انتصاره ذاته ، لم يتخذ أي قرار حاسم ، بل كان يميل للصالح مع الملك . وفي هذا الوقت كان الانكليز قد تعودوا الحرية ، وشرعوا يتناقشون بشكل مفتوح ، حول الافكار الدينية ، والنظام السياسي ، بل وحتى توزيع الثروات . إلا أن الجيش وضع حدا لمرحلة الحرية هذه ، بفرض ارادته ، وبمنح السلطة لرئيسه « كرومويل » ، الذي قرر أن يتخذ موقفا حازما من البارلمان ، بعد أن أيد بأغلبه اتفاقا مع الملك . فتقدم بجيشه عام ١٦٤٨ الى لندن ، واحتلها . وأوقف ، أو طرد ، معظم أعضاء البارلمان ، وكون الباقون ما سمي (بالبارلمان الابتر) . وصوت هذا البارلمان على اتهام الملك (شارل الاول) بالخيانة ، والحكم عليه بالاعدام . ونفذ الحكم في ٣٠ كانون الثاني ١٦٤٩ . وفي اليوم التالي أعلن النظام الجمهوري .

وفي عام ١٦٥٣ طرد (كرومويل) أعضاء (البارلمان لابتر) . ومنذ ذلك الوقت غدا السيد الوحيد لانكلترا مع لقب « اللورد الحامي » ، وحكمها مع أعوانه وضباطه حكما دكتاتوريا .

عهد كرومويل ١٦٤٩ - ١٦٥٩

ويتميز عهد كرومويل بظاهرتين ايجابيتين : الازدهار الاقتصادي وارتفاع شان بريطانيا في العالم . ففي عام ١٦٥١ صدر (قانون الملاحة) الذي ينص على أنه لا تقبل في الموانئ الانكليزية سوى المراكب البريطانية ، أو تلك التي تحمل بضائع بلادها . وبذلك وضع حدا للنقل البحري الهولاندي المشر ، الذي كان يقوم باعادة توزيع منتوجات المناطق الحارة في أوروبا . وأدى هذا لحرب بين الدولتين ، كانت لفائدة الانكليز . ففوة بحريتهم ، جعلتهم قوة تخشى ، حتى

في البحر المتوسط . كما أن تحالف « كرومويل » مع فرنسا ، مكّنه من انتزاع (جامايكا) ، و (دونكيرك) من اسبانيا عام ١٦٥٨ .

ولكن كرومويل أخفق في حل المشكلات الداخلية : فقد فشل في اقامة « كنيسة بورتانية » للدولة ، واصطدم بصعوبات مالية خطيرة ، حتى اضطر الى القبض على السفن الاسبانية المحملة بالذهب ، حتى يتجنب دعوة البرلمان . وعندما اضطر لدعوته فانه أسرع بحله .

ونعم ثورة ايرلندة بعنف دموي شديد ، وأجبر عديدا من الايرلنديين على ترك أراضيهم للانكليز . وعندما توفي عام ١٦٥٨ ، لم يبق في ذهن الانكليز من حكمه سوى ذكرى سنوات من القهر ، والحزن ، والاستبداد .

وقد ترك العرش من بعده لابنه (ريشار) الذي لم يلبث أن تنازل عنه ، بعد بضعة أشهر عام ١٦٥٩ . فجمع الجنرال (مونك) ، وكان على رأس جيش ايقوسيا ، بارلمانا ، قرر أن يستدعي الابن المنفي للملك (شارل الاول) . فتوج باسم (شارل الثاني عام ١٦٦٠) ، واعيدت بذلك الملكية الى انكلترا .

د - الملكية العائدة ١٦٦٠ - ١٦٨٨ وتثبيت الحريات الانكليزية

لم يلبث الملك (شارل الثاني) أن وقع في صدام مع البارلمان ، ويرجع ذلك الى الاسباب التالية :

اسباب سياسية : لقد اتخذ الملك نموذجا له ، ملك فرنسا لويس الرابع عشر ، وحلم بأن يحكم على غرارهِ ، كملك مطلق . ومن ثم ، فقد تحالف معه ضد الهولانديين .

اسباب دينية : كان الملك نصيرا للكاتوليكية ، وقد حاول التقرب منها ، باصدار « اعلان الغفران » لصالحها ، وصالح الفئات البروتستانتية الاخرى غير الانغليكانية . بل، ان أخاه (دوق ديورك) ، المرشح لولاية العهد ، اعتنق الكاثوليكية . وكان التجار ، والصناع ، في لندن ، يكرهون (البابويين) ،

حتى انهم عدوهم مسؤولين عن الطاعون ، الذي أصاب المدينة عام ١٦٦٥ ،
والحريق الذي خربها عام ١٦٦٦ .

اسباب شخصية : لقد كان الملك كثير الانفاق للمال ، وعندما قلت
موارده ، رجب بأخذ المال من لويس الرابع عشر ملك فرنسا ، مقابل اعادة
الكاثوليكية لانكلترا .

وهنا انقسمت انكلترا لحزبين : **اولهما** : نبلاء الارياف ، وقد اطلق عليهم
اسم (التوري) (الكلمة في أصلها الاول كانت تطلق على قطاع الطرق
الاييرلنديين) . وهؤلاء بقوا أنصارا لسلطة الملك القوية ، **وثانيهما** : اللنديون
البوريتان واسموا بـ (الهويغ) (وكانت تطلق في الاساس على المتعصبين من
الايقوسيين البريسبيتيريان) . وهم أكثرية في البرلمان منذ ١٦٧٩ ، وكانوا لايتقون
بالمملك . وقد استطاعوا اجباره على توقيع صلح مع هولاندة . وفي عام ١٦٧٩ ،
صوتوا على (صك الاختبار Test Act) ، الذي يجبر الموظفين على طرح
الكاثوليكية . وبذلك اضطر دوق ديورك للتنازل عن منصبه كأمر .

وليحرموا الملك من جزء من سلطته ، صوتوا على الصك ، الذي يحظر
ايقاف أي انسان دون سبب ، ويجبر السلطة على أن تقدم للمحاكمة كل
انسان موقوف .

وغضب (شارل الثاني) من هذا الموقف ، فلم يدع البرلمان للانعقاد بعد
ذلك ، (أي من ١٦٨١) . واعتنق الكاثوليكية ، وعاش حتى ١٦٨٥ ، معتمدا على
المال الذي قدمه له لويس الرابع عشر .

جيمس الثاني وثورة ١٦٨٨ :

بعد وفاة (شارل الثاني) ، خلفه على العرش أخوه (دوق ديورك) ، باسم
« جيمس الثاني » . وقد اتبع سياسة أثارت شعور الانكليز : فقد أراد فرض
ارادته السلطوية ، واعادة الدين الكاثوليكي . فقد أوقف العمل « بوثيقة
الاختبار » وسمح لليسوعيين بالعودة ، وعين موظفين من الكاثوليك في مناصب

الدولة . وعلى الرغم من غضبة الانكليز على هذه الاجراءات ، فانهم سكتوا . ولو على مفض ، لانهم كانوا يأملون بالمستقبل فللملك ابنتان ، قد تزوجتا من بروتستانتين ، وهما اللتان ستخلفانه على العرش . لكن الامور جرت بسرعة ، وعلى غير ماتوقعوه ، إذ رزق الملك عام ١٦٨٨ بولد ذكر ، يرث العرش . وقد عمده كاثوليكيًا .

عندها طلب (الهويغ) من صهر (جيمس الثاني) ، وهو (ويليام من أسرة اورانج) « الحاكم العام » للمقاطعات المتحدة ، والذي كان ينظر اليه في أوروبا على انه زعيم البروتستانت فيها ، بطرد الملك ، وبتنصيب زوجته (ماري) . ابنة جيمس الثاني على عرش انكلترا . وبالفعل ، هبط (ويليام الثالث) على أرض انكلترا عام ١٦٨٨ ، واتجه نحو لندن . ولما أحس الملك . بأن الجميع انفضوا من حوله ، وانه غدا وحيدا ، فر الى فرنسا ، حيث استقبله لويس الرابع عشر . واجتمع برلمان ، تسوده أغلبية من الهويغ ، واعلن اسقاطه عن الحكم . وأصبح (ويليام دورانج) ، مع زوجته (ماري) ، ملكين معا على انكلترا . وذلك بعد أن صوت البرلمان على وثيقة (اعلان الحقوق) ، التي عرّف فيها بالاسس السياسية للملكية الجديدة ، وذكر بالحريات الانكليزية . ومنذ ذلك الوقت ، غدت سلطات الملك مقيدة جدا ، ودور البرلمان واضحا ، فهو الذي يحكم . وقد جرى العرف ، بألا يبقى الوزراء في السلطة ، الا اذا كانت أغلبية النواب في صفهم . وهكذا ثبت (النظام البرلماني) الحقيقي ، دون أية معارضة من ويليام ، الذي كان في صراع مع لويس الرابع عشر . واصبحت الموازنة تناقش كل عام ، وأخذ البرلمان على عاتقه تثبيت رسوم الجسر . والنقد ، ومراقبة الجيش .

وينظر الانكليز لثورة ١٦٨٨ ، بأنها « الثورة المجيدة » ، في تاريخهم لانه في بضعة أشهر ، وبقليل جدا من الدماء ، حل قادة انكلترا السياسيون المعضلات التشريعية للقرن ، وتوصلوا الى ترتيب يكون أساس نظام الحكم في بريطانيا . وبعد موت الملكة (ماري) عام ١٦٩٥ جاء « مرسوم التثبيت » ليعمد

نهائيا عن العرش جميع مدعي العرش الكاثوليك • وعندما توفي ويليام بدوره ،
انتقل التاج الى (آن) الابنة الثانية لجيمس الثاني •

وقد قامت مفاوضات على اثر ذلك مع الايقوسيين ، الذين رفضوا مرسوم
التثبيت ، وهددوا باستدعاء ابن جيمس الثاني • وفي عام ١٧٠٧ صدر (مرسوم
الاتحاد) ، الذي كرس الوحدة السياسية للمملكتين تحت اسم
« مملكة بريطانيا العظيمة المتحدة » • وعندما توفيت الملكة (آن) عام ١٧١٤ ،
انتقل التاج دون صعوبة الى (جورج الاول) من (مقاطعة هانوفر الالمانية) ،
وهو مؤسس الاسرة التي لا تزال تحكم انكلترا الى اليوم •

لقد حققت انكلترا اذا في القرن السابع عشر ، نموذجا لنظام ملكي معتدل ،
قام فيه التوازن بين سلطات الملك ، وحقوق البرلمان ، وقضي فيه تماما على فكرة
الملكية المطلقة • وتمتع المواطنون في ظلها بالحرية الدينية ، عدا الكاثوليك ،
وبالحرية الفردية ، التي كان البرلمان هو الضامن لها • وفي هذا الحكم
الدستوري ، كان الوزراء وحدهم هم المسؤولين أمام الملك • الا أن هذا التوازن
سيعود للاختلال في القرن الثامن عشر •

الرخاء الانكليزي : نمت التجارة البحرية الانكليزية نموا كبيرا بفضل
قوانين الملاحة ، وأصبح لدى انكلترا عام ١٧٠٠ (١٣٠٠٠) سفينة ، وبذلك غدت
القوة البحرية الاولى في العالم ، وفي كل مكان حل الانكليز محل الهولانديين •

ونتيجة تحالفهم مع البرتغال ، فقد تزودوا بالذهب من البرازيل ، وشرعوا
يقيمون المستعمرات على شواطئ أمريكا الشمالية ، حتى أنهم أسسوا (١٢)
مستعمرة ، بالإضافة لمستعمرة ماسا شوستس ، التي أسسها البوريتان سابقا • ثم
مدوا امبراطوريتهم الى كندا ، وجزر الانتيل • واغتنت الشركات البريطانية ،
بفضل تجارة السكر ، والروم ، والتبغ ، والعبيد ، الذين كانوا يخطفونهم من
شواطئ افريقيا ، لبيعونهم في أمريكا • واستقرت شركتهم للهند الشرقية ، في
الهند ، التي كانت مسرحا سابقا لنشاط الهولانديين •

ان كل ذلك الثراء ، يفسر تأسيس « بنك انكلترا » عام ١٦٩٤ ، من قبل

-- ٢٥٧ -- تاريخ اوربا في العصر الحديث ١٧

التجار الهويغ • وبذلك ، أصبح بمقدور التجار أن يودعوا فيه أموالهم .
والمصرف ، بالمقابل ، يقرض الملك بفائدة منخفضة ، وكذلك التجار الذين يريدون
توسيع أعمالهم • وغدت لندن المركز المالي الاول في العالم ، والجنيه الاسترليني
أمتن عملة في أوروبا •

ان الرخاء الانكليزي ، وانهاء الحروب الاهلية ، أعطيا الحياة اللندنية بريقا
شديدا : فبعد حريق لندن عام ١٦٦٦ ، أعيد بناؤها على نمط الابنية الفرنسية ،
والايطالية ، وتحولت لمدينة حديثة • وقد جذبت (المقاهي) اليها التجار .
والنبلاء ، الذين أغنتهم التجارة • وكانوا يجلسون فيها لقراءة الصحف ، والتعليق
على الاحداث ، ومناقشة أفكار العصر •

وقد عرفت انكلترا ، في أواخر القرن السابع عشر ، مفكرين كبارا ، كان
أشهرهم (جون لوك J. Locke) (١٦٣٢ - ١٧٠٤) ، الذي نشر كتابه « مقال
عن السلطة المدنية » • وفيه طالب بصوت مرتفع ، بالحقوق الطبيعية للفرد .
وبسيادة الشعب ، وبالتسامح الديني • وتزهو انكلترا في هذه الحقبة بعالم
كبير ، هو (اسحق نيوتون I. Newton) (١٦٤٢ - ١٧٢٧ ، الرياضي ،
والفيزيائي ، والفلكي ، الذي اشتهر بكشفه عن قوانين الجاذبية الكونية ،
وتحلل الضوء •

رابعا - دولة بروسيا

شاهد القرن السابع عشر بروز دولة في الشمال الاوروبي، هي دولة بروسيا ،
التي ستلعب دورا هاما ، في القرنين الثامن ، والتاسع عشر ، وهي التي ستأخذ
على عاتقها في القرن الاخير توحيد ألمانيا •

نشأتها : يقع اقليم (بروسيا) بين نهري (الفيستولا) و (النيمن) شرقي
أوربا • وكان يسكنه قديما (البروسيون) وهم شعب بلطيقى • الا انه تعرض
في القرن الثالث عشر ، لهجمات (طائفة التيوتون) من الالمان ، وهي طائفة
دينية - عسكرية ، من بقايا الحروب الصليبية • وقد استطاعت هذه الطائفة ،

اجبار البروسيين على اعتناق المسيحية ، ووزعت أرضهم على مستعمرين ، من المهاجرين الالمان .

وفي القرن الرابع عشر ، ومطلع الخامس عشر ، عمل (التيوتون) على الامتداد في الارض البولونية . الا أن البولونيين هزموهم في عام ١٤١٠ ، في معركة (تانبرغ) ، وأجبروهم في عام ١٤٦٦ ، بعد حرب أخرى بينهم ، على الاعتراف بتبعيةهم لبولونيا ، وباحتفاظهم ببروسيا الشرقية فقط ، بصفتها اقطاعا . وفي القرن السادس عشر ، وبعد انتشار الاصلاح الديني البروتستانتى ، اعتنق رئيس الطائفة التيوتونية (اليردوبرانديبورغ) ، من أسرة (هوهنزولرن) ، المذهب البروتستانتى : وحول املاك طائفة التيوتون الدينية الى املاك زمنية ، وغدت (بروسيا الشرقية) دوقية زمنية ووراثية تابعة للتاج البولونى .

وفي ١٦١٨ ، اسلمت بولونيا ادارة الدوقية الى (منتخب براند يورغ) من الاسرة نفسها . وبذلك امتدت (مقاطعة براند يورغ) في شمالي المانيا — وهي المتمركزة حول عاصمتها (برلين) ، وتمتلك في الوقت ذاته مقاطعة (كليف) على نهر الرين ، غربي ألمانيا — فاحتوت (بروسيا الشرقية) . واشتركت (براند يورغ — بروسيا) في (حرب الثلاثين عاما) في أوروبا ، (١٦١٨ — ١٦٤٨) ، ونالت في صلح (وستفاليا) عام ١٦٤٨ ، الذي أنهى الحرب ، مقاطعة (بوميرانيا الشرقية) ، المجاورة لبروسيا من الغرب ، واسقفيات (مندن) و (هالبرشتات) و (ماغد يورغ) ، الواقعة غرب امارة براند يورغ ، وفي جنوبها الغربي . (انظر خريطة تكون بروسيا وتطورها في آخر الكتاب) .

ونتيجة اسهامها في الحرب البولونية — السويدية (١٦٥٥ — ١٦٦٠) ، حصلت على استقلالها عن التبعية البولونية عام (١٦٥٧) ، وثبتت سيادة برانديبورغ عليها . ومنذ (١٦٦٠) ، غدت بروسيا مندمجة في الدولة البرانديبورغية .

ميلاد دولة بروسيا القوية : بوصول « المنتخب الكبير » (فردريك ويليام) الى العرش ، (١٦٤٠ — ١٦٨٨) ، دخلت بروسيا وبراند يورغ في طريق الاصلاح

والرفعة • فقد عمل هذا المنتخب لصالح دولته ، على الرغم من تبعثرها • وأنشأ جيشا قويا من (٣٠.٠٠٠) جندي ، وفرض على ضباطه ان يدربوه تدريبا قاسيا . وان يطبقوا عليه نظاما من حديد • وجبى ضرائب جديدة من الشعب لتحقيق ذلك ، وقضى على المعارضة بالقوة • وأصلح الادارة في المقاطعات ، وتبنى السياسة الاقتصادية المركنتيلية ، وانشأ اسطولا قويا ، واستدعى التقنيين من الاجانب ، وبصفة خاصة الفرنسيين البروتستانت ، للعمل في الصناعة ، واستشار الارض • وقد تجلت قوة بروسيا واضحة ، في الهزيمة التي ألحقها بالجيش السويدي ، في معركة (فيربيلن Fehrbellin) عام ١٦٧٥ •

وهذه القوة العسكرية ، هي التي دفعت (لويس الرابع عشر) ، للتقرب من المنتخب الكبير ، وتوقيع معاهدة سرية معه عام ١٦٨١ • والقوة نفسها ، هي التي دفعت أمير بروسيا (فردريك الاول) ، الذي خلف أباه المنتخب الكبير (١٦٨٨ - ١٧١٣) ، للمطالبة بلقب (ملك) • ولكن للحصول عليه ، كان لابد من موافقة الامبراطور • فعندما خاضت الامبراطورية الحرب ضد (لويس الرابع عشر) ، كانت القوة العسكرية البروسية تحت تصرف الامبراطور (١٦٨٩ - ١٦٩٧) • وليضمن الامبراطور عونها في (حرب الوراثة الاسبانية) ، قرر في عام ١٧٠٠ ، أن يمنح (دوق بروسيا) اللقب الملكي • وتوج (فردريك) ملكا في عام ١٧٠١ ، باسم (فردريك الاول) وباحتفال فخم •

وقد قلد ملك بروسيا ملك فرنسا في أن يكون راعيا للفنون والعلوم ، إلا أنه لم يهمل الجيش • وعندما خلفه ابنه (فردريك ويليام الاول) (١٧١٣ - ١٧٤٠) ، فانه لم يكرس جهده الا للجيش ، الذي أوصل عدد جنوده الى (٦٠.٠٠٠) ، وكان يلوم ابنه (فردريك) لانه كان منصرفا الى دراسة الأدب ، والفلسفة • واستطاع أن يفرض عليه حياة قاسية ليكتسب ممارسة الاعمال السياسية والحربية •

وتابعت (بروسيا) تطورها الارتقائي في (القرن الثامن عشر ، حتى أصبحت من الدول التي تحسب لها الدول الاوربية التقليدية ألف حساب • وقد أثقلت على النمسا ، بمنافستها لها ضمن الامبراطورية ، إذ غدا ملكها فوق جميع الامراء الالمان •

خامسا - دولة روسيا

ومن الدول التي برزت قوية أيضا في أواخر القرن السابع عشر (دولة روسيا) . وقد كنا أشرنا عند حديثنا عن أوروبا في أواخر القرن السادس عشر ، ان روسيا بعد ان اشتد عودها ، مرت بفترة اضطراب شديدة ، بين عامي (١٥٨٤ - ١٦١٣) ، وذلك بسبب سوء المواسم الزراعية وتبلبل أحوال الفلاحين ، الذين كان النبلاء الاقطاعيون الروس (البويار Boyards) يسعون لتثبيتهم على الارض . وقد تعرضت الارض الروسية خلالها لتدخل البولونيين ، والسويديين ، ولهجمات القوزاق ، مستفيدين من ادعاء العرش ، حيث كان كل دعي منهم ، يطلب مساعدة واحد أو أكثر من الفرقاء . الا ان الامور بدأت تميل الى الاستقرار في مطلع القرن السابع عشر ، حينما انتخب (المجلس الوطني) في روسيا ، في عام ١٦١٣ (ميخائيل الثالث) قيصرا (١٦١٣ - ١٦٤٥) . وهو مؤسس سلالة (رومانوف) ، التي ستحكم روسيا حتى الثورة البلشفية عام ١٩١٧ . وقد استطاع هو وابنه (ألكسي) (١٦٤٥ - ١٦٧٦) ، وحفيده (فيدور) (١٦٧٦ - ١٦٨٢) ، أن يعيدوا تثبيت السلطة الملكية في روسيا .

وقد نجم عن البنية المضطربة في شرقي اوربا حروب لا تنتهي ، بين بولونيا وروسيا ، والدولة العثمانية ، خلال القرن السابع عشر . وفي واحدة من هذه الحروب ، استطاعت روسيا ، أن تنتزع من بولونيا (سمو لنسك) ، واقليم (كييف) عام ١٦٦٧ ، وبذلك تقدمت نحو الغرب .

وبالاضافة الى الاعداء الخارجيين ، كان على القيصرية أن يقفوا في وجه (القوزاق) ، على حدودهم الجنوبية ، والجنوبية الشرقية ، (عند نهر الدون والديبير) . والقوزاق جماعات سلاقية كانت تعيش شبه مستقلة .

كما تعرضت روسيا في القرن السابع عشر ، لازمة دينية ، تمثلت في انشقاق في الكنيسة الارثوذكسية السائدة في روسيا . فقد كلف القيصر (ألكسي) ، البطريك (نيكون) ، باصلاح الطقوس الدينية ، واخلاق رجال الكنيسة ، وذلك باعادة تلك الطقوس الى ما كانت عليه في الكنيسة اليونانية . إلا أن (نيكون) (١٦٥٢ - ١٦٦٦) ، اصطدم بمعارضة (المؤمنين القدماء Raskolniki) وبكثير

من فئات الشعب . وقد استخدم (نيكون) وسائل العنف مع المعارضة . الا ان الصراع انتقل الى صراع بينه ، وبين القيصر نفسه . اذ احس هذا الاخير . ان (نيكون) يريد أن يتجاوز بسلطته سلطة القيصر . ويشبه الصراع بين الطرفين ذلك الذي قام في العصور الوسطى في أوروبا ، بين البابا والامبراطور . واتهم الامر بابعاد نيكون عن البطركية ، وانتصار السلطة الزمنية ، وغدا الاساقفة . ورجال الدين ، مجرد موظفين في الدولة .

وعندما توفي البطريك عام ١٧٠٠ م ، وكان القيصر (بطرس الاول) على العرش ، فانه لم يعين بدلا منه ، واحل محله (مجمعا من الاساقفة) هو (المجمع المقدس) .

ومن الصعوبات التي عانتها روسيا في القرن السابع عشر ثورات الفلاحين : فقد وقع عبء المجتمع الروسي على كاهل الفلاحين ، الذين كانوا بحسب قانون ١٦٤٩ ، أشبه بما يكون بالعبيد . بل هم اقنان الارض ، بالمعنى الواسع للكلمة . وكانوا يعانون الامرين من حياة العبودية تلك ، مضافا اليها ما كان يصيبهم من كوارث ، كالمجاعات ، والابوة ، والحروب ، والضرائب . ولذلك فانهم قاموا بعدة ثورات ، كان أكبرها ثورة ١٦٦٧ بقيادة القوزاكي (ستينكا رازين Stenka Razin) . ولم يكن هدف تلك الثورات ، القيصر ، وانما النبلاء (البويار) ، الذين كانت الارض بيدهم . وقد نجحت هذه الثورة في بادئ الامر ، إلا أن القوات الروسية هزمتها ، واعدت (ستينكا) . ولما لم تحرك الحكومة ساكنا للتخفيف من أعباء الفلاحين ، فان مثل تلك الثورات الفلاحية كانت ظاهرة مستمرة في الحياة الروسية .

وفي الحقيقة كانت روسيا في القرن السابع عشر لاتزال بعيدة عن الحضارة الاوربية الغربية ، والمجتمع فيها يعيش تناقضات قاسية . ففي موسكو مثلا « كان ينتصب (قصر الكرملين) بكبرياء ، بقبابه المذهبة ، وابراجها الجميلة . ويتناقض منظره ومنظر قصور النبلاء ، تناقضا صارخا مع الاحياء الفقيرة في موسكو ، بمنازلها الخشبية ، وفقرها المدقع ، وحانات السكيرين فيها ، وأناسها

بذين كانوا يعيشون كالخنازير» (١) .

ولكن الاثر الغربي شرع يتسرب في القرن السابع عشر الى روسيا ، والى موسكو بالذات ، وذلك عبر (الحي الالماني) فيها ، الذي كان يتجمع فيه الاوربيون . وكان هذا الحي بمثابة (جامعة) من الاجانب من الدول الغربية ، كالسكوتلنديين ، والانكليز ، والهولانديين ، تنال فيه الطبقات العليا من المجتمع الروسي ، الثقافة الغربية ، عن طريق الاحتكاك ، والجوار .

وتتيجة لهذا التأثير ، ظهر تيار قوي بين حاشية القيصر ، يدعو الى ضرورة تطوير البلاد على النمط الغربي . وبالفعل ، قام القيصر (ألكسي) ، بارسال بعثات لاوروبا الغربية ، كما استدعى رجالا منها ، للخدمة في روسيا . الا أن ادخال الحضارة الغربية لروسيا بشكل فعال ، كان في عهد القيصر (بطرس الاكبر) .

روسيا في عهد بطرس الاكبر (١٦٨٢ - ١٧٢٥) : ان (بطرس) هو ابن القيصر (ألكسي) ، وقد حكم مع أخيه (ايوان الخامس) (١٦٨٢ - ١٦٨٩) . وكانت الوصية عليهما أختهما (الاميرة صوفيا) يعاونها حرس القيصر المسمى (سترلتسي Streltzy) . وفي عام ١٦٨٩ استطاع أنصار بطرس أن يزيحوا (صوفيا) عن الحكم ، وان يصبح (بطرس الاول) هو الحاكم الوحيد ، على الرغم من أن أخاه (ايوان) بقي حيا حتى عام ١٦٩٦ .

لقد نال (بطرس الاول) ثقافة عشوائية ، من اتصالاته مع التجار والاجانب في (الحي الالماني) . ويبدو أن هذه الثقافة الاولى والاحتكاك مع الغربيين ، واعجابه بمظاهر حضارتهم ، قد دفعته الى التفكير جديا بحمل مظاهر تلك الحضارة الى روسيا ، ونشرها بكل الوسائل . علما أنه كان وهو في السابعة

Carl Grimberg & Ragnard Svanstern L'hégémonie Anglaise — ١
et la fin de l'Ancien Régime - Adaptation française - Verviers 1964.
P. 86 - 87.

عشرة من عمره ، عملاق القامة ، قاسيا ، وسكيرا ، بل وبحسب تعبير احدي
الاميرات الالمان « متوحشا ، وانما متوحش موهوب » .

وفي عام ١٦٩٧ ، قام بزيارة غربي أوربا وهو متسكر . وكان يقول
« انا متمرن واطلب معلمين » . وقد اظهر خلال زيارته فضولا لتعرف كل
شيء . فكان يسأل ، ويسجل ، ويشترى . ويجرب . وعمل في هولاندة اسبوعا .
وهو يتدرب على استخدام الفأس ، في ترسانة لصنع السفن ، وهو بلباس البحارة .
واضطر ان يقطع رحلته الاولى عام ١٦٩٨ ، عندما علم بثورة حرسه المتمردين
(السترتسي) ، فعاد ، وقمع حركتهم بعنف لا يوصف ، بل حول القمع لشبه
مجزرة ، مع أنهم اظهروا خضوعهم .

وخلال العشرين سنة التالية ، كان كل شيء موجها لضرورات الحرب ضد
السويديين ، والاتراك . ولكن الاوضاع ساءت في عام ١٧١٥ ، فاضطربت الحياة
الاقتصادية ، واقفرت بعض الاقاليم من سكانها ، وتبدى كأن الثورة على
الابواب . عندها قام القيصر برحلة ثانية الى أوربا الغربية ، وهذه المرة بصفة
رسمية (١٧١٦ - ١٧١٧) . وعند عودته أعدم ابنه (ألكسي) (١٧١٨) ، وكانت
المعارضة قد التفت حوله ، وبذلك قضى على كل مقاومة .

واتصفت السنوات الاخيرة من حكمه **باقامة النظام** فقد أعاد
تنظيم الحكومة المركزية ، وألف عشر لجان ، اختصت كل واحدة بحق من
حقوق الادارة . وكان من المنتظر أن تعمل بصفتها لجانا ، الا ان الرؤساء
المسؤولين عن بعض الحقول الهامة ، كالمال ، والجيش ، فرضوا سيادتهم . وفي
عام ١٧١١ ، أوجد (مجلسا خاصا) بمثابة مستشار له ، ونائب عنه في غيابه .

واعاد **تنظيم المقاطعات** فقسم البلاد الى (١٢) (اقليما Gubernii) قسمت
بدورها الى (محاافظات) . وكان يشغل المناصب موظفون ملكيون ، وتساعدهم
الارستقراطية . وقد زادت الخزينة ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، للضرائب الجديدة
التي فرضها ، وللاحتكارات التي طبقها ، كاحتكار التبغ ، والملح . وساعده هذا
على تقوية الجيش ، والاسطول .

واجبر النبلاء على أن يخدموا في الادارة والجيش ، وبالمقابل أعطاهم كل السلطة على الفلاحين في ممتلكاتهم ، مما فوى العبودية ورسخها .

واخضع الكنيسة الارثوذكسية لسلطته باحلال (المجمع المقدس) محل (بطريرك موسكو) ، وكان يمثل القيصر في ذلك المجمع (مدع عام) .

وشجع الزراعة ، ونمى الصناعة : الصناعة التعدينية في الاورال ، وصناعة الاسلحة ، والصناعات النسيجية . وحفر قنوات بين نهري (ال فولغا) و (النيفا) .
ودفع التعليم قدما ، وافتتح مدارس عليا لتخريج رجال قادرين واكفاء ، لان البلاد كانت تفتقدهم . وهبى في زمنه مشروع (أكاديمية العلوم) .

وقوى الجيش حتى وصل في ١٧٢٥ ، وقبل وفاته الى (٢٠٠ر٢٠٠) جندي .
وبنى مدينة (سان بطرسبورغ) ، التي تعتبر رمزا لفعالية القيصر المتدفقة .
فعلى الرغم من الصعوبات استطاع أن يفرض بناء المدينة ، التي حلت محل (موسكو) ، عاصمة للبلاد . فقد ألزم كل نبيل غني أن يبني فيها منزلا ، وكل سفينة ترسو عندها ، عليها أن تحضر احجارا للبناء . وفي عام ١٧٢٥ ، كان عدد سكانها (١٠٠ر١٠٠) نسمة ، وغدت في منتصف القرن الثامن عشر ، مدينة ذات شوارع عريضة ، وقصور فخمة .

وقد اصطدم القيصر بمقاومة كبيرة ، لم تتوقف ، على الرغم من قضائه على ثورة حرسه ، وعلى ابنه . وفي الواقع لقد ولدت اصلاحات (بطرس الاكبر) شقا في المجتمع : فمن ناحية هناك اقلية حاكمة تقبل تلك التغييرات ، ومن ناحية أخرى اكثرية الشعب التي ترفضها . وقد ضحى بطرس الاكبر بكل شيء من أجل عظمة الدولة ، وطبق تنظيما جديدا على المجتمع الذي تغير في بعض مظاهر حياته . الا ان التغيير لم يمس الاعماق ، ولكنه بالمقابل جعل من روسيا قوة تهابها أوروبا والعالم .

الفصل الثالث

العلاقات الدولية في القرن السابع عشر

عاشت أوروبا في القرن السابع عشر علاقات متوترة ، وعانت حروبا كبيرة كاسحة ، ويمكن تصنيف تلك الحروب بحسب زمانها ، ومكانها ، والدول المتصارعة فيها ، الى أربع حروب : (١)

اولها - حرب الثلاثين عاما ، ومسرحها الاساسي وسط أوروبا

ثانيها - حروب لويس الرابع عشر في غربي أوروبا

ثالثها - الحروب مع الدولة العثمانية في شرقي أوروبا

رابعها - الحروب في منطقة بحر البلطيق

(٢) - حرب الثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨)

بينما كانت أوروبا في مطلع القرن السابع عشر تتسهم قمم (النهضة) (بشكسبير) الانكليزي ، و (سيرفانتس) الاسباني ، فانها تردت في أعنف صراع دموي مزقها لثلاثين عاما (١٦١٨ - ١٦٤٨) ، بل بالاحرى لواحد واربعين عاما ، أي حتى ١٦٥٩ . وقد بدأ الصراع في أولياته ، صراعا دينيا ، ومحدودا بالارض الألمانية ، الا انه مالبث أن امتد بعد ذلك ، حتى شمل أغلبية الدول الأوروبية . ولم تصطدم خلاله الجيوش الكاسحة فحسب ، وانما تصارعت فيه مفهومات ، ذات أهمية أوربية قصوى آنذاك ، مثل الوحدة الكاثوليكية ، ضد مفهوم الكنائس البروتستانتية ، والسلطة الامبراطورية ،

ضد السلطات الخاصة للامراء ، والاستقلال الوطني القومي ، ضد ادعاءات الملكية العالمية الشاملة ، التي تبناها آل هابسبورغ .

الاصول الاولى للحرب ترجع الحرب في جذورها الاولى الى الانقسام والتجزؤ ، اللذين كانت تعانيهما (ألمانيا) ، على الصعيدين السياسي ، والديني :

فمن الناحية السياسية : كانت ألمانيا ، جزءا من الامبراطورية الجرمنية الرومانية المقدسة ، وكانت تضم مجموعة من الدويلات الصغيرة ، المدنية ، والدينية ، التي قد يصل عددها الى (٣٥٠) دويلة . وكان الامبراطور لا يملك سوى سلطة اسمية عليها ، فلا يمكنه ان يتخذ أي قرار دون موافقة (الديت) . وهو المجلس الذي يحوي ممثلين عن ذلك العدد الكبير من الامراء الالمان .

ومن الناحية الدينية ، فقد كانت ألمانيا في مطلع القرن السابع عشر ، لاتزال تحمل أقدم جراح الاصلاح الديني ، وأعماقها ، إذ كانت موزعة بين ثلاثة مذاهب دينية : (اللوترية) ، التي اعترف بها صلح (اوغسبورغ) عام ١٥٥٥ . ذلك الصلح ، الذي أعطى للامراء ، الحرية في أن يكونوا من الكاثوليك ، أو البروتستانت ، وان يفرضوا الدين الذي اختاروه على رعاياهم . على أن أي تحول أمير الى البروتستانتية بعد ١٥٥٥ ، لا يجيز له ابدا مصادرة الاملاك الكنسية . وقد انتشرت اللوترية في ألمانيا حتى عام ١٥٧٦ ، الا انها توقفت ، حوالي نهاية القرن السابع عشر ، أمام تقدم (الكاثوليكية) ، التي وجدت دعما قويا لها في « اليسوعيين » . فقد عمل هؤلاء بحماسة ، وحثيا ، لاعادة بعض الامارات الالمانية الى الكاثوليكية ، كبافاريا مثلا . والى جانب الكاثوليكية واللوترية ، كانت هناك (الكالفنية) . ولم يكن لها وجود شرعي ، لان (صلح اوغسبورغ) لم يعترف بها ، الا أن بعض الامراء الالمان اعتنقها ، مثل منتخب بالاتينا ، ومنتخب برانديبورغ . وقد ادى هذا الانقسام الديني الخطر ، الى تنظيم الكاثوليك ، والبروتستانت ، أنفسهم عسكريا . ففي عام ١٦٠٨ قام منتخب بالاتينا الكالفني ، بتجميع قسم من البروتستانت حوله في (الاتحاد الانجيلي) . وقد رفض منتخب ساكسونيا الانضمام اليه . كما أن دوق بافاريا الكاثوليكي ، أوجد بالمقابل عام ١٦٠٩ (العصبة الكاثوليكية

المقدسة) ، وهكذا فروح الحرب كانت مازال كامنة بين الاطراف المتصارعة دينيا .

السبب المباشر للحرب وموقف الدول الاوربية

وقد تفجر الموقف بين الطرفين ، عندما اندلعت ثورة بوهيميا . فقد وصل لعرش بوهيميا في ١٦١٧ (فرديناند دو هابسبورغ) ، وكان تلميذا لليسوعيين . وقرر أن يعيد الكاثوليكية الى مملكته . حيث كان البروتستانت كثيري العدد . وكان الامبراطور (رودلف الثاني) (١٥٧٦ - ١٦١٢) ، قد منح أولئك البروتستانت في ١٦٠٩ ، صكا ملكيا ، بحرية ممارسة شعائرهم الدينية وحرية اخرى ، وذلك ليضمن تحالفهم معه ، ضد أخيه (ماتياس) ، الذي الزمه على التنازل عن هنغاريا ، والنمسا ، ومورافيا . وكان الجو في (بوهيميا) قد توتر في الواقع ، منذ ١٦١٢ ، عندما أجبر الامبراطور (ماتياس) أخاه على التنازل عن عرش بوهيميا ، وأخذ يعمل على مركزة الحكم في يده ، لا في بوهيميا وحدها ، وانما في مجموع الامبراطورية . وازدادت النقمة في بوهيميا ، عندما ضمن لابن عمه (فرديناند) ، عرش بوهيميا وهنغاريا ، وهو الذي عرف بكاثوليكيته .

واندلعت شرارة الثورة في (بوهيميا) ، عندما قام رئيس أساقفة (براغ) بهدم كنيسة بروتستانتية ، كانت قد بنيت على أساس الحرية الدينية التي منحها الامبراطور (رودولف الثاني) للبروتستانت . وتبع ذلك تبديل حكام بعض المقاطعات البروتستانت ، واحلال كاثوليك محلهم . فعقد البروتستانت مجمعا ، وقرروا المقاومة في براغ . وفي ٢٣ أيار ١٦١٨ ، قام بعض النبلاء البروتستانت بمهاجمة القصر الملكي ، وقذفوا باثنين من الحكام ، ممثلي الملك ، من النافذة . ثم خلعوا (فرديناند) ، عندما علموا ب وفاة الامبراطور عام ١٦١٩ ، وعينوا بدله على بوهيميا (منتخب بالاتينا الكالفني) (فردريك الخامس) ، الذي كان صهرا لملك انكلترا (جيمس الاول) ، وفي الوقت ذاته رئيسا لـ (الاتحاد الانجيلي) .

وكان هذا تحديا كبيرا ، فثورة كهذه ، لا تهز بنية الامبراطورية الجرمنية

الرومانية المقدسة فحسب ، بل الملكيات الاوربية نفسها ، وذلك عبر روابط الاسر المالكة فيها . فالناظر لهذا الخلاف لاول وهلة ، قد يرى فيه (قضية داخلية) ، بين بوهيميا ومنتخب بالاتينا . الا ان القضية كانت تمثل في ذلك الوقت (قضية دينية كبيرة) لان نصر الامبراطورية فيها ، أو نصر بوهيميا ، كان يعني نصر الكاثوليكية ، أو البروتستانتية . كما انها (قضية سياسية) ذات بال ، لان انتصار الامبراطورية ، يعني ضعف سلطة الامراء ، والنبلاء البروتستانت ، وارتفاع شأنها ، واختلال التوازن الاوربي القائم .

فلهذه الاسباب ، تجاوز الصراع حدود الامبراطورية المقدسة : فملك اسبانيا (الكاثوليكي جدا) ، والذي يرجع في نسبه الى آل هابسبورغ ، وكان آنذاك الملك (فيليب الثالث) دفع الامبراطور (فردينان الثاني) للتحرك ، ووقفت البابوية كذلك الى جانبه ، لانها تريد عودة الامبراطورية كلها الى الكاثوليكية . أما ملك فرنسا (لويس الثالث عشر) ، فقد خشي ، اذا ما انتصرت الامبراطورية ، ان تبعث السيادة الهابسبورغية على أوروبا ، كما كان عليه الامر في عهد شارل كان . الا انه تلكأ في تأييد بوهيميا ، اذ قد يفهم من ذلك التأيد ، مخاصمة الكاثوليكية . وتتبع ملك انكلترا (جيمس الاول) الحوادث دون تدخل ، على الرغم من بروتستانتية ، وقرابته لامير بالاتينا ، لانه كان منشغلا — كما رأينا — بدعم ملكه .

الا ان (دول الشمال السكندنافية) لم تقف مكتوفة الايدي ، أو مجرد مراقبة للاحداث ، بل حشرت نفسها في ذلك الصراع الدامي ، لدوافعها الدينية — كما سنرى — ولرغبة كل واحدة منها ، في تأكيد سيادتها على بحر البلطيق ، بعد زوال نفوذ العصبة الهانسية . فالتنافس على سيادة ذلك البحر كان حادا بين السويد ، والدانيمارك ، وبولونيا .

ويمكن تتبع ذلك الصراع الدموي ، وتحوله من صراع داخلي محلي ، الى صراع أوروبي واسع ، من ملاحقة مراحل الاربعة :

المرحلة الاولى وهي المرحلة التشيكية البالاتينية (١٦١٨ - ١٦٢٥)

وخلالها لم يكن الامبراطور (فردينان الثاني) ، ليملك القوى الكافية لدمر التشيك ، والبالاتينيين معا ، الا انه حصل على عونين هامين : اولهما عون (العصبة الكاثوليكية المقدسة) ، القلقة من النفوذ ، والمكانة ، اللذين قد يتمتع بهما البروتستانت في المستقبل . فكون ملك بوهيميا بروتستنتيا ، يجعل عدد أصوات المنتخبين البروتستانت ، في انتخاب الامبراطور الجرمني الروماني المقدس ، اربعة أصوات مقابل ثلاثة اصوات للكاثوليك^(١) .

وثاني العونين ، عون منتخب « ساكسونيا اللوتري جدا » (جان جورج الاول) الذي كان معاديا للكالفنيين التشيك . وفي الثامن من شهر تشرين الثاني عام ١٦٢٠ ، هزمت القوات الامبراطورية جيش (فردريك الخامس) ملك بوهيميا ، في معركة (الجبل الابيض) . وتبع ذلك سياسة قمع ارهايية شديدة ، نفذها الامبراطور في بوهيميا . فقد اراد أن يستعيدها للكاثوليكية وفي الوقت ذاته « جرممتها » . فأمر جميع البروتستانت بمغادرة البلاد ، وصادر أملاك النبلاء الثائرين ، واعطاها للنبلاء المخلصين له ، وجعل بوهيميا ملكا وراثيا لاسرة هابسبورغ ، واحتل (بالاتينا) ، واعلن عزل فردريك الخامس من منصبه كمنتخب ، واعطي المنصب مع جزء من بالاتينا الى أمير بافاريا .

وهكذا غدا المجلس الانتخابي للامبراطورية ، يضم خمسة أصوات كاثوليكية (بوهيميا ، بافاريا ، كولونيا ، ماينس ، وتريف) وصوتين بروتستانتين (ساكسونيا وبرانديبورغ) .

المرحلة الدانيماركية (١٦٢٥ - ١٦٢٩)

وهي المرحلة الثانية من الحرب . وقد شاع في الاوساط الاوربية ان

(١) كلن يتم انتخاب الامبراطور من قبل سبعة منتخبين : هم رئيس اساقفة تريف ، ورئيس اساقفة كولونيا ، ورئيس اساقفة ماينس ، (وهؤلاء من الكاثوليك) وكونت بالاتينا الرينانية ، ودوق ساكسونيا ، و أمير براند يبورغ ، وملك بوهيميا (وهؤلاء من البروتستانت) .

(فردينان الثاني) ، وهو تلميذ قديم لليسوعيين ، وكاثوليكي متحمس جدا ، ينوي القضاء نهائيا على البروتستانتية في جميع انحاء الامبراطورية . ولذا فان اللوتريين ، أسرعوا لطلب مساعدة ملك الدانيمارك (كريستيان الرابع) ، البروتستانت ، الذي كانت له اطماعه في مصبات نهر الالب ، والوزير ، شمالي ألمانيا .

وامام اجتياح القوات اندانيماركية لألمانيا الشمالية ، اتفق الامبراطور مع النبيل التشيكي (فالنشتين Wallenstein) ليكون قائدا لقواته ، على ان يقوم هو بجمع الجنود اللازمين . واستطاع (فالنشتين) ان يجمع (٣٠.٠٠٠) جندي . اعتمد في تمويلهم على السلب ، والنهب . واستطاع بهذا الجيش ان يهزم ملك الدانيمارك ، في موقعة (جسر ديسو Dessau) عام ١٦٢٦ ، واكتسح ارض (هولشتاين) ، التابعة للدانيمارك ، وكذلك جوتلاند . واضطر ملك الدانيمارك لعقد معاهدة (لوبيك) مع الامبراطور عام ١٦٢٩ ، لانهاء الحرب . وتعهد ملك الدانيمارك فيها ، ألا يتدخل في المستقبل بالشؤون الألمانية ، وان يترك حلفاءه . وشعر الامبراطور بعد ذلك النصر ، بأنه غدا حر اليدين للتصرف بألمانيا ، وفرض قانونه عليها كلها . فأصدر في عام ١٦٢٩ (مرسوم الارجاع) Edict of Restitution وهو يلزم الامراء البروتستانت ، الذين استولوا على الاراضي التابعة للكنيسة ، بعد (صلح اوغسبورغ) عام ١٥٥٥ ، على ارجاعها . ووضع القائد (فالنشتين) على رأس الجيش ، الذي نفذ ذلك المرسوم . وكانت استعادة تلك الاراضي ، تعني وضعها تحت تصرف الامبراطور ، ومن ثم انتقال ملكية تلك الاراضي ، لصالح أسرته ، وحلفائه الكاثوليك ، مما يعطي الامبراطور قوة كبيرة ، ويوسع سلطته . وقد أصدر الامبراطور مرسومه بصفة شخصية ، أي دون اتفاق مسبق مع الديت ، أو مع المجلس الانتخابي ، على الرغم من انه اجراء هام ، وعميق الاثر ، في بنية الامبراطورية . كما نص المرسوم أيضا على عدم الاعتراف بالمذاهب البروتستانتية الاخرى غير اللوترية . وبذلك كان المرسوم تحديا للبروتستانت ، الذين ظلوا يرفضون تلك البنود من صلح اوغسبورغ . وفي الحقيقة ان تصرف الامبراطور

كملك مطلق ، جعل جميع الامراء الالمان يستأثرون ، ولاسيما أن قائده
(فالنشتين) ، وجنده ، سلكوا سلوكا قاسيا ، ورهيبا ، على الارض الالمانية ،
مما دفع الامارات الالمانية الكاثوليكية نفسها ، لطلب عزله . واستجاب
الامبراطور للطلب .

المرحلة الثالثة - المرحلة السويدية ١٦٣٠ - ١٦٣٥

وسميت بذلك لدخول السويد الحرب الى جانب البروتستانت ، وضد
الامبراطورية . ويرجع تدخل السويد الى الاسباب التالية :

- ١ - حماية البروتستانت المقهورين ، وبخاصة بعد (مرسوم الارجاع) .
- ٢ - رفض الامبراطور وساطتها في معاهدة لوبيك .
- ٣ - اعادة بعض الامراء ، من اقرباء ملك السويد ، الى اماراتهم التي
طردوا منها .
- ٤ - قلق السويد من المشروعات البحرية للامبراطور ، في تأكيد سيادته
على بعض موانئ البلطيق .
- ٥ - مطامع السويد في سيادة بحر البلطيق ، عن طريق الاستيلاء على
بروسيا ، وبوميرانيا .
- ٦ - تحريض فرنسا للسويد : فقد خشيت فرنسا قوة الامبراطور ، واعتقد
(ريشليو) ان الامبراطور سيتفق حتما مع ابن عمه ملك اسبانيا (فيليب
الرابع) ، بحجة اعادة الكاثوليكية الى الامبراطورية ، فيبعث من جديد مفهوم
(الملكية العالمية) السائد في العصور الوسطى ، والذي اراد شارلكان في
القرن السادس عشر ، أن يعيده للواقع السياسي الاوربي . وجاء ترشيح
(فردينان الثاني) لابنه ، كي يخلفه على العرش الامبراطوري ، تأكيدا لهذا
الاعتقاد . وأمام هذا الخطر المنتظر ، أرسل ريشليو مبعوثا في عام ١٦٣٠ ،

الى (راتسبون) حيث كان ديت الامبراطورية مجتمعا ، كي يقنع النخبين ، بعدم انتخاب ابن مردينان ، خلفا للامبراطور . وقد نجح المبعوث الفرنسي في مهمته ، لان الامراء الكاثوليك ، والبروتستانت ، على حد سواء ، كانوا قلقين جدا من ازدياد السلطة الامبراطورية . وفي الوقت الذي كانت فيه فرنسا تبحث بمندوبها ، فانها كانت توقع مع ملك السويد (غوستاف آدولف) ، معاهدة لتمويله في حملته التي ينوي القيام بها ضد الامبراطورية .

وبالفعل انزل ملك السويد قواته على ساحل بوميرانيا في تموز ١٦٣٠ . وكان قد جمع جيشه من فلاحى السويد ، المتحمسين للبروتستانتية . وكان هذا الجيش من أفضل جيوش أوروبا ، لحسن نظامه ، ودربه على القتال ، واخلاص أفراد . وقد دخلوا المعركة وهم يرتلون الاناشيد الدينية .

وكان قد تحالف مع السويد ، الامراء البروتستانت ، الذين كانوا قد بقوا على الحياد ، كدوق ساكسونيا ، وامير براند يبورغ . وتمكن الجيش السويدي من هزيمة القوات الامبراطورية في (برايتينفيلد Breitenfeld) ، قرب ليزنغ (١٦٣١) ، واندفع نحو الرين غربا ، واحتل بافاريا ، واستقبله البروتستانت ، وكأنه مبعوث الله اليهم ، بل أوحوا اليه كي يسعى للمطالبة بالتاج الامبراطوري .

وهنا استدعى الامبراطور (فالنشتين) ثانية ، وسلمه قيادة الجيش ، ومنحه سلطات واسعة ، وقذف به في وجه (غوستاف آدولف) . وكان لقاء الجيشين في (لوتزن) من أعمال ساكسونيا . واضطر فالنشتين أن يوقف المعركة لخسائره الكبيرة ، الا ان الملك (غوستاف آدولف) قتل في المعركة (١٦ تشرين الثاني ١٦٣٢) .

وتتالت المعارك بين (فالنشتين) والقوات السويدية ، والامانية البروتستانتية . الا ان الامبراطور قرر عزل فالنشتين لانه كان يتآمر عليه ، ويعقد مفاوضات سرية مع السويديين ، والساكسون ، وغيرهم ، وانتهى أمر هذا القائد بالقتل عام ١٦٣٤ .

وتسكن الامبراطور بعد ذلك من توقيع (صلح براغ) عام ١٦٢٥ مع

٢٧٣ — تاريخ اوربا في العصر الحديث ١٨

ساكسونيا ، منحها فيه بعض المقاطعات ، كما سمح بابقاء أراضي الكنيسة المصادرة من البروتستانت ، بأيدي مصادريها ، لمدة (٤٠) سنة . ونص في الصلح على العفو العام عن الثائرين ، ماعدا الذين أسهموا في الاضطرابات في بوهيميا ، وبالاتينا . كما وافق أمير ساكسونيا على التحالف مع الامبراطور ضد السويد . وقد قبل بهذا الصلح ، أمير براند يبورغ ايضا ، وبقية الدويلات البروتستانتية .

المرحلة الرابعة - المرحلة الفرنسية - السويدية (١٦٣٥ - ١٦٤٨)

ان مقتل (غوستاف آدولف) في الحرب ، ونصر الامبراطورية ، دفع فرنسا للتدخل مباشرة في الصراع لمقاومة (الخطر الهابسبورغي) الذي ينسج خيوطه حولها . فمنذ وقت طويل ، والملك (فيليب الرابع) ، ملك اسبانيا ، يؤيد ابن عمه (فردينان الثاني) . وفرنسا من ناحيتها كانت تقوم بحرب « خفية » ضدهما ، عن طريق الدبلوماسية ، وتمويل أعدائهما . الا انها في عام ١٦٣٥ تحالفت مع هولاندة ، واحتجت بخطف منتخب تريف ، وكانت هي التي تحميه ، لتعلن الحرب على اسبانيا والنمسا معا .

ولم تكن بدايات الحرب نصرا لفرنسا ، إذ اكتسحت أراضيها من الشمال ، والشرق ، والجنوب ، واقترب الفرسان الاسبان من باريس . وفي ١٦٣٧ ، فقدت فرنسا مواقعها في الالب ، وايطاليا . الا ان اليأس لم يدب الى نفس ريشيليو ، ومليكه . وقد أثر صبرهما اذ تمكنت فرنسا انطلاقا من عام ١٦٣٨ ، ان تحتل (الروسيون) (جنوب شرق فرنسا) و (الارتوا) (شمال غرب فرنسا) ، وان تثير على الاسبان (كاتالونيا) . وبعد موت ريشيليو (١٦٤٢) ، ولويس الثالث عشر (١٦٤٣) ، أحرزت فرنسا النصر تلو الآخر ، وكان آخر المعارك في (لينز Lenz) في عام ١٦٤٨ ، وفي الاراضي المنخفضة ، وكان النصر فيها لفرنسا ، وتحطمت السيادة العسكرية للامبراطور . وعندما هدد القائد الفرنسي (تورين) ، (فيينا) عاصمة النمسا ، قبل الامبراطور نتيجة المفاوضات ، التي كانت قد ابتدأت منذ بضع سنوات ، ووقع (صلح وستفاليا) .

صلح وستفاليا (٤ تشرين الاول عام ١٦٤٨) : لقد وقع الصلح العام في

وستاليا (مقاطعة في غربي ألمانيا) ، وكانت القوى الكاثوليكية مجتمعة في (مونستر) ، والبروتستانتية في (اوزنابروك) . ورفضت اسبانيا وحدها التوقيع ، الا انها منذ مطلع ١٦٤٨ ، كانت قد اعترفت باستقلال « المقاطعات المتحدة » (هولاندة) . وقد ضمنت كل من فرنسا والسويد تنفيذ تلك المعاهدات . ومن البنود الرئيسية في هذا الصلح :

١ - الاعتراف بالمذاهب الثلاثة المسيحية في ألمانيا : الكاثوليكية ، واللوترية ، والكالفنية ، وكلها تتساوى بالحقوق . ويمكن للامراء أن يفرضوا مذهبهم على رعيتهم ، ومن ثم فقد بقيت بوهيميا كاثوليكية .

ونتيجة لهذا الاعتراف ، هدأت ألمانيا من الناحية الدينية ، وعاد التوازن بين الكاثوليك ، والبروتستانت . وتنازل الامبراطور عن (مرسوم الارجاع) ، واستعاد ابن (فردريك الخامس) جزءا من أراضي أبيه ، مع احتفاظه بلقب (منتخب) . وكذلك احتفظ أمير بافاريا هو الآخر بلقبه كمنتخب مع جزء من بالاتينا .

٢ - حددت سلطة الامبراطور في ألمانيا : وهذا قضاء على ادعاءاته ، وحفاظ على التجزؤ الألماني ، وضمانة لسلامة فرنسا . فالامبراطور غدا ينتخب من ثمانية منتخبين : خمسة من الكاثوليك وثلاثة من البروتستانت . واعيد تركيب (الديت) ، واعترف باستقلال الامراء الثلاثمائة والستين ، الذين تتألف منهم ألمانيا . واعطوا الحق في أن يعقدوا تحالفات مع الملوك والامراء الاجانب . وقد بقيت ألمانيا مجزأة على الصورة المذكورة ، حتى القرن التاسع عشر ، عندما نجحت عام ١٨٧١ ، بتكوين (الاتحاد الألماني) .

٣ - تقلص الامبراطورية : فقد اعترف باستقلال الاراضي المنخفضة ، والمقاطعات السويسرية .

٤ - انتقل بعض الاراضي الى ملكية يد أخرى بصفتها غنيمة حرب للمنتصرين : فقد تلقت السويد الاراضي التي تسمح لها بالسيطرة على مصبات الانهار الألمانية الكبرى مثل (بوميرانيا الغربية) ، و (مصب الاودر) ، وميناء

(شتيتن) ، واسقفيات (بريمن) و (ثردن) . وبذلك أصبح للسويد ، مقعد في
الديت الألماني .

واعترف بسيادة فرنسا على الاسقفيات الثلاث ، التي كانت قد استولت
عليها منذ قرن ، وهي : متز ، وتول ، وفردان . كما نالت فرنسا في (اللزاس)
حقوقا واقطاعات . وقد فضل (مازاران) اللزاس على (اللورين) ، لتستطيع
فرنسا أن تراقب ، وهي على نهر الرين ، آل هابسبورغ ، مراقبة أفضل . وبذلك
بلغت فرنسا ، ولأول مرة في تاريخها ، حدود نهر الرين .

واعطيت بروسيا ، تعويضا لها عن بوميرانيا مقاطعات (هالبرشتات) و(مندن)
و (ماغد يورغ) .

ينظر الالمان عادة الى (صلح وستفاليا) على انه كارثة قومية ، إذ يرون فيه
تكريسا للانقسام ، والتجزؤ الألماني ، ونصرا (للحريات الجرمنية) ، أي
للافتصال ، والمصالح الخاصة ، على حساب المحاولات الامبراطورية التوحيدية .
وفي الواقع ، لم يكن مصاب ألمانيا ، من هذه الحرب ، في استمرار تفككها
فحسب ، وانما بما نكبت به خلال الحرب : فاجتياح الجيوش الامبراطورية ،
والسويدية ، والدانيماركية ، والفرنسية لارضها ، رمى اقتصادها بسهام قاتلة .
ولا سيما انها عانت في هذا الوقت نفسه ، مواسم زراعية سيئة ، ومجاعات ،
وأوبئة ، مما أدى الى « أكبر هزة ديموغرافية في تاريخها » (١) .

وقد كان اقليم الرين ، وهو محور العمليات العسكرية ، أكثر المناطق تأثرا
بتلك الحرب . وتقدر الخسائر البشرية في ألمانيا بـ ٤٠٪ من سكانها في الارياف ،
و ٣٠٪ من سكانها في المدن . وقد دفع هذا النزف السكاني ، الناس الى
الهجرة نحو المناطق ، التي تضاعل عدد سكانها . وكانت عملية إعادة التعمير
بطيئة ، لان أوروبا كلها كانت تمر بمرحلة من الصعوبات الاقتصادية الخطيرة .

— ١ —
S. Pillorget, Apogée et déclin des Sociétés d'ordre (1610 - 1787)
Paris 1969, P. 144.

وفي الواقع تلقت ألمانيا ضربة اقتصادية رهية ، ماعدا اللهم بعض المناطق ،
كسليزيا مثلاً .

نهاية السيادة الاسبانية : ظلت الحرب قائمة بين فرنسا واسبانيا بعد توقيع
(صلح وستفاليا) ، إذ رفضت اسبانيا توقيعه . واستفادت اسبانيا من أزمة
(حروب الفروند) في فرنسا ، فاجتاحت شمالها ، وشرقها . الا أن فرنسا مارست
تأثيراً قوياً في ألمانيا ، بعد توقيع (صلح وستفاليا) ، حتى فكر مازاران لفترة ،
أن يطرح ترشيح الملك لويس الرابع عشر ، لعرش الامبراطورية ، بعد وفاة
الامبراطور (فرديناند الثالث) عام ١٦٥٧ . الا انه سرعان ما عدل عن ذلك ،
وتمكن من التأثير في الناحيتين الثمانية ، حتى انهم طالبوا الامبراطور الجديد
وهو (ليوبولد الاول) ، بألا يقدم أي عون للأراضي المنخفضة الاسبانية ، المهددة
آنذاك بالجيوش الفرنسية . وللحصول على ضمان أكبر ، فقد تجمع الامراء الالمان
في منطقة الرين ، في (عصبة الرين) ، التي وضعت نفسها تحت حماية فرنسا ،
وسدت الجبهة شرقي الأراضي المنخفضة . كما أن مازاران وقع تحالفاً مع انكلترا
(كرومويل) . وهكذا استطاعت فرنسا ، الانتصار على القوات الاسبانية ، في
معركة (دون Dunes) في حزيران (١٦٥٨) ، فاضطرت اسبانيا لطلب الصلح ،
ووقعت (معاهدة البيرنه) في ٧ تشرين الثاني ١٦٥٩ التي كانت نهاية للسيادة
الاسبانية .

وفي هذا الصلح نالت فرنسا مقاطعة (الارتوا) ، و (الروسيون) ، وبعض
الاماكن على الحدود الشمالية . وتزوج الملك لويس الرابع عشر من (ماري
تيريز) ابنة ملك اسبانيا ، على ان تتنازل عن عرش اسبانيا ، مقابل بائنة كبيرة
تقدر بـ (٥٠٠.٠٠٠) قطعة ذهبية . وكان مازاران ينتظر من هذا الزواج ، وراثة
فرنسا لعرش اسبانيا ، لان ولي العهد الاسباني مريض جداً ، واسبانيا غير قادرة
على دفع البائنة المطلوبة .

وهكذا - وكان فرنسا في ١٦٦٠ ، هي التي كانت توجه اوروبا كلها : فمقابل
اسبانيا المتدهورة ، والمانيا المحطمة ، والامبراطور الذي عاد الاتراك يهددونه ،
برزت فرنسا قوية بتحالفاتها ، وبجيوشها الدائم وسكانها الكثر (١٩ مليون) ،

وفرضت نفسها قوة اولى في اوربا ، بينما كانت حليفها السويد ، تسود اورب
الشمالية .

٢ - لويس الرابع عشر واوربا

١٦٦١ - ١٧١٥

عاشت اوربا بين ١٦٦١-١٧١٥ تسعة وعشرين عاما من الحرب ، تصارعت
خلالها القوى الاوربية . وقد خرجت اوربا من ذلك الصراع ، مختلفة عن اوربا
التي اراد لويس الرابع عشر ان ينظمها بحسب مزاجه .

السياسة الخارجية للويس الرابع عشر : لقد اراد لويس الرابع عشر ،
وقد استلم الحكم بنفسه عام ١٦٦١ ، ان يفرض نفسه على اوربا ، التي لم تكن
تأمل آنذاك الا بالسلام . وان الميداليات التي سكتها ، والتي تمثله سيدا متوجا ،
طامعا بالمجد ، تدل على تطلعاته تلك .

وفي الواقع ، لقد كانت فرنسا ، تتمتع برصيد معنوي كبير في اوربا ، عبر
انتصاراتها، واشتغالها الفني ، والادبي . ويضاف الى ذلك قوتها العسكرية المتنامية
التي يقودها (تورين) ، و (كوند) ، ودبلوماسيتها الفعالة ، التي كان يسيروها
اقطاب سياسيون ، اهمهم (كولبير) ، وتدعمها شبكة من السفراء والعلماء
البريين . واخيرا هناك الاموال التي كانت توزعها بسخاء بين الامراء ، والوزراء ،
والاجانب ، لكسبهم الى جانبها .

واذا ما تساءل الفرد ، عن اهداف لويس الرابع عشر ، من سياسته الخارجية ،
فانه يمكن القول انه لم يكن ليحمل مخططا كبيرا متكاملا ، وانما
اهتمامات تختلف بحسب الظروف : فهو يتمنى التاج الامبراطوري ، ويريد
ان يتناول الى العرش الاسباني ، كما يرغب في الاسهام ضد الاتراك ، والبروتستانت
دفاعا عن الكاثوليكية والمسيحية . ومع ذلك فهناك فكرتان سائدتان في سياسته
الخارجية :

— ضمان سلامة الحدود التي يمكن لقربان ان يحصنها : فمقاطعة فرايش
كوتته ، واللورين (وقد احتلها بين ١٦٦٢-١٦٩٧) ، والاراضي المنخفضة ، كانت
كلها تثير لعبه ، إذ بها يضمن لفرنسا حدودها الطبيعية ، وهي نهر الرين .

— تحقيق الفخار الشخصي والمجد : فهو كأمثاله من النبلاء الشبان ، كان يجب الحرب (فهي تسلية لذيدة) ، الا انه مع ذلك كان يخشى الصدف في المعارك . ولذا فانه فضل في سنيه الاولى المفاوضات للوصول الى اغراضه . ولكن الكبرياء سرعان ما طغت على نفسه ، وشيئا فشيئا ، شرع يثير تحالفات معادية له ، كان يمكن تجنبها . بل بدا انه لم يكن لينزعج من وجوده وحيدا ، ضد الجميع .

١ - سياسته من ١٦٦١-١٦٦٧ وقد اتبع في هذه المرحلة سياسة ابهة ومظاهر ، أراد ان يبدو فيها انه السيد الاعلى على اوربا : فقد وقف مخلصا ، ومجابه ، لكل من ، ملك اسبانيا ، وملك انكلترا ، نتيجة مشاحنات ، حول اسبقية تقدم سفرائه في الاحتفالات ، على سفراء دولتيهما . لانه كان يصر دائما ، على ان يكون لسفرائه الاسبقية على سفراء بقية الدول . وكان يمنع ان تكون مراكبه هي البادئة بتحية المراكب الانكليزية . بل انه طلب من البابا ، ان يقدم له الاعتذار ، على اثر مما حكة بين سفير فرنسا ، وحرس البابا . ان هذه الارضاءات الصغيرة لغروره ، توجهها العون الذي قدمه للامبراطور ، لما هدهذا الاخير بالهجوم العثماني . وبذلك مهد لنصر المسيحية في معركة (سان غوتار) عام ١٦٦٤ على ابواب فينا .

كما نجح في عقد تحالفات عديدة : مع برانديبورغ ، واكثرية الامراء الالمان ، والدانمارك ، والمقاطعات المتحدة .

وفي عام ١٦٦٢ اشترى (دنكرك) من الملك (شارل الثاني) ملك انكلترا ، الذي بقي متحالفا معه . ولكن عندما قامت الحرب بين المقاطعات المتحدة (هولندا) وانكلترا ، بسبب التنافس على السيادة البحرية ، شعر لويس الرابع عشر بالحرَج ، وتجنب منح تأييد كبير ، وواضح ، لهولندا ، حليفته . ولقد عانى الانكليز فترات سيئة وصعبة ، فقد اجتاحت البلاد الطاعون الاسود عام ١٦٦٥ ، وقام حريق لندن الكبير عام ١٦٦٦ ، وهدد الاميرال الهولندي (رويتر) العاصمة الانكليزية . وسمى لويس الرابع عشر للسلام بين حليفتيه ، وتم توقيع صلح بريده « Bréda » عام ١٦٦٧ . وفيه احتفظت انكلترا (بأستردام الجديدة) ، التي احتلتها في امريكا الشمالية ، والتي اصبح اسمها (نيويورك) .

الا أن لويس الرابع عشر كان قد انخرط في حرب مع اسبانيا ، وهو يسعى
للمصلح بين حليفتيه .

٢ - انتصارات لويس الرابع عشر في حروبه (١٦٦٧-١٦٧٩) :

٢ - حرب حق وراثة الاراضي المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) :

في عام ١٦٦٥ توفي ملك اسبانيا (فيليب الرابع) ، حمو لويس الرابع عشر،
وخلفه على العرش (شارل الثاني) . الا ان لويس الرابع عشر الذي لم يقبض بأئمة
زوجه النقدية ، طالب باسم زوجته (ماري تيريز) ، بحق وراثة الاراضي المنخفضة
الاسبانية (بلجيكا) . واستند على عرف بلجيكي قديم ، يعطي حق الوراثة
للولد الاكبر ، من الزواج الاول ، من اولاد الملك المتوفي ، اكان ذكرا أم اثنى .
ولما رفضت اسبانيا طلبه ، فانه هاجم الاراضي المنخفضة ، كما هاجم في الشرق
فرانش كوتته . الا ان السويد ، وانكلترا ، والمقاطعات المتحدة ، قلقت للامر ،
وكونت (التحالف الثلاثي البروتستنتي) ، وضغطت على لويس الرابع عشر ،
الذي وقع (صلح ايكس لاشايل) عام ١٦٦٨ . وفيه تنازل عن فتوحاته ، مع
احتفاظه بـ (ليل) ، وباحدى عشرة قلعة على حدود الاراضي المنخفضة ، سمى
فوبان بسرعة لتحسينها . وبذلك قوى لويس الرابع عشر حدوده الشمالية .

ب - حروب لويس الرابع عشر مع هولاندة (١٦٧٢-١٦٧٨)

لم يغفر ملك فرنسا « للمقاطعات المتحدة » تدخلها للضغط عليه ، وكان
لا يحب هذه الجمهورية البروتستانتية ، التي قامت ضده بدعاية « صحفية » مهينة
والتي كانت تنافس فرنسا صناعيا ، وتجاريا . وشجعت بطاته وكولبير على
محاربتها ، وكان يعتمد على تأييد بعض الدول ، مثل ، انكلترا ، والسويد .
وكانتا قد تحالفتا معه ، اما خوفا ، واما جشعا ، وسعيا وراء المال الذي كان
يفدقه عليهما ، واما لرغبتها في كسر شوكة المقاطعات المتحدة ، المنافسة لهما
اقتصاديا . وبالفعل فقد ابتدأ حربها عام ١٦٧٢ باجتياز نهر الرين . وفي بضعة ايام
استطاع الفرنسيون الاستيلاء على اكبر قسم من البلاد . وادت تلك الهزيمة ،

الى ثورة في المقاطعات المتحدة ، فقد اغتيل رئيسها (جان دوويت) • ونصب (ويليام دورانج) حاكما عاما ، وقد بقي هذا الاخير طيلة حياته ، عدوا لدودا للويس الرابع عشر • وحتى ينقذ ويليام بلاده من المحنة التي حاقت بها ، امر بفتح السدود التي تحمي الاراضي المنخفضة الهولندية من خطر البحر ، فاضطر الفرنسيون للتوقف امام الفيضان • وفي الوقت ذاته تمكن (ويليام اورانج) ، من جذب حلفاء لويس الرابع عشر اليه ، ما عدا السويد ، التي هزمت امام برانديبورغ في معركة (فيربلن) عام ١٦٧٥ : فتحالف مع ملك اسبانيا ، ومع الامبراطور ، واغلبية الامراء الالمان • واجبر الانكليز ، الذين احسوا بخطر التوسع الفرنسي ، الارضي ، والاقتصادي ، مليكهم على التخلي عن لويس الرابع عشر عام ١٦٧٤ • وغدت الحرب صعبة على فرنسا ، واضطرت ان تحارب في الاراضي المنخفضة وفرائش كوتته وفي الالزاس ، حيث قتل القائد (تورين) ، وكذلك على البحر ، حيث تمكن الاسطول الفرنسي من الهولندي ، في البحر المتوسط •

وفي الواقع لقد كانت الحرب منهكة للطرفين ، فوقعا اخيرا صلح (نيمينغ Nimègue) عام ١٦٧٨ ، الذي لم تفقد فيه « المقاطعات المتحدة » أي شبر من الارض ، كما حصلت على تنازل كولير عن التعرفة الجمركية ، التي وضعها لحماية الصناعة الفرنسية عام ١٦٦٧ • الا ان اسبانيا بالمقابل تنازلت لفرنسا في ذلك الصلح ، عن اماكن جديدة من الاراضي المنخفضة ، وعن فرائش كوتته • وتلقى لويس الرابع عشر من مدينة باريس لقب (لويس الكبير) ، وشعر الفرنسيون بالفخر لسيادة بلادهم اوربا ، ولعلو كعبها بين الدول •

ج سياسة جمع المقاطعات . احس لويس الرابع عشر بعد (صلح نيمينغ) بان لا قوة قادرة على مقاومته • ولذا فانه اخذ يطالب بجميع الاقاليم ، التي كانت تابعة في وقت ما لمناطق ضمت حديثا لفرنسا • وهذه هي « سياسة التجميع » التي كان من نتائجها تقوية الحدود الشمالية ، والشمالية الشرقية لفرنسا ، وذلك بضمها اليها جزءا من السار ، واللوكسمبورغ ، وستراسبورغ ، وذلك دون

حرب •
وشعر ملوك اوربا وامراؤها بالقلق من هذا « الصلح القاضم والكاسح » ،

فاخذوا يثيرون ضده الاحقاد ، هذا ، بينما كان لويس الرابع عشر يظن نفسه انه قد غدا سيد اوربا .

٣ - اخفاق لويس الرابع عشر ونهاية السيادة الفرنسية في اوربا (١٦٨٨-١٧١٤)

٢ - حرب عصبة اوغسبورغ (١٦٨٩-١٦٩٧) منذ ١٦٨٥ اخذ الموقف الاوربي ينعطف ضد لويس الرابع عشر :

— فقد غضب الامراء الالمان من سياسة « التجميع » التي اتبعها لويس الرابع عشر ، واخذت تساورهم الشكوك حول نواياه ، ولا سيما ما يظهر من رغبته في سيادة المانيا . كما ان البروتستانت منهم ، شعروا بالنقمة عليه لالغاء منشور نانت عام ١٦٨٥ ، واضطهاده للبروتستانت . ولذا فانهم التفوا حول الامبراطور ، حتى ان امير برانديبورغ استغنى عن مال لويس الرابع عشر ، وانحاز الى صف الامبراطورية .

وفي هذا الوقت ، كان الامبراطور ، بمساعدة ملك بولونيا (جان سويسكي) قد ابعد نهائيا الخطر التركي عام ١٦٨٣ ، وبذلك اصبح اقوى على الجبهة الغربية . وبالفعل فقد ضم اليه في (عصبة اوغسبورغ) اكثر الدول الاوربية ومنها انكلترة . اذ ان ثورة ١٦٨٨ فيها ، قد ابعدت عن العرش (جيمس الثاني) الكاثوليكي ، واتت بعدو لويس الرابع عشر اللدود (ويليام اورانج) ، الذي اصبح في الحقيقة الروح المحركة للتحالف .

وابتدأت العمليات الحربية ، باجتياح القائد الفرنسي (لوفوا) مقاطعة بالاتينا وذلك ليرهب الالمان ، وليضع منطقة مجتاحة بينه وبين اعدائه . الا ان عمله هذا ، ولد في الواقع حقدا دائما لدى الالمان . وقد تمكن الفرنسيون ان يحققوا انتصارات في الاراضي المنخفضة ، وفي ايطاليا ، الا ان الاساطيل الهولاندية ، والانكليزية مجتمعة ، هزمت الاسطول الفرنسي عام ١٦٩٢ . وانهكت الحرب جميع الاطراف ، ولا سيما ان سوء المحاصيل الزراعية ، جاء ليزيد الوضع سوءا (١٦٩٢-١٦٩٣ و ١٦٩٤) . ووقع الصلح في (ريزويك Ryswick) عام ١٦٩٧ . واعترف لويس

الرابع عشر فيه بويليام اورانج ملكا على انكلترة ، وتنازل عن المناطق التي ضمها ما عدا (ستراسبورغ) •

وشعرت اوربا بعد (صلح ريزويك) ، ان لويس الرابع عشر ، ليس ذلك الملك الذي توهموا انه لا يفلح ، كما شعرت فرنسا بخيبة الامل نتيجة ذلك الصلح التراجعي •

ب - حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢-١٧١٤) : عندما حضرت الوفاة الملك (شارل الثاني) ملك اسبانيا ، ولم يكن له ولد يرثه على العرش ، فانه اوصى بالعرش من بعده لدوق آنجو ، حفيد لويس الرابع عشر ، شريطة ان يتنازل عن عرش فرنسا • وقبل لويس الرابع عشر الوصية • الا انه ارتكب ثلاثة اخطاء ، **اولها :** انه احتفظ بحقوق دوق آنجو (وقد اصبح فيليب الخامس ملك اسبانيا) على العرش الفرنسي • **ثانيها :** وضع جيوشا فرنسية في الاماكن الحصينة الاسبانية ، في الاراضي المنخفضة • **ثالثها :** اعترف بابن (جيمس الثاني) المنفي ، ملكا على انكلترة عند وفاة ابيه ، الذي طرد من عرش انكلترة ولجأ اليه •

لم يسمع اوربا ان تقبل الوضع الخطير المخل بالتوازن الدولي ، الذي يجعل تاجي فرنسا واسبانيا ، متحدين يوما ، على رأس واحدة ، هي الرأس الفرنسية ، ولم يسمعها كذلك ان تقبل احتكار التجار الفرنسيين للسوق الضخمة في امريكا الاسبانية •

ولذلك فقد كونت انكلترة ، والامبراطورية ، والاراضي المنخفضة ، « تحالف لاهاي الكبير » الذي اعلن الحرب عام ١٧٠٢ على فرنسا • وقد انهزم الفرنسيون في بادئ الامر ، حتى ان فرنسا كلها اكتسحت عام ١٧٠٨ ، وباتت على وشك الاستسلام • كما استولى الانكليز على (جبل طارق) و (برشلونة) ، وطرد (فيليب الخامس) من مدريد • ولكن فرنسا عادت فجمعت قواها ، واستطاعت ان تحرز النصر عام ١٧١٢ ، كما تمكن (فيليب الخامس) من استعادة مملكته اسبانيا •

واخيرا وقد تعبت الحرب الجميع، وقع صلحان ، انهاء لها : **الصلح الاول**
صلح (اوترخت) عام ١٧١٣ . وهو بين فرنسا من طرف ، وانكلترا ، وهولندا ،
من طرف آخر ، **والثاني** بين فرنسا والامبراطور ، وهو صلح راشات عام ١٧١٤ .
وبموجب الصلحين يبقى « فيليب الخامس » ملكا على اسبانيا ، شريطة ان يتنازل
عن عرش فرنسا ، واذ يعطي للنمسا كل الممتلكات الاسبانية في الاراضي
المنخفضة ، وايطاليا (ميلانو ، نابولي ، سردينيا) ، وان يتنازل للانكليز عن
(جبل طارق) ، ويسمح لهم بالقيام ببعض تجارة مع المستعمرات الاسبانية في
امريكا . أما صقلية فتعود الى دوق سافوا .

وفي هذين الصلحين فقدت فرنسا بعض الحصون على الحدود مع الاراضي
المنخفضة، وتنازلت عن (الارض الجديدة) ، و (اكاديا) ، و (خليج الهدسون)
في امريكا الشمالية ، لانكلترا .

واهم من ذلك ، لقد اضطر (لويس الرابع عشر) ان يتراجع امام اوربا ،
التي تحالفت ضده . واذا كانت فرنسا قد خرجت من الحرب ، ولم تفقد اجزاء
من ترابها ، فانها خرجت منهكة اقتصاديا ، واجتماعيا ، وقد فقدت سيادتها على
اوربا .

وفي الواقع لم يدرك (لويس الرابع عشر) ان للقوة البحرية ، والاستعمارية
وزنا لا يقل ابدا عن وزن الجيوش البرية ، والسيادة على القارة . ولذلك فان
انكلترا التي كانت تطمح لسيادة البحار ، انتصبت قوة عاتية في وجه فرنسا ،
وكانت هي الدولة ذات النفوذ الاقوى في اوربا ، والعالم ، في القرن الثامن
عشر .

٣ - حروب اوربا مع الدولة العثمانية

ان الحروب بين الدولة العثمانية والعالم الاوربي ، لم تتوقف في القرن
السابع عشر ، على الرغم من مظاهر الصداقة ، التي كانت تبديها بعض الدول

الأوربية ، كفرنسا مثلا ، لتلك الدولة . فبعد ان انتهت الحرب بين الدولة العثمانية واسبانيا في عام ١٥٨٥ ، عادت ثانية الى الاشتغال بين النمسا ، والدولة العثمانية ، واسبانيا في عام ١٥٩٣ ، ودامت حتى عام ١٦٠٦ . وقد تمكنت الدولة العثمانية ، من الانتصار على النمسا في معركة (اكري) (قرب ايرلاو في المجر) ، الا انها لم تنجح في حسم الحرب نهائيا ، بسبب انشغالها بالحرب مع فارس ، التي استطاعت بدورها ان تستعيد قسما من المدن التي فقدتها سابقا . واخيرا وقعت مع النمسا صلح « تزيتفا توروك Zsitva - Torok » ، وهو اول صلح توقعه الدولة العثمانية خارج القسطنطينية . وبموجبه ، يترك النمسيون مقاطعة « ترانسلفانيا » لحليف الاتراك « بوكسكه Bocskay » ، وتعفى النمسا من دفع الجزية عن حصتها المتبقية لها من هنغاريا (المجر) .

وعندما وقعت « حرب الثلاثين عاما » في اوربا ، ارادت الدولة العثمانية ان تستغلها ، الا ان جيشها كان غير قادر على الحرب ، على جبهتين : فقد كان عليه ان يحارب ضد الفرس الشيعة الصفويين في الشرق ، وضد اوربا في الغرب . الا ان السلطان « مراد الرابع » (١٦٢٣-١٦٤٠) قرر ان يضع حدا لحرب الشرق ، فوجه قواته كلها ضد فارس ، واستعاد مدينة بغداد عام ١٦٣٨ . وجاء بعده حكم « ابراهيم الاول » (١٦٤٠-١٦٤٩) ، الذي قرر ان ينتزع « جزيرة كريت » ، من يد البنادقة . الا ان الحرب ، التي بدأت عام ١٦٤٥ ، دامت ما يقارب ربع قرن ، دون ان تستطيع الدولة العثمانية ان تسيطر على جميع معاقلها ، على الرغم من الرقعة المحدودة للجزيرة ، والمسافة القصيرة التي تفصل الجزيرة عن سواحل آسيا الصغرى . وفي الواقع شرع الضعف يصيب من الدولة العثمانية مقتلا ، ولاسباب عديدة ، منها : ضعف السلاطين ، وسوء جباية الضرائب ، وفساد نظام الجيش الانكشاري ونظام الفرسان ، وتفشي بيع الوظائف ، والوهن الاقتصادي ، الى غير ذلك من امور . فظهر التمرد في صفوف الجيش ، واخذ ينتفض على العالطين في العاصمة ، وعلى الولاة في الاقاليم . كما عمل على ممارسة الاعمال التجارية ، والحرفية ، الى جانب عمله العسكري ، مما حوله الى فئة بورجوازية ، لها مصالحها الخاصة ، التي تسعى الى تحقيقها . علما انه على الرغم من هذا الضعف الذي اصاب الدولة ، فان الدولة العثمانية بقيت في اعين

الاوربيين عام ١٦٦٠ ، تمثل قوة يخشى بأسها ، وظل كل من يكسب نصرا عليها من امراء اوربا ، وملوكها ، يتمتع بمكانة رفيعة في اذهان الاوربيين . ولهذا الغرض ، ارسل الملك «لويس الرابع عشر» ملك فرنسا ، فرقة الى «كاندية» في جزيرة كريت ، لتساعد البندقية في حربها ، واخرى الى هنغاريا ، لتحارب الى جانب جيوش النمسا ، عندما قامت الحرب مرة اخرى بين الدولة الاخيرة والدولة العثمانية عام ١٦٦٣ م . وقد اسهمت تلك الفرقة في النصر الذي احرزته النمسا في معركة « سان غوتار » عام ١٦٦٤ ، وكان من نتائجها « صلح فاسفار Vasvar » . وينص على هدنة بين الطرفين لعشرين عاما ، وتمتنع الدولة العثمانية عن التدخل في تعيين امير « لترا نسلفانيا » ، ويصبح هذا الامر من عمل الدويلات المحلية .

الا ان ملكا اوربيا آخر ، بدا وجهها اكثر « صليبية » ، وتحقيقا لاماني اوربا المسيحية ، من الملك لويس الرابع عشر ، وهو ملك بولونيا « جان سوبيسكي Jean Sobieski » فقد قامت حرب بينه وبين العثمانيين ، نتيجة الغارات على الحدود ، ونتيجة التنافس في السيطرة على اوكرانيا . ومع ان الاتراك توغلوا حتى « ليمبرغ » الا ان الملك البولوني استطاع ان يهزمهم مرتين . وعلى الرغم من هذه الهزائم ، فانه اضطر الى توقيع صلح « زورافنا Zuravna » ، عام ١٦٧٦ الذي حصل فيه الاتراك على معظم بودوليا ، وعلى اوكرانيا البولونية . وبذلك اصبحوا يتحاك مع روسيا .

وبالفعل قامت اول حرب عثمانية مع روسيا ١٦٧٧-١٦٨١ اثر هجمات القوزاق على الارض العثمانية ، وانهت بمعاهدة « رادزين Radzin » عام ١٦٨١ ، التي ألزمت الاتراك على التنازل عن معظم اوكرانيا ، وعلى اعطاء (القوزاق) حقوقا تجارية في البحر الاسود .

ان احتفاظ الدولة العثمانية ببعض مظاهر قوتها العسكرية ، على الرغم من الضعف الذي كان ينخر في مؤسساتها الادارية ، يرجع في الواقع الى وجود « أسرة كوبرلي » على رأس الصدارة العظمى . فمحمد كوبرلي (١٦٥٦ - ١٦٦١) ، استطاع أن يسيطر على الانكشارية ، باعدام قادتهم الفاسدين ، وطهر البلاط ،

وأصلح الاحوال المالية • وتابع ابنه احمد (١٦٦١ - ١٦٧٨) سيطرته على الموقف • وخلف الاخير في الصدارة العظمى ، « قره مصطفى » ، صهره ، وهو وان لم يكن بمقدرة الاثنين اللذين سبقاه ، الا انه كان طموحا • وكان تدخله في المجر ضد النمسا ، سببا لحرب جديدة مع هذه الاخيرة ، استمرت (١٨) عاما (١٦٨٢ - ١٦٩٩) •

وقد تحالفت النمسا مع بولونيا ، وملكها « جان سوييسكي » ، ووصلت جيوش العثمانيين الى أبواب (فينا) عام ١٦٨٣ ، وحاصرتها من ١٧ تموز الى ١٢ ايلول • الا أن جيشا ألمانيا - بولونيا موحدا ، استطاع أن يخلص المدينة • وكون البابا « اينوسان الحادي عشر » (عصبة مقدسة) ضد الاتراك العثمانيين ، دخلت فيها البندقية • وقد هاجمت هذه الاخيرة الدولة العثمانية بحرا ، واستولت على كورثا ، وحاصرت أثينا • واحتل الروس (مدينة آزوف) ، واستولت النمسا على (بودابست) عام ١٦٨٦ • ونتيجة لذلك ، قدم « ديت المجر » في السنة التالية ، تاج « القديس ايتين » ، وهو تاج المجر ، الى اسرة هابسبورغ ، بشكل وراثي ، وحققت النمسا نصرا آخر في « موهاغز » عام ١٦٨٧ ، واحتلت بلغراد عام ١٦٨٩ •

الا أن الاتراك العثمانيين عادوا فسيطروا على الموقف بعد استلام « مصطفى كوبرلي » الصدارة العظمى عام ١٦٨٩ (وهو أخو أحمد كوبرلي) ، وتمكنوا من دحر النمسيين ، واخراجهم من بلغاريا وترانسلفانيا ، واستعادة بلغراد • ولكن النصر لم يستمر ، فالقوات الاوربية المتضافرة عادت فأوقعت الهزيمة بالدولة العثمانية ، وبخاصة في (معركة زتتا) عام ١٦٩٧ • وانتهت الحرب بتوقيع (معاهدة كارلوتز Karlowitz) عام ١٦٩٩ • وتمثل منعظا خطيرا في حياة الدولة العثمانية ، يفصح عن الضعف ، الذي أصابها ، وتنص على ما يلي :

- ١ - مدة المعاهدة ٢٥ عاما •
- ٢ - تأخذ النمسا كل المجر (ما عدا بنات تمسفار) ، و (ترانسلفانيا) ، و (كرواتيا) و (سلافونيا) •

٣ - تأخذ البندقية كل (شبه جزيرة المورة) ، ومعظم (دالماسيا) .

٤ - تحصل بولونيا على (بودوليا) .

٥ - تنال روسيا (آزوف) .

لم يستسلم العثمانيون لما فرض عليهم في (كارلوتز) ، فعادوا الى الحرب بعد (١٢) عاما ، وكانت موجهة ضد روسيا (١٧١٠ - ١٧١١) . وقد أثار الاتراك للقيام بها ملك فرنسا « لويس الرابع عشر » ، وملك السويد « شارل الثاني عشر » ، الذي كان قد فر الى تركيا لاجئا ، بعد هزيمته أمام الروس في (معركة بولتافا Poltava) عام ١٧٠٩ . ولقد أظهر قيصر روسيا (بطرس الاكبر) نفسه ، وكأنه بطل تحرير لمسيحي شبه جزيرة البلقان ، من حكم الدولة العثمانية المسلم ، فسعى لاثارة الثورات بينهم ضد الدولة العثمانية . الا انه أحيط عام ١٧١١ ، وعلى نهر « بروث » بجيش عثماني قوي ، وكان عليه أن يفدي نفسه من الاسر . وفي معاهدة « بروث » عام ١٧١١ أجبرت روسيا على التنازل عن آزوف ثانية .

ووجهت الدولة العثمانية قواتها أيضا ضد البندقية (١٧١٤ - ١٧١٨) ، وانتزعت منها « كورنثا » في اليونان ، وما كان قد تبقى لها من محطات بحرية في كريت . الا ان النمسا رفدت البندقية ، بمحاربة العثمانيين على الحدود المجرية ، واستطاعت أن تستعيد « بلغراد » عام ١٧١٧ ، وان تعقد صلحا جديدا مع الدولة العثمانية ، هو (صلح بيسارويتز Passarowitz) . وفقد فيه الاتراك « بنات تمسفار » ، ومنطقة الافلاق الغربية (فالاشيا) الا انها احتفظت بشبه جزيرة المورة .

وهكذا انتهت الحروب الاوربية العثمانية في القرن السابع عشر بتفوق أوربا على الدولة العثمانية ، واقتطاع أجزاء من امبراطوريتها .

٤ - الحروب في منطقة البلطيق

لقد بدا في عام ١٦٦٠ أن « بحر البلطيق » قد تحول فعلا الى « بحيرة

سويدية » . فقد سيطرت السويد على معظم أجزائه : فامتلكت « سكانيا » نهائيا ، واجزاء من المانيا مثل بريمين ، وثرذن ، وبوميرانيا الغربية ، كما كانت سائدة على الشاطئ الشرقي للبحر ، من فنلندا الى ريغا . وظهرت السويد دولة ذات شأن في السياسة الاوربية ، وتحالفت مع فرنسا في حرب لويس الرابع عشر مع الاراضي المنخفضة . الا أن ملكها « شارل الحادي عشر » (١٦٦٠ - ١٦٩٧) ، عمل على اجتياح مقاطعة « براند يبورغ » ، وتمكن « المنتخب الكبير » من هزيمته في معركة « فيربلين Fehrbellin » عام ١٦٧٥ . وكانت هذه الهزيمة ضربة قوية للقوة العسكرية السويدية . وتبع الهزيمة استيلاء « المنتخب الكبير » (أمير بروسيا) على بوميرانيا السويدية ، وعدة مدن تابعة لها في شمال المانيا . ولكن السويد استطاعت أن تسترد ما فقدته ، بفضل تدخل فرنسا ، وفرضها معاهدة « سان جرمان آن له » عام ١٦٧٩ .

وقد تمكنت السويد خلال حكم ملكها « شارل الحادي عشر » أن تثبت « الحكم المطلق » : فقد شل الملك يد « المجلس » ، وأخضع « الجمعية العمومية » ، حتى انها أصدرت قانونا عام ١٦٨٠ ، بعودة جميع الاقطاعات الكبيرة الى العرب . وبذلك ضربت الارستقراطية السويدية ضربة قوية .

وعندما وصل « شاول الثاني عشر » الى العرش (١٦٩٧ - ١٧١٨) فانه كان لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره ، ولكنه أثبت ، بأنه كان أحد العقابرة العسكريين في العصر الحديث . ولقد غطت عصره كله « الحرب الشمالية الكبرى » (١٧٠٠ - ١٧٢١) ، التي كانت في الواقع وجها من وجوه الحرب العامة في أوروبا ، خلال السنوات الـ (١٥) الاولى من القرن .

وترجع أسبابها لمعارضة روسيا ، وبولونيا ، والدانيمارك ، للسيادة السويدية في منطقة البلطيق : « فبطرس الاكبر » كان مصمما على أن يجعل بلده بلدا بحريا ، وان يستولي على الموانئ على بحر البلطيق . وملك بولونيا ، كان يحلم بضم ليثونيا الى بولونيا . وملك الدانيمارك ، بالاضافة لرغبته في اضعاف السويد ، كان يحقد عليها ، لتأييدها دوق هولشتاين في صراعه مع الدانيمارك . وقام

— ٢٨٩ — تاريخ اوربا في العصر الحديث — ١٩

تحالف سري بين الملوك الثلاثة عام ١٦٩٩ ، وابتدأت الحرب عام ١٧٠٠ ، باجتياح الدانيمارك لمقاطعة شلزويك ، والبولونيين لليقونيا ، ولكن « شارل الثاني عشر » استطاع أن ينتصر على الدانيماركيين ، والبولونيين ، والروس ، والزم الدانيمارك على الخروج من الحرب . وتابع حربه مع بولونيا ، وتمكن من فرض صلح على ملكها « أغسطس الثاني » عام ١٧٠٦ ، تنازل فيه هذا الملك عن العرش لصالح « ستانيسلاس ليكنزسكي » مرشح السويد لعرش بولونيا .

وبعد ذلك اتجه « شارل الثاني عشر » لمحاربة روسيا . الا انه هزم امام القوات الروسية في معركة « بولتافا عام ١٧٠٩ » ، واضطر للجوء الى تركيا ، حيث حرضها على حرب روسيا ، وبقي فيها (٥) سنوات حتى ١٧١٤ . وخلال تلك الفترة عاد (الحلف الثلاثي) يحقق مبتغاه ، ويستولي على الممتلكات السويدية ، التي كان يبغيها . ولكن « شارك الثاني عشر » ، عاد الى ملكه ثانية ، عن طريق هنغاريا ، وألمانيا . وعاد لمحاربة خصومه ، روسيا ، وساكسونيا ، وبولونيا ، والدانيمارك ، وبروسيا ، وهانوفر (مقاطعة ألمانية شمالي ألمانيا) ، التي تحالفت كلها ضده . وسقط ملك السويد صريعا خلال حملة حربية على النرويج عام ١٧١٨ ، وخلفته على العرش أخته « اولريكا اليانورا » (١٧١٨ - ١٧٢٠) . وصفت حرب الشمال بثلاث معاهدات ، خرجت فيها السويد ، وقد احتفظت بوميرانيا ، وبفنلندة ، وسكانيا . وضمت روسيا استونيا ، وليقونيا ، ومقاطعات أخرى . كما ربحت بروسيا جزءا من بوميرانيا . وتنازلت الدانيمارك عن كل فتوحاتها ، مقابل غرامة مالية كبيرة . وسمح لهانوفر بضم « فردن » ، مقابل دفع تعويض مالي للسويد .

ان النتيجة الكبرى لهذه الحروب الطويلة ، والطاحنة ، كان تحطيم السيادة السويدية في بحر البلطيق ، وظهور روسيا دولة أوربية قوية .

الخاتمة

وعند الخروج من دراسة القضايا السياسية في القرن السابع عشر ، تتبدى حقيقة جديدة ، لم تكن ظاهرة في القرن السادس عشر ، وهي أن « سلطة الحكام

الوراثين » قد أخذ يضعف شأنها . وهذا يتضح بدكتاتورية كرومويل في انكلترا ، وسيادة ريشليو ، وكولبير في فرنسا . فرؤساء الدول الفعليون هؤلاء ، هم من نوع جديد . ومع انهم كانوا مدفوعين غالبا — كما هو حال الملوك الذين حلوا محلهم أو نابوا عنهم — بدوافع شخصية ، الا انهم أظهروا انقيادا أكبر للمصالح العامة للامة ، التي حملتهم السلطة ، أو ساعدتهم في الوصول اليها . فكان لهم اذا « حقوق » ، بصفتهم يمثلون الى حد ما « الرأي العام » . تلك القوة التي لم تكن الحكومات لتتهم بها في الماضي ، الا انها بدأت تسمع صوته حتى في الشؤون الدولية . وفي الحقيقة لم تلعب هذه القوة في القرن السادس عشر دورا ، الا في انكلترا ، حيث كان لها ممثلون شرعيون . فهنري الثامن ملك انكلترا ، وبطل الاصلاح الديني فيها ، ما كان بإمكانه الوصول الى النتائج المتطرفة لحدث طلاقه ، لو ان سياسته لم تنل موافقة الممثلين الذين انتخبهم الامة الانكليزية .

أما فرنسا ، فانه لم يكن لتظاهرات (الرأي العام) فيها ، تلك القوة القاهرة : فالسياسة الخارجية مجال ، لا تغامر فيه « الجمعية العمومية » ، التي تمثل طبقات الشعب . إذ أن تلك السياسة هي حكر للملك دون غيره . الا ان المنشورات الشعبية أخذت تتسرى ، لتكون قيّدا ، أو دعما ، لسياسة الملك الخارجية . وقد تنامت هذه المناقشات العلنية حول السياسة الخارجية ، في النصف الاول من القرن السابع عشر ، أي خلال فترة (حرب الثلاثين عاما) .

وتلاحظ ظاهرة أخرى جديدة في القرن السابع عشر ، يمكن ضمها الى ظاهرة بدء « مشاركة الرأي العام » ، وهي استخدام الصحافة ، في مناقشة القضايا الدولية . ولم تكن فرنسا وحدها في هذا المجال ، فقد ظهرت في بعض أنحاء أوروبا الصفحات الاولى ، للدوريات الاسبوعية ، التي بشرت بـ « عصر الصحافة » . فخلال عام ١٦٠٩ ظهرت تلك الدوريات في ستراسبورغ ، واوغسبورغ ، وأمستردام . وفي الواقع ان (الرأي العام) كان متعطشا للتعرف على الانباء ، ومشجعا لتلك البدايات الصحفية . ولاقى هذا التجديد نجاحا كبيرا ، وامتد بسرعة نحو مدن أخرى ، في المانيا ، والاراضي المنخفضة . الا ان العواصم الكبيرة

لم تتبع هذه الحركة إلا متأخرة نسبيا ، فلم يكن للندن صحيفتها الا في عام ١٦٢٢ ، وباريس في عام ١٦٣١ .

ولكن لابد من الاشارة الى أن تأثير (الرأي العام) ، وقد استوحى ردود فعله غالبا من الشعور القومي « الفريزي » للجماهير ، لم يكن ليمارس بشكل عام ، في صالح تقارب الدول واتحادها ، وانما في تحقيق وتعميق خلافاتها . ولم يكن هذا (الرأي العام) قادرا ، على اقتراح حلول ناجعة لآلام الحرب ، التي تعود كل مرة لتكتسح القارة . إذ بقي أمر الحرب والسلام ، منوطا برجال الدولة . هذا علما بأن مآسي الحروب ، في القرن السابع عشر ، كانت ذات نتائج خطيرة ، في حياة الدول : من نقص في عدد السكان ، واقفار للقرى ، والارض الزراعية ، وخراب ودمار في كل ركن .

ولم يجد رجال الدولة ، من مبادئ سياستهم الخارجية ، سوى (توازن القوى) . ومن ثم ، فإن هذا المبدأ ظل سائدا في القرن السابع عشر ، ولا سيما عندما قام لويس الرابع عشر ملك فرنسا بتوسعه ، وحروبه . فالحفاظ على (التوازن الاوربي) في السيادة الاوربية ، كانت كلمة النداء المشترك لجميع خصوم القوة الفرنسية . ويبقى هذا المبدأ عنصرا أساسيا في العلاقات الدولية حتى في القرن التالي ، والقرون بعده .

وأخيرا ، أغلق القرن السابع عشر (قرن الازمات في أوربا) ، وخرجت منه فرنسا (سيدة ذلك القرن) ، وقد تضعفت قواها ، وبدأت المعارضة تشتد على الحكم الاستبدادي المطلق الذي سعى لتثبيتته الملك لويس الرابع عشر . كما أن انكلترا خرجت منه ، وقد دعم فيها (النظام الحر) ، وغدت نموذجا سياسيا يطمح للوصول اليه مفكرو فرنسا . ونقيض هذا الاتجاه التحرري ، كان يشاهد في الدويلات الالمانية ، وروسيا : « فالنظام الاستبدادي المطلق » كان يرسخ قدمه فيها . وقد بقيت المانيا مجزأة ، الا ان الصراعات الدينية هدأت .

ومن الناحية الاجتماعية ، بدأت شروط الحياة تتحسن ، على الرغم من
اجتياحات الحروب ، وذلك من النصف الثاني من القرن السابع عشر .
ومن الناحية الفكرية تابعت الثورة العلمية خط سيرها الصاعد ، ودعمت
فلسفة العقل ، مما سيعطي القرن الثامن عشر تسميته بـ (عصر الانوار) .

الباب الثالث

القرن الثامن عشر في اوربا

تمهيد

القرن الثامن عشر هو الوحدة الزمنية الثالثة من (العصر الحديث) . ويغلق هذا القرن بقيام الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، التي نظر اليها على أنها مطلع (الحقبة المعاصرة) . ويمد بعض المؤرخين هذا القرن حتى عام ١٧٧٠ فقط ، أي قبل انبثاق الثورة الفرنسية ، أو بالأحرى ، حتى بداية انطلاق ثورة (المستعمرات الانكليزية) في أمريكا الشمالية ، ناظرين الى ذلك العام ، على أنه بداية (عصر الثورات) في اوربا وامريكا على السواء ، ذلك العصر الذي دام قرنا من الزمن (١٧٧٠ - ١٨٧١) ، وكانت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، قمة شامخة فيه . فالوحدة الزمنية الثالثة من العصر الحديث ، لا تكون قرنا كاملا بل هي بضع قرن .

وقد أشير سابقا ، الى أن أوربا ، خرجت من القرن السابع عشر بعد الازمات العنيفة التي هزتها ، وقد ارتسم في أفقها بعض معالم التغيير ، التي ستسرع وتنمو في القرن الثامن عشر ، حتى أن القرن لم يصل الى نهايته ، الا وكانت أوربا قد نخلصت من تقليديتها السابقة ، وقضت على معظم العوائق ، التي خلفتها العصور الوسطى في بنيتها . وتتمثل عناصر التغيير في ازدهار اقتصادي ساعد عليه استخدام الفحم الحجري ، والاختراعات التقنية ، التي دفعت (التقدم الصناعي) خطوات كبيرة نحو الامام . وبالتالي أبرزت في الصف الاول

من المجتمع ، (البورجوازية) . هذه البورجوازية التي أخذت تطالب بمكانة سياسية تتناسب وأهميتها الاقتصادية ، والاجتماعية . وتبدت عناصر التغيير في هذا القرن أيضا بفكر جديد يستند للشك ، أكان بالسلطة الحاكمة ، أم بالله . ويتسم باهتمام شديد بالعلم ، وتطبيقاته ، وبتحكيم العقل في كل مظاهر الحياة ، وباتجاه نحو الحرية ، وثبيتها في كل ميدان .

الفصل الأول

السمات العامة للتطور في أوربا في القرن الثامن عشر

أولا - السمات الاقتصادية

عاشت أوربا في القرن الثامن عشر تطورات هامة دفعت باقتصادها نحو
النماء والازدهار .

٢ - عوامل الازدهار الاقتصادي

ان من الاهتمامات الأساسية التي سيطرت على الفكر الاقتصادي الاوربي
في القرن الثامن عشر ، كان الانتاج بكميات أكبر من السابق . ويفسر هذا
الاهتمام بالامور التالية :

١ - زيادة عدد السكان : ان عدد السكان في أوربا في بداية القرن
الثامن عشر ، لم يطرأ عليه تبدل كبير ، عما كان عليه قبل قرنين من الزمن . ومع
أنه كانت هناك فترات ازدهار زراعي ، حدث فيها نمو سكاني نسبي ، الا
انها لم تدم طويلا لتعوض نتائج الوفيات الكبيرة ، التي رآها القرن السابع عشر .
ولكن هذا الحال تغير منذ ١٧١٥ ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر : فقد ارتفع
سكان فرنسا من (٢٠) مليونا الى (٢٦) مليونا في ١٧٨٩ . وفي الوقت ذاته ارتفع
عدد سكان إيطاليا من (١١) مليونا ، الى (١٨) مليونا ، وانكلترة من (٥) ملايين ،
الى (١٠) ملايين ، والشيء ذاته يقال عن اسبانيا . وتضاعف عدد سكان
بروسيا ، وراى روسيا تزايدا متسارعا ، وبنسبة أكبر مما كانت عليه في أوربا .
وبالمجموع تزايد عدد سكان أوربا في ثلاثة ارباع القرن ، (٧٠) مليونا ، أي بعد

أن كان في عام ١٧٠٠ ، (١١٨) مليوناً ، غداً في عام ١٧٨٩ (١٨٧) مليوناً ، أي بنسبة تفوق ٥٠٪ .

ولا يرجع هذا (التفجر السكاني) الى زيادة في نسبة المواليد ، فهذه النسبة بقيت مرتفعة كالسابق ، وبلغت ٤٠٪ أي (٤٠) طفلاً في السنة في الف من السكان . إلا أن الجديد هو النقص الكبير في الوفيات . وسبب ذلك تقدم الطب ، والجراحة ، على الرغم من أن هذا التقدم بقي بطيئاً ، حتى أن بعض الاجتماعيين يهمل أثره . إذ أن الجراحين في أواخر القرن السابع عشر ، كانوا لا يزالون يمارسون عملهم في دكاكين الحلاقين . ومع ذلك ، لابد أن يعترف ، بأن الجراحة قد تطورت عندما وجد تعليم متخصص في ميدانها ، وأسست في فرنسا (أكاديمية الجراحة) في عام ١٧٣١ . وهؤلاء الجراحون — وقد انصرفوا الى ميدان الملاحظة المباشرة لجسم الانسان — هم الذين دفعوا الطب قدماً ، وجعلوه يحقق تطوره نحو الأعلى . ومن أمثال هؤلاء الانكليزي (جنر Jenner) ، مكتشف لقاح الجدري .

إن العنصر الاساسي والحاسم في الزيادة السكانية ، في الحقيقة ، هو التحسن البطيء والمستمر لمستوى الحياة ، وتقهقر الجوع . من المؤكد ، أن مشكلة توفير المواد الغذائية ، بقيت مشكلة تشغل بال الاوربي ، ولاسيما في المدن . وظلت المواسم الزراعية السيئة تجر معها الارتفاع الكبير في الاسعار ، وبصفة خاصة في الفترة التي تكون حبوب الموسم السابق قد استهلكت ، ولما تطرح بعد حبوب الموسم الجديد (تموز — آب) . وما فتىء الجو الاقتصادي مهيناً لظهور تحركات ثورية من أجل الغذاء ، ولقمة العيش . ولكن اذا ما أريد الحديث عن المجاعة ، فإن المجاعات الكبيرة قد زالت تدريجياً . ولعل ذلك يعود الى أسباب مناخية : فبعد الشتاء القاسي عام ١٧٠٦ ، مرت أوروبا بمرحلة طويلة من الدفء ، كانت كافية للتخفيف من المواسم الزراعية السيئة . إلا أن السبب الهام بالدرجة الاولى هو التحسينات ، التي كانت من عمل الانسان ، وكانت نتيجة للتغيرات التي أجراها الفلاحون الاوربيون ، وبجهد دؤوب ، لزيادة انتاج أرضهم ، واصلاح

الجديد من تلك الارض . ومثلما اختفت المجاعات المميتة ، تضاءلت الوبئة ، بل ان الطاعون زال تماما من عام ١٧٢٠ م .

وكان من نتائج زيادة عدد السكان ، السعي لزيادة الانتاج : فالصناع والحرفيون وجدوا عددا أكبر من المستهلكين ، وأقل فقرا ، وأكثر استعدادا لدفع سعر أعلى ، ثمنا للسلع التي يطرحها المنتج في السوق .

٢ - رؤوس الاموال الوفيرة : منذ القرن السادس عشر فتحت التجارة البحرية الكبيرة أمام الاوربيين أبواب تكديس رؤوس الاموال . الا ان المستفيدين من ذلك ، لم يكن جميع الاوربيين . ومع أن البحر المتوسط احتفظ بدور هام في التجارة مع الشرق ، فان أكثر البلاد المغتنية من تلك التجارة ، كانت تلك المطلة على شواطئ الاطلنطي ، وبحر الشمال : كانكلتره ، وفرنسا ، والمقاطعات المتحدة ، وغيرها . وكان تجارها يشترون التوابل ، ومنتجات المستعمرات من القهوة ، والسكر ، والروم ، والقطن ، ويبيعون مقابلها في بلاد آسيا وامريكا منتجات صناعتهم . الا أن أكثر ما كان يدر الارباح من تلك التجارة ، ما كان يسمى بـ (التجارة المثلثة) : وفيها كانت المراكب الاوربية تحمل بسلع غير ذات قيمة كبيرة ، كالاسلحة والكحول ، وتنطلق من موانئ انكلتره ، وفرنسا ، وهولاندة ، الى الشاطئ الافريقي الغربي ، حيث تبادل حمولتها بعبيد سود . وكانت تلك المراكب تحمل هؤلاء الى امريكا ، في شروط رهيبه ، وقد كدست المئات منهم في قعر السفينة ، دون غذاء ، مما كان يؤدي الى وفيات كثيرة بينهم ، قد تصل الى ٣٠٪ من عددهم . وكان يباع المتبقي منهم ، للملاكي المزارع الواسعة في امريكا ، وبخاصة التي تزرع قصب السكر . وبشن أولئك العبيد ، كان النخاسون يشترون من امريكا التبغ ، والسكر ، والروم ، وغيرها . ويعودون ، فيبيعونها بأرباح خيالية في أوروبا . وهذه التجارة التي أخذ بعض الاوربيين في ذلك القرن يشمئز منها ، كانت أساس ثروة كثير من كبار الرأسماليين في شمالي غرب أوروبا .

ان تزايد عدد السكان ، الذي رافقه طلب كبير على مختلف المنتجات ، والتحسين البطيء لمستوى الحياة ، وسهولة الحصول على اسواق تجارية خارج

أوروبا ، كل ذلك كان عاملا في ارتفاع الاسعار . وهذه الظاهرة ، تميز الثلثين
الآخرين من القرن الثامن عشر . ولابد أن يضاف الى أسباب غلاء الاسعار تلك ،
عنصر اساسي ، وهو تدفق الذهب والفضة على أوروبا ، بعد اكتشاف مناجم جديدة
للذهب في أمريكا الوسطى ، والبرازيل . فتزايد حجم النقد ، بسرعة تفوق تزايد
كتلة السلع المطروحة للتبادل ، ولا سيما ان النقد الورقي كان قد ظهر ، وبصفة
خاصة في انكلترا . وساعد ارتفاع الاسعار ، الطويل الامد ، على نمو الانتاج :
لان ارباب العمل حصلوا على ارباح كبيرة ، حفزتهم على زيادة الانتاج ، أكثر
فاكثر . ان الحاجة لصنع كميات وافية من المنتجات ، وبسرعة ، يفسر لهفة الناس
في القرن الثامن عشر ، للبحث عن تقنيات صناعية جديدة .

٣ - بدايات ثورة تقنية : يفتح القرن الثامن عشر في تاريخ الحضارة
الاوربية (عصر الآلة) ، وبخاصة في بريطانيا ، التي سبقت بقية أوروبا في هذا
الميدان . وان أكبر تقدم تقني تم فيها ، كان في الدرجة الاولى في
حقل (الميكانيك) ، أي في حقل الآلات المصممة لزيادة مردود العمل البشري ،
اكان ذلك في المصانع الصغيرة أو الكبيرة . ففي الصناعة النسيجية مثلا ، كان
هناك سباق كبير بين منتجي الغزل والنساجين . وكانت المشكلة بالنسبة للنساجين
تركز في ارضاء طلبات السوق ، تلك السوق الواسعة ، التي كانت ستوسع أكثر
فاكثر ، اذا ما خفضت الاسعار ، وبيعت السلع بسعر أدنى مما يبيعها به
الحرفيون الآسيويون ، الذين اعتادوا على مستوى منخفض من الحياة ، وملكوا
في الوقت ذاته مهارة يدوية كبيرة .

ففي عام ١٧٣٣ صنع « جون كه J. Key » ، وهو نساج انكليزي
(المكوك الطائر) مما سمح بالسرعة في النسيج ، وبنسج قطع أعرض مما كان
يفعله النول الخشبي التقليدي . وقد حقق هذا الاختراع سبقا كبيرا لعملية
النسيج على عملية الغزل ، مما دفع العاملين في حقل الغزل الى استبدال (آلات
الغزل) الحديثة بالدولاب التقليدي القديم . وكان ان اخترع « هرغريفز » ، وهو
نساج ونجار حاذق ، « آلة الغزل » (جيني Jenny) في عام ١٧٦٧ . وهي
اطار يحمل ثمانية مغازل ، وزوجا من الملاقط ، تحل محل الايدي في التقاط

الخيوط وتوجيهها ، بحيث يتيسر لعامل واحد أن يدير العجلة ، ويحرك الملاقظ .
فتغزل ثمانية خيوط مرة واحدة .

ثم ظهر اختراع « اركرايت » وهو حلاق وتاجر للمواشي ، فصنع آلة ،
تسحب الخيوط بين زوجين من الاسطوانات ، ثم تحولها الى خيوط متينة ،
بمغازل متحركة . وكانت تدار بالخيول اولاً ، ثم بقوة الماء ، ومن ثم اطلق
عليها اسم « الاطار المائي Waterframe » . وقد استخدم هذا الجهاز الكبير
الحجم في المصانع الواسعة . ولما كانت الخيوط التي انتجتها (جيني) رفيعة
وضعيفة ، والتي غزلها (الاطار المائي) غليظة وقوية ، فقد قام « كرومتون
Crompton » بصنع الآلة التي اطلق عليها اسم (البغلة Mule-Jenny) .
وكان بإمكانها ، أن تغزل في وقت واحد ، ألفي خيط . ولا يزال تصميمها العام
هو الاساس في آلات الغزل المعاصرة .

ونتيجة ذلك الاختراع في ١٧٧٠ ، أصبح الغزل يطفى على حاجة النساجين .
فمكف (كارتريت Cartwright) ، في ١٧٨٥ ، وهو قس من الكنيسة
الانغليكانية ، على اختراع (نول آلي) . ونجح في ذلك ، واصبح منذ عام ١٧٨٩
يتحرك بقوة البخار . الا ان هذا النول لم يستخدم على نطاق واسع الا منذ
١٨٢٠ ، بعد أن ادخلت عليه تحسينات كبيرة .

ورافق ذلك التقدم الكبير في (الغزل ، والنسيج) مخترعات اخرى آلية ،
لتبييض النسيج وصباغته ، مما ادى الى توسع الصناعة النسيجية ورقبها .

وفي ميدان صناعة التعدين تمت خطوة حاسمة في عام ١٧٣٥ ، عندما
اخترع اثنان من معلمي صناعة الحديد الانكليز ، وهما (الدربي Darby)
طريقة صناعة (الحديد المصهور) ، لا باستخدام فحم الخشب ، وانما باستخدام
فحم (الكوك) . وقد ادى ذلك الى تثبيت الصناعات المعدنية ، على احواض
الفحم الحجري ، للاستفادة من انتاجها مباشرة .

الا ان اكبر الفتوحات الحضارية في القرن الثامن عشر ، كان هو استخدام
الآلة البخارية التي عرفت منذ اواخر القرن السابع عشر . وكان هذا من عمل

الانكليزيين (نيوكومين Newcomen) اولا ، ثم (واط J. Watt) ثانيا .
فقد اوجد (واط) عام ١٧٨٤ بعد دراسته للامر (الآلة ذات العمل المزدوج) ،
أي جعل البخار يعمل على وجهي الاسطوانة (البيستون) ، فحصل على حركة
ذهاب واياب ، حولها الى حركة دائرية مستمرة . وهذا ساعد على استخدام الآلة
البخارية ، في تحريك الآلات الصناعية ، بينما كان ذلك مقتصرا على ضخ المياه من
المناجم . الا ان انتشارها لم يتم ، الا في السنوات الاولى من القرن التاسع
عشر .

وقد سعى بعض الفرنسيين ، في اواخر القرن الثامن عشر ، الى استخدام
القوة البخارية في وسائل النقل ، الا انهم لم يفلحوا . وقد تابع تجاربهم
(فولتون) في مطلع القرن التاسع عشر ، ونجح في استخدام البخار في تسيير
السفن .

ويلاحظ مما ذكر سابقا ، ان الاختراعات لم تكن كلها مرتبطة بالحاجات
المباشرة للصناعة ، وهذا ينطبق على (الملاحة الجوية) التي بدأ العمل في ميدانها
في فرنسا في اواخر القرن الثامن عشر : ففي ١٧٨٣ تمكن (بيلاتردو روزيه
Pilatre De Rozier) و (الماركيز دارلانند D'Arlande) ان يحققا اول
صعود في الجو ، على الآلة التي صنعها الاخوان (مونغولفييه Montgolfier) .
وفي السنة نفسها صعد الفيزيائي (شارل Charles) الى ارتفاع ٤٠٠٠ م ، في
(بالون) مملوء بالهيدروجين . وبعد عامين اجتاز (بلانشارد Blanchard) بحر
المانش على (مركبه الطائر) .

ب - مظاهر التقدم الاقتصادي :

١ - في ميدان الزراعة : ظل الماضي يزرع بثقله على الزراعة : فالفلاح لم
يكن يعمل الا ليقيم اوده ، ويحصل على كفايته فحسب . ومن ثم فانه كان
لا يزرع في ارضه سوى (الحبوب) التي هي اساس غذائه . ولما كان لا يملك
الماشية الكافية ، فانه لم يكن لديه من السماد الطبيعي الحيواني ، ما يسمح
له بزيادة مردود الارض ، او بتحويل الاراضي ذات التربة الضعيفة الى حقول .

وفي افضل الظروف ، لم يكن ليأمل ان يحصل على اكثر من خمسة اضعاف الكمية التي بذرها ، ولا ان يتجاوز مردود الهكتار (٨-٩) كتلات . هذا بالإضافة الى تعلقه بالعادات الزراعية القديمة ، ولجؤه الى اراحة الارض ، أي تركها دون زراعة كل سنتين ، او كل ثلاث سنوات . الا ان تلك الصورة بدأت تتبدل وكانت اسرع التطورات واوسعها في انكلترا : **فحركة تسييج الاراضي الزراعية** ، التي توقفت قليلا في اواخر القرن السابع عشر ، عادت فتسارعت حوالي ١٧٤٠ . وامتدت الملكيات الواسعة على حساب الملكية الصغيرة واستخدم اصحابها **تقنيات حديثة** : محارث حديثة ، واسمدة ، ومروج صناعية (عندما تكون الارض قاحلة يزرعونها عشباً ويتركون مواشيهم ترعاه وهو على الارض وبذلك تحسن تربة الارض من زبل الحيوانات ومن العشب) ، ونباتات تغني التربة بدل استهلاكها ، كاللفت ، والشوندر السكري .

وقد اتبعت (المقاطعات المتحدة) الاساليب نفسها ، الا ان التقدم كان بطيئاً في بقية انحاء القارة ، وجزئياً . ولكن النباتات الجديدة ، الآتية من امريكا انتشرت ، كالذرة والبطاطا ، مما ساعد على تحسين الماشية ، كما استخدمت بدل القمح في غذاء الفلاح .

ويضاف الى تلك التطورات ، ان بعض الفلاحين اخذوا يزرعون اكثر من حاجتهم ، ويبيعون الفائض في الاسواق المجاورة ، ويشتررون بضمن ما يبيعون ، ادوات حديثة ، كالمحراث الجديد ، والمنجل ، مما زاد في المردود ، ونمى الارباح . فاوربا اذا في أواخر القرن الثامن عشر ، اخذت تسير في طريق **الثورة الزراعية**

٢ - في الصناعة : ان رؤوس الاموال المتجمعة من التجارة ، والمتكدسة في (المصارف) ، سمحت للصناعة ، بالخروج جزئياً من النطاق الحرفي ، الذي كانت تعيش ضمنه . وقد ادى السعر المرتفع للالات ، الى جعل الحصول عليها صعباً ، بالنسبة لصغار معلمي الحرف ، الذين كانوا بدورهم خاضعين للقيود **الشديدة للنقابات** . بل ان اقتناءها كان مستحيلاً ، بالنسبة للعاملين الصغار في

الارياف ، والمدن • ومن ثم كان ضروريا ، تجميع العمال في مصانع مجهزة بالآلات الميكانيكية الحديثة ، بما فيها الآلات البخارية ، وقادرة على انتاج كميات وفيرة بأسعار أفضل •

ان ان هذا التطور لم يمس جميع بلاد اوربا : فدول اوربا الشرقية كانت تجهله تماما • وفي فرنسا ، استمرت الحرف في عملها ، معتمدة على قوة الانسان ، او الماء • وكانت تقدم صناعات حسنة ، وانما اسعارها مرتفعة ، وتحتاجها قليل ، ما عدا الصناعة التعدينية في الالزاس ، التي انتجت عام ١٧٨٥ (الحديد المصهور بالفحم الحجري) • هذا في الوقت الذي كانت فيه انكلترة تسير في (ثورتها الصناعية) • ففي نهاية القرن ، كانت احواض الفحم فيها ، التي تركزت عليها صناعاتها الثقيلة ، تنتج عشرة ملايين طن من الفحم • وكان فيها عام ١٧٩٠ ، (١٢٠) فرنا عاليا ، تنتج (١٢٥٠٠٠٠) طن من الحديد المصهور ، وهو رقم كبير بالنسبة لذلك العصر • وبالطبع تقدمت الصناعة النسيجية ، بفضل الاختراعات المشار اليها ، الصوفية منها والقطنية ، ولا سيما ان الحكومة منعت استيراد المنسوجات القطنية من الهند • وظهرت صناعات جديدة كصناعة الزجاج ، والخزف • وفي الوقت نفسه ، انتظمت شبكة المواصلات ، ونمت الموانئ بسرعة ، وبخاصة ميناء لندن ، وليقربول ، وبريستول • وبذلك عمت انكلترة اول قوة صناعية في العالم ، وسبقت منافساتها من الدول الاوربية بنصف قرن تقريبا •

٣ - في التجارة : لقد عرفت التجارة الاوربية ، في القرن الثامن عشر ، نشاطا لم تعرف مثله في العصور السابقة ، وبخاصة (التجارة البحرية) • فكل التجارة الكبيرة ، كانت تجري على البحار ، لان النقل البري بقي بطيئا وكثير التكاليف • وكان المحيط الاطلنطي ، والهندي ، هما اللذان جذبا انظار التجار • أما المحيط الهادي ، فكان موضع اهتمام المستكشفين • وفي المحيطين الاولين كانت تتم (التجارة المثلثة) ، التي اشير اليها سالفا •

وفي الواقع ان التجارة بين دول اوربا والمستعمرات ، كانت عصب تلك التجارة البحرية • فالاوربيون كانوا يأتون بالشاي ، والمنسوجات الحريرية ،

والتوابل ، من جزر الهند الشرقية . وكانوا يتاجرون مع (جزر السكر) أي (الاتييل) في امريكا المدارية . وكانت تلك الجزر تمون اوربا بمنتجات المستعمرات . ومن البرازيل ، والمكسيك ، كانت تحمل الى اوربا المعادن الثمينة . ومن كندا ، الفرو ، والجلود . وكانت التجارة مع المستعمرات ، تعتمد على المبدأ القائل « بأنه لا يحق للمستعمرة ان تتاجر الا مع الدول المستعمرة » . الا أنه يلاحظ ، ان الاتفاقات التجارية بين الدول ، قد تجاوز أحيانا هذا المبدأ : فالانكليز ، حصلوا في اتفاقية عقدوها مع البرتغال عام ١٧٠٣ ، على انه يمكنهم للتجارة بحرية كاملة مع المستعمرات البرتغالية ، وانه يحق لهم ، ان يرسلوا كل عام ، الى ميناء من موانئ امريكا الاسبانية ، سفينة بحمولة (٥٠٠) طونو ، وقد اطلق عليها اسم (سفينة التصريح) . وبالمقابل كانت القرصنة نشيطة جدا : فقد كان البحارة الفرنسيون ، والانكليز ، والهولنديون ، يمارسونها بشكل شبه رسمي مع المستعمرات الاسبانية .

تجارة العبيد : قد تكون اكثر السلع المدرة للربح هي **تجارة العبيد :** اذ ساد الاعتقاد ، ان اليد العاملة السوداء هي اكثر تلاؤما مع مناخ المناطق المدارية والاستوائية ، وهي الوحيدة ، القادرة ، على استثمار الجزر المنتجة للنباتات المدارية التي تحتاجها اوربا ، كقصب السكر ، والقطن ، والقهوة ، والكاكاو . وكانت معاملة هؤلاء العبيد سيئة جدا ، فهم يقصرون على عمل منهك دون راحة ، ودون ان يستمتعوا بحياة عائلية ، فهم في بيوت ملاكي المزارع الواسعة ، شبه بقطع أثاث . وقد تزايد عددهم في امريكا ، حتى بلغ عدد من نقل منهم من افريقيا ، خلال قرنين (١٢) مليونا على الاقل . واذا كانت « تجارة العبيد » احدى دعائم قوة الاقتصاد الاوربي ، فقد كانت سببا هاما في اضعاف المجتمعات الافريقية .

ومن منتصف القرن الثامن عشر ، ظهرت (حملة انسانية) في اوربا **والمستعمرات** لصالح الزوج ، وضد نظام الرق ، وتجارة العبيد . وكان ذلك تحت تأثير الافكار الفلسفية ، والشعور الديني . ولكن المصالح الاقتصادية لملاك المزارع الواسعة في المستعمرات كانت قوية لدرجة ، انها اخضعت لها سياسات

الحكومات • وعندما جاء القرن التاسع عشر ، فإنه حقق الفاء تجارة العبيد
اولا ، ثم اتبع هذا بالفاء الرق كله .

ثانيا - التطورات الاجتماعية العامة في اوربا في القرن الثامن عشر

قد لا يكون طراً تغيير ذو بال في « الطبقات الاجتماعية » في اوربا فسي
القرن الثامن عشر ، بل يمكن القول ان امرين اجتماعيين هامين ، يميزان هذا
القرن :

١ - التفجر السكاني •

٢ - ظهور بوادر مجتمع جديد ، او طليعة مجتمع جديد •

أما (التفجر السكاني) فقد اشير اليه سابقا ، وبينت اسبابه ، وبعض
تأثيره ، ولا سيما على الحياة الاقتصادية . وفي الحقيقة لقد اقلقت تلك الزيادة
السكانية مفكري اوربا ، ومنهم الانكليزي (مالتوس) (١٧٦٦-١٨٣٤) ،
فوضع دراسته المعروفة عن زيادة السكان ، واسبابها ، وتأثيرها ، وخطورها .
الا ان الزيادة السكانية ، في اوربا في ذلك القرن ، كانت في الواقع لصالحها .
فبالاضافة الى حفزها للاقتصاد الاوربي ، وللنمو ، والتقنية ، اوجدت تجديدا في
هرم الاعداد . فعدت اوربا ، قارة تضاعف فيها عدد الشباب ، بما يتصفون
به من حركية وجراءة ، ومغامرة ، وحيوية ، وتجديد في ميادين العمل ، والفكر ،
ولقد لوحظت السن المبكرة ، التي نبغ فيها كثيرون في اوربا في القرن الثامن
عشر : (ففردريك الاكبر) ، لم يكن الا في الثامنة والعشرين من عمره عندما
اجتاح سيليزيا . وتبدت العبقرية العسكرية (لشارل الثاني عشر) ملك السويد ،
في الخامسة عشرة . وابتدأ (موزار) عزفه المبكر ، وهو لا يزال طفلا . ودخل
(لافوازيه) اكااديمية العلوم في الخامسة والعشرين . واخترع (واط) الآلة
البخارية في الثامنة والعشرين . الخ ، ويبدو اثر هذه (الزيادة الشابة) في
الثورات ، التي اندلعت في اوربا ضد النظم التقليدية القائمة ، واهمها (الثورة
الفرنسية) . كما ان هذه الزيادة جعلت اوربا اكبر مصدر للبشر ، وللأفكار ،

— ٣٠٥ — تاريخ اوربا في العصر الحديث مـ ٢٠

وللتقنية الى افحاء العالم ، فقدت تلعب دور المسير للحياة الاقتصادية والسياسية فيها .

أما السمة الاجتماعية الجديدة في المجتمع الاوربي في القرن الثامن عشر ، فهي ظهور بواذر قيم اجتماعية ، مغايرة للقيم السابقة : فقد خلفت الثورة في الاسعار ، وفي الديموغرافيا ، وفي الصناعة ، آثارها على المجتمع الاوربي . فقد نمت في المدن ، والموانئ الكبرى ، مجموعات اجتماعية كانت موجودة سابقا ، كالتجار ، والصناع ، وملاكي المناجم ، والمصرفيين ، والمالين ، واصحاب السفن . وكان نمو رؤوس اموالها سريعا ، بسبب غلاء الاسعار . وهذه المجموعات هي التي كانت تكون (الطبقة البورجوازية) . وفي الوقت ذاته ارتفعت قيمة (اصحاب الكفايات والمواهب) : كالادباء ، والمهندسين ، والاطباء ، والفنانين ، والموسيقيين ، ومن ثم ، فان مبدأ التقويم الاجتماعي ، المعتمد على وضع (القدرة على استخدام السلاح) في اعلى سلم القيم الاجتماعية ، قد تضعف ، ان لم يكن قد اهتز تماما . اذ ان العقلية العامة ، لمجتمع القرن الثامن عشر ، اخذت تصنف الناس ، والمجموعات بحسب مبادئ اخرى ، وهي : (الثروة) ، و (الدور الذي يلعبه الانسان في مجال الانتاج ، وتبادل الاشياء المادية) . فبدلا من ان يوضع (المحارب) في مقدمة المجتمع ، فانه قد احل محله (الصناعي) ، و (التاجر) ، و (اولئك الاغنياء ، المفيدون لمواطنيهم) . وهكذا اخذ (البورجوازي) مكان (النبيل) .

وكلما كانت هذه القيم الجديدة تترسخ جذورها في عقلية المجتمع ، فان مجتمع الفئات الثلاث (النبلاء ، ورجال الدين ، والشعب) ، السائد آنذاك ، اخذ يبدو اطارا شرعيا مفرغا من لبه ، وغير متآلف البتة مع الحقائق الجديدة . ومن ثم كان لا بد من تجاوزه : فالطبقة البورجوازية الجديدة ، التي تنامت عددا ، وثروة ، كانت تريد (اعترافا شرعيا) بوجودها ، وذلك باعادة توزيع السلطات السياسية ، بحسب التطبيق الاجتماعي الجديد . واذا كانت الامور قد سارت في انكلترا مثلا في طريقها الصحيح ، وبشكل تدريجي ، فانها في فرنسا ،

والبلاد الاوربية الاخرى ، اكتست طابع الثورة ، والعنف . والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، شاهد قوي على ذلك .

ويجب الا ينسى في المجتمع الاوربي ، في اواخر القرن الثامن عشر ، فئة اجتماعية جديدة ، تزايدت في العدد ، وتكاثفت بصفة خاصة في المدن ، وهي طبقة (العمال) . وكانت تمثل (بروليتاريا) حقيقية ، لا يحميها قانون . وقد دفعها عدم وجود عمل لها الى التشرد ، والى بؤس رهيب . وقد تدفقت هذه الفئة من الارياف ، لتعمل في (المصانع) ، وكانت تضم رجالا ، ونساء ، واطفالا . وتلاحظ هذه الطبقة ، في انكلترة بالذات ، حيث حدثت (الثورة الصناعية) . الا ان هذه الطبقة ، لن تلعب دورا هاما ، الا في القرن التالي .

ان ما ذكر سابقا ، عن تطور المجتمع في اوربا ، يخص في الواقع المجتمع الاوربي الغربي ، الذي تتوقف حدوده عند نهر (الالب) .

أما في الشرق الاوربي فكل شيء كان مختلفا : اذ ان اغلبية السكان ، كانت من اقنان الارض ، الملزمين على (السخرة) ، لصالح الاقطاعي . فهو اذا يملكهم كما يملك الماشية ، ويمارس عليهم السلطة العامة ، ويحاكمهم ، ويفرض عليهم الضرائب ، ويجمع منهم الجند ، الذين قد يحتاجهم الملك . فكل قوة دول شرقي اوربا ، كانت تركز على طبقة النبلاء ، التي تمتلك القسم الاكبر من الاراضي .

وعندما قام الملك (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، باعادة تعمير الارض التي اجتاحتها حرب الثلاثين عاما ، فانه ادخل عنصرا اجتماعيا جديدا . اذ اسلم تلك الارض الى (معمرين) لها . ولم يطبق عليهم نظام قنانة الارض ، فشكلوا طبقة من المزارعين الاحرار ، تعيش خارج النظام الاقطاعي . وفي عام ١٧٦٣ النى نظام القنانة ، والسخرة ، في الاراضي الملكية ، ولكنه لم يجرؤ على تطبيق ذلك في اراضي النبلاء .

واجرت الامبراطورة (ماري تيريز) ، في دولها الوراثية ، اصلاحا مشابها الى حد ما ، فسعت الى تحسين احوال الفلاحين ، وجعلت السخرة ثلاثة ايام في الاسبوع ، كحد اقصى ، وذلك بعد ثورة الفلاحين عام ١٧٧١ . وحددت في

بوهيميا الضرائب المفروضة عليهم ، واعطتهم حق الاقامة في أي مكان يريدون .

اما في بولونيا ، وروسيا ، فلم يجر أي تطور من هذا القبيل . ففي بولونيا لم تكن المدن لتضم اكثر من (٦٪) من السكان ، وفي روسيا (٤٪) ، ومعظمهم من اليهود . وكان (٩٠٪) هم من الاقنان ، المرتبطين بارض الاقطاعيين الكبار . وقد رسخ نظام قنائة الارض في روسيا خلال القرن الثامن عشر ، نتيجة سياسة (بطرس الاكبر) ، و (كاترين الثانية) . فالقيصرة اختاروا التحالف مع النبلاء ، فأعطوهم سلطة مطلقة على فلاحهم من الاقنان . وكان عمال المناجم يؤخذون عادة من بين اقنان الدولة ، والكنيسة ، والنبلاء . وقد اندلعت ثورات فلاحية في اواخر القرن الثامن عشر ، دفعت (كاترين الثانية) الى مصادرة املاك الكنيسة لصالح الدولة ، وكذلك الاقنان الموجودين عليها .

ويتضح من هذا ان البورجوازية كانت محدودة جدا ، ويقتصر وجودها على المدن . وقد تسربت اليها ، شيئا فشيئا ، افكار الغرب الاوربي ، فشكلت ما يشبه جزيرة من الحرية ، وسط ذلك النظام الاقطاعي الساحق .

ثالثا - الحركة الفكرية في القرن الثامن عشر في اوربا

كان القرن الثامن عشر في المنحى الفكري استمرارا للقرن السابع عشر ، ففي ذلك القرن اظهر الفيلسوف (ديكارت) ، قوة الفكر ، المستندة الى العقل ، والذي يتحكم فيه (الشك الطرائقي) . وطرح (نيوتون) عام ١٦٨٧ نظريته في الجاذبية الكونية ، فوضع بذلك اسس علمي الفيزياء ، والفلك الحديثين . وفتح الالماني (ليبنتز) للعلماء ، بكشوفه الرياضية ، آفاقا جديدة ، فالقرن السابع عشر كان - كما رأينا - قرن (الثورة العلمية) . وجاء القرن الثامن عشر بعده ، ليكون (قرن الانوار Siècle de Lumière) فالعقلانية فيه ، تجاوزت حدود العلم ، وانتشرت لتشمل كل مجالات اهتمام الانسان . وقد ولدت هذه الظاهرة ، التي تتمثل في اخضاع كل مسألة لاختبار العقل ، مناخا فكريا ، عرف بـ (التنوير) .

ان اكثر الاهتمامات الفكرية ، في هذا القرن ، انصبّت على امور ثلاثة :
العلوم ، والاقتصاد ، والفلسفة .

٢ - العلوم : لقد رأى القرن الثامن عشر ازدهارا علميا مماثلا لما كان عليه الامر في القرن الذي سبق . ويرجع ذلك الازدهار الى الاجواء الملائمة التي احاطت بالعمل العلمي ، والعلماء . فاللهفة على (العلوم) كانت من خصائص ذلك القرن . وكان العلماء ، من الشخصيات المحترمة جدا من جميع فئات المجتمع يقربها الملوك ، والامراء ، ويشجعونها . بل انه كان من البدع المحببة في ذلك القرن ، ان يكون لكل واحد من كبار افراد المجتمع ، اكان نبلا ، أو مصرفيا ، أو قاضيا ، أو بورجوازيا ثريا ، (قاعة فيزياء) تجري فيها التجارب الصغيرة ، وتنظم فيها مجموعات من الاحجار ، او النباتات ، او الحيوانات ، او الآلات . وانصرف الكثيرون الى قراءة الكتب العلمية ك (كتاب التاريخ الطبيعي) ل (بوفون) مثلا ، والى استماع المحاضرات العلمية . فقد كان في درس (الاسقف نوله Nollet) . مثلا في كلية الناغار ، ما يزيد عن (٦٠٠) مستمع ، يصغون لدروسه في الفيزياء العملية .

وقد رعى رؤوساء الدول هذا التيار ، واغدقوا الهبات ، ومظاهر التقدير ، على العلماء المشهورين . فالملك (فريدريك الثاني) ملك بروسيا ، استقبل على مائدته علماء وفلاسفة . والملك (لويس الخامس عشر) ، ملك فرنسا ، حول اراضي العالم (بوفون) الى كوتية ، واقيم تمثال له في حديقة الملك ، وادخل العالم (لافوازيه) الى (اكاديمية العلوم) وهو في الخامسة والعشرين من عمره .

كما انشئ في انحاء اوربا ، اكاديميات للعلوم ، على غرار (اكاديمية العلوم) في باريس ، او (الجمعية الملكية) في لندن . وكانت هذه الاكاديميات توزع المنح والجوائز ، وتنظم البعثات العلمية بدعم مالي من الملوك . ويضاف الى تلك الاجواء المساعدة على النمو العلمي ، ان العلماء كانوا يتبادلون المراسلات فيما بينهم ، ويطلعون بعضهم ، على ما جد في ميادين عملهم .

ويلاحظ ان اللغة الفرنسية ، كانت في ذلك الوقت ، لغة يتقنها معظم المثقفين فسي اوروبا ، ومن ثم كانت ذات طابع عالمي بالنسبة لذلك العصر ، واداة تفاهم بين المثقفين الاوربيين . كما ان هؤلاء العلماء استخدموا اداة فكرية جديدة ، وهي (الطريقة التجريبية) ، وجاء تحسين عدد من ادوات القياس ، والملاحظة ، ليسهل بحوثهم ، وكشفهم .

الكشوف العلمية الرئيسية :

كان هم علماء الرياضيات ، والفلك ، بصفة خاصة ، تثبيت كشوف (ديكارت) و (نيوتون) ونظريتهما ، واتمامها ، ولا سيما نظرية الجاذبية الكونية . وبمبادرة من (اكااديمية العلوم) في باريس ، ارسلت بعثتان عام ١٧٣٥ احدهما الى لابونيا (في فنلندا) ، والثانية للبيرو ، لقياس طول درجة من درجات الطول . وقد قامتا بذلك القياس ، وتحققتا من حسابات نيوتون، عن تفلطح الارض في الاقطاب . وفي نهاية القرن اكتشف الالماني (هرشل) الكوكب السيار (اورانوس) عام ١٧٩١ ، وعرض العالم (لابلاس) الفرنسي، عام ١٧٩٦ ، نظريته عن حركة المجموعة الشمسية . وكان للعالمين الفرنسيين (لاغرانج) ، و (مونج) ، بحوثهما الرياضية ، بل ان الاخير هو مؤسس (الهندسة الوصفية) .

وفي علم الفيزياء ، ركزت البحوث بصفة رئيسية على نقطتين : اولهما (الحرارة) . وتمكنت الدراسات ، التي قام بها الفرنسي (ريثومور Réaumur) ، والالماني (فاهرنهايت) ، والسويدي (سيلسيوس) ، من صنع الترمومتر الزئبقي ، ومن تأية دور هام في التحسينات التي ادخلت على الآلة البخارية .

وثانية النقطتين (الكهرباء) ، التي اثارت مظاهرها الرأي العام المثقف . وكانت دراسات الايطاليين (غالفاني) ، و (فولطا) ، والفرنسي (كولومب) ، عاملا في نمو المعرفة الكهربائية ، وتطبيقاتها . ولكن الدراسات الاساسية للعالم الامريكي (بنجامان فرانكلين) ، هي التي وضعت مبدأ (لاقطة الصواعق) ،

بعد ان لاحظ التشابه بين البرق الجوي ، والشرارة الكهربائية • ولم يحمل علماء (الجمعية الملكية) في لندن آراءه في بادئ الامر محمل الجد ، الا ان تأييد العالم الفرنسي (بوفون) له ، وغرسه اول قضيب حديدي على قصره ، سمح بتجربة اختراعه امام ملك فرنسا في عام ١٧٥٢ ، وكان نجاح التجربة • وتخلص الانسان بذلك الاختراع ، من احد الامور الرهيبة التي كانت تقض مضجعه • واثبت الانكليزي (غره Gray) ان الاجسام ليست متساوية في نقل الحرارة • **الكيمياء :** وكان علما جديدا في القرن الثامن عشر ، وعلى رأسه العالم الفرنسي (لافوازيه) • وكان بورجوازيا ثريا ، وقام بدراسة الهواء ، والمحروقات واوجد مبادئ البحث في الكيمياء ، واعطى لهذا العلم لغته الرمزية • وهو الذي اكتشف تركيب الهواء ، والماء ، وادخل في ملاحظاته القياس الرياضي • كما ان (بريستلي Priestly) الانكليزي درس الغاز • وفي الحقيقة ، قطعت الكيمياء كل صلة لها (بالسيما) ، واكتشفت اجساما جديدة ، كالأكسجين ، والكلور ، والآزوت •

وفي حقل التاريخ الطبيعي برزت بحوث السويدي (لينه Linné) ، الذي صنف الانواع النباتية ، والفرنسي (بوفون Buffon) ، الذي نشر (٣٦) مجلدا (١٧٤٩-١٧٨٨) ، تحت عنوان (التاريخ الطبيعي) • وفيه وصف الحيوانات ، وطرح فكرة تطور الكائنات الحية ، التي اخذها بعده العالم (لامارك) وطورها •

اما في ميدان الطب فالتقدم كان بطيئا ، كما اشرنا ، وان كان الانكليزي (جنر) قد ختم القرن عام ١٧٩٦ ، بلقاحه ضد (الجدري) •

ب - الفكر الاقتصادي : لقد سيطر على الفكر الاقتصادي في القرن السابع عشر - كما رأينا - (النظريات المركنتيلية) ، التي ادت الى تنظيم الحياة الاقتصادية ، تنظيما دقيقا وصارما • وقد اعتمدت تلك النظريات ، مبادئ ، تستند الى الاعتقاد ، بأن كمية المعدن الثمين المتبادل لا يمكن ان تزيد • ولكن لوحظ ، ان القرن الثامن عشر رأى تدفقا جديدا من الذهب والفضة • ومن هنا

بدأ النقد للفكر المركنتيلي ، وذلك من عام ١٧٥٠ . وفي الوقت نفسه ، كانت ضرورة تنمية الانتاج (غلاء الاسعار — زيادة عدد السكان) ، تصطدم بعقبات كبيرة في ميدان الصناعة ، ومنها (القيود النقاية) ، وفي ميدان الزراعة (القيود الجماعية) ، كحق المرعى ومنع تسييج الارض ، وفي ميدان التجارة (الحواجز الجمركية الداخلية) . فضد مثل تلك العوائق في وجه الاقتصاد ، وكلها من تراث الماضي ، قام (الفيزيوقراطيون) ، وانصار (المذهب الاقتصادي الحر) .

الفيزيوقراطيون : لقد اعتمد هؤلاء على فرنسا نموذجا : فرنسا التي بقيت بلادا زراعية بالدرجة الاولى ، فطرحوا فكرتهم بأن (الارض هي المصدر الوحيد للثروة) .

ومن هؤلاء المفكرين (كينه Quesnay) ، طبيب الملك لويس الخامس عشر من عام ١٧٥٥ . وقد كتب عدة موضوعات في (الموسوعة) ، قبل ان ينشر في عام ١٧٥٨ ، كتابه (لوحة اقتصادية) . وقد نقد فيه (المركنتيلية) ، واوضح بأنه لا يرى في النقد سوى وسيط ، وثروة عقيمة ، لا تنتج شيئا . فالزراعة وحدها ، قادرة على تقديم انتاج صاف ، أي انتاج يفوق النفقات التي صرفت للحصول عليه . ومن ثم فيجب ان تكون موضع الاهتمام الخاص للدولة . الا ان دور الدولة ، يجب ان يقتصر ، على ضمان حسن عمل قوانين الطبيعة (ان كلمة فيزيوقراطيا تعني حكومة الطبيعة) . اي يكفيها ان تشجع التطورات التقنية ، وان تساعد على اقامة الملكيات الكبيرة ، وعلى الغاء كل عائق في وجه ملكية الارض ، والتخفيف من اعباء الفلاح .

وقد تابع تلامذته من امثال (غورنه) وزير التجارة ، و (تورغو) مفتش المصانع ، ثم وزير الملك (لويس السادس عشر) ، آراءه ، مع الاعتراف بدور الصناعة ، والتجارة .

اصحاب نظرية الاقتصاد الحر : ولقد انبثق معظمهم من الفيزيوقراطيين ، الا ان لافكارهم ابعادا اوسع : فقد نادى (غورنه) في فرنسا بمبدأ **الاقتصاد الحر :** « اتركه يعمل بحرية ، واتركه يمر بحرية » . فعلى

الدولة الا تتدخل في الحياة الاقتصادية ، الا لتساعد على ازالة العوائق في وجه الانتاج ، وتبادل السلع . وبعد قليل ، ظهر الايقوسي (آدم سميث) ، الذي قدم في كتابه (ثروة الامم) في عام ١٧٧٦ ، عرضا كاملا للمذهب الاقتصادي الحر . وكان لهذا الكتاب نجاح كبير في اوربا . وكان يختلف عن الفيزيوقراطيين بقوله : انه يمكن النظر الى الصناعة ، والتجارة ، على انها قطاعان انتاجيان حقيقيان ، وان العمل هو المصدر الحقيقي للثروات .

ج - الفلسفة :

١ - اصول الحركة الفلسفية : لقد اعتاد فلاسفة القرن السابع عشر ، بعد « ديكارت » ، الا يقبلوا حقيقيا ، الا ما برهن عليه العقل . وقد أكد تقدم (العلوم التجريبية) اهمية (ملاحظة الطبيعة) ، وامكانية الوصول منها الى (قوانين) . وباسم هذه المبادئ قام رجال ، من امثال الفرنسي (بيل Bayle) ، وهو مهاجر بروتستانت ، والانكليزي (لوك) بالمطالبة بالحقوق الطبيعية للانسان . وفي القرن الثامن عشر ، تزايد نقد الافكار القديمة ، التي كان ينظر اليها على انها ثابتة لا يمكن الطعن بها ، مثل ، سلطة القوى التقليدية ، وخضوع العقل البشري لدين اوحى به من السماء ، وارتكز على نصوص مقدسة لا يمكن معارضتها ولو جزئيا ، ومفهوم مجتمع طبقي ، يجب ان يبقى فيه كل فرد في مكانه . ان هذا النقد الشديد ، كان الاساس ، في الحركة القوية التي جمعت العلماء ، ورجال الادب ، والناس المتعطشين للحرية ، والتجديد ، في (الحركة الفلسفية) .

٢ - الفلاسفة وموضوعات الحركة الفلسفية : لقد اخذ الفلاسفة على عاتقهم تحرير الناس من ضغوط الماضي وقيوده ، بحمل (انوار) العقل اليهم . وماعدا (مونتيسكيو) الذي كان ارستقراطيا عريقا ، فان بقية الفلاسفة الفرنسيين المعروفين - وهنا يلاحظ ، ان الفكر الفرنسي الفلسفي ، كان هو المؤثر في اوربا في القرن الثامن عشر - من امثال (فولتير) ، و (روسو) ، و (دالمبير) ، و (ديدرو) ، كانوا ينتمون الى تلك البورجوازية ، التي لم تتوقف قوتها

الاقتصادية ، واثرها عن النمو ، والتي كانت ترنو الى المساواة بالحقوق ، والى ممارسة السلطة السياسية .

اما الموضوعات الكبرى التي شغلت الفكر الفلسفي في ذلك القرن فتتلخص بثلاثة :

— الدين الطبيعي : ان المفكرين الذين انكروا وجود الله ، من امثال (ديدرو) ، و (هولباخ) ، كانوا قلة قليلة جدا . الا ان قسما كبيرا من المفكرين ، طرح مقابل تعليمات الكنائس المنظمة ، الاعتقاد (بكائن اعلى) . وكان مفهومهم عن الكون ، بأنه آلة عملاقة ، او ميقاتة ضخمة ، لا بد لها من وجود صانع او ميقاتي — كما قال فولتير — . ومن هذا الدين تنشق (اخلاق طبيعية) ، وفكرة (التسامح) . وقد عمل (فولتير) على التبشير بالمبدأ الاخير ، لا عبر كتاباته فحسب ، بل قام بأعمال مباشرة لصالح ضحايا التعصب .

— المفاهيم السياسية : وقد اتفقت على نقد (نظام الحكم المطلق) المستند الى (الحق الالهي) ، كما اتفقت على تكريس (الحرية الفردية) ، و (ارادة الشعب) . فالفلاسفة لم يعودوا يرون في السلطة الملكية ، الا عقدا قام بين الحاكمين والحكومين . وهذا ما كان قد بشر به (لوك) الانكليزي في القرن السابع عشر .

ولكن الفلاسفة اختلفوا حول (النموذج السياسي) الذي يجب اتباعه : فمونتيسكيو (Montesquieu) مثلا (١٦٨٩-١٧٥٥) ، الذي نشر عام ١٧٤٨ كتابه (روح الشرائع) ، كان يقول بملكية معتدلة ، ومقيدة بمجالس . أما الحريات التي دافع عنها فهي تشبه المطالب القديمة للنبل ، الذين ينتمي اليهم ، والبارلمانات التي كان عضوا في واحد منها . فنقده كان موجها اذا ، ضد الصفة المطلقة ، والمركزية فقط ، للسلطة الملكية . الا ان النقد الشديد الذي تصدى به للنظام القديم ، استلزم في القضاء على ذلك النظام ، وفي اعداد الجولثوار

• ١٧٨٩

General Organ
General Organ
— ٣١٤ —
Jury (GOAL)
Jury (GOAL)

اما فولتير Voltaire (١٦٩٤-١٧٧٨) فكان معجبا جدا بالمؤسسات الانكليزية ، ولذا فانه كان مذبذبا بين (الاستبداد المستنير) أي وجود ملك مطلق ، متحرر ، من تأثير رجال الدين ، والنبلاء ، ومستند على الفلاسفة فقط ، وهمه ممارسة سلطاته لصالح الشعب والجميع ، وبين ملكية على النمط الانكليزي . فالاصلاحات - بحسب رأيه - يجب ان تأتي من الاعلى ، وان (الشعب) بحاجة الى (نير ، ومهماز ، وتبن) .

ولكن روسو Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨) كان على نقيض فولتير ، فقد اراد ان يعطي السلطة لذلك الشعب . فأصوله الشعبية من مدينة جنيف ، جعلته يميل الى (جمهورية ديمقراطية) . وقد رأى ان المواطنين يجب ان يعبروا عن ارادتهم بالتصويت ، والانتخاب . وفي كتابه (العقد الاجتماعي) الذي نشره عام ١٧٦٢ ، حاول ان يحل التناقض بين حقوق الفرد ، ومتطلبات الحياة ضمن المجتمع .

وفيه اعلن انه اذا لم تحترم الحكومة العقد الذي يربطها بالشعب ، فان هذا الاخير يجب أن يثور عليها . وقد استهوت آراؤه البورجوازية الصغيرة ، والحرفين .

- المساواة امام القانون : كانت هي الاخرى موضوعا مشتركا ، ناقشه مختلف الفلاسفة : فمونتيسكيو مثلا دافع عن حقوق النبلاء ، الا ان فولتير هاجم امتيازاتهم بينما اكد روسو المساواة الكاملة بين الناس . واوضح في محاضراته ، عن (اصل عدم المساواة بين البشر) ، العوامل التي اوجدت ذلك التفريق ، ومنها (ملكية الارض) .

وفي الواقع لم تقتصر الحركة الفلسفية على فرنسا ، بل ظهر فلاسفة كبار في اجزاء اخرى من اوربا ، ومنهم البروسي (كانت Kant) (١٧٢٤-١٨٠٤) الذي كان منبع التيارات الفكرية ، التي سيكون لها تأثير عميق في القرنين التاسع عشر والعشرين . والانكليزي (دافيد هيوم) (١٧١١-١٧٧٦) ، الذي بحث في المفاهيم المستندة الى قوة العقل .

وهكذا تعرضت الملكية المطلقة ، والدين ، والنظام الطبقي الاجتماعي ، وكل ما يخص (النظام القديم) ، للنقد . وانتشرت تلك الافكار الخطرة على ذلك النظام ، انتشارا واسعا ، وسريعا ، بوسائل مختلفة ، مما ادى لتقويض ذلك النظام ، في (الثورة الفرنسية) بصفة خاصة .

٣ - انتشار الافكار الجديدة : ويفسر انتشار تلك الافكار اولا ، بأن الحكومات لم تكن تحارب دائما هذه المبادئ على الرغم من وجود المراقبة ، واضطرار الفلاسفة احيانا للفرار والاختباء : ففي فرنسا ، حمت محظية لويس الخامس عشر (مدام دوبومبادور) ، الفلاسفة ، وكذلك بعض الوزراء . وفي الخارج ، تبين بعض الملوك ، الفائدة التي يمكنهم الحصول عليها ، لو اعتمدوا على هذه المبادئ الجديدة ، التي بشر بها الفلاسفة ، ولا سيما مبادئ (الاستبداد المستنير) ، فتبنوها ، وطبقوا جزءا منها .

وكذلك الكنيسة ، لم تكن تملك سوى عقوبات دينية صرفة ، لا تأثير كبير لها . أما المعارضة الفكرية والردود ، فان الكتاب من رجال الدين ، لم يكونوا مستعدين لها .

ومقابل عدم وجود معارضة قوية من الحكومة ، والكنيسة ، فان تقدم التعليم وهو تقدم محسوس في اوساط البورجوازيين ، في القرن الثامن عشر ، في فرنسا بخاصة ، ساعد على انتشار (الانوار) .

ويضاف الى ذلك الصحافة ، التي تقدمت تقدما سريعا من منتصف القرن ، ولا سيما في بلاد ، كانكلتره ، والمقاطعات المتحدة . أما فرنسا فلم تظهر اول صحيفة يومية فيها (صحيفة باريس) الا في عام ١٧٧٧ . والصحيفة الهامة في فرنسا في هذه المرحلة كانت (صحيفة العلماء) .

ومن البدهي ان يكون للكتب الدور الرئيسي في انتشار تلك (الانوار) .

ومع ان اسعارها بقيت مرتفعة ، ومراقبة الحكومات ، والكنيسة ، كبيرة عليها ، الا انها انتشرت بين طبقة النبلاء الاحرار ، والبورجوازية ، والطبقة المثقفة عامة .
والدليل على هذا الانتشار ، انه طبع من كتاب (روح الشرائع) لمونتيسكيو ،
(٢٢) طبعة في (٧) اعوام . ومن الكتب الكبيرة التي كان لها اثرها الهام في ذلك
الوقت ، (الموسوعة) التي صدرت بـ (٣٥) مجلدا ، والتي قام على كتابة بنودها
(١٣٣) مفكرا ، وكان على رأس ادارتها ، واخراجها المفكر الفرنسي (ديدرو) .

ومن وسائل نشر افكار (التنوير) في القرن الثامن عشر ايضا ،
الصالونات الادبية والعلمية في باريس ، والمقاطعات ، حيث كانت تجتمع النخبة
المثقفة ، وتتحاور في القضايا الادبية ، والعلمية ، والسياسية . وكان على رأس
تلك الصالونات ، سيدات من الطبقة العليا في فرنسا . ومن اشهر تلك الصالونات
صالون المركيزة (دولامبير De Lambert) ، و (مدام ديفان) ، و (مدام
جوفران) . وبعد ١٧٥٠ اشتهر صالونا (الآنسة ذو ليسبيناس) ، و (مدام
نيكر) ، بمناقشاتهما السياسية . وكان يخالط تلك الصالونات عدد من الادباء ،
والمفكرين الاجانب .

ويجب الا ينسى اثر (الاكاديميات) في بث تلك الافكار ، كالاكاديمية
الفرنسية مثلا . فالاكاديميات هي مجامع العلماء ، والكتاب ، وكانت عاملا في
حفز الفكر ، وتنشيطه بتنظيم المسابقات ، وتشجيع الفكر النقدي .

وكذلك (المقاهي) كانت امكنة للمناقشات الحادة . و (محافل الماسونية) :
وهذه المحافل انتقلت من انكلترا الى انحاء اوربا ، والى فرنسا ، منذ ١٧٢١ .
وهي جمعيات سرية ، تمثل تيارات فكرية مختلفة . ومع ان البابوية حاربتها ،
فقد تسرب اليها الكثيرون من رجال الدين بصفة خاصة . وقد كان اليهود ، هم
العاملين الاساسيين فيها .

وخلاصة القول ، لقد انتشرت الافكار العقلانية ، والعلمية الجديدة ، على
ساحة واسعة . الا انه لم تتأثر بها جميع طبقات المجتمع بشكل متساو : فالطبقات

الدنيا من الشعب لم تصلها تلك (الانوار) . ومع ان اثر الكنيسة ضعف عن السابق ، الا ان اثر الدين ظل قويا ولا سيما على الفئة الفلاحية في الريف . وبالمقابل كان تأثير (الانوار) قويا في الطبقات العليا . فالموسوعة دخلت القصور ، ومساكن البورجوازية وبيوت رجال الدين .

ومع التأثير الفكري ، كان يتغلغل (التأثير الفرنسي) في الاوساط الاوربية . اذ ان الانتاج الفرنسي في ميدان الادب ، والفلسفة ، والفنون ، كان هو السائد في اوربا ، حتى ان معظم بلاطات اوربا ، كانت تستخدم اللغة الفرنسية ، بل حلت هذه اللغة محل اللاتينية في انشاء المعاهدات . وكانت القيصرية (كاترين الثانية) ، امبراطورة روسيا ، و (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، يكتبان بالفرنسية ، وكذلك اوربا المثقفة . وهذا ساعد على تداول كتب المفكرين الفرنسيين ، وتبني آرائهم . وقد ينسجم هذا الاتجاه ، مع دعوة الفلاسفة ، القائلة بأن (العالم هو وطنهم) ، وان (الجنس البشري واحد) ، بل ان بعضهم اخذ ينادي بـ (الاتحاد الاوربي) .

ردة الفعل العاطفية والقومية :-

ولكن (الاتجاه العقلاني) في التفكير الاوربي ، اخذت تشوبه تيارات مناقضة ، اشبه ما تكون بردة فعل عليه ، وعلى جفافه ، ومنها (التيار العاطفي) ، ذلك التيار الذي اخذ يمجّد كل العواطف الانسانية ويظهرها ، لا السامية منها فحسب ، ويؤكد ان (الافكار الكبيرة تأتي من القلب) . ويشاهد هذا التيار ، في فرنسا بعد ١٧٥٠ ، مع تزايد ونمو حتى الثورة الفرنسية . ومن اقطابه في فرنسا (روسو) ، ويبدو هذا في كتابه (هيلويز الجديدة Le Nouvelle Héloïse) . الا ان هذا (التيار العاطفي) يبدو اقوى ما يكون خارج فرنسا ، وفي المانيا بصفة خاصة . فقصّة (فترت Werter) للاديب الالماني (غوته Goethe) ، التي نشرت عام ١٧٧٤ ، جعلت اوربا كلها تبكي لآلام البطل . وكذلك تبدى هذا التيار في انكلترا ، حيث ظهر (ماكفرسون) الايقوسي ، بقصائده الاسطورية العاطفية عام ١٧٦٠ .

وقد يكون من العوامل التي أدت لظهور هذا التيار ، عدم انسجام الذوق الادبي لجميع الناس مع العقلانية الجافة ، والتأثر بالمؤلفات الادبية المطروحة في مختلف دول اوربا . واخيرا رد فعل على التأثيرات الفرنسية . اذ ان هذا التيار ، قد اتخذ في معظم الحالات عبوة (العودة للماضي القومي) ، والتقاليد القومية ، مما سيكون له اثره الكبير في بعث التاريخ القومي ، ودعم المشاعر القومية . وردة الفعل العاطفية هذه شوهدت في ميدان الادب ، والتاريخ ، والفن ، بل والفلسفة . واطلق على هذا التيار الفكري العام اسم (الحركة الابداعية) ، او (الرومانتيكية) ، التي مجدت فردية الانسان ، ودعت للعودة للطبيعة ، واكدت ان (العقل) لا يمكنه تفسير كل شيء في الوجود . وقد قويت هذه الحركة في القرن التاسع عشر ، وكانت منبعا للحركات القومية الكبيرة في اوربا ، ولاسيما الحركة القومية الالمانية ، والحركة القومية الايطالية .

رابعا - التطورات الفنية في اوربا في القرن الثامن عشر

لقد تغيرت ظروف الحياة في اوربا في القرن الثامن عشر ، كما لوحظ ذلك ، وترك هذا بالطبع اثره في الحركة الفنية . ففي فرنسا ، مثلا لم يعد البلاط ، هو مركز الثقل الوحيد لعالم الفنون والآداب . أو ليس هو وحده ، الحافز للفنانين ، بل ان الاهتمام بالفنون ، انتقل الى اوساط كبار النبلاء ، والبورجوازيين الذين كانوا يعيشون في العاصمة ، او في المدن الكبرى في المقاطعات ، مثل ، ليون ، ونانت ، وبوردو ، وغيرها . وغدا هم هذه الاوساط ، انشاء القصور ، وتزيينها ، وتأثيثها باناقة كبيرة ، ولكن بمستوى ادنى ، مما هو عليه في (قصر فرساي) . وبذلك وجهوا الذوق الفني نحو فن يبحث عن راحة الافراد اكثر مما يبحث عن العظمة المكلفة ، والابهة . فشاعت (المنازل الصغيرة) ، المزينة بغنى وترف ، والمتلازمة في الوقت نفسه مع متطلبات الحياة اليومية . وانتشر هذا الاتجاه حتى ترك اثره في فرساي ذاته ، حيث عمل الملك (لويس الخامس عشر) على ان تكون الغرف ، والمكاتب الخاصة ، والمكتبات ، بحجم معقول ، مع تزيينها بغنى .

والفن في القرن الثامن عشر بالإضافة لما سبق ، كان موجها لمجتمع متفائل يؤمن بالسعادة ونقدم الانسانية . ولذا فقد سعى لجعل اطاره اكثر مرحا وسرورا : فاستخدم في الاثاث الخشب ذي اللون الفاتح ، واهتم بالالوان بالالوان الضاحكة ، والمرايا . وقلت الموضوعات المستوحاة من الحياة الدينية ، واخذ الفنانون يبحثون عن التعبير عن فرح الحياة ، وعن الحركة ، وعن الشباب ، وعادت المرأة ، والطفل ليكونا ، من الموضوعات المفضلة بالنسبة للنحات ، والرسم . وغدا الفنان على صلة بالطبقة العليا ، وفي الوقت نفسه بالجمهور العام عن طريق عرض انتاجه ، في قاعات خصصت لذلك . واصبح الفنان معط الانظار ، وموضع التقدير ، والاحترام ، والاكرام ، في مجتمع كرس الجزء الاكبر من وقته ، وثروته للثقافة ، وللتمتع ببهاج الحياة ، مثلما كان عليه الامر مع الاديب ، والعالم . وفي هذا الفن ، كان الاثر الفرنسي الفني ، والفكرى كبيرا ، ولا سيما خلال المرحلة الواقعة بين ١٧٤٠-١٧٨٠ . واسباب ذلك عديدة ، منها : اثر القوة العسكرية الفرنسية ، وترف البلاط الفرنسي وبذخه - ذلك البلاط الذي بقي نموذجا لكل ملوك اوربا - ، واشعاع الصالونات الباريزية ، حيث كان يستقبل المفكرون ، والسياح ، والاجانب ، منها بالحفاوة والترحاب ، والحياة الزاخرة في باريس نفسها ، التي كانت تخرج كل المستجدات في الازياء ، واشكال الحياة . ولا بد من اضافة دور (اللغة الفرنسية) ، التي - كما اشرنا سابقا - اتخذت لغة عالمية من قبل الدبلوماسيين ، وافراد الطبقة الاجتماعية العليا في اوربا .

واستنادا الى ذلك ، فقد كان عدد الفنانين الفرنسيين الذين استدعاهم الملوك الاجانب اليهم ، لبناء قصورهم ، وتجميلها ، وزخرفتها ، ولتعمير المؤسسات الاخرى ، التي تغني مدنهم ، كبيرا . فحيثما فكر الملوك والامراء في تشييد ما يشبه (فرساي) ، فانهم كانوا يستدعون المهندسين ، والنحاتين ، والرسميين ، الفرنسيين ، ليضعوا المخططات ، وليوجهوا الفنانين المحليين . ففي روسيا مثلا كان المهندس (لوبلون Leblond) هو الذي صمم لبطرس الاكبر (قصر بيتر هوف Peterhof) بشوارعه المروحية ، وحدائقه على النمط

الفرنسي . وفي المانيا ، كان (ردير دو كوت R. De Cotte) وتلاميذه ، هم الذين وضعوا تصميمات قصور (بون) و (شلايسهايم) . وكان المهندسون الفرنسيون هم الذين بنوا افردريك الثاني قصر (سان سوسي) . وقد شوهد الفنانون الفرنسيون ايضا في السويد ، واسبانيا ، وبولونيا ، حيث كان كبار اصحاب الاموال ، يتنافسون في تقريب الصياغ الفرنسيين ، و صانعي السجاد ، و صانعي الاثاث ، بل والطباخين .

الا ان هذا التأثير الفرنسي ، لم يؤد الى (توحيد الفن الاوربي) . فغالبا ما كان الالهام الفني الفرنسي ، يتضافر مع الهام الفنانين المحليين ، او الذين ما زالت ايطاليا تكونهم . وكانت نتائج هذا المزج رائعة المردود . ولا بد من الحذر ، من النظر الى فن القرن الثامن عشر في اوربا ، على انه كان خاضعا لقواعد الفن الفرنسي وحدها . فالمقاومة لتلك القواعد كانت كبيرة جدا ، اكان هذا من قبل التقاليد القومية ، او التأثير الايطالي ، الذي استمر قويا في اوربا الوسطى مثلا بفن (الروكوكو Rococo) ، الذي يتميز بالاشكال كثيرة الانعطافات ، وبالمبالغة في الزخرفة ، والذي يعتبر امتدادا لفن (الباروك) . وفي نهاية القرن يبدأ الاثر الانكليزي بالظهور ، حتى في فرنسا . ومن خصائص هذا الفن الانكليزي ، الميل للطبيعة البكر بصفة خاصة ، هذا بينما كان الفن في المانيا يعيش اولى نفحات الحركة الابداعية .

ويمكن ان يميز في فن القرن الثامن عشر ، وبصفة خاصة في فرنسا ، مدرستان: الاولى وكانت في النصف الاول من القرن الثامن عشر . ويلاحظ فيها اتجاهات عديدة متعايشة ، وان كانت السمات البارزة فيها ، هي الخفة ، والرقية ، والاهتمام بمباهج الحياة ، والاحتفالات ، وهي بذلك اقرب الى (فن الروكوكو) والثانية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وهي مدرسة (الكلاسيكية الجديدة) التي تأثرت بالمدرسة الفلورنسية ، وبمدرسة البندقية ، في العمارة ، بخطوطها المستقيمة الرصينة التي تشبه الآثار اليونانية ، والرومانية ، كما تأثرت بالكشوف الاثرية في ايطاليا ، كالكشف الاثري عن مدينة هركولانوم مثلا .

ولا بد ان يضاف الى تلك التأثيرات في الفن العمراني ، نمو المدن الكبرى،
والموانئ ، الذي ادى الى هندسة ضخمة للمدن ، تبدت في الساحات الكبيرة،
والاروقة الواسعة . وهذا ساعد بالتالي ، على دعم الاثر القديم للابنية
الكلاسيكية .

وفي القرن الثامن عشر نمت (الفنون التزيينية) ، و (فنون الزخرفة) :
كالتزيين بالمرايا ، وبالخشب الفاتح اللون ، والميداليات المنقوشة بدقة . وتزايدت أنواع
الاثاث ، ووجدت مريحة وظهر طراز (لويس الخامس عشر) و (السادس عشر)
في هذا المجال .

ومن اشهر فناني المدرسة الاولى في الرسم في فرنسا ، (واطو ١٦٤٨ -
١٧٢١) ، التي تبرز لوحاته المجتمع المنغمس في حياة الترف ، واللهو ،
والبذخ ، والتي تنبثق منها شاعرية شفافة . و (فراغونار) الذي تفوق برسم
المرأة ، وبالتعبير عن الاهواء .

ومن المدرسة الثانية (الكلاسيكية الجديدة) ، الفنان (دافيد ١٧٤٨ -
١٨٢٥) الذي استقى موضوعاته من التاريخ القديم .
وفي خارج فرنسا اشتهر من الانكليز (هوغارث) ، الذي برع في
فن (الكاريكاتور) ، ومثل بواقعية الاخلاق المنحلة في عصره . و (رينولدز)
الذي تميز برسم صور الاشخاص ، والمناظر الطبيعية . وفي اسبانيا برز اسم
الفنان الكبير (غويا Goya) ، الذي جمع في فنه ، التقليد الواقعي للمدرسة
الاسبانية ، الى تأثيرات الكلاسيكيين الفرنسيين ، والاسبان .

أما في النحت فيبدو ان فرنسا كانت هي السائدة ، والمدرسة
الكلاسيكية هي الاقوى . وظهر هذا الفن في تماثيل الاشخاص ، وفي
المنحوتات المتنوعة ، التي زينت بها احواض الماء ، او الاضرحة ، او القصور
وغيرها .

وفي الموسيقى ، كان القرن الثامن عشر مرحلة تجديد . ورأى ظهور
فنون موسيقية جديدة ، كموسيقى الغرفة ، والسيمفونية ، والوبرا .

وبقيت إيطاليا ، حتى منتصف القرن الثامن عشر، هي الطليعة في فن الموسيقى،
الا ان الفنانين الالمان ، انتزعوا منها في النصف الثاني من القرن ، تلك القيادة
من امثال (باخ ١٦٨٥-١٧٥٠) ، الذي عرف بموضوعاته الدينية ، التي تمثل
قمة في الموسيقى الباروكية . وقد ترك اثرا كبيرا في الفنانين الالمان ، الذين
تلوه ، مثل (جوزيف هايدن ١٧٣٢ - ١٨٠٩) ، الذي خلق مجموعة ضخمة
من الموسيقى الآلية . فقد عمل عبر سيمفونياته التي تزيد عن المائة ، على تحويل
الاوركسترا ، الى جسم موسيقي واحد ، مركب من لغات عديدة ، تتكلم بصوت
واحد . وتبع (موزار ١٧٥٦-١٧٩١) خطى هايدن . وقد اذهل موزار ، بعبقريته
المبكرة ، العالم الاوربي . وقد ادخل في اوبراته (زواج فيجارو ١٧٨٦) و
(المزمارة السحري ١٧٩١) وغيرها ، الصوت مع الاوركسترا ، بطريقة لم يسبقه
اليها احد . وسعى (هاندل الالماني) (١٦٨٥-١٧٥٩) ، الذي عاش في انكلترا ،
لتطوير فن الاوبرا الايطالي ، الى صيغة شعبية ، الا انه لم ينجح ، ولكنه
بمقطوعته (المسيح) بدا بطلا قوميا .

وصفوة القول ، عاش انسان اوربا في القرن الثامن عشر حياة العقل والقلب،
وعبر عن ذلك بابداع ، وبانتاج فكري ، وفني ، خصيب وثري . ورسم في ذلك
الاتاج ، بالقلم والريشة ، وادوات البناء، والنحت ، والنقش، والصناعة المتنوعة
صورا من الوجود حوله ، باعماقه وسطحيته ، وعقلانيته ، وطبيعته ، وتصنعه
وعواطفه .

الفصل الثاني

التطورات الداخلية

في دول اوربا في القرن الثامن عشر

ان تدفق الثروات على اوربا من (العالم الجديد) ، ونمو الرأسمالية التجارية ، والمالية ، والازدهار التقني ، والصناعي ، والقوة المتنامية للبورجوازية التي اصبحت تملك الثروة ، والثقافة ، وتتطلع لممارسة السلطة السياسية ، كل تلك الامور كانت من (عوامل التغيير) في مجتمع اوربا الغربية ، المطلة على المحيط الاطلنطي . كما كانت في الوقت نفسه من (مظاهر التغيير) . وكان لا بد لهذه الامور ان تضغط على النظم السياسية في مجموع اوربا . وقد عملت كل دولة من الدول الاوربية ، على ايجاد الحل السياسي ، الذي رآته ملائما لها : فانكلترا مثلا تجنبت القفزات السياسية ، وذلك بفتح ارسقراطيتها على مصراعها للبورجوازية العالية . اما الملكيات في اوربا الوسطى ، فقد درأت الخطر باختفائها وراء الافكار الجديدة ، وتبنيها لنظم الحكم التي اطلق عليها اسم (الاستبداد المستنير) . هذا في الوقت الذي اظهرت فيه الملكية الاستبدادية المطلقة في فرنسا ، بانها غير قادرة على اجراء اصلاحات ، حتى الضرورية جدا منها . وبذلك فان (الثورة) التي كانت تندلع على طرقي الاطلنطي منذ ١٧٧٧ ، انفجرت اخيرا في فرنسا ، فابتدا عصر جديد .

اولا - انكلترا في القرن الثامن عشر

عند وفاة الملكة (آن ستوارت) عام ١٧١٤ ، انتقل الحكم في انكلترا الى

اسرة المانية ، تمت بصلة القربى للأسرة الانكليزية ، الا وهي ، الاسرة الحاكمة في مقاطعة (هانوفر) الالمانية . وكان اول الحاكمين منها في انكلترة ، الملك (جورج الاول ١٧١٤-١٧٢٧) ، وتبعه (جورج الثاني ١٧٢٧ - ١٧٦٠) . وكان الملكان لا يتكلمان اللغة الانكليزية ، ويهتمان بشؤون مقاطعتيها الالمانية ، اكثر من اهتمامهما بشؤون انكلترة . ولذلك تركا للبارلمان الانكليزي والوزراء الحكم .

وهكذا سارت انكلترة شيئا فشيئا نحو (نظام بارلماني) : أي نظام لا يكون فيه الوزراء مسؤولين الا امام البارلمان ، وقد تحقق هذا عام ١٧٤٠ . وكان الملك قبل ذلك التاريخ ، يختار الوزراء ، من بين حزب الاغلبية في البارلمان . وكان هناك حزبان في انكلترة : (حزب التوري) ، وكان مؤيدا للسلطة الملكية ، الا انه لم يكن مقربا من الاسرة الحاكمة الجديدة ، لانه بقي مخلصا لآل ستوارت ، و (حزب الهوينغ) ، الذي يهدف لتثبيت سيادة البارلمان .

الا ان هذا النظام السياسي ، الذي كان محط اعجاب الفلاسفة الفرنسيين ، لم يكن خاليا من العيوب : فالنظام الانتخابي يختلف من اقليم لآخر ، وهو بمجموعه لصالح الملاكين الكبار . كما ان توزيع المقاعد الانتخابية ثبت منذ قرنين ، ولم يعدل ، بينما كان هناك مدن قد هجرت ، ومع ذلك فقد احتفظت بعدد من النواب ، يفوق عدد نواب مدن كبيرة نمت حديثا . هذا بالاضافة الى ان التصويت كان يتم برفع اليد ، مما يسمح بممارسة شتى الضغوط على الناخبين . ومع تلك النواقص ، فقد كان الانكليز فخورين بنظامهم ، الذي يعطي حق التصويت لـ (٢٥٠٠٠) نسمة من بينهم ، والذي هو فريد من نوعه في اوربا آنذاك .

الا ان ذلك التطور نحو ترسيخ (النظام البارلماني) في انكلترة ، اصطدم بمحاولة الملك (جورج الثالث ١٧٦٠-١٨٢٠) ، لاعادة النظام الملكي الفردي . وهذا الملك كان على نقيض سابقه ، انكليزيا قلبا وقالبا ، ومخلصا لواجباته كملك . ولذا اراد ان يعيد للملك سلطته السابقة وهيته ، معتمدا على حزب

التوري . فابعد رئيس الوزراء (بت Pitt) ، وفرض ارادته على البرلمان بالرشوة ، وجمع حوله بعض الانصار . ولكن قامت في وجهه معارضة قوية خارج (مجلس العموم) ، ممثلة بالصحافة . فقد تأسست عدة صحف ، ونشطت ، مثل (مورنينغ كرونيكل Morning Chronicle) (١٧٦٣) ، و (المورنينغ بوست Morning Post ١٧٧٢) ، و (التايمس Times ١٧٨٥) . واضيف السي ذلك ، الاضطراباء في ايرلندة ، وانتصار ثوار امريكا . كل هذا ، وضع حدا لمحاولة الملك ، في عام ١٧٨٢ . ومنذ ذلك التاريخ، رسخت قدم البرلمان وحقوقه وساعد على ذلك رئاسة (ويليام بت) للوزارة . وهو ابن (بت الكبير) ، وقد منحته انتخابات ١٧٨٤ اغلبية كبيرة ، على الرغم من انه لم يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . وقد حكم انكلترة (١٨) سنة ، وهو يحترم رأي الاغلبية . وقد نال تأييد الرأي العام بنزاهته ، وحيويته ، وطاقاته . لقد جدد (بت) انكلترة ، ولكنه لم يستطع تغيير (النظام الانتخابي) ، بالغاء مقاعد (المدن الميتة) ، اذ ان هذا يعني اضعاف قوة ارسقراطية الارض . الا انه نجح بالمقابل ، عام ١٧٩٨ ، بفرض ضريبة على جميع الدخول ، دون استثناء أية فئة .

وعرفت انكلترة في ظل نظامها السياسي الديموقراطي ازدهارا اقتصاديا كبيرا . وقد اشير سابقا لتطورها الزراعي ، والتقني ، والصناعي ، ولزيادة عدد سكانها الكبير ، كما اشير لظهور الملكيات الزراعية الكبيرة فيها ، مما ساعد على استخدام التقنيات الحديثة ، وعلى استخدام المواشي وتربيتها بشكل واسع . كما اكد ظهور (انكلترة السوداء) ، الى جانب (انكلترة الخضراء) : انكلترة احواض الفحم ، التي تثبتت عندها الصناعات المعدنية (برمنغهام ، شفيلد ، وغيرها) . وذكر ايضا ، التوسع في الصناعة الصوفية ، والقطنية ، التي تركزت في (مانشستر) ، وقرب ميناء (ليفربول) حيث كان يكس القطن الخام ، المستورد من امريكا وبلاد الهند . وقد تنامي هذا النشاط الصناعي ، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، مما ادى الى زيادة سريعة في المدن ، وسكانها . فلندن التي كان عدد سكانها في عام ١٧٠٠ (٦٠٠٠٠٠) نسمة اصبح

مليوناً في نهاية القرن ، وغدت أكثر مدن العالم سكاناً ، والمركز المالي الأول ، والميناء المتفوق بفعاليته التجارية .

وبقيت التجارة في انكلترا أساساً ضخماً من أسس اقتصادها ، ولذا كان اهتمامها بالأسطول التجاري ، الذي تزايد عدده تزايداً كبيراً ، وسريعاً ، ولا سيما بعد أن أوجدت (تأمينات لويدي البحرية) عام ١٧٢٧ ، ضد مخاطر البحار . وكانت انكلترا تقوم بتصدير بضائعها المصنوعة ، وفحمها ، كما تعيد تصدير منتجات المستعمرات ، بعد أن تكدسها في الموانئ الهامة كلندن مثلاً . وقد لعب التجار البريطانيون ، دوراً هاماً في سياسة بلادهم ، حتى قال (بت الأول) : (السياسة البريطانية هي التجارة البريطانية) . كما أوقعتها سياستها التجارية هذه ، في صراعات سياسية مع بقية الدول الأوروبية المنافسة لها في هذا الميدان ، كفرنسا ، وإسبانيا ، والمقاطعات المتحدة .

أما التطورات الاجتماعية في انكلترا في القرن الثامن عشر ، فإنها لا تخرج عما ذكر سابقاً ، عن مجموع التغييرات الاجتماعية في أوروبا الغربية : فطبقة النبلاء القديمة ، المالكة للأرض ، بقيت قوية في الأرياف ، وحافظت على الأساس من السلطة السياسية . ومع ذلك يبدو أن هناك اختلافاً بين هذه الطبقة ومثيلتها في فرنسا ، إذ أنها في انكلترا أسهمت في الفعاليات الاقتصادية ، كما وتمازجت مع البورجوازيين ، الذين كانوا يمارسون الأنماط نفسها من الحياة ، ويرتادون الجامعات ذاتها ، ويعملون على التزاوج معها .

هذا في الوقت ، الذي أدى فيه تركز العمال في المدن ، وانخفاض الأجور الذي رافق تقدم الآلية ، وكثرة اليد العاملة ، وعدم وجود حماية البتة للعمال — إذ منعوا من التجمع للدفاع عن مصالحهم — كل هذا أدى إلى بؤس مبير تفشى بين الطبقات الفقيرة .

وبالمقابل نجم عن ثراء الطبقة العليا ، وحبا للمال ، وتلفها على الملذات ، وانتشار الإدمان على الخمر ، وتفاقم الجرام في الأوساط الشعبية أزمة أخلاقية ، تبدت واضحة فيما كتبه الأديب الإنكليزي (سويفت ١٦٦٧ — ١٧٤٥)

في كتابه المشهور « رحلات غوليفر Gulliver's Travels » ، حيث نقد المجتمع الانكليزي في المنحيين الاجتماعي ، والسياسي ، كما فعل (فولتير) في فرنسا . كما تبدت تلك الازمة ، في رسوم الفنان (هوغارث) .

وكردة فعل على تلك (الازمة الاخلاقية) ، قامت (يقظة بويرتانية) ، كان على رأسها (جون ويسلي J. Wesley) حوالي عام ١٧٤٠ . وقد دعا (ويسلي) لحياة اخلاقية اكثر صرامة ، ولتقى اعرق ، ولدين يحترم القواعد ، كالمواظبة على الكنيسة ، وتكريس يوم الأحد لله . وقد توجه بوعظه للطبقات الشعبية ، وهاجم اناية الاثرياء . وقد اقلق تبشيريه هذا ، الاوساط الاجتماعية العليا في بادئ الامر ، الا انه لم يهاجم النظام الاجتماعي القائم ، بل كان يعلم الفقراء الصبر ، والتحمل ، ولذا فقد تلاشى ذلك القلق . وقد كون (ويسلي) واتباعه ما يسمى (بالكنيسة الطرائقية Methodiste) ، وترك اثرا في المجتمع الانكليزي ظهر واضحا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اذ ابتعد ذلك المجتمع عن بعض مظاهر الانحلال الخلقي التي بدت صارخة . وقد امتد اثر (ويسلي) الى المستعمرات في امريكا .

ولكن انكلترة لم تعان تلك الازمة الاخلاقية فحسب ، بل واجهت في النصف الثاني من القرن ، وابان حربها ضد ثورة مستعمراتها في امريكا ، اضطرابات في المدن العمالية ، نتيجة سوء احوال العمال المشار اليها آنفا ، وفي **ايرلندة** حيث كان الفلاحون الذين طردوا من ارضهم التي يزرعونها ، يقاسون اشد انواع البؤس . ونجم عن ذلك **اتجاهات فكرية انسانية** تطالب بقدر كبير من المساواة ، والحرية ، والاخوة . وكان اكبر الانسانيين المدافعين (ولبرفورس Wilberforce) الذي كافح ضد استغلال عمل الاطفال في المصانع ، وضد **تجارة العبيد** .

وقد تكون اكبر مشكلة سياسية اصطدمت بها انكلترة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، هي ثورة مستعمراتها في امريكا ، وستبحث في حقل العلاقات الدولية .

ثانيا - المقاطعات المتحدة

اصاب (المقاطعات المتحدة) في القرن الثامن عشر الضعف : فحرب الوراثة الاسبانية كانت عبئا ثقيلا على ماليتهما ، وفقد الهولنديون مراكزهم الاستعمارية في امريكا الشمالية . وحتى يثبتوا اقدامهم في (جزر الهند الشرقية) ، اضطروا لتجهيز الجيوش والحملات ، مما زاد من تكاليفهم المالية . وحتى تستمر (الشركات التجارية) في تحقيق ارباح كبيرة ، اضطرت لبيع المنتجات المستوردة بأسعار مرتفعة ، مما وضعها في موقف صعب تجاه المنافسة الفرنسية الانكليزية .

وقد تركزت **الفعالية الاقتصادية** حول « امستردام » ، مما ولد غيرة الموانئ الاخرى ، والمقاطعات الريفية ، واشعل الخصومات السياسية ، والدينية ، التي كانت قائمة في القرن السابق .

ومن ناحية **السياسة الخارجية** ، فان ضعف الاسطول ، والخوف من احتلال الفرنسيين للبلاد ، وازدياد الروابط المالية مع لندن ، دفع بالمقاطعات المتحدة لتدور في فلك انكلترا الدبلوماسي .

ويلاحظ ان الوهن لحق ايضا بالانتاج الفكري ، ما عدا ميدان العلوم . ولكن هولاندة ، بقيت البلاد التي تقدم الحرية الواسعة للفلاسفة ، والادباء ، والصحفيين ، الذين يودون نشر ما كان ممنوعا ، او محرما في بلاد اخرى . وقد حكمت (المقاطعات المتحدة) خلال القرن الثامن عشر اسرة (فاساو Nassau) التي هي فرع من اسرة اورانج السابقة ، اذ توفي (ويليام الثالث) حاكمها عام ١٧٠٢ ، دون ان يخلف وريثا على العرش .

ثالثا - دول البلطيق

كان تأثير التغيرات التي عاشها الغرب الاوربي عليها بطيئا : **فالمانمارك** التي كانت تضم **النرويج** ، كانت اشبه ببلدين مختلفين : فهناك واجهة بحرية نشيطة ، برزت فيها طبقة بورجوازية تجارية ، ومنطقة داخلية ريفية ، تسودها الارستقراطية . وكان يسيطر على الحكم الى جانب الملك ، حاشية معظمها من

اصل جرمني . وقد حاول احدهم (ستروينسي Struensee) عام ١٧٧١ .
ان يجعل سلطة الملك مستقلة عن النبلاء ، فهاجم امتيازاتهم ، واعاد تنظيم الادارة ،
والقى المراقبة على الصحافة ، وكان متأثرا بمبادئ « الاستبداد المستنير » .
الا انه عزل واعدم نتيجة ثورة من القصر عام ١٧٧٢ . وبين عامي ١٧٨٤-١٧٨٨
جرت محاولة اصلاحية اخرى لتنظيم العلاقات بين ملاكي الارض ، والفلاحين ،
وتبع ذلك الغاء قناة الارض في الدانيمارك .

أما السويد فوضعها مشابه للدانيمارك . الا ان تأثيرات غرب اوربا فيها
كانت اقوى ، وطبقة النبلاء اكثر قريبا من البورجوازية . اذ كان النبلاء هم الذين
يستثمرون الغابات الواسعة ، ومناجم الحديد الغنية ، أي منتجات التصدير . وقد
استطاعت الطبقتان متضافرتين ، ان تحدا من الاستبداد الملكي ، بعد وفاة الملك
(شارل الثاني عشر) عام ١٧١٨ . وكان دور البورجوازية هاما ، وقويا في الموانئ
الالمانية ، في بحري الشمال ، والبلطيق . الا ان الملك (غوستاف الثالث)
(١٧٧١-١٧٩٢) ، استطاع بحركة انقلابية عسكرية ، ان يعيد الحكم المطلق ،
ويقيد سلطة المجلس (الريكسداغ Riksdag) . وحاول بعد ذلك
ان يكون ملكا (مستبدا مستنيرا) ، فلقى التعذيب ، وحسن قوانين الفقراء ،
وأعلن التسامح الديني ، وحرية الصحافة ، وشجع حرية التجارة ولكن عندما
قامت (الثورة الفرنسية) اتخذ حكما اكثر ميلا للرجعية .

رابعا - اوربا القارية والمتوسطة

بدا القسم الاكبر من القارة الاوربية ، في مطلع القرن الثامن عشر ، متأخرا
في تطوره عن البلاد المطلة على الاطلنطي ، والبحار الشمالية . فقد بقي الاقتصاد
مستندا الى استثمار ثروات الارض ، واحتفظ المجتمع ببنية تقليدية ، وبسيطة
نسبيا : فهناك طبقة من النبلاء ، قابضة على الارض ، مقابل فئة فلاحية ، خاضعة
قليلا أو كثيرا لنظام القناة . واذا ما وجدت الطبقة البورجوازية ، فهي قليلة
العدد ، ولا تملك القوة المالية ، او التأثير الفكري ، اللذين تملكهما البورجوازيات
الغربية . وكانت آثار الاقطاعية كثيرة ، والمؤسسات السياسية غير ناضجة .

١ - شبه جزيرة ايبيريا : ويمكن استثناءها من الوصف السابق ، لان اسبانيا والبرتغال كانتا في الواقع مفتوحتين ، بسبب موقعهما الجغرافي ، للتأثيرات الاطلنطية : من ثروات متدفقة ، وتيارات فكر . ومع ذلك ، فلم تعرف واحدة منهما كيف تستفيد من رؤوس الاموال المتكدسة لديها من التجارة البحرية ، والاستثمار الاستعماري ، لتدفع باقتصادها قدما .

اسبانيا في عهد الملك (فيليب الخامس ١٧٠٠-١٧٦٤) ، لم تعد تملك تلك القوة الكبيرة التي كانت لها في القرن السابق ، بل اکتفت باستثمار امبراطوريتها الواسعة في امريكا بطريقة عشوائية ، ودون اکتراث حقيقي بجدوى عملها . ولم تتمكن على الرغم من جهود السلطة في تنمية المصانع ، واعادة بناء الاسطول ، من اتباع خطوات انكلترة ، وفرنسا ، في دروب التوسع الصناعي . وقد يكون السبب ، ان قسماً كبيراً من ارباح التجارة فيما وراء البحار ، قد استغل في الارض ، او استخدم لشراء منتجات مصنوعة من الخارج . ويمكن ان يرجع ذلك ايضا ، الى انه لم يكن في اسبانيا ، سوى مكان ضيق ومحدود لنخبة (مستنيرة) ، قادرة على اجراء الاصلاحات ، التي لا غنى عنها . فالساحة الاجتماعية ، مشغولة من ناحية ، بطبقة النبلاء ، المتعلقة بامتيازاتها ، والنافرة من التأثيرات الاجنبية ، ومن ناحية ثانية ، بطبقة رجال الدين ، الكثيرة العدد ، والقوية ، ومن ناحية ثالثة ، بالكتل الشعبية الجاهلة ، التي احاطتها الكنيسة من كل ناحية . واذا كان مجموع اسبانيا على تلك الحال ، في النصف الاول من القرن الثامن عشر ، فان (كاتالونيا) كانت اقرب برخائها الى شمالي غرب اوربا . والشيء نفسه كان في البرتغال . اذ لم تعرف كيف تستفيد من قوتها التجارية ، لاقامة نهضة صناعية فيها ، او تجديد زراعي . ففقدت في القرن الثامن عشر دورها الوسيط بين المستعمرات واوربا ، وغدت تابعا اقتصاديا يدور في فلك انكلترة .

ومع ذلك ، يلاحظ في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اتجاه نحو (الاصلاح) في الدولتين : ابتداء في اسبانيا الملك (شارل الثالث) ، بتشجيع الري ، وبناء المصانع ، والطرق ، وقوى الاسطول التجاري ، ودعم التجارة

البحرية ، واصبحت الكنيسة اكثر خضوعا للسلطة المدنية • وفي ١٧٧٦ تم طرد
اليسوعيين من اسبانيا •

أما في البرتغال ، فالوزير (بومبال Pombal) ، هو الذي قام بالمبادرة
الى الاصلاح : فدفع النشاط التجاري قدما ، وشجع الصناعة ، وكان من رواد
(الاستبداد المستنير) •

٢ - ايطاليا : كان انقسام ايطاليا الى مجموعة من الدويلات : (مملكة
نابولي) في الجنوب ويحكمها آل بوربون ، ودول الكنيسة ، وطوسكانا ،
ولومبارديا الخاضعة للنمسا ، والجمهوريات التجارية ، (جنوة والبندقية) ، عائقا
في وجه التقدم الاقتصادي فيها • هذا بالاضافة الى ان الفعاليات الاقتصادية ،
قاست كثيرا من انتقال التجارة الى المحيطات • ولكن حدث في النصف الثاني
من القرن الثامن عشر ، اصلاح هام في طوسكانا ، مس الميدان الاجتماعي ،
والقضائي • وكذلك في (مملكة نابولي) ، حيث وقف (شارل بوربون) بقوة
في وجه امتيازات ملاكي الارض الكبار • هذا علما ان (مملكة سردينيا) ، الى
الشمال الغربي من ايطاليا ، كانت في تطورها الاقتصادي ، مشابهة لشالي غربي
اوربا ، لقربها من فرنسا •

٣ - اوربا الوسطى والشرقية : الى الغرب من نهر الالب ، كان هناك
فسيفساء من الدول الصغيرة ، التابعة نظريا للامبراطور • وما تبقى من شرقي
اوربا ، ووسطها ، فتقسمه خمس دول كبيرة :

١ - الامبراطورية العثمانية : وكانت في القرن الثامن عشر لا تزال تحتل شبه
جزيرة البلقان ، وشالي البحر الاسود • الا انه في اواخر هذا القرن ، ابتداء
التراجع : فقد اخذ البولونيون ، والروس ، والهنغار ، والبنادقة ، يمارسون
ضغطا عليها • وسرى كيف اضاعت اجزاء مما تملك في بحث العلاقات الدولية •

ب - بولونيا : وكانت بلادا ضعيفة ، فهي لا تملك حدودا طبيعية ، ولا
تجانسا ، او اندماجا قوميا : فمن (١١) مليونا من السكان ، هناك ٣٠٪ من
الروس ، و ١٥٪ من الالمان ، و ٥٠٪ من البولونيين • ويضاف الى انلاتجانس

القومي، الانقسام الديني • ولم يكن للملك أية سلطة : فالنبلاء هم الذين يحكمون بوساطة (الديت) وهو مجلسان : مجلس شيوخ ، يعينه الملك ، ومجلس ، انتخب اعضاءه النبلاء • وقد استفاد كبار النبلاء من ضعف الملكية ، ليفرضوا على الفلاحين ، واجبات اقطاعية ، وانواعا ثقيلة من السخرة • وقد تحالفوا مع طبقة النبلاء الصغار ، ووقفوا في وجه كل اصلاح •

ج - دول آل هابسبورغ : كانت تتألف من مساحة برية واسعة ، يختلف سكانها عرقيا ، ولغويا ، ودينيا ، اختلافا كبيرا • وان سيادة (آل هابسبورغ) في مطلع القرن ، على الاراضي المنخفضة الاسبانية (بلجيكا) ، وعلى دوقية ميلانو ، جعلتهم بتماس مع البلاد المتطورة اقتصاديا ، في غربي اوربا • وقد سعوا من جانبهم لتشجيع النمو الصناعي ، وانشاء المصانع ، الا ان المجتمع ، والمؤسسات حافظا جزئيا على صفتها في العصور الوسطى ، كاستمرار قنانة الارض مثلا • ومع ذلك فقد تحققت بعض اصلاحات تحت حكم الملك (شارل السادس) (١٧١١-١٧٤٠) ، اذ اعاد تنظيم المالية ، وشجع الصناعات النسيجية ، واصلاح الموانئ ، على البحر الادرياتيكي • وقد توبع هذا الاصلاح في عهد حفيده الامبراطور (جوزيف الثاني) ، الذي كان من المؤمنين بمبادئ (الاستبداد المستنير) •

مبادئ الاستبداد المستنير : وتتلخص تلك المبادئ بتقوية الدولة عن طريق تنظيمها تنظيمًا عقلانيا • وليس الهدف من ذلك المصلحة الشخصية للملك ، او ارضاء حبه للسلطة المطلقة ، وانما لتوفير السعادة لرعاياه • وقد تأثر الملوك الذين تبنوا تلك المبادئ ، بآراء الفلاسفة الفرنسيين ، الذين كانوا على علاقات معهم ، وبخاصة (فولتير) • فالملك (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، كان له مراسلات مع هذا الفيلسوف ، واستدعاه الى بروسيا عام ١٧٤٥ ، وعينه مستشارا له • كما ان القيصرية (كاترين الثانية) ، عقدت صلات مع (دالمبير) ، و (فولتير) ، و (ديدرو) ، الذي اقام عام ١٧٧٣-١٧٧٤ خمسة اشهر في بلاطها • وفي الحقيقة لقد استخدم الملوك المصلحون ، (الافكار الجديدة) كالتسامح الديني ، والغاء الامتيازات ، والقضاء على قنانة الارض ، ليحرزوا

نصرا على القوى التقليدية ، المثلة بالنبلأ ، ورجال الدين ، والتي وقفت فسي وجه سلطتهم المطلقة . ولكن الاعتبارات الفلسفية ، لم تلبث أن تراجعت امام اهتمام اولئك الملوك بتدعيم قوتهم ، وعظمتهم ، واستمالة الرأي العام اليهم .

اما الطريقة المتبعة في الاصلاح فقد اتت من الاعلى ، او بتعبير آخر ، ما كان من الممكن ان تأتي — كما كان عليه الحال في اوربا الغربية — من طبقة موجهة (مستنيرة) ، تتضافر فيها جهود بورجوازية الاعمال ، مع النبلاء المتحررين . ومن ثم ، فالرعايا ، لم تستشر في الاصلاحات ، ولا في (برنامج التحديث) ، الذي فرضه الملك . لان هذا الاخير لا يمكن ، وهو الذي يسيره العقل ، ان يخطيء بحسب اعتقادهم ، او تنتقص سلطته . فالامبراطور (جوزيف الثاني) اذن ، وقد وصل الى العرش بعد امه (ماري تيريز) ، عام ١٧٨٠ ، اتبع تلك الخطوات الاصلاحية . وقد فكر اولا ، في **توحيد دوله** ، فاتخذ خطوات ادارية ، وقضائية . وقسم الامبراطورية الى (١٣) حكومة ، وفرض اللغة الالمانية لغة رسمية ، مما ادى الى مقاومات محلية ، ولا سيما في بوهيميا ، وهنغاريا . وجمعت القوانين ، والمراسيم في عهده ، واعترف بالمساواة امام القانون ، وبالزواج المدني ، والطلاق .

وفي **الميدان الاجتماعي** ، كان عمله جديدا كل الجدة : فبينما اعتمد (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، و (كاترين الثانية) على الارستقراطية ، وقويا بذلك تأثيرها ، فان (جوزيف الثاني) لم يتردد في مهاجمة امتيازات النبلاء ، بمساعدة موظفين اكفاء ، ومخلصين للدولة . ففي ١٧٨١ الغى قناة الارض الشخصية ، فاصبح بإمكان الفلاحين ان ينتقلوا حيثما يريدون ، وان يختاروا مهنتهم ، مسادفع قسمانهم الى الحقل الصناعي . واصبح بمقدورهم كذلك ، ان يشتروا من اسيادهم الارض التي يفلحونها ، والفيت السخرة ، والنقابات . واوجد في الوقت نفسه (ضريبة عقارية) يدفعها الجميع . وبدى باقامة (الكاداستر) ، وهو سجل يسمح كل الارض ، ويحدد قيمتها ، ليكون تحديد الضريبة دقيقا ، وبذلك تكون الضرائب على الارض عادلة .

وفي **المضمار الديني** ، منح (مرسوم التسامح) عام ١٧٨١ ، حرية العبادة الى جميع الرعايا غير الكاثوليك ، — ما عدا اليهود — . واخضعت الكنيسة الكاثوليكية للدولة ، ولم يعد ارتباطها بالبابا قائما ، الا من ناحية العقيدة ، واغلقت بعض الاديرة . ان هذا الاصلاح الكنسي ، بادخال الكنيسة في البنية الادارية ، والذي يطلق عليه اسم (الجوزيفيسم) (نسبة الى اسم الامبراطور) ، اثار صراعا مع البابا . ولكن الامبراطور لم يغير موقفه على الرغم من زيارة البابا لفينا عام ١٧٨٢ .

د - بروسيا : لقد نمت (بروسيا) دولة قوية في القرن السابع عشر ، وتابعت ذلك النمو في القرن الثامن عشر ، في عهد ملكها (فردريك غليوم الاول) الذي حكمها حتى عام ١٧٤٠ . وقد خلفه على العرش ابنه (فردريك الثاني) او الكبير (١٧٤٠-١٧٨٦) . وفي عهده وصلت بروسيا الى اوج قوتها ، بفضل الاصلاحات التي اجراها ، والحروب التي خاضها .

وقد كان يطلق على (فردريك الثاني) ، لقب (الامير الفيلسوف) ، لاهتمامه بالفلسفة والآداب ، مع كل مشاغله السياسية ، التي تركزت حول : توفير القوة ، والمنعة ، والعظمة ، لدولته بروسيا . فقد قرب اليه فولتير ، وجعله مستشارا له ، ونشر في عام ١٧٤٦ كتابه (تاريخ عصري) . وكان يحفظ مسرحيات (راسين) ، الاديب الفرنسي ، عن ظهر قلب ، واستدعى الى بلاطه ، فلاسفة ، وادباء ، ورعى الفن ، والفنانين . وقد تركت اهتماماته تلك ، آثارها الطيبة فيه ، فتبنى هو الآخر — كما فعل جوزيف الثاني بعده — مبادئ (الاستبداد المستنير) ، وطبقها في اصلاح بلاده بروسيا .

ففي الميدان الاقتصادي والمالي : اراد (فردريك الثاني) ان يعمر خزائنه بالمال لخدمة سياسته الداخلية والخارجية ، والاتفاق على حروبه . فاوجد ادارة ملكية للضرائب غير المباشرة ، وفرض احتكار الدولة لبعض المنتجات ، والغى القناة في الاملاك التابعة للتاج ، مما حفز الفلاحين على العمل بشكل افضل ، وزاد من مردود الارض ، ومن ثم ، من الواردات المالية . وجعل الزراعة موضع

عناية خاصة : فطبق آراء الفيزيوقراطيين ، واستصلح اراضي زراعية واسعة واسكن عليها (٣٠٠٠٠٠) من المعمرين ، والعمال ، والفلاحين الالمان ، والمهاجرين . وذلك في المناطق الشرقية . وشجع على انشاء مصانع الجوخ الكبيرة ، ومصانع الحرير ، والسجاد ، والخزف . واستثمر مناجم (سيليزيا) بشكل كثيف . وحفر عددا من القنوات .

وفي حقل الادارة والقضاء : فانه اعاد تنظيمها باتجاه المركزية الشديدة . والارتباط القوي بالدولة . ونظر في القوانين وصاغها صياغة جديدة ، والفرس التعذيب ، وعين قضاة اكفاء .

وفي مضممار التعليم : شجع اقامة مؤسسات التعليم الثانوي الكبرى ، المسماة (الجمناز Gymnases) ، ووسع الجامعات ، وطورها . واهتم بصفة خاصة ، بالتعليم الابتدائي ، لانه اداة توحيد ، في بلد يتجمع فيه سكان من اصول مختلفة . فأقر التعليم الالزامي ، واعد المعلمين في دورات تعليمية خاصة . وجعل من (اكاديمية برلين) مركزا فكريا هاما .

اما في المجال الديني : فقد بدا (فردريك الثاني) متسامحا ، اذ اعطى حرية العبادة الكاملة للكاتوليك في سيليزيا ، بل استقبل اليسوعيين الذين طردتهم الدول الكاثوليكية . اما الكنيسة اللوترية فروقت مراقبة شديدة .

ان اهتمام (فردريك الثاني) بقضايا الفلسفة ، والفكر ، لم تخفف من ايمانه بضرورة القوة العسكرية التي غرسها في نفسه مبكرا والده . فالقوة العسكرية اساسية لتحقيق عظمة بروسيا ، كما كان يرى ، ويرى اجداده من قبله . ولذلك فانه دعم الجيش الذي كان والده قد اعده اعدادا متينا ، حتى اصبح بين يديه (٢٠٠٠٠٠) جندي ، من اصل (٦) ملايين نسمة هم عدد سكان بروسيا . وقد قال (ميرابو الفرنسي) عن الجيش البروسي : (ان بروسيا ليست ابدا دولة تملك جيشا ، وانما هي جيش يحتل دولة) . وكان ذلك الجيش ، يخضع لنظام قاس ، وعلى رأسه ضباط اكفاء ، تسيروهم العبقري العسكرية (لفردريك الثاني) .

واستطاع بهذه القوة العسكرية ان يوسع بروسيا : (فحرب الوراثة النمساوية) ، التي اشترك فيها ، ادت الى ضحه لسيليزيا عام ١٧٤٢ . واعطاه

تقسيم بولونيا الاول عام ١٧٧٢ ، اراضي هامة على حافة بحر البلطيق . ففي ربيع قرن ، ارتفعت مساحة بروسيا من (١٢٠.٠٠٠) كم^٢ الى (٢٠٠.٠٠٠) كم^٢ ، وسكانها ، من مليونين ، الى ستة ملايين نسمة .

وهكذا غدت بروسيا دولة المانية قوية ، تنافس النمسا ذاتها في محيط الامبراطورية ، وتخشاها الدول الاوربية ، وتحسب حسابها في السياسة الدولية ، وترنو اليها انظار الالمان كنواة لدولة المانية موحدة ، تضم شمل الدويلات الالمانية الكثيرة والمبعثرة .

الا ان بروسيا ، حافظت على بنيتها الارستقراطية ، وظل دور ملاكي الارض الكبار (اليونكرز Junkers) قويا فيها .

هـ - روسيا : اشير سابقا الى التطورات الكبيرة التي ادخلها حكم (بطرس الاكبر) في روسيا ، والتي توقفت بعد وفاته لثلاثين عاما ، أي حتى وصل الى عرشها (القيصرية اليزابيت ١٧٤١-١٧٦١) . وتوبع تلك الاصلاحات في عهد القيصرية (كاترين الثانية ١٧٦٢-١٧٩٦) ، الالمانية الاصل ، التي ازاحت زوجها (بطرس الثالث) عن العرش ، ويقال (انه قتل بدفع منها) ، وقد ثبتت نفسها حين دانت بالارثوذكسية . وكانت ملكة مثقفة وعلى علاقة بالفلاسفة ، والادباء الفرنسيين ، الذين استقبلتهم في سان بطرسبورغ ، وكذلك بالفنانين . ولكنها قبل ان تكون امرأة فكر ، وثقافة ، فانها كانت رئيسة دولة ، واقعية الاتجاه ، وسلطوية . وان الاصلاحات التي قامت بها ، والتي اوحى لها بجزء منها ، المقربون اليها ، من امثال (اورلوف) ، و (بوتمكين) ، كانت تهدف في الدرجة الاولى الى تقوية السلطة الامبراطورية ، والى دعم عظمة روسيا . (فكاترين الثانية) ، شأنها شأن (فردريك الثاني) ملك بروسيا ، و (جوزيف الثاني) الامبراطور ، كانت من انصار (الاستبداد المستنير) بل من اقطابه ، ولذلك سعت في مجال الاصلاح :

ففي **الحقل الاقتصادي** : ابدت عناية بالزراعة ، فاستصلحت اراضي جديدة ولا سيما في (اوكرانيا الجنوبية) ، حيث سعت لتثبيت السكان ، انصاف البدو على الارض ، وتحويلهم الى زراع مستقرين ، وكذلك في اقليم (القوقاز) . واستخدمت لتعمير تلك الاراضي عناصر اجنبية ، آتي بها من الامبراطورية العثمانية

— ٣٣٧ — تاريخ اوربا في العصر الحديث م-٢٢

(من الرومان والبلغار واليونان) ، او من المانيا • وقد وصل عدد هؤلاء المعمرين في اواخر حكمها الى (٨٠٠٠٠٠) •

وشجعت الصناعة ايضا ، بالحث على انشاء المصانع لنسج الصوف ، والكتان ، والتوسع في الصناعة التعدينية في الاورال ، التي كانت تغذي تيار تصدير كبير . واهتمت بالتجارة البحرية ، فانشأت ميناءي (اوديسا) و (سيياستبول) على شاطئ البحر الاسود •

وفي المجال الاداري بذلت كاترين الثانية جهدا كبيرا لاعادة تنظيم البلاد ، ومركزة الحكم في يدها : فقسمتها الى (٤٤) حكومة ، كل حكومة مقسمة الى اقسام اصغر ، ووضعت على رأسها حاكما ، يرتبط بالسلطة المركزية • وادخلت تحسينات على الامور القضائية • ولاتمام عمل (التحديث) الذي بدأته ، كان عليها ان تستند الى طبقة النبلاء ، لعدم وجود طبقة بورجوازية قوية • فقد منحت تلك الطبقة الارض ، ودعت سلطانها على الفلاحين • فالى هذه المرحلة من حياة روسيا يرجع تثبيت نظام قناة الارض نهائيا فيها • وقد ادى هذا بالتالي الى عدة ثورات ريفية اشهرها ثورة (بوجاتشيف Pougatchev) الذي ادعى انه (بطرس الثالث) ، وأثار اقليم القولغا • وهاجم الاقنان في كل مكان الاسياد الاقطاعيين • الا ان القوزاق خانوه ، واسلموه لكاترين الثانية ، التي نفذت فيه حكم الاعدام عام ١٧٧٥ •

اما التعليم ، فلم تعر (كاترين الثانية) الابتدائي منه الاهتمام ، لقلة الوسائل ، وخشية ان يؤدي ذلك التعليم الى تنبيه الازهان ضد سلطة القيصرية • فهي التي قالت لمحظيها (بوتمكن) « لو كان رعايانا متعلمين لما بقينا ، انا وانت ، في مكاننا هذين » • ومع ذلك فقد اهتمت بالتعليم الثانوي ، والعالي ، لتخرج موظفين اكفاء للدولة • كما انها كانت فخورة بانشائها (معهد سمولني Smolnyi) لتعليم فتيات الطبقة النبيلة •

وفي ميدان الدين قامت كاترين الثانية بالاستيلاء على املاك الكنيسة الارثوذكسية ، وبذلك قصصصت آخر اجنحتها •

ولم تكثف (كاترين الثانية) بتلك الاصلاحات ، بل دعمت الجيش كما فعل (فردريك الثاني) ، وبذلك الجيش ، استطاعت ان تنتصر على القوات العثمانية ، وان تضم اليها الشواطىء الشمالية للبحر الاسود . كما اقتسمت بولونيا مع النمسا ، وبروسيا ، وتوسعت غربا . وقد ارتفع عدد سكانها بين (١٧١٥ - ١٧٩٥) ، بمقدار الضعف ، ففدا (٢٦) ستة وعشرين مليون نسمة .

وهكذا يلاحظ ، ان اغلب ملوك اوربا الوسطى ، والجنوبية ، والشرقية ، قد تأثروا بآراء الفلاسفة ، واردوا ان يحكموا (بأنوار العقل) ، الا انهم ، لم يكونوا يقبلون البتة ، اية مناقشة حول الاصلاحات التي قاموا بها . فقد كان (فردريك الثاني) يقول « كل شيء للشعب ، ولا شيء بالشعب » ، وهذا ما اعطى حكمهم صفة (الاستبداد المستنير) .

وقد اتبع اولئك الملوك سياسة تشابهت في كثير من الامور ، الا انها اختلفت في اخرى ، وذلك يرجع الى الاختلاف في الشخصية ، والظروف المحلية . وكان الاختلاف اكبر ما يكون في الميدان الاجتماعي . ويمكن القول انهم جميعا اتبعوا آراء الفلاسفة ، ولا سيما في المجال الديني . الا انهم في الواقع ، لم يضعوا الدولة في خدمة الشعب ، - كما اراد اولئك الفلاسفة - ، وانما الشعب في خدمة الدولة ، ليزيدوا من قوتها ويرفعوا من شأنها .

خامسا - فرنسا في القرن الثامن عشر

خلف الملك لويس الرابع عشر فرنسا في عام ١٧١٥ ، وقد انهكتها الحروب ، وناء شعبها تحت ثقل الضرائب ، وكانت احوال ما تكون الى اصلاح اوضاعها . وعلى الرغم من بعض المبادرات الطيبة بهذا الشأن ، الا ان مقاومة الملك (لويس الخامس عشر) كانت عاتقا في وجه أي تغيير عميق . ولذا فقد توفي الملك (لويس الخامس عشر) في عهده ، فانه اخفقت في عهد خلفه (لويس السادس عشر) ، (لويس الخامس عشر) ، فانها اخفقت في عهد خلفه (لويس السادس عشر) ، وهكذا غدا الجو مهيئا للانفجار الكبير الذي كان (الثورة الفرنسية) عام ١٧٨٩ .

٢ - عهد لويس الخامس عشر (١٧١٥ - ١٧٧٤) : كان (لويس الخامس عشر)

وهو احد احفاد لويس الرابع عشر ، في الخامسة من عمره ، عندما وصل الى العرش . وقد اظهرت فترة حكمه ، انه لم يكن يتمتع بشخصية قوية تتيح له ان يدير البلاد وهي في ازمتها . كما انه صرف اهتمامه الى كثير من اللهو . ومن ثم ، فان تأثير الطبقة الارستقراطية ، قد تزايد في عهده ، عبر حاشيته وموظفيه . وقد جرت محاولات لتقوية البنية الادارية والمالية ولكنها اخفقت .

ويمكن ان يقسم عهده الى ثلاث مراحل واضحة :

١ - مرحلة الوصاية على العرش ١٧١٥-١٧٢٢ : وكان يحكم خلالها فرنسا الوصي على العرش (فيليب دورلثان) ، ابن اخي لويس الرابع عشر . وكان معروفا بالشجاعة ، والذكاء ، ورعاية الآداب ، والفنون ، الا انه كان كسولا وانانيا . فاعطى السلطة لطبقة نبلاء الدم (السيف) ، واعاد للبارلمان حق الكامل في الاعتراض على قرارات الملك . الا ان هذه الاجراءات لم يطل امدها ، اذ اضطر امام ازدياد مقاومة البارلمان ، ان يضعه عند حده ، واستغنى عن عمل (نبلاء الدم) ، وبذلك عادت وزارات الدولة الى (نبلاء الثوب) .

وتميز عهده باتجاه البلاط ، والطبقة العليا ، الى حياة اللهو ، والتسلية ، والانغماس في الحفلات ، والاستقبالات ، وموائد الطعام ، والشراب ، واللعب . وكان هذه الفئة من المجتمع ارادت ان تعوض سنوات الصرامة التي عاشتها في عهد الملك لويس الرابع عشر . وقد يشبه هذا (الازمة الاخلاقية) التي عانتها انكلترا والتي اشير اليها سابقا .

وقد يكون اسوأ ما اصاب فرنسا في هذه المرحلة ، هو ما سمي في التاريخ بـ (فضيحة « لو Law » المالية) . وهي في واقعها ، اخفاق محاولة لايجاد تجديد مالي في فرنسا . فقد كانت البلاد تشكو خلا في اوضاعها المالية : فالتجارة راكدة ، والدولة تنفق الضرائب قبل (٣) اعوام من جمعها ، والنقد المعدني مختف . وامام هذا الوضع كان لا بد من تضييق النفقات ، واتباع سياسة تقشف شديد . ولكن الوصي على العرش اختار طريقا آخر ، وهو ما عرضه عليه الايقوسي (جون لو John Law) . فقد اسس هذا الاخير مصرفا ليوذع الناس فيه

اموالهم ، وما لديهم من ذهب وفضة . واعطي هذا المصرف بالمقابل حق اصدار (ورق نقدي) بقيمتها . وقد وثق الناس في بادىء الامر بتلك الاوراق النقدية ، لانه كان بإمكانهم ان يبدلوها في أي وقت ، بنقد رنان (أي نقد معدني) ودون اية صعوبة . الا ان المصرف اصدر ورقا نقديا ، اكثر بكثير من قيمة الذهب والفضة المودعين ، وبذلك اصبح لدى البنك رؤوس اموال يمكنه ان يقرضها للدولة ، وأن يقوم بمشروعات واسعة .

وبالفعل اوجد (شركة المسيسيبي) لاستثمار ثروات امريكا ، ووضع يده على الشركات الاخرى ، واحتكر جمع الضرائب ، وصك النقود ، وبيع التبغ ، واعيد لصالحه ، منصب (المراقب العام للمالية) .

وحتى يجعل الناس يقبلون على توظيف اموالهم في المصرف ، فانه نظم دعاية واسعة ، وذلك بان مناهم بارباح خيالية . الا ان الامور ما لبثت ان تكشفت ، واتضح ان الارباح الموزعة ، لا تتفق مع الآمال . فبدأ بعض المساهمين يسحبون اموالهم ، وتبعهم آخرون ، واشتد الذعر . ولما لم يكن المصرف يملك سوى ما قيمته (٥٠٠) مليون من النقد الرنان ، فانه لم يستطع ان يسدد ثمن المليارات الثلاثة التي اصدرها . ومن ثم كان اعلان الافلاس عام ١٧٢٠ ، واضطر (لو) الى الهرب ، وافلس آلاف الاشخاص ، بينما حقق بعضهم ارباحا صارخة .

وقد يكون من الأعمال الحسنة للوصي على العرش ، هو تحالفه مع انكلترا ، ذلك التحالف الذي اوقف لفترة ، الصراع الطويل من اجل السيادة الامبراطورية في المستعمرات .

٢ - مرحلة ادارة فلوري Fleury ١٧٢٣-١٧٤٣ : وكان «فلوري» مربى الملك ، واصبح في عام ١٧٢٦ وزيره الاول . واستطاع خلال عشرين عاما ، ان يحكم البلاد برصانة وحكمة ، فقد عاشت فرنسا في سلام خارجي وداخلي . وتجنب فلوري الصراعات الدينية ، والصدامات مع البرلمانات ، ولم يقم بأية محاولة لتغيير الاوضاع تغييرا جذريا . وبالفعل فقد ثبتت قيمة النقد ، وكان هذا دافعا لحفز الاعمال قديما . وكانت المواسم الزراعية حسنة بشكل عام ، ومردود

الضرائب افضل من السابق ، والحكم في المقاطعات حازما ومنتجا . وقد توسعت الطرق ، وازدادت التبادلات ، ونمت التجارة الخارجية بين ١٧١٣-١٧٤٣ من (٨٠) مليون من الليرات ، الى (٣٠٨) ملايين منها ، وتوسعت موانئ الاطلنطي ، وازدهرت . وعندما توفي فلوري عام ١٧٤٣ ، كانت فرنسا قد عوضت ما فقدته في حروب لويس الرابع عشر .

٣ - مرحلة الحكم الشخصي للملك ١٧٤٣-١٧٧٤ : قبض الملك على السلطة بنفسه بعد وفاة فلوري . وعلى الرغم من نياته الطيبة ، فان ادارة الآلية المعقدة للدولة كانت تفوق امكانياته . وجاءت سياسته الخارجية ، ودخوله في حروب طويلة ، لتزيد من حاجته المالية ، ولتولد بالاحرى (أزمة مالية) . وهذه بدورها، جعلته في مجابهة مباشرة مع الكنيسة ، والبارلمانات ، والمصالح الخاصة فسي البلاط .

وفي الواقع،وقفت البارلمانات في وجهه ، عندما اراد نفي بعض (الجانسينيين) . وظل (بارلمان باريس) لخمس سنوات ، وهو يعارض ارادته .

كما ان البارلمانات ، وقفت في وجه أي حل جذري للمشكلة المالية . فالحالة المالية كانت خطرة ليس بسبب النفقات العسكرية ، وفتح الطرقات ، وتأمين حياة البلاط اللاهية فحسب ، وانما لان التنظيم المالي كان سيئا في اساسه ، لعدم وجود ميزانية دقيقة ، ولسوء توزيع الضرائب : فقد كان دافعوها هم الطبقة الدنيا فقط . كما ان طريقة جمع تلك الضرائب كانت سيئة : فالملتزمون العامون كانوا يجمعون من الضرائب غير المباشرة ، اكثر بكثير مما يدفعونه للدولة . وكان الحل الوحيد والسليم ، ايجاد (ضريبة موحدة) تتناسب مع الدخل ، وتفرض على الجميع . وبالفعل فرضت ضريبة ٥٪ على الدخل ، وكان ذلك عام ١٧٤٩ . الا انه تشكل تحالف مؤقت من رجال الدين ، والنبلاء ، والبارلمانات ، لمقاومتها،

واستطاع هذا التحالف ان ينجح . وبقيت ضريبة ٥٪ (أو $\frac{1}{20}$) موجودة ،

وانما ضريبة على الشعب وحده .

ولكن حاجة لويس الخامس عشر للمال ، بسبب حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) ، طرحت المشكلة ثانية . ووقفت البرلمانات هذه المرة ، جبهة واحدة ، في رفضها الضريبة الواحدة على الجميع . الا ان الملك اتخذ موقفا صلبا منها ، فالغى (بارلمان باريس) عام ١٧٧١ ، ونفى اعضاءه ، وجمعت الضريبة الموحدة . كما جعل القضاء مجانيا (أي ان المتخاصمين لم يعودوا يدفعون تكاليف دعاويهم) ، والغى بيع وظائف القضاء ، واصبح القضاة موظفين تعينهم الدولة ، ويتقاضون اجورهم منها . وهكذا لم تعد البرلمانات قوة في الدولة .

الا ان الدعاية ضد تلك الاصلاحات ، من خصومها النبلاء ورجال الدين ، جعلت الرأي العام يكره اكثر فاكثر حكم الملك لويس الخامس عشر . ولذلك ، عندما حضرته الوفاة عام ١٧٧٤ ، فان النقمة ضده كانت عارمة . وهذا ما سمح للفئات الارستقراطية المناوئة كي تشن هجومها .

ب - عهد الملك لويس السادس عشر (١٧٤٧-١٧٨٩) : خلف (لويس الخامس عشر) على عرش فرنسا ، حفيده (لويس السادس عشر) ، الذي حكم حتى اعدامه عام ١٧٩٣ . لقد كان مخلصا ومستقيما ، الا انه لم يكن ليملك الذكاء الكافي ، او قوة الارادة الحازمة ، لقيادة فرنسا في تلك الفترة الصعبة من تطورها . وكانت زوجه هي (الملكة ماري انطوانيت) ، ابنة الملكة (ماري تيريزا) ، امبراطورة المانيا . وقد اساءت الى نفسها ، والى الملك ، والى الملكية ، بسلوكها اللاهي ، وعدم اكتراثها بالرأي العام .

وفي عهد لويس السادس عشر ، رفعت طبقة النبلاء التي دعمتها الملكة ، رأسها ، وتحدت سلطة الملك ، وازعجت هيته ، في الوقت الذي تجنبت فيه تحمل أية مسؤولية . اما فئة الفلاسفة ، والفكرين ، فقد ضاعفت حملاتها النقدية على النظام القديم ، دون ان تعارض الملكية بشكل مباشر . وكانت البورجوازية تشكو من عدم تسلمها المناصب السياسية ، بما يتلاءم مع قوتها الاقتصادية . وكانت الفئات التي لا تتمتع بأية امتيازات ، والتي لا تملك شيئا ، هي التي كانت اكبر الابعاء ، وقد بلغت قوة احتمالها حدا الاقصى .

ومع ان الملك (لويس السادس عشر) أعاد الى البارلمانات سلطتها ، فان تعيينه الفيزيوقراطي (تورغو) مراقبا عاما للمالية ، كان دليلا على رغبته في متابعة الاصلاحات . وقد اراد (تورغو) ان يوجد تجديدا كاملا في البنية الاقتصادية ، والمالية ، ولكن برامجه اثارت هجوما عاصفا ، مما ادى الى عزله عام ١٧٧٦ . وقد سعى الذين تلوه ، من امثال (نيكر) و (كالون) و (دوبرين) ان يسيروا في الاصلاح المالي ، ولكنهم لم يستطيعوا المتابعة . فعلى الرغم من تفاقم (الازمة المالية) الناجم عن تدخل فرنسا في (الثورة الامريكية) ، فان الارستقراطية رفضت قبول اية اصلاحات ، يمكن ان تمس امتيازاتها .

وحوالي منتصف ١٧٨٠ ، كانت طبقة النبلاء لا تحتكر البارلمانات نفسها فحسب ، وانما مناصب الوزارة ، والاساقفة ، وقادة الجيش . وازدادت الاوضاع سوءا بعد ١٧٨٥ ، اذ تبدت ازمة اقتصادية خانقة ، لسوء مواسم ١٧٨٧ و ١٧٨٨ ، واشتدت البطالة ، وارتفع سعر الخبز ، وتضاعف البؤس بين الطبقات الفقيرة .

وفي هذه الاجواء قامت اضطرابات ، اثارها بارلمانات المقاطعات في مدن عديدة من فرنسا ، اذ ان اصحاب الامتيازات قرروا النضال ضد السلطة المطلقة للملك ، وضد أية ضريبة تفرض عليهم . وقد ظهرت البارلمانات في اعين الشعب ، وهي تدافع في الحقيقة عن امتيازاتها ، وكأنها هي حامية الشعب والوطن . وقد اصرت تلك البارلمانات على دعوة (الجمعية العمومية) للانعقاد ، تلك الجمعية ، التي تضم نوابا عن الفئات الثلاث في المجتمع : رجال الدين ، والنبلاء ، والشعب ، والتي لم تنعقد منذ مطلع القرن السابع عشر . وتراجع الملك امام موقف البارلمان ، وقرر دعوة (الجمعية العمومية) في ايار ١٧٨٩ .

وهكذا ابتدأت (الثورة الفرنسية) بثورة (اصحاب الامتيازات) ، الا انها لم تلبث ان تحولت الى حركة ثورية واسعة ، تجاوزت بعيدا ، أهداف البادئين بها .

الفصل الثالث

العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر

٢ - السمات العامة للعلاقات الدولية :

اتسع ميدان العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر اتساعا كبيرا ، وتضاعفت المنافسات على ارض القارة الاوربية بين الدول الكبرى ، واضيف اليها المنافسات الاستعمارية ، فلم تعد الحرب تجري على البحر لسلامة هذه الطريق التجارية أو تلك فحسب ، وانما على ارض المستعمرات نفسها : ففي الهند ، وامريكا ، اصطدم الفرنسيون ، والانكليز ، والاسبان . وكان يسبق الحروب بين البلدان التجارية والبحرية ، ويرافقها ، مفاوضات تجري بين الكواليس الدبلوماسية ، ويقوم بها تجار كبار ، لهم نفوذهم السياسي . ومع ذلك فان الارض الاوربية بقيت المركز الاساسي للصراعات العالمية . وكان الملوك يتبعون فيها (سياسة اسرية) ، هدفها في الدرجة الاولى الحفاظ على ما ورثوه من تراب الوطن ، او توسيعه ، وهذا ما يفسر كثرة حروب الوراثة .

ولم تخضع العلاقات الدولية في هذا القرن لقواعد اخرى غير قواعد مصلحة السلاطة الحاكمة ، ومصلحة الدولة . وكانت جميع الوسائل مباحة للاتصار على العدو : مثل رشوة الممثلين الدبلوماسيين لرجال الدولة ، وشراء المراسلات ، أو التجسس عليها ، واعطاء منح للأحزاب المعارضة ، السخ . ومثل تلك المبادئ ، كانت وراء اندلاع الحرب ، وسيرها ايضا . ففي عام ١٧٤٠ ، قذف الملك (فردريك الثاني) بجيوشه في سيليزيا ، دون ان يعلن الحرب . وفي ١٧٥٦ اجتاح ساكسونيا بالطريقة نفسها . وفي البحر هاجم الانكليز اساطيل اعدائهم ، واستولوا على سفنهم التجارية .

وعندما كان يأتي وقت انتهاء الحرب ، واقامة الصلح ، واعادة رسم الحدود . فانه لم يكن لينظر البتة الى ارادة الشعوب . فالشيء الوحيد الذي يحسب حسابه هو (قانون المنتصر) : فالغالب هو الذي يتصرف بالاراضي المفتوحة ، ومن يعيش عليها . ويمكنه ان يبادل سكانها مع آخرين كسلعة بسيطة . ففي عام ١٧٢٠ مثلا ، الزم الامبراطور (شارل السادس) ، ملك البويه مون ، على التنازل عن صقلية ، مقابل حصوله على سردينيا .

ب - الجيش والحرب :

١ - **تركيب الجيش** : كان يجمع جزء من الجيش ، في القرن الثامن عشر ، من سكان البلاد انفسهم : ففي فرنسا مثلا ، كان يجمع ، ومنذ اواخر القرن السابع عشر ، من الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٠-٤٠ سنة ، من سكان الريف العازبين . وكان هؤلاء يكوّنون (فرق ميليشيا المقاطعات) .

وفي منتصف القرن الثامن عشر ، غدت هذه الفرق دائمة ، وتؤلف جيشا حقيقيا يخدم افراده بين عامين ، وستة اعوام . وكان هذا الجيش اثناء « حرب السنوات السبع » يمثل اكثر من ثلث القوى المشتركة في القتال . أما باقي الجيش فكان يتكون من (جنود محترفين) . وهم قسمان : اما (متطوعة) ، يجمعهم بعض الضباط ، بطرق خسيسة كالاعراء بالمال ، او الطعام وغيره . او (جنود مرتزقة) غرباء ، تدفع لهم اجور حسنة ، ويجمعون في فرق ، بحسب لغاتهم . وهكذا كان تحت تصرف فرنسا ، في عهد الملك لويس الخامس عشر ، (١١) فرقة سويسرية ، بالاضافة الى الحرس السويسري الخاص بالملك ، و (٦) فرق المانية ، و (٥) ايرلندية ، و (٢) ايطالية الخ . وكان يمكن اعارة هذه الوحدات المحترفة للملوك الآخرين ، او تأجيرها لهم . وكان بعض قادة تلك الجيوش ، بغيرون المعسكرات التي يعملون معها ، كما يحلو لهم . كما كان بإمكان بعض ضباط الجيش ، ان يلعب في الجيوش الاجنبية الاخرى ، دور (مستشار تقني) ، او ان يمارس قيادة رئيسية ، مثلما كان عليه ، حال (المركيز

لأفايت) في جيش الثوار الأمريكيين . وقد أدى تكوين ضباط الجيش في المدارس ، والأكاديميات العسكرية ، وكثرة الحروب ، وانقلابات التحالفات العديدة ، إلى صبغ الطبقة العسكرية بصبغة (العالمية) .

٢ - كيفية الحرب : إن جيوشا ، مثل تلك التي أشير إليها ، تكلف غالبا . ولذا فقد كان الجنود يخضعون لتدريبات هامة للحصول على النصر . ومن هنا أتت تلك التدريبات المستندة إلى علم حقيقي ، والتي جعلت من الحرب لعبة شطرنج فعلية ، يسعى فيها نحو إجبار العدو على التراجع ، وذلك بتهديده بالحصار من كل جانب . والهدف ، هو إيصاله ، شيئا فشيئا ، إلى أرض صالحة ، لالتحام المعركة عليها . وقد غدت المعارك قاسية ، قاتلة ، وازدادت ضراوة مع تقدم التسليح ، وانتشار استخدام الرماة ، (وهم جنود مسلحون تسليحا خفيفا يوضعون في طليعة الجيوش) ، والبارود .

وإذا كانت الحرب قاسية على الجنود ، فإنها كانت أقسى على السكان المدنيين . فحيثما كان يمر الجنود ، فإنهم كانوا يعيشون فسادا بالبلدان التي يمرون منها ، ويزرعون في جنباتها الرعب . وأقل الأمور التي كانوا يرتكبونها ، هو الاستيلاء على الطعام ، والثروات ، ونهب البيوت ، والكنائس . وإذا ما قاوم المدنيون ، فإن القرى كانت تحرق ، والرجال يقتلون أو يشنقون ، والنساء والأطفال يذبحون . ففي كل يوم تقريبا ، كان هناك ذعر يروع السكان ، ويجعلهم يهجرون ديارهم . وفي أي عصر هذا ؟ في (عصر الأنوار) وعصر سيادة مظاهر الحضارة الرفيعة .

٣ - التسليح : حلت (البندقية) في القرن الثامن عشر محل (الطنبجة) ، وغدت سلاح جميع الجيوش الأوروبية . وكانت أخف وأسهل في الاستعمال منها ، ويمكنها أن تطلق طلقتين أو ثلاثا في الدقيقة ، وإلى بعد ١٠٠-١٢٠ مترا ، وكانت مزودة بحربة ومن ثم كان من الممكن استخدامها في حرب الالتحام ، جسما بجسم .

وإلى جانب البندقية ، كان هناك (المدفعية) وتصنع من البرونز ، وكان المدفع قادرا على توجيه قنبلة ، أو قنبلتين في الدقيقة ، بوزن ٤-٣٣ ليبرة ، إنما

لم يكن التصويب دقيقا . وقد ادخلت تحسينات على المدفعية في فرنسا ، خلال حروب الثورة ، والامبراطورية . ويلاحظ ان اللباس الموحد للجيش قد انتشر وعمم في هذا القرن .

ج - الاطوار الكبرى للعلاقات الدولية

اولا - العودة الى السيادة الفرنسية (١٧١٥-١٧٤٠) :

على الرغم من ان هذه المرحلة كانت مضطربة في اوربا ، الا انها لم تهر خلاها سوى حرب واحدة هي (حرب الوراثة البولونية ١٧٣٣-١٧٣٨) . وقد تميزت بالعلاقات الطيبة بين انكلترا وفرنسا ، مما ادى الى التحالف بينهما .

التحالف الفرنسي الانكليزي : بعد حروب (لويس الرابع عشر) الطويلة ، مالت انكلترا وفرنسا الى السلام : الاولى لتستفيد ما امكن من المواقع الممتازة التي كسبتها في معاهدات ١٧١٣-١٧١٤ ، والثانية لتستعيد قواها ، وتنظم مالياتها . ففي ١٧١٦ وقعت معاهدة تحالف بين الدولتين ، دخلت فيها في العام التالي المقاطعات المتحدة . وقد ساعد هذا التحالف على كبح جماح طموحات ملك اسبانيا (فيليب الخامس) ، الذي اراد ان يستعيد ممتلكات اسبانيا في ايطاليا . فبعد حرب قصيرة ضد الامبراطور (١٧١٧-١٧٢٠) ، اضطر الملك فيليب ان يتنازل عن مطامحه .

حرب الوراثة البولونية (١٧٣٣-١٧٣٨) :

كان ملك بولونيا (ستانيسلاس ليكنزسكي Stanislas Leczinski) وهو حمو الملك لويس الخامس عشر ، قد خلع عن عرشه عا ١٧٠٩م ، الا انه اعيد انتخابه ملكا لبولونيا ، عام ١٧٣٣ بدعم من فرنسا . ولكن النمسا ، وروسيا ، تدخلتا ضده ، فاستنجد بصهره ملك فرنسا . ودخلت فرنسا الحرب ، وحقت انتصارا في الجبهة الايطالية ، وفي منطقة الرين . واثمت الحرب بتوقيع (صلح فينا) عام ١٧٣٨ ، وفيه يتنازل (ستانيسلاس) عن بولونيا ويأخذ مقابل ذلك مقاطعة (اللورين) ، التي تعود بعد وفاته الى صهره ملك فرنسا . وينال (دون كارلوس) ،

ابن ملك اسبانيا ، الذي كان حليفا لفرنسا في حربها ، نابولي وصقلية ، ويؤسس سلالة آل بوربون في نابولي . ويعطى صهر الامبراطور (فرانسوا دوق دولورين) (طوسكانا) تعويضا عن الامارة التي تنازل عنها . وبذلك تدعمت قوة فرنسا ، وشيئا فشيئا ، فرضت نفسها حكما لاوروبا ، بفضل وزيرها (فلوري) . ففي ١٧٣٩ دخلت وسيطا بين السلطان العثماني حليفا ، وبين الامبراطور ، وتوصلت الى صلح لصالح الدولة العثمانية ، استعادت فيه هذه الدولة (صربيا) ، وجزءا من (فلاحيا) ، كانت قد فقدتهما عام ١٧١٨ . ونالت فرنسا مقابل وساطتها ، تجديدا لامتيازاتها التجارية القديمة . وقد اقلق هذا الامر بريطانيا ، في وقت دخلت فيه العلاقات بين الدول مرحلة جديدة .

ثانيا - مرحلة السيادة الانكليزية البروسية (١٧٤٠-١٧٦٣) :

لم يكن بوسع فرنسا ان تحافظ على سيادتها في القارة الاوربية ، وهي في الوقت نفسه تنازع انكلترة السيادة على البحار ، وفي المستعمرات . ولذا فانها ، وهي تبني هذه السياسة المزدوجة ، وقعت في مأزق ، واصيبت بنكسات خطيرة خلال الحروب التي خاضتها ، وهي :

١ - حرب الوراثة النمساوية (١٧٤١-١٧٤٨) :

وترجع الى عدة اسباب :

اولها ، التنافس الاقتصادي : شعرت انكلترة بالتقدم الاقتصادي الفرنسي، والاسباني ، كما هددت سيادتها على البحار . ولم يعد التجار الانكليز ، يحققون الارباح المعهودة في تجارتهم مع امريكا الجنوبية . ولذلك دخلت في حرب مع اسبانيا . وجاءت فرنسا الى جانب اسبانيا ، للصلة القوية بين السلالتين الحاكميتين، ولرغبتها في اضعاف انكلترة .

ثانيها ، قضية وراثة عرش الامبراطورية : توفي في عام ١٧٤٠ الامبراطور (شارل السادس) ، تاركا التاج لابنته (ماريا تيريزا) ، بعد ان تنازل لها في

حياته عن جميع املاكه . وقد اعترفت له بذلك الدول الرئيسية الكبرى، ورعاياه .
الا أنه بمجرد وفاته ، تنصل عدد من الملوك ، والامراء الكبار ، والصغار . من
عهدهم السابق . ومنهم امراء بافاريا ، وساكسونيا ، وسردينيا ، وملك بروسيا .
وفكروا في اقتسام النمسا ، واقتطاع اجزاء منها .

ثالثها ، طموح الملك (فردريك الثاني) : ملك بروسيا ، وطمعه بسيليزيا
الشهيرة بصناعتها النسيجية . وقد بادر هذا الملك ، واستولى على سيليزيا ، وانتصر
في حربه على النمسا . ودفع هذا النصر فرنسا ، كي تحالف مع الدولة الفتية
والقوية ، وكانت تأمل ان تستولي على الاراضي المنخفضة النمساوية (بلجيكا حاليا) .
كما دخل في التحالف ، امير بافاريا الذي كان يطمع بالتاج الامبراطوري . وقررت
انكلترا ، والمقاطعات المتحدة ان تقفا في وجه المطامع الفرنسية ، فتحالفتا مع ماري
تيريزا .

ودارت الحرب ، على ارض القارة الاوربية ، وفي المستعمرات . وابتدت
(ماري تيريزا) الكثير من الشجاعة ، ورباطة الجأش ، فاستقطبت الى جانبها كما
رأينا انكلترا ، والمقاطعات المتحدة . الا ان فرنسا ، وبروسيا ، وحلفاءهما ، حققوا
انتصارات على النمساويين في ايطاليا ، والاراضي المنخفضة ، وارض الامبراطورية ،
حتى احتلت فرنسا بوهيميا .

وفي المستعمرات استطاع (دوبليكس Duplex) الفرنسي ، ان يقف في
وجه الانكليز في الهند ، وان ينتزع منهم مركز (مدراس) التجاري . اما في
امريكا الشمالية ، فقد كانت الهجمات الانكليزية قوية ، اجتاحت كندا الفرنسية
وازال الخطر الذي كان يهدد مصائد الاسماك الانكليزية .

وانتهت الحرب في عام ١٧٤٨ بتوقيع (صلح ايكس لاشايل) : وفيه كسب
(فردريك الثاني) سيليزيا ، الا ان فرنسا تنازلت عن جميع فتوحاتها ، في سافوا
ونيس ، والاراضي المنخفضة . واعادت اوضاع المستعمرات ، الى ما كانت عليه
قبل بدء الحرب . واعترف بـ (فرانسوا دولورين) ، زوج (ماري تيريزا) ،
امبراطورا لمانيا ، باسم (فرانسوا الاول) .

الا ان الصلح لم يكن الا هدنة مؤقتة ، لان (الرأي العام الفرنسي) لم يكن راضيا عنه ، اذ بدا فيه الملك (لويس الخامس عشر) ، وكأنه خاض الحرب لصالح (فردريك الثاني) .

كما ان (ماريا تيريزا) ، لم تنس سيليزيا التي كانت تقول عنها : (هذه المقاطعة العزيزة هي لؤلؤة الامبراطورية) ، ولذا كانت تعد نفسها للنار .

ب - حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) : وكانت حربا على القارة ،

وفي البحار ، وفي المستعمرات . واتخذت صورة حرب عامة ، مع مسارح عديدة للعمليات الحربية في اوربا ، والهند ، وامريكا .

وتمثل السنوات السابقة للحرب ، في الواقع ، والممتدة بين ١٧٤٨-١٧٥٦ ، مرحلة (حرب باردة) : فقد كانت (ماريا تيريزا) تعد نفسها ، وتقوي دولتها ، لاستعادة سيليزيا . فتحالفت مع روسيا في الشرق ، ومع فرنسا العدو الوراثة لآل هابسبورغ في الغرب . وخاف فردريك الثاني من خطر العزلة ، فتحالف مع انكلترا ، التي كانت مصممة على اضعاف فرنسا في اوربا ، وعلى طردها من كندا ، والهند . ودخل الى جانب فرنسا ، النمسا ، وروسيا ، اسبانيا ، وبعض الدول الالمانية . ومرة أخرى أثبت (فردريك الثاني) مواهبه الحربية ، فهاجم ساكسونيا دون اعلان للحرب ، والزم الجيش الساكسوني على القتال الى جانبه ، وحقق انتصارا على الجيش الفرنسي - الالمانى في (روسباخ) ١٧٥٧ ، وعلى الجيش النمساوي في (لوتن Leuthen) . واستطاع وحده ان يقاوم هجمات الفرنسيين ، والنمساويين ، والروس . ولكن الهزائم اخذت تلاحقه في عام ١٧٥٩ ، وكاد ان يستسلم امام القوات الحليفة ، التي استولت على برلين عام ١٧٦٠ ، لولا ان الصدفة انقذته . فقد تسلم عرش روسيا (بطرس الثالث) ، وكان شديد الاعجاب به ، فقرر الانسحاب من الصراع ، واعلن نفسه حليفا له .

وفي هذا الوقت ، كانت الحرب دائرة على البحار ، وفي المستعمرات ، بين انكلترا وفرنسا . وحقق الإنكليز ، باسطولهم الضخم ، النصر على الاسطول الفرنسي ، على الشواطئ الفرنسية ، وخارج اوربا . وفي ١٧٦١ كانت لهم

السيادة المطلقة على البحار . وفي المستعمرات ، لم يكن النجاح حليف الفرنسيين
ايضا ، اذ هزموا في كندا ، والهند .

وانتهت الحرب (بمعاهدة باريس عام ١٧٦٣) ، التي فقدت فيها فرنسا
مستعمراتها الرئيسية . ولم تحتفظ في الهند ، سوى بخمسة مراكز تجارية . وكان
هذا نهاية (الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية الاولى) . كما وقع (صلح
هوبرتسبورغ Hubertsbourg) في العام نفسه ، وفيه تنازلت (ماريا تيريزا)
نهائيا عن سيليزيا لفردريك الثاني .

واذا كانت ارض بروسيا قد اجتاحتها القوى المعادية وخربتها ، فان ما حققته
من نصر ، رفع مكانتها في اوربا و لاسيما في البلاد الالمانية ، حيث شرع نفوذها
ينافس النفوذ النمساوي ، ويحل محله . وكان هذا تهديدا للنمسا ، التي خرجت
من الحرب منهوكة القوى ، لاهثة الانفاس . اما فرنسا فقد اضاعت هيبتها ، وضعف
شأنها ، وخسرت اقتصاديا خسارة كبيرة بفقدانها لمستعمراتها .

ثالثا - العلاقات الدولية في شرقي اوربا (١٧٢٥ - ١٧٩٢)

وكان محورها الدولة العثمانية ، وبولونيا . وقد أشير سابقا ، بأن الدولة
العثمانية ، كانت لا تزال في القرن الثامن عشر مهيمنة على شبه جزيرة البلقان ،
وعلى الشواطئ الشمالية للبحر الاسود ، على الرغم مما اصابها من ضعف داخلي .
ومن المعروف ان روسيا ، كانت دائما تطمح بالوصول الى المياه الدافئة في الجنوب ،
في البحر الاسود وفي البحر المتوسط ، كما كانت تعتبر نفسها وريثة الامبراطورية
البيزنطية ، وحامية المسيحية الارثوذكسية ، والشعوب السلافية . ومن ثم فان
مطامعها بالامبراطورية العثمانية كانت غير خافية . بل اصطدمت معها في عهد
بطرس الاكبر - كما سلف القول - .

الحرب الروسية التركية (١٧٣٥-١٧٣٨) : وعادت الحرب بين الطرفين ثانية
عام ١٧٣٥ ، وذلك بسبب التدخل الروسي في شؤون بولونيا ، وحرب الوراثة
البولونية ، وبسبب النزاع على بعض المناطق على الحدود بينهما . ودخل الى
جانب روسيا ، النمسا العدو التقليدي للدولة العثمانية . واستولت روسيا على

(آزوف) • الا ان فرنسا دخلت وسيطا بين الطرفين ، واتترعت صلحا لصالح الدولة العثمانية وهو (صلح بلغراد) • وفيه تنازلت النمسا عن شمالي بلاد الصرب وعن بلغراد نفسها ، ووافقت روسيا على ازالة تحصيناتها العسكرية في آزوف ، والا تبني اسطولا حريا في البحر الاسود ، وان تنقل تجارتها فيه على مراكب تركية •

وفي عهد القيصرية (كاترين الثانية) التي كان همها الاكبر التوسع غربا وجنوبا ، عادت العلاقات للتأزم • فقد اقامت القيصرية علاقات وثيقة مع (فردريك الثاني) ملك بروسيا • ووقفت في وجهها في سياستها هذه الدولة العثمانية ، وبولونيا ، كما شعرت النمسا ، وفرنسا ، والسويد ، بخطر هذا التحالف •

وقررت (كاترين الثانية) ان تحول الملكية البولونية الى لعبة في يدها ، كجزء من سياستها التوسعية غربا • فعندما حاول ملك بولونيا (ستانيسلاس بونيا توفسكي) ان يصلح الاحوال في بلاده ، فانها منعت تلك الاصلاحات ، واحتلت البلاد عام ١٧٦٨ • وبتحريض من فرنسا ، اعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا •

الحرب الروسية العثمانية (١٧٦٨-١٧٧٤) : وعلى الرغم من ان كاترين الثانية لم تكن لتريد الحرب في ذلك الوقت ، فانها احتلت المقاطعات التركية ، مولدافيا • وفلاشيا (البغدان والافلاق) ، وبعثت بعملائها لتحريض الثورة في اليونان •

وخشيت النمسا ان تسيطر روسيا ، لا على بولونيا فحسب ، وانما على شاطئ البحر الاسود ايضا ، فتحالفت مع تركيا • الا ان (فردريك الثاني) ، الذي اقلقه امكان تحول الحرب في شرقي اوربا ، الى حرب عامة ، وهو غير مستعد لها ، فانه دخل وسيطا بين النمسا وروسيا • وكانت النتيجة الاقتسام الاول لبولونيا عام ١٧٧٢ : وفيه يأخذ (فردريك الثاني) بروسيا البولونية ، و (ماريا تيريزا) غاليسيا ، و (كاترين الثانية) روسيا البيضاء • وبذلك فقدت بولونيا

(-) اراضيها •

وظلت الحرب دائرة مع الدولة العثمانية حتى ثورة (بوغاتشيف) في روسيا ١٧٧٣ • وعلى أثرها ، وقعت بين الدولة العثمانية وروسيا ، معاهدة (كوشوك قينارجة) عام ١٧٧٤ • وفيه تأخذ روسيا ازوف ومناطق أخرى في شبه جزيرة القرم ، كما يصبح لها حق حرية الملاحة في المياه التركية • واعترف باستقلال التتر في شبه جزيرة القرم ، شريطة اعترافهم بالسلطان كخليفة • واعيدت مولدافيا ، وقلاشيا ، الى الدولة العثمانية ، على ان تحكما نفسيهما بنفسيهما • وسمح لروسيا ان تبني كنيسة في (غلطة) ، ووعد الاتراك بحماية الكنائس المسيحية ، واعترفوا بحق روسيا في حماية الكنيسة التي ستبنى في (غلطة) • وفسرت روسيا هذا البند ، بانه يعني حق حمايتها للرعايا الارثوذكس كلهم في الدولة العثمانية ، وهذا ما ادعته باستمرار منذ ذلك التاريخ •

وفي ١٧٨١ تم التحالف بين روسيا والنمسا ، وقدمت فيه (كاترين الثانية) (مشروعها اليوناني) : ويتضمن طرد الاتراك من اوربا ، واعادة الامبراطورية البيزنطية في شخص حفيدها (قسطنطين) ، وينال النمساويون مقابل ذلك النصف الغربي من البلقان •

وفي ١٧٨٣ ضمت روسيا (شبه جزيرة القرم) ، واقتعت النمسا وانكلترا والدولة العثمانية بالقبول •

الحرب الروسية التركية الثانية (١٧٨٧-١٧٩٢) :

الا ان الحرب عادت بين الدولة العثمانية وكاترين الثانية ، لمطامع روسيا في جورجيا ، ولادعائها ، بأن الدولة العثمانية تحيك المؤامرات مع تتر شبه جزيرة القرم ضدها • ودخلت النمسا الى جانب روسيا ، وحقت الدولتان نصرا ، وانهت الحرب بمعاهدة (ياسي) عام ١٧٩٢ • وفيه اعترفت الدولة العثمانية بضم روسيا لشبه جزيرة القرم • وهكذا اصبح لروسيا واجهة بحرية واسعة في الجنوب ، واخذت تحلم بالامتداد منها الى البحر المتوسط •

وبينما كانت روسيا منشغلة في حربها الثانية مع الدولة العثمانية ، حاولت بولونيا ان تعود ، وتحقق استقلالها • فقررت (كاترين الثانية) وضع حد

لمقاومتها • وبالاتفاق مع بروسيا ، اجرت التقسيم الثاني لبولونيا (١٧٩٣)، واتبعت بالثالث (١٧٩٥) • وبالتقسيم الاخير محيت بولونيا تماما من خريطة اوروبا ، ولم تعد للوجود ثانية الا بعد الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٩ •

ويتضح مما سبق ، ان الدولة العثمانية بقيت حتى نهاية القرن الثامن عشر ، محورا هاما من محاور العلاقات الدولية ، وستكون محط اهتمام أكبر في القرن التاسع عشر ، ومنطقة تسعى الدول لاقتطاع اجزاء منها ، ومركزا تتحالف الدول الاوربية ضده أو معه ، لتحقيق مصالحها ومطامحها • وستكون العلاقات الدولية المتشابكة حولها ، ما يسمى بـ (المسألة الشرقية) •

رابعاً - الاستعمار الاوربي والعلاقات الدولية

تمهيد : لقد اشير سابقا ، عند الحديث عن القرن السادس عشر ، الى تأسيس اسبانيا والبرتغال امبراطوريتين استعماريتين ، وسعي الدول الاوربية الاخرى لتقليدهما في هذا المضمار ، للحصول على مكاسب اقتصادية مماثلة ، ولانتقاص سيادتهما الاستعمارية •

ففي القرن السادس عشر ، كان القراصنة الفرنسيون ، والانكليز ، والهولنديون ، يغيرون على المراكب الايرية ، بل ويهاجمون المراكز الاسبانية ، والبرتغالية ذاتها • وفي مطلع القرن السابع عشر اصبحت كل من فرنسا ، وانكلترا ، وهولاندة (المقاطعات المتحدة) ، بدورها ، دولا استعمارية • وتحولت التجارة من تجارة بالذهب والفضة - التي مع ذلك بقيت لها اهميتها - الى التجارة بالسكر ، والتبغ ، والتوابل ، والمواد الصباغية • وبلغ الصراع الاستعماري ذروته ، في ١٧٦٠ ، عندما أكدت انكلترا بأنها القوة التجارية ، والبحرية السائدة •

لمحة عن التطور الاستعماري في القرن السابع عشر :

من ابرز التطورات في ميدان الاستعمار في القرن السابع عشر ، انحطاط الدولتين الاستعماريتين ، البرتغال ، واسبانيا ، ومن ثم ضعف قبضتيهما على امبراطوريتيهما •

فبالنسبة للبرتغال ، هناك امران هامان ، كانا وراء خسارة جزء هام من امبراطوريتها ، الى جانب العوامل التي كانت قد ذكرت سابقا . واول هذين الامرين ، الحاق البرتغال باسبانيا عام ١٥٨٠ . وقد بقيت وحدة اسبانيا والبرتغال هذه قائمة حتى ١٦٤٠ . وعلى الرغم من ان الملك (فيليب الثاني) عمل لحماية مصالح الرعايا البرتغاليين ، فان انشغاله بامور القارة الاوربية ، وامبراطوريته في (اسبانيا الجديدة) ، طغى على المصالح البرتغالية .

وثاني الامرين ، ثورة الاراضي المنخفضة (١٥٨٦) ، التي اغلقت ميناء (انفرس) في وجه الصادرات البرتغالية . ولما رأت هولاندة، وانكلترة، بانهم اصبحتا مبعدتين عن تجارة لشبونة ، فانهما اخذتا تغيران على السفن البرتغالية ، اولاً ، ثم عملتا على التسلل الى (جزر التوابل) ، ثانياً . وشيئاً فشيئاً ، انتزعتا منها تلك المراكز ، التي زرعتها على سواحل افريقيا ، وفي آسيا . ومع ان معظم تلك القواعد قد وقع في يد (هولاندة) ، فان البرتغال احتفظت بمحطات تجارية هامة في (غوئا) في الهند ، وفي (مكاو) في الصين ، وفي (انغولا) و (موزامبيق) في افريقيا ، حتى القرن العشرين . كما احتفظت بـ (البرازيل) ، في امريكا الجنوبية حتى الربع الاول من القرن التاسع عشر .

أما بالنسبة لاسبانيا : فان القوة الاسبانية وصلت الى اوجها خلال حكم الملك (فيليب الثاني ١٥٥٦-١٥٩٨) ، الا انها في الوقت ذاته كانت تسير في طريق الضعف والانحدار . ولم يكن للملوك الذين توالوا على العرش بعده قوة شخصيته ، واخلاصه لشؤون دولته . ولذا فقد تابعت اسبانيا انحطاطها وذبول قوتها الاستعمارية . وساعد على ذلك ، ظهور قوى استعمارية جديدة . ولكن على الرغم من الهجوم المستمر لتلك القوى على امبراطوريتها ، كهولاندة، وفرنسا ، وانكلترة ، ولمدة ثلاثة قرون ، فان اسبانيا احتفظت بكل امبراطوريتها ما عدا (جمايكا) التي استولت عليها انكلترة عام ١٦٥٥ ، و (جبل طارق) الذي اعطي لانكلترة عام ١٧٠٤ . ولكن القوة البحرية الاسبانية كانت في تراجع،

والاقتصاد في المستعمرات في ركود ، نتيجة المركزية الشديدة ، والادارة الفاسدة .

الامبراطورية الهولندية : واذا كان القرن السابع عشر هو قرن ضعف الامبراطوريتين الاسبانية والبرتغالية ، فانه ايضا القرن ، الذي تم فيه ، ظهور الامبراطورية الاستعمارية الهولندية ، وقوتها . وقد بدأت هولاندة ببناء تلك الامبراطورية ، منذ ثورتها ضد اسبانيا (١٥٦٨-١٦٠٩) . ومع ان الاسطول الهولندي ابدأ قوة دفاعية ، الا ان رجال الحرب الهولنديين ، شرعوا بقتال اعدائهم ، وكونوا امبراطورية .

شركة الهند الشرقية الهولندية : عمل الهولنديون حتى ١٥٩٠ عملاء في تجارة التوابل البرتغالية ، الا ان فيليب الثاني طردهم من موانئ ايريا . ولما اصبحوا غير قادرين على ان يلعبوا دور الوسيط ، قرروا الذهاب الى منبع التوابل للحصول عليها . وفي السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر ، اندفعت عدة بعثات الى (جزر الهند الشرقية) . وعلى الرغم من الخسارات الكثيرة التي لحقت بها ، الا انها عادت بحمولات كبيرة . ولتنظيم تلك البعثات اصدرت (الجمعية العامة) صكا بتكوين (شركة الهند الشرقية) عام ١٦٠٢ ، واعطتها الحق بانشاء محطات تجارية ، واقامة العدل ، والدخول في اتفاقات تجارية مع الحكومات المحلية ، وحتى باعلان الحرب والسلام .

وشرعت تلك الشركة تعمل للاستيلاء على الامبراطورية البرتغالية فسي الشرق . وتمكنت من اخراج البرتغاليين من (جزر الهند الشرقية) ، ومن (ارجيل المالايو) ، واقامت مستعمرة في (فورموزا) بقيت حتى ١٦٦١ ، وعقدت علاقات تجارية مع اليابان . ثم ضمت (مالاقا) في ١٦٤١ ، و (سيلان) في ١٦٥٨ . وانشأت مستعمرة (الكاب) ، في اقصى جنوبي افريقيا في ١٦٥١ .

وفي العقود الاولى من القرن السابع عشر ، حيث ابتداء الصراع مع البرتغال كانت هولاندة تشترك وانكلترة في التجارة ، وتحاربان معاً ولكن عندما تساقطت

المقاومة البرتغالية ، فان الهولاندين قرروا أن يحتكروا ذلك الامر لانفسهم ، فأخرجوا التجار الانكليز من (جزر التوابل) عام ١٦٢٣ . فتحولت انكلترا الى الهند ، واصبحت تلك البلاد هي المكان الاول لتجارة انكلترا في الشرق الاقصى .

ومثلما انشأت هولاندة (شركة الهند الشرقية) ، فقد اسست (شركة الهند الغربية الهولاندية) عام ١٦٢١ ، وعلى الاسس نفسها . وقام عملاؤها بمهاجمة (البرازيل) عام ١٦٢٤ ، ووضعوا معظم الساحل تحت سيطرتهم ، وبقي الامر كذلك حتى ١٦٤٥ لما قامت ثورة فيه ، الزمتهم على مغادرة المنطقة كلها ، ما عدا (سورينام Surinam) . وفي الوقت ذاته هاجمت اساطيل الشركة ، التجارة الاسبانية في (جزر الاتيل) ، وهددتها بشكل دائم ، عن طريق استيلائها على (توباغو) و (كوراشاو) ، في شمال امريكا الجنوبية عام ١٦٣٠ . وانشأ الهولانديون ايضا مستعمرة في مصب نهر الهدسون عام ١٦١٥ ، وقد تنازلوا عنها الى انكلترا عام ١٦٦٤ ، وهي التي سميت بـ (نيويورك) .

الا ان المقاطعات المتحدة (هولاندة) — كما اسلفنا القول — مالت الى افول في النصف الثاني من القرن السابع عشر . فالحروب التي خاضتها مع فرنسا تارة ، ومع انكلترا تارة اخرى ، هدت قواها وعرضتها لخسائر كبيرة . الا ان السبب الاكبر لانحطاطها في الواقع يتركز ، في ان فرنسا وانكلترا ، خلال القرن الثامن عشر ، كانتا اكثر قدرة منها على تكريس طاقات ورؤوس اموال كبيرة ، لمشاريع ما وراء البحار .

الامبراطورية الفرنسية : كانت الملكية الفرنسية ، خلال القرن السابع عشر ، منشغلة بالسياسة الاوربية، ومن ثم فانها لم توجه للشؤون الاستعمارية سوى اهتمامات ضئيلة . ومع ذلك فان الوزيرين (ريشليو) و (كولبير) ، اعتقدا ، بأن الحصول على اراض ما وراء البحار ، يزيد من قوة التاج ، ويعطي من شأنه ، وبالتالي يدعم مطامع الملك في القارة الاوربية . ولما كان الدافع نحو التوسع الاستعماري قد اتى من الحكومة الفرنسية ، لا من التجار ، مثلما كان عليه الحال في هولاندة وانكلترا ، فان الامبراطورية الفرنسية ، عكست

النزعة نحو المركزية السياسية للدولة ، ورقابتها الاقتصادية . وكانت البقاع الأساسية التي امتدت فيها الامبراطورية الفرنسية هي : جزر الهند الغربية ، وأمريكا الشمالية ، والهند .

جزر الهند الغربية : لقد قصر الفرنسيون نشاطهم في هذه المنطقة على استعمار (جزر الانтил الصغرى) ، حيث لم يكن لاسبانيا مصالح فيها . وفي هذه الجزر انشأت فرنسا مجموعة من المستعمرات منذ ١٦٢٠ ، وضمت (المارتينيك) ، و (الغوادلوب) ، واخيرا (هايتي) (وهي الجزء الغربي من هيسبانيولا) . ولم تنجح الشركات ، التي انشأتها فرنسا لاستغلال تلك المناطق ، وادارتها ، في بادئ الامر . الا انه بعد ادخال زراعة قصب السكر اليها ، عام ١٦٤٠ ، شرعت تلك المستعمرات تنمو اقتصاديا ، وأنشئ فيها نظام (المزارع الواسعة) ، المعتمد على عمل العبيد من الزنوج .

أمريكا الشمالية : تركز الاستعمار الفرنسي في (كندا) : فأست (كويك) على مصب نهر (سان لوران) ، واتخذت مركزا للإدارة ، والتجارة ، واستكشاف القارة الأمريكية . واستكشفت منطقة البحيرات الكبرى ، ومجرى نهر المسيسيبي . وانشئت مستعمرة (لويزيانا) عام ١٦٩٩ ، وتبع ذلك تأسيس مدينة (اورليان الجديدة) . وهكذا توضع الفرنسيون في منطقة واسعة تمتد من مصب المسيسيبي جنوبا ، الى حوض البحيرات الكبرى شمالا ، وتنفذ شرقا الى المحيط الاطلنطي . وكان المستعمرون يعملون في تجارة الفرو ، ولا يكرسون جهدا للزراعة ، لان الحكومة منحت أراضي واسعة ، وحقوقا اقطاعية للملاكين الكبار ، وهذا منع نمو طبقة من الملاكين الاحرار ، الذين كانوا عصب المستعمرات الانكليزية .

في افريقيا والهند : وامتد الاستعمار الفرنسي الى افريقيا ، والهند ، واقامت محطة لتجارة العبيد في (السنغال) بعد ١٦٤٥ ، وحصنت جزر (موريسوس) ، و (الريثونيون) ، كمراكز استراتيجية على طريق الهند . وقد كانت مصالح فرنسا في الهند ، تجارية بحتة . وكانت اقامتها للمراكز التجارية فيها ، مثل ، (بوند يشيري ١٦٧٤) ، على الساحل الجنوبي الشرقي

و (شاندرناغور ١٦٩٠) في مصب نهر الغانج ، سببا للمنافسة التجارية بينها وبين انكلترا . ونتيجة لذلك غدت الهند مسرحا للعمليات العسكرية خلال القرن الثامن عشر .

الامبراطورية الانكليزية : على الرغم من الاضطرابات الداخلية ، التي عانت منها انكلترا في القرن الثامن عشر ، فانها دخلت الصراع الضاربي بين الدول المستعمرة ، لتحقيق الثروة والنفوذ . ويرجع نجاحها في هذه المنافسة الى عاملين رئيسيين يختلفان ، بل يتناقضان ، مع التجربة الفرنسية . واول هذين العاملين أن (رجال الاعمال) هم الذين اقاموا تلك الامبراطورية . وبذلك استندت الى نشاط تجاري متين ، بينما كانت الامبراطورية الفرنسية من عمل الدولة ، التي كانت تفتقد غالبا اهتمام التجار الفرنسيين ، ونشاطهم ، ودعمهم . وثاني العاملين ، ان انكلترا وحدها ، من بين الدول الاستعمارية ، كانت لا ترسل الى المستعمرات مجموعة من الاداريين الاستعماريين فحسب ، وانما اعدادا كبيرة من المستوطنين . وهؤلاء المستوطنون ، كونوا جماعات تجارية ، وزراعية ، كانت مصدر قوة ، وتثبيت لقدم انكلترا ، في البقاع المستعمرة .

وقد اتجهت انكلترا الى الاستعمار ، في ثلاث مناطق اساسية ، هي : امريكا الشمالية ، والهند ، وجزر الهند الغربية .

في امريكا الشمالية : من المستعمرات الاولى فيها كانت مقاطعة (فرجينيا) ، التي حولت الى مستعمرة ملكية عام ١٦٢٤ . وقد اسسها في بادىء الامر المغامرون التجار ، والمهاجرون الانكليز ، الذين عملوا في الزراعة ، وبصفة خاصة في زراعة التبغ . وتلا ذلك مقاطعة (ماساشوستس) ، التي عمل على انشائها شركة انكليزية بهذا الاسم في عام ١٦٢٩ ، وساعدها على ذلك الهجرة الانكليزية المتدفقة بسبب الاضطهادات الدينية .

ومثلما لعبت الشركات دورها في تأسيس المستعمرات الانكليزية ، فان (نظام منح الملك الاقطاعات الارضية) في المستعمرات ، للأفراد ، او النقابات ، مقابل ان يتحمل الطرفان تكاليف الاستعمار ، والادارة ، كان ايضا من الاسس

التي اعتمد عليها في انشاء المستعمرات الاخرى مثل (ماريلاند) ، و (كارولينا) ، و (نيوجرسي) ، و (بنسلفانيا) و (جورجيا) وغيرها .

جزر الهند الغربية : كان استقرار الانكليز في جزر الهند الغربية ، في وقت واحد مع الفرنسيين . وقد استولوا على (باربادوس) في عام ١٦٢٤ . وجذبت هذه الجزيرة مستوطنين اليها اكثر مما فعلت (انكلترا الجديدة) ، ولكن كثيرا من المستعمرين اضطر الى مغادرتها بعد ١٦٤٠ . لان مزارع (قصب السكر) وفلاحوها من العبيد ، حلت محل مزارع (التبغ) التي كان يعمل فيها رجال احرار . وفي عام ١٦٥٥ انتزعت انكلترا جزيرة (جمايكا) من اسبانيا ، واصبحت هذه الجزيرة ، اغنى مجموعة الجزر الانكليزية في البحر الكاريبي ، انتاجا لقصب السكر .

في الهند : بعد ان اخرجت انكلترا من (جزر التوابل) عام ١٦٢٣ ، ركزت (شركة الهند الشرقية الانكليزية) نشاطها في الشرق الاقصى على شبه جزيرة الهند — كما اشرنا الى ذلك — . وقد قاومت القوى الهندية الوطنية ، في بادىء الامر الاستيلاء على الارض ، او التثبيت فيها . ولكن ما لبثت انكلترا ان كونت (محطات تجارية) ، في (سورات ١٦١٦) ، و (مدراس ١٦٣٩) ، و (بومباي) .

وكانت الهند في البدء ، سوقا تجارية فقيرة ، بالنسبة للسلع الانكليزية ، ولكن (شركة الهند الشرقية الانكليزية) ، عملت على تضدير المنسوجات القطنية فحققت بذلك ربحا وفيرا . وفي القرن الثامن عشر ضاعف التجار الانكليز من فعاليتهم ، و اضافوا الى تلك السلعة (الشاي الصيني) حتى فاق بارباحه ، وكميته المنسوجات القطنية .

وقد طبقت انكلترا سياستها المركنتيلية في القرن السابع عشر على امبراطوريتها تلك ، أو بتعبير آخر ، ابعدت بمجموعة من القوانين ، الاجانب عن دائرة نفوذها التجاري ، واستثمرت مستعمراتها ، لفائدتها الاقتصادية وحدها . وهذه القوانين

اشير لبعضها سابقا ، (كقانون الملاحة الاول)^(١) ، و (قانون الملاحة الثاني)^(٢) عام ١٦٦٠ ، و (قانون السلع الرئيسية Act of Staples)^(٣) عام ١٦٦٣ ، و (قانون الرسوم) عام ١٦٧٣^(٤) .

ان ذلك البرنامج المركب ، دعم انكلترا اقتصاديا ، وسياسيا : فالبجيرة التجارية الانكليزية ، احتكرت التجارة في شمالي الاطلنطي ، والمراكب الاستعمارية ، سيطرت على التجارة الساحلية لشمالي امريكا ، واستفاد التجار الانكليز من تجارة اعادة تصدير السلع الاوربية ، و السلع المستعمرات ، فتفوقت بذلك البحرية الانكليزية - وهي عنصر اساسي لتدعيم المركبتيلية - على منافساتها .

ولم يكن باستطاعة انكلترا ان تطبق تلك القيود بشدة ، وباستمرار . ولما حاولت ان تفعل ، فانها اغضبت المستعمرات ، واوروبا : فالمستعمرون الذين كانوا يدفعون الرسوم الجمركية الانكليزية ، على الرغم من كونهم مستعمرين ، كانوا يمارسون (تجارة التهريب) مع اسبانيا ، وفرنسا . فدبس السكر^(٥) المستورد من جزر الهند الغربية مثلا ، كان اقل سعرا من دبس السكر الانكليزي ،

- (١) وينص على ، ان السلع المستوردة ، يجب ان تحمل الى انكلترا ، اما على سفن انكليزية ، يقودها بحارة انكليز ، او على مراكب البلد التي تم استيراد السلع منها . وغايته اضعاف تجارة النقل التي تمارسها (المقاطعات المتحدة) .
- (٢) وينص على ، ان جميع السلع المتبادلة بين انكلترا ومستعمراتها ، يجب ان تحمل اما على سفن انكليزية ، او على سفن المستعمرات . وان بعض السلع ، بما فيها السكر ، والتبغ ، والمنتجات الاستعمارية الرئيسية ، يجب ان تصدر لانكلترا فقط ، او الى اية مستعمرة انكليزية .
- (٣) وينص ، ان المراكب الشاحنة لجميع انواع السلع ، التي هدفها المستعمرات الانكليزية ، يجب ان تخرج من ميناء انكليزي . وغاية القانون ، ابعاد المراكب الاجنبية عن تجارة المستعمرات .
- (٤) فرض هذا القانون ، رسما على مجموعة من السلع ، التي كانت تحمل من مستعمرة انكليزية الى اخرى . وهدفه ان يجعل انكلترا المركز الرئيسي لكل التجارة الاستعمارية ، وان يمنع التجار في المستعمرات ، من تجاوز قوانين الملاحة ، بنقل السلع خارج الامبراطورية ، بحجة نقلها الى مستعمرة اخرى .
- (٥) دبس السكر (Molasses) مادة لزجة ، تفصل عن السكر الخام عند صنع السكر ، ومن تخميرها ، يتكون مشروب (الروم) وهو مشروب مسكر .

لان النظام المركنتيلي الفرنسي ، كان يمنع استيراد الروم من المستعمرات ، لحماية صناعة البراندي الفرنسية المحلية . وكان المستعمرون الانكليز، يستخدمون الروم المستخرج من دبس السكر الفرنسي ، كمادة رئيسية في (التجارة المثلثة) ، حيث يرسلونه الى افريقيا ، مع سلع اخرى . ان محاولة انكلترة التضيق على (تجارة التهريب) ، المربحة جدا لرعاياها في المستعمرات ، أزعج العلاقات بينها وبينهم ، في المرحلة السابقة للثورة الامريكية . كما ان هذه السياسة المركنتيلية ادت الى صراع طويل مع هولاندة ، اذ انها اصاب تجارتها بضرر كبير .

الصراع الانكليزي الهولاندي : ولقد ذكر سابقا ، بأن انكلترة خاضت ثلاث حروب ضد هولاندة : **اولها :** (١٦٥٢-١٦٥٤) ، على اثر (قانون الملاحة الاول عام ١٦٥١) ، وانهزمت فيها هولاندة واضطرت الى دفع غرامة حرية . **ثانيها :** (١٦٦٥-١٦٦٧) ، وكانت نتيجة استيلاء انكلترة على بعض المحطات التجارية الهولاندية في افريقيا ، وعلى (امستردام الجديدة) (نيويورك فيما بعد) عام ١٦٦٤ . ووقف الى جانب هولاندة ، الدانيمارك وفرنسا . وعلى الرغم من المصائب التي حلت بانكلترة ، كالوباء ، وحريق لندن ، وضرب اسطولها ، فانها وقعت صلحا ، كان لصالحها . واحتفظت بامستردام الجديدة ، وتبادلت بعض المناطق في امريكا الوسطى ، والشمالية ، مع فرنسا . **وثالث الحروب** كانت حرب (١٦٧٢-١٦٧٨) ، وفيها تحالفت انكلترة مع فرنسا . وانتهت الحرب بالمحافظة على الحالة الراهنة ، وبمعاهدة (نيميج) المشار اليها آنفا .

وفي تلك الحروب ، احتفظت هولاندة بقوتها العسكرية ، وعملت على التفاوض ، من اجل الحصول على معاهدات ، تكون لصالحها ما امكن ، ولكنها لم تستطع ان توقف نمو البحرية الانكليزية ، ولا ان تقف وحدها في وجه التوسع الفرنسي على القارة الاوربية .

الصراع الفرنسي الانكليزي في القرن الثامن عشر : وبخروج هولاندة من ساح الصراع الاوربي . تركز الصراع بين الدولتين القويتين انكلترة ، وفرنسا .

وقد استمرت الحرب بينهما ، انما بشكل متقطع ، من ١٦٨٩ الى ١٧٦٣ ، وكانت اشبه بحرب عالمية . ومع ان المعارك كانت شديدة في المستعمرات ، الا انه ينظر الى تلك الحرب فيها ، على انها وجه هامشي ، من اوجه الصراع الرئيسي ، الذي كان يجري على ارض القارة الاوربية . وتلخص هذه الحروب في المستعمرات ، بالحروب التالية ، علما بأنه اشير لبعضها اثناء الكلام عن العلاقات الدولية وتطور الدول الاوربية :

١ - حرب الملك ويليام (١٦٨٩-١٦٩٧) : وهي مظهر من مظاهر (حرب عصبة اوغسبورغ) التي كان هدفها منع التوسع الفرنسي في منطقة الرين . وانتهت بصلح (ريزويك) الذي اعاد الوضع الى ما كان عليه .

٢ - حرب الملكة آن (١٧٠٢-١٧١٣) : وكانت الحرب قد تجددت في اوربا من اجل (وراثة العرش الاسباني) ، وانتقلت الحرب هذه المرة ايضا الى المستعمرات ، ودارت على ارض امريكا الشمالية ، وهاجمت المستعمرات الفرنسية في كندا ، كما هاجمت فرنسا المستعمرات الانكليزية . وانتهت الحرب بصلح (اوترخت) عام ١٧١٣ ، الذي حمل لانكلترا مكاسب كبيرة في شمالي امريكا ، والبحر الكاريبي . فقد تنازلت فرنسا عن (نوفاسكوشيا) ، و (الارض الجديدة) ، و (خليج هدسون) ، الى انكلترا . ونالت انكلترا امتيازات تجارية في الامبراطورية الاسبانية ، كما اعطيت جبل طارق ، الذي يحرس مدخل البحر المتوسط .

٣ - الهندة المسلحة (١٧١٣-١٧٣٩) : وفيه كانت الدولتان المستعمرتان المتنافستان تراقبان بعضهما بعضا في امريكا الشمالية والهند . وفي امريكا الشمالية عملت فرنسا في هذه الفترة على انشاء حصون في وادي المسيسيبي ، وحوض البحيرات الكبرى ، لتقوي مواقعها وتستعد لجولة قادمة .

٤ - حرب اذن جنكين Jenkin's Ear (١٧٣٩-١٧٤٢) : في عام ١٧٣٩ ، قامت الحرب بين انكلترا واسبانيا ، وقضت على السلام الذي ساد لربع قرن بعد (صلح اوترخت) . ويرجع السبب ، الى ان التجار الانكليز كانوا يتجاوزون

بصورة دائمة حدود الامتيازات ، التي اعطتهم اياها اسبانيا ، في مستعمراتها .
ولكن احتجاجات اسبانيا كانت تذهب ادراج الرياح . وعندما قدم القبطان
(جنكين) تقريره الى البرلمان الانكليزي ، بان احد خفراء السواحل الاسبان ،
قطع اذنه ، وان هذا سبب كاف لاعلان الحرب على اسبانيا ، فان انكلترة
استجابت للنداء ، وارسلت حملة الى جزر الاتيل ، ولكن الحملة اصبحت
بالحمى الصفراء ، ولم يبق من رجالها الا القليل . وفي هذا الوقت كانت الحرب
العامة قد اغرقت اوربا .

٥ - حرب الملك جورج (١٧٤٣-١٧٤٨) : فقد ذكر آتفا ان (حرب
الوراثة النمسية) ادخلت جميع الدول الاوربية الكبرى في اتونها . وقد
عرف وجهها الاستعماري ، بـ (حرب الملك جورج) . وقد بين سابقا ، ان الصراع
في امريكا ، بين فرنسا وانكلترة ، كان شديدا ، وكذلك في الهند . ومع ان
انكلترة كانت المنتصرة في امريكا ، وفرنسا في الهند ، الا ان معاهدة (ايكس
لاشاييل) اعادت الامور الى نصابها ، ومن ثم كانت تلك المعاهدة ، ا شبه
بهذبة ، منها بصلح دائم .

٦ - حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) : ان حرب السنوات السبع
التي درست سابقا ، والتي اجتاحت اوربا الوسطى ، اثبتت انها كانت ذروة
الصراع في التنافس الاستعماري الانكليزي - الفرنسي . وكانت الحرب شديدة
على الارض الامريكية ، وحقت فرنسا ، في بادىء الامر ، عدة انتصارات على
انكلترة . ولكن عندما استلم رئيس الوزراء الانكليزي (بت) قيادة الحرب
فان الانكليز شرعوا ينتصرون ، ويستعيدون ما خسروا . وتمكنت القوات
الانكليزية من الاستيلاء على اقوى الحصون الفرنسية ، ومنها (كويك) .
وبسقوط المدينة الاخيرة سقطت بقية (كندا الفرنسية) بيدهم .

وكذلك كان نصر انكلترة في الهند حاسما : فبعد ان كان وضعها قبل بدء
الحرب سيئا ، فانها منذ عام ١٧٥٣ ، استطاعت ان تسيطر على ساحل (كوروماندل)
يما فيه (مدراس) ، وانتقل الصراع الى الشمال واستعاد قائد القوات الانكليزية
(كلايف Clive) مدينة (كالكوتا) ، وسيطر على (البنغال) . وكان

خضوع (امير البنغال) الهندي ، مرحلة هامة في غزو الهند كلها ، في القرن التالي .

وانتهت حرب السنوات السبع - كما اشير سابقا - بـ (معاهدة باريس) ١٧٦٣ . وفيها اخذت انكلترا كل (كندا الفرنسية) ، ما عدا بعض مصائد الاسماك . وتنازلت اسبانيا ، التي دخلت الحرب الى جانب فرنسا ، عن (فلوريدا) ، وعوضتها فرنسا بـ (لويزيانا) غرب المسيسيبي . وحافظت فرنسا على مراكزها التجارية في الهند ، على الا تحصنها . وبذلك اصبحت انكلترا حرة في التوسع على الارض الهندية كما يحلو لها ، دون اية منافسة اوروبية . وبرزت في المحيط الدولي ، سيدة للبحار ، واكبر قوة استعمارية .

ولكن اذا كانت (حرب السنوات السبع) قد اوصلت بريطانيا الى الاوج ، وثبتت اقدامها في امريكا ، فانها بالتالي ، كانت عاملا قويا في زحزحة اقدامها من اكبر مستعمراتها فيها . اذ ان تلك المستعمرات ثارت عليها ، وكونت دولة مستقلة هي (جمهورية الولايات المتحدة) .

خامسا - استقلال المستعمرات الانكليزية في امريكا والعلاقات الدولية

(١٧٦٥ - ١٧٨٣)

ان المستعمرات الانكليزية ، التي ثارت على انكلترا ، هي المستعمرات الثلاث عشرة ، الممتدة في امريكا الشمالية على شاطئ المحيط الاطلنطي ، بين المحيط الاطلنطي شرقا ، وجبال الابلاش غربا . وقد قطنها منذ القرن السابع عشر ، مستعمرون من اصل انكليزي ، وقليل منهم من اصل هولاندي ، أو الماني . وكانت البدايات صعبة ، اذ كان على هؤلاء المستوطنين ان يكافحوا ضد الطبيعة ، ولم تكن معطاء ، كما صورتها لهم شركات التجارة ، التي كان المهاجرون يتعاقدون معها . وكان عليهم ايضا ، ان يقاتلوا السكان الاصليين من الهنود ، الذين كانوا يقاومون استيطانهم ، وهم لا يملكون سوى وسائل حرية بسيطة . ومع ذلك فقد توسعت تلك المستعمرات شيئا فشيئا ، وضاعفت مصادر ثروتها

من زراعات استهلاكية ، وتربية للماشية ، وصيد ، وتصدير اخشاب ، وتبغ
السخ .

وبلغ عدد سكان المستعمرات الشمالية ، والوسطى ، في القرن الثامن عشر ،
ما يقارب مليون نسمة . وكان هؤلاء يعيشون من الزراعة ، على النمط الاوربي
ومن بعض الفعاليات الصناعية ، كصناعة الخشب ، والمواد التعدينية ، والنسيج
ومن التجارة البحرية مع انكلترا ، وجزر الانтил . وكان ميناء (بوسطن)
هو الميناء الرئيسي ، الا ان ميناءي (نيويورك) و (فيلادلفيا) ، دخلا في منافسه
معه . وكانت (بورجوازية الاعمال) ، هي التي تسيطر على الحياة السياسية ،
والفكرية . وابنائها ، هم الذين كانوا يرتادون جامعتي (يال) و (هارفارد) .

أما (مستعمرات الجنوب) وتضم فرجينيا ، وكارولينا ، وجورجيا ، فكانت
مختلفة : فهي اوسع مساحة ، وأقل سكانا ، وركزت اهتمامها على زراعة المنتجات
المدارية ، كالتبغ ، والنيلاج ، والقطن . وكان يسودها طبقة ارسقراطية من
اثرياء المزارعين ، تملك اراضي شاسعة ، يفلحها عديد من العبيد الزنوج ،
وخصص انتاجها للتصدير .

ولم يكن هناك من رابطة سياسية بين المستعمرات الثلاث عشرة ، وانما
تشابه كبير في المؤسسات : فكل واحدة تتمتع باستقلال كبير ، ولها (مجلس)
ينتخب ، وهو الذي يقرر الضرائب المحلية . وعلى رأس كل مستعمرة (حاكم) ،
يمثل ملك انكلترا ، ويعين من لندن . ومن الوجهة الاقتصادية ، لم يكن من
حق المستعمرين مبدئيا ، التجارة الا مع الانكليز . وهؤلاء بالتالي لم يكونوا
يعارضون ابدا (تجارة التهريب) ، التي كانت تتم مع المستعمرات الفرنسية
— كما ذكر سابقا — . وشيئا فشيئا نشأ نوع من التضامن بين المستعمرات ،
نتيجة التوسع نحو الغرب ، والقتال ضد الهنود ، وحصار الفرنسيين لهم في
الداخل .

وكانت علاقاتهم مع الوطن الام (انكلترا) علاقات تفاهم وود ، الا ان
موقف الحكومة الانكليزية منهم تغير بعد (معاهدة باريس ١٧٦٣) . فقد ارادت

الحكومة ان تطبق القوانين المركنتيلية — المشار اليها آنفا — ، بشدة وصرامة ، مما اقلق التجار ، واصحاب السفن ، الذين اغتنوا من التجارة مع جزر الاتيل . وقررت (لندن) ، ان تجعل المستعمرات تتحمل جزءا من الابعاء المالية التي انفقتها في حربها مع فرنسا ، ففرضت لهذا الغرض ضرائب ورسوما جمركية ، على عدد من السلع . كما فرضت (رسم الطابع) على الصحف ، وامور التجارة . واتخذت موقفا آخر اغضب المستعمرات ، وزاد في نفقتها ، وثورتها ، عندما قررت ان تربط (أراضي الغرب) التي تنازلت عنها فرنسا ، بكندا ، مما منع المستعمرات من التوسع غربا .

وامام اضطراب المستعمرات ، التي اعترضت عام ١٧٦٥ ، وبشدة على مبدأ (فرض الضرائب دون استشارتها) ، واكدت ان هذا من حق مجالسها وحدها ، واتبعت ذلك الاعتراض ، بتأليف عمال المدن (جمعيات ابناء الحرية) ، لمقاومة سلطة ملك بريطانيا على المستعمرات ، اضطرت (لندن) ان تلغي عام ١٧٧٠ رسوم الجمارك على جميع السلع ما عدا (الشاي) . ولا سيما بعد ان حدث صدام مسلح ، قتل فيه ثلاثة من سكان بوسطن . واعطت (لندن) لشركة الهند الشرقية احتكار بيع الشاي في المستعمرات الثلاث عشرة . فعادت الاضطرابات ، بل وتفاقمت . وفي ليلة ١٦ كانون الاول ١٧٧٣ ، قام بعض سكان بوسطن ، وقد تنكروا بزي الهنود الحمر ، ورموا بالبحر حمولة ٣ مراكب مشحونة بالشاي ، وتابعة لشركة الهند الشرقية . فقرر الملك (جورج الثالث) اغلاق الميناء ، واحتلاله عسكريا . فدعت مستعمرة (ماساشوستس) — وكانت بوسطن عاصمتها — المستعمرات الاخرى للاجتماع . وفي ايلول ١٧٧٤ انعقد (مؤتمر فيلادلفيا الاول) ، وقرر مقاطعة البضائع الانكليزية ، وارسل احتجاجا صارما على تصرفات حكومة لندن . وشرع سكان المستعمرات باعداد مخازن للأسلحة ، وتهيئة انفسهم للمقاومة المسلحة . وفي نيسان ١٧٧٥ تمكن المسلحون من اهل المستعمرات ، من القضاء ، على معظم افراد كتيبة انكليزية ، عملت على مهاجمتهم في (لكسington) ، بالقرب من بوسطن . ورد الملك (جورج الثالث) على ذلك العمل المسلح ، باعلان المستعمرات متمردة .

وفي ايار ١٧٧٥ اجتمع (مؤتمر فيلادلفيا) ثانية ، وقرر حمل السلاح . ووضع
(جورج واشنطن) على رأس الجيش الثائر ، وكان قائدا للفرق المسلحة في
مستعمرة فرجينيا .

الحرب (١٧٧٥-١٧٨٣) .

وفي الحقيقة ، كانت اغلبية اعضاء (مؤتمر فيلادلفيا) الى جانب الاتفاق ،
والتفاهم ، مع لندن . فقد كانت تخشى الحرب ، أولا ، وتخشى ثورة شعبية ،
ثانيا ، اذا ما خرج الجيش الانكليزي من المستعمرات . ولكن موقف التاج
البريطاني العنيد ، في المحافظة على ما يدعيه من حقوق على المستعمرات ، ادى
الى تحالف اولئك المعتدلين ، مع الاقلية ، التي كانت تنادي بالانفصال عن انكلترا ،
وعلى رأسها (مستعمرة فرجينيا) . وقد اعلنت هذه الاخيرة نفسها جمهورية
مستقلة . وتبعها في تلك الطريق مجموع المؤتمر ، الذي صوت في ٤ تموز ١٧٧٦ ،
على (اعلان الاستقلال) . وقد قدم له بـ (لائحة حقوق) ، تنص على بيان
الحقوق الاساسية للانسان ، الذي خلق مساويا لآخيه الانسان . ومن تلك الحقوق
« الحياة ، والحرية ، والبحث عن السعادة » . وقد دمج نص تلك اللائحة ،
(جيفرسون) . وكان لتلك اللائحة صدى كبير ، لا في امريكا فحسب ، وانما
في الاوساط الاوربية ، وبصفة خاصة في فرنسا .

وهكذا فتلك الثورة التي فتح بابها على مصراعيه ، لم تترك لانكلترا
منفذا ، الا القبول بها ، او الحرب ، وقد اختارت الحل الثاني .

وعندما ابتدأت الحرب لم تكن لصالح الثوار : فجيشهم صغير ، وينقصه
المال ، والسلاح ، ولا يخضع للنظام ، على الرغم من جهود (جورج واشنطن) .
ولكن هذا الكفاح من اجل الحرية ، ولد في اوربا تيارا قويا ، متعاطفا مع
المستعمرات . فتطوع في ذلك الجيش عدد من الفرنسيين ، ومنهم (الماركيز
دولافايت) . وارسل الثوار ، (بنجامين فرانكلين) ، الى فرنسا للحصول
على مساعدتها . وكانت فرنسا تفكر بالانتقام من انكلترا ، ولكنها ترددت في
دخول الصراع بشكل مباشر .

— ٣٦٩ — تاريخ اوربا في العصر الحديث مـ ٢٤

وتمكن الانكليز في بادئ الامر من احتلال (بوسطن) ، و (فيلادلفيا) ،
الا ان حماسة القوات الامريكية ، ومعرفتهم الممتازة باراضيهم ، ساعدت
« واشنطن » على محاصرة جيش انكليزي في (ساراتوغا) عام ١٧٧٧ ، والانتصار
عليه .

وقد ساعد ذلك النصر ، على اقناع فرنسا ، بالوقوف رسميا بجانب الثوار ،
وتقديم المساعدة العسكرية والمالية لهم . فارسلت للمستعمرات النائرة حملة
عسكرية من (٦٠٠٠) جندي و (٣٨) سفينة حربية . وحصلت فرنسا على تحالف
اسبانيا وهولاندة معها ، بينما كونت (روسيا ، وبروسيا ، والدانمارك ، والسويد)
(عصبة المحايدون) ، التي وقفت بدورها في وجه الادعاءات البريطانية . وتمكن
الجيش الفرنسي - الامريكي في ١٧ تشرين الاول ، ان يجبر الجيش الانكليزي
الرئيسي ، على الاستسلام ، في معركة (يورك تاون York town) .

وتجاه هذا النصر ، وموقف عصبة المحايدون ، وتأيد قسم من الرأي العام
الانكليزي للسلام ، وقعت (معاهدة فرساي) في ايلول ١٧٨٣ . وفيها تعترف
انكلترا باستقلال المستعمرات الثلاث عشرة ، وتتنازل لهم عن الغرب حتى نهر
الميسيسيبي ، وتستعيد اسبانيا (فلوريدا) ، وفرنسا بعض جزر الانتيل ، ومراكزها
في السنغال .

اما بالنسبة للمستعمرات الثلاث عشرة ، فقد حدث اختلاف في الآراء بينها،
وذلك في المؤتمر الذي عقد في (فيلادلفيا) ، لوضع دستور للبلاد :
(فالجمهوريون) كانوا يريدون استقلالا شبه تام لكل مستعمرة . و(الاتحاديون)
وعلى رأسهم (واشنطن) ، يرغبون في حكومة اتحادية قوية . وبعد مناقشات
طويلة ، توصلوا الى تفاهم في ١٧٨٧ ، واقرروا (دستور الولايات المتحدة الامريكية)
وقد اعطيت السلطة التنفيذية فيه لـ (رئيس الجمهورية) وينتخب لمدة
٤ سنوات ، بالتصويت العام غير المباشر . وهو الذي يختار الوزراء ، ويستدعي
الجيش . واسلم المنصب عام ١٧٨٩ لـ (جورج واشنطن) .

أما السلطة التشريعية فوضعت بيد (الكونغرس) ، المؤلف من مجلسين

(مجلس النواب) ، وتمثل فيه كل ولاية بعدد من النواب ، يتناسب مع عدد سكانها ، و (مجلس شيوخ) ، ولكل ولاية فيه ممثلان ، كبرت الولاية أم صغرت .

ويمارس السلطة القضائية (محكمة عليا) تضم (٩) تسعة اعضاء ، يعينهم رئيس الجمهورية لمدى الحياة ، وهم الحراس على الدستور ، ويفصلون في الخصومات التي تقع بين الولايات .

وهكذا ، ولاول مرة ، اسس الاوروبيون خارج اوربا ، جمهورية مستقلة ، وحقق دستورها مبدأ الفصل بين السلطات ، وفي الوقت ذاته التوازن بينها . كما نترك لرئيس الجمهورية سلطة كبيرة ، ومنح لكل ولاية جميع السلطات ، التي لم يمنحها للحكومة الاتحادية .

وخلاصة القول ، تركت ثورة المستعمرات الانكليزية اثرا كبيرا في اوربا : فقد ولدت لدى الاوروبيين شعورا بانهم يحيون في مرحلة زمنية ستشهد تغيرات ضخمة . لانهم رأوا ، ان المذاهب الفلسفية التي يناقشونها ، ليست خيالية ، بل قابلة للتطبيق . واخذوا يحنون ليكون مجتمعهم على غرار (المجتمع الامريكي الجديد) ، الذي يشبه المجتمع الذي وصفه (روسو) .

وقد تعرفت اوربا (الثورة الامريكية) ، عن طريق الصحافة ، والمناقشات التي كانت تجري في (جمعيات الفكر) ، وعن طريق احاديث الجنود العائدين من حرب الاستقلال ، وعبر الدعاية الامريكية نفسها .

واذا كان اثر (الثورة الامريكية) متفاوتا في قوته ، في مختلف دول اوربا ، فانه كان في فرنسا شديدا ، لعاملين رئيسيين : **اولهما** ، انتشار افكار الحرية والمساواة على نطاق واسع فيها ، بعد عودة المحاربين . **وثانيهما** ، انها كانت عاملا أساسيا في تفاقم (الازمة المالية) فيها ، بسبب نفقات الحرب ، مما فجر الموقف ، وادى الى اندلاع (الثورة الفرنسية) عام ١٧٨٩ ، التي غدت فاتحة عصر جديد في اوربا ، اصطلاح المؤرخون على تسميته بـ (الحقبة المعاصرة) . وفي الحقيقة كانت الثورة الامريكية طليعة (عصر الثورات) في اوربا وامريكا ، الذي امتد قرنا من الزمن ، وحتى ١٨٧١ .

الخاتمة

كان العصر الحديث في اوربا ، بقرونه الثلاثة ، وكما اتضح من العرض السابق : عصر تغيرات كبيرة ، مست الاقتصاد ، والاجتماع ، والفكر ، والفن ، والسياسة .

فاكتشاف الاراضي الجديدة في القرن السادس عشر ، فتح امام اوربا ، باب العلاقات التجارية مع عالم ما وراء البحار . وتدفق الذهب والفضة عليها ، مما رفع الاسعار ، وأوجد مناخا ملائما للحركة الاقتصادية ، وللعمل في ميدان المشروعات التجارية ، والصناعية الكبيرة .

ونجم عن ذلك التطور الاقتصادي ، تغير اساسي في حياة المجتمع : فالقطاعي الذي كان يملك الارض ، ويسود (مجتمع العصور الوسطى) ، رأى قوته الاقتصادية تتلاشى أمام بورجوازية التجار ، واصحاب المصارف ، والمصانع .

ومع ذلك فان التحول كان بطيئا ، ولم يمس الناس جميعهم . فالقرن السابع عشر ، على الرغم من واجهته البراقة ، كان مرحلة صعبة ومظلمة : فالحروب والابوثة ، والمواسم الزراعية السيئة ، ونقص المعادن الثمينة ، بعد غزارتها ، جعلت منه (مرحلة شبه توقف) ، في التطور الاقتصادي ، والاجتماعي ، في اوربا .

ولم يستفد من تلك التطورات الجديدة ، في الواقع ، الا بلدان (شمالي غربي اوربا) ، بينما بقيت (اوربا الشرقية) و (الجنوبية) بعيدة عنها ، او ملامسة لها .

هذا في الوقت الذي لم يتزايد فيه السكان الا ببطء شديد ، وكان القرن السابع عشر كان قرن كمون ، اندفعت بعده الزيادة السكانية اندفاعا قويا ، في القرن الثامن عشر ، بسبب قلة الابوثة ، والتغذية الفضلى .

ومثلما كان العصر الحديث مقر تلك التحولات الاقتصادية ، والاجتماعية الكبيرة ، فانه كان ميدانا لحركات فكرية جديدة ، او مجددة ، بل وقلابة التفكير الاوربي الوسيط. رأسا على عقب . **فالاكتشافات الجغرافية** ، باثباتها وجود عوالم مجهولة ، ولدت ثورة في معتقدات اناس القرن السادس عشر ، فهزتها كلها. وانطلق من تلك الثورة في بدايتها ، ارادة العودة الى المصادر الاولى ، فكانت **(الحركة الانسانية)** . كما انبعثت محاولة لاعادة النظر ، وجذريا ، بقواعد الفن ودوره ، فنشأت **(النهضة الفنية)** . وبذل جهد كبير للبحث عن جذور الدين ، واصوله ، ورفض كل ما يبدو متناقضا معها ، فكان **(الإصلاح الديني)** . وادت تلك الثورة في القرن السابع عشر الى **(الفلسفة الكارتيذية)** ، التي لا تقبل **(الحقيقة)** على انها **(حقيقة فعلا)** الا اذا قبلها **(العقل)** . وفي القرن الثامن عشر وحده ، ظهرت نتائج ذلك التطور الثوري الطويل بشكل واضح . فا **(العقلانية العلمية)** ، توصلت الى تفسير للكون بنظرية نيوتن . وقلبت **(الكشوف التقنية)** شروط الاتاج ، باختراع **(الآلة)** . واخضعت **(الحركة الفلسفية)** للنقد ، جميع الامور التي لم يجرؤ الفكر في الماضي على مناقشتها الا بحذر ، مثل الاعتقاد بالله ، وتنظيم المجتمع ، واسس السلطة السياسية .

وتوصل مفكرو المجتمع الاوربي الى **(مفهومات سياسية)** ، قلبت **المفاهيم السياسية السابقة** : فالعصور الوسطى عاشت على فكرة **(امبراطورية مسيحية واحدة)** ، وكانت محاولات الامبراطور **(شارلكان)** ، و **(فردينان الثاني)** ، في القرن السادس عشر ، لتثبيت تلك الفكرة ، أو اعادتها ، محاولات مخففة **فالإصلاح الديني** حطم وحدة العالم المسيحي ، وافسح تلاشي المفهومات السياسية القديمة ، المكان لمفاهيم جديدة .

فبدلا من امبراطورية واحدة ، تولدت مجموعة من **الدول القومية** ، شعرت كل واحدة منها ، انها مختلفة عن الاخرى ، ووقعت بصراعات فيما بينها . ولم يعد هدف ملوكها توحيد اوربا المسيحية ، وانما السيطرة عليها لصالحهم . وقد

تمثل ذلك في سياسة (فيليب الثاني) ملك اسبانيا ، و (لويس الرابع عشر) ملك فرنسا . وقد ادى اخفاق تلك المحاولات الى دعم مفهوم (التجزؤ) وتأكيد (السمات الخاصة) لدى كل شعب . ويشاهد في نهاية القرن الثامن عشر وضوح (فكرة الامة) ، التي نظر اليها على انها مجموعة من البشر تتكلم لغة واحدة، ولها ماض واحد .

كما ان الملوك في كل دولة ، خلال العصر الحديث ، حاولوا ان تكون لهم سلطة كبيرة كسلطة الامبراطور ، وهذا ادى لظهور فكرة (الملكية المطلقة) . وعندما ظهر (طفلة الاستبداد المستنير) في القرن الثامن عشر ، لم يكن هدفهم في الواقع مغايرا . فقد بدوا ، وكأنهم يستوحون من الفلاسفة ، الا انهم في الواقع كانوا يسعون لتثبيت قوتهم الشخصية ، وسلطتهم ، عن طريق (تحديث دولتهم) . ولكن منذ نهاية القرن السابع عشر وبصفة خاصة في القرن الثامن عشر ، طرح المفكرون جانبا فكرة (السلطة المطلقة للملوك) ، واحلوا محلها فكرة (حقوق الامة بكاملها) و (الشعب وسعاده) : ف (لوك) ، و (جان جاك روسو) ، يريان ان السيد الحقيقي والحاكم الحقيقي هو الشعب ، وان الملك لا يحكم الا بعقد مع ذلك الشعب . وهذه الافكار ، هي التي سادت في القرن التاسع عشر ، وسعت الشعوب ، لا في اوربا وحدها ، وانما في العالم كله لتحقيقها .

المراجع العربية

- اندرسون (م) : تاريخ القرن الثامن عشر في اوربا . تعريب د. نور الدين حاطوم .
دمشق ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- التوحيدي (ابو حيان) : الامتاع والمؤانسة ٣ اجزاء مصر ١٩٣٩ .
- تومسون (جيمس) : حضارة عصر النهضة . تعريب عبد الرحمن زكي . القاهرة
د . ت .
- حاطوم (نور الدين) : عصر النهضة . دمشق . د . ت .
- حناد (جورج) وحسامي (راتب) : تاريخ الحضارة العربية . دمشق . د . ت .
- حسن (سليم) والاسكندري (عمر) : تاريخ اوربا الحديث وآثار حضارتها
القاهرة . د . ت .
- حمدان (جمال) : استراتيجية الاستعمار والتحرير . القاهرة . دار الهلال . د . ت .
- الحموي (ياقوت) : ارشاد الارب في معرفة الاديب . ٧ اجزاء . مصر ١٩٠٧ /
١٩٢٥ دائرة المعارف الاسلامية المعربة (١٢) مجلدا . القاهرة . د . ت .
- دارك (سعني) : عصر النهضة . تعريب محمد بدران . لبنان ١٩٦٨
- ديلماس (ك) : تاريخ الحضارة العربية تعريب كوليت حبيب . وزارة الثقافة . دمشق .
د . ت (الطبعة الاولى)
- راوس (ا . ل) : التاريخ الانكليزي : تعريب مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٤٦
- الرفاعي (انور) + مصطفى (شاكرا) : العالم الحديث . دمشق . د . ت .
- زاهر (رياض) : الاستعمار الاوربي لافريقية . القاهرة .
- الزركلي (خير الدين) : الاعلام ١٣ مجلدا مع المستدركات . بيروت . الطبعة الثالثة .
- السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة . مصر ١٣٢٦ هـ
- شنايدر (هيرت) : بنيامين فرانكلين . تعريب امين محمود الشريف . القاهرة ١٩٥٤

- طوقان (قنري حافظ) : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك .
- عثمان (حسن) : سافونا رولا . الراهب الشاعر . القاهرة ١٩٤٧
- فيشر (هريوت) : تاريخ أوروبا في العصر الحديث . تعريب أحمد نجيب هاشم
ووديع الضبع . القاهرة
- أصول التاريخ الأوروبي الحديث . تعريب زينب راشد وأحمد عبد الرحيم
القاهرة ١٩٦٥
- قاسم (محمد) وهاشم (أحمد نجيب) : التاريخ الحديث والمعاصر . دار المعارف
بمصر . د . ت
- قاسم (محمد) وحسني (حسين) : تاريخ القرن التاسع عشر . القاهرة ١٩٤٧
- كرد علي (بسام) وحداد (جورج) : مختصر تاريخ الحضارة الغربية في الأزمنة
الحديثة دمشق ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م
- لابردس (أرنست) وموسنيه (رولان) : القرن الثامن عشر (١٧١٥ - ١٨١٥)
تعريب يوسف وفريد داغر . بيروت ١٩٦٥ . (الجزء الخامس) من مجموعة
(تاريخ الحضارات العام) .
- مظهر (جلال) : أثر العرب في الحضارة الأوروبية . بيروت ١٩٦٧
- موسى (سلامة) : كتاب الثورات . بيروت ١٩٦٣ . الطبعة الثالثة
- موسنيه (رولان) : القرنان السادس عشر والسابع عشر . تعريب يوسف وفريد
داغر . بيروت ١٩٦٥ . الجزء الرابع من مجموعة (تاريخ الحضارات العام)

المراجع الأجنبية

- R. Aubenas, R. Ricard : L'Eglise de la Renaissance (1449-1517)
(Coll. Histoire de l'Eglise I & V. Paris 1951.
- J. Burckhardt : La Civilisation de la Renaissance. Tr. de
l'Italien par M. Smith, Paris 1885. 5 Vols.
- F. Braudel : La Méditerranée et le monde méditerranéen à
l'époque de Philippe II. Paris 1949.
- E. Bruley, R. Cloet, La Fin du Moyen Age et l'Epoque Moderne
S. & P. Coquerelle : (1328-1715). Hatier. S. D. (Paris).
- A. Châtel et R. Klein : L'Age de l'Humanisme. Paris 1963.
- P. Chaune :- L'Amérique et les Amériques de la Préhistoire
à nos jours. Paris 1964.
- Séville et l'Atlantique (1504-1650). Paris 1955
- La Civilisation de l'Europe Classique.
Arthaud 1966.
- J. Delumeau : Naissance et affirmation de la Réforme.
Coll. N. Clio. No. 30.
- J. Dupâquier & M. Lachiver : Les Temps Modernes. Coll. Bordas. Paris 1970.
- Encyclopédie de l'Islam : 1ère Edition Leide 1913 - 1938 & 2ème Edi-
tion 1954 -
- CH. Endress : History of Europe (1500-1848). London 1975.
- J. Favier : De Marco Polo à Christophe Colomb (1250 -
1492). Coll. H.U. Larousse de Poche. Paris 1968

- J. Imbert — : Histoire économique des origines à 1789.
P.U.F. 1965.
- W. Kirchner : Western Civilization since 1500. London 1975.
- W. Langer : An Encyclopedia of World History. New-York
1948.
- H. Lapeyre : Les monarchies européennes du XVI^e siècle
et les relations internationales.
- Lavissee & Rambaud : Histoire générale du IV^e siècle à nos jours.
T.IV et V. Paris 1894 - 1895.
- P. Milza, S. Bernstein XVI^e, XVII^e, XVIII^e siècles. Nathan. Paris S.D.
& J. L. Momeron :
- N. Morineau : Le XVI^e Siècle. Paris 1968. Coll. Lar. de Poche.
- N. Mousnier : - XVI^e et XVII^e siècles. Paris 1961. Coll Histoire
des Civilisations.
- R. Mousnier & E. ;
Labrousse : XVIII^e Siècle. Paris 1963.
- H. Methivier : Louis XIV. P.U.F. 1950.
- J. H. Parry : The Age of Renaissance : Discovery, Exploita-
tion and Settlement, 1500 to 1650. London 1963.
- Suzanne Pillorget : Apogée et déclin des sociétés d'ordres
(1610 - 1787). Paris 1967.
- J. Pirenne : Les Grands Courants de l'histoire. Tome III.
IV. Paris 1950.
- P. Portal : Pierre le Grand. Club français du livre 1961.
- E. Preclin & V.L. - : Le XVII^e siècle. P.U.F. coll. Clio. 1949.
Tapie : - : Le XVIII^e siècle. P.U.F. 1953. 2 vols
- P. Riche : Grandes Invasions et Empires (V^e - X^e).
Coll. Lar. d. P. Paris 1968.
- H. Sée & A. Rébillon : Le XVI^e siècle. Paris. 1934.
- G. M. Trevelyan : Précis d'histoire de l'Angleterre. Payot 1955.

- L. Febvre : Au cœur religieux du XVI^e siècle. Paris 1967.
- W. Ferguson : La Renaissance dans la Pensée Historique. Paris 1950. (Tr. Française)..
- H. A. L. Fisher : History of Europe. London 1946.
- B. Gile :- Les ingénieurs de la Renaissance 1964.
- C. Grimberg & Ragnar Svanstrom : Histoire économique et sociale de la Russie du Moyen Age au XX^e siècle. Paris 1949. (adaptation française sous la direction de Georges - H. Dumont. Coll. Marabout University. Verviers S.D.
- 1) No. 5 - Le déclin du Moyen Age et la Renaissance,
- 2) No. 6 - Les grandes Découvertes et les Réformes.
- 3) No. 7 - Des Guerres de Religion au siècle de Louis XIV
- 4) No. 8 - L'hégémonie anglaise et la fin de l'Ancien Régime.
- J. Godechot : Les Révolutions (1770-1799). Presses Universitaires de France. N. U. 1965.
- Grand Larousse Encyclopédique, 10 vols. et deux Suppléments Paris 1960-1975.
- R. Grusset & E. G. Léonard : De la Réforme à nos jours, T. III de l'Histoire Universelle de l'Encyclopédie de la Pléiade. Gallimard 1958.
- C. H. Haring : The Spanish Empire in America. New-York, Oxford 1947.
- E. J. Hamilton : American Treasure and the Price Revolution in Spain, Cambridge (Mass) 1934.
- H. Hauser & A. Renaudet : Les débuts de l'Age Moderne. Paris 1948.
- H. Hauser : De la Modernité du XVI^e siècle. Paris 1963.
- : La Prépondérance espagnole (1559 - 1660). Paris 1941

- P. Villar : Histoire d'Espagne. P.U.F. 1965.
- De Vaux (Carra) : The Legacy of Islam, ed. by Th. Arnold & A. Guillaume. 1971.
- Zollner (E) : Histoire de l'empire autrichien, des origines à nos jours. Roanne, Horvath 1968.

الفهرس الابجدي

- ١ -

١٨٨ : أن دوبريتانيا	- آدم (النبي) : ١٣٩ ، ١٤٠
١٦٧ ، ١٦٦ : أن دبولين	- آرتوا : ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧
١٨٤	- آرل : ١٢٥ - آزوف : ٢٨٧ ،
١٣٦ ، ٦٨ ، ٣٠ : أنجلو (ميكيل)	٢٨٨ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤
١٢٨ - ١٤٠ ، ١٤٧	- آسيا : ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ٧٤ ، ٩١ ،
١٤٧ ، ١٤٠ - ١٢٨	٩٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٧٨ ، ١٩٨
٢٨٣	١٩٩ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
٣١٩ : الابداعية (الرومانتيكية)	- آسيا الصغرى : ٢٣ ، ٦٣ ، ٢٨٥
٣٢١	- الأصور (جزر) : ٢٩ ، ٥٥
ابرشية : انظر (اسقفية)	- أفيس (آل) : ٥٥
٣٦٦ : الابلاش (جبال)	- أفيسين : ١٢١
٨٠ : ابن خرداذبة	- أفينيون : ١٩ ، ٢٠ ، ٣٥ ، ١٥٥ ،
٨٠ : ابن رسته (احمد بن عمر)	٢٣٢
١١٦ : ابن رشد	- الآلة : ٢٩٩ ، البخارية : ٣٠٠ ،
١٥٣ ، ١٢١ : ابن سينا	٣٠٣ ، ٣١٠ ، ٣٧٢
٢١٠ ، ١٥٤ : ابن النفيس	- آله (عفو) : ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٤
٧٨ : ابن يونس المصري	- آن ستيوارت : ٢٥٧ ، ٣٢٤ ،
٩٠ : ابو حيان التوحيدى	٣٦٤

- أدب - آداب - أدبي - أدبي :
 ٧ ، ٩ ، ٣٠ - ٣٢ ، ٣٩ ، ٤٤ ،
 ٧٨ - ٨١ ، ١١٤ ، ١١٦ ،
 ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٤٧ ،
 ١٤٩ - ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ،
 ١٩٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ،
 ٢١٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
 ٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٢١٣ ، ٣١٧ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٥ ،
 - الأدرياتيكا (بحر) : ٤٢ ، ٣٣٣ ،
 - الأدريسي : ٨١ ،
 - أدوار الثالث : ١٩ - أدوار
 السادس : ١٦٧ ، ١٧٥ ،
 - الأراضي المنخفضة : ٢٦ ، ٣٤ ،
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٨ ،
 ٥٩ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٤٧ ، ١٦٦ ،
 ١٧٦ ، ١٧٨ - ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ،
 ١٨٧ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ،
 ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ - ٢٨٤ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩١ ، ٣٣٢ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦ ،
 - الأراغون : ٢٩ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ،
 ٥٩ - ٦١ ، ٨٩ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ،
 ١٨٥ ،
 - الأرثوذكسية : ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٣٣٧ ،
 ٣٣٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ،
 - أرخبيل أيجي : ٤٢ ،
 - أرخميدس : ١٥٢ ،
 - الأرض الجديدة (جزيرة) : ٩٢ ،
 ١٨٧ ، ٢٨٤ ، ٣٦٤ ،

- أبو زيد البلخي : ٧٩ ،
 - أبو الفداء الأيوبي : ٨١ ،
 - أبو الوفاء البوزجاني : ٧٧ ،
 - الأبنين (جبال) : ١٣ ،
 - الأبيض (قمة الجبل) : ١٣ ،
 - أتاواليبا : ١٠٠ ،
 - اتحاد آراس : ١٧٩ - الاتحاد
 الألماني : ٢٧٥ ، ٣٠٠ - الاتحاد
 الأنجلي : ٢٦٧ ، ٢٦٨ - اتحاد
 كالمار : ٤٧ - الاتحاد الهلنسي :
 ٤٨ (سويسرة) - اتحاد أوترخت :
 ١٧٩ - الاتحاد الأوربي : ٣١٨ ،
 - أتين (القديس) : ٢٨٧ ،
 - أئينا : ١٢٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ٢٨٧ ،
 - اجتماع - اجتماعي : ٩ ، ٥ ،
 ١٤ ، ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٢٩ ،
 ٣٠ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ٧١ ، ١١٢ ،
 ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٠ ،
 ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٩ ، ١٨٧ ، ٢٠١ ،
 ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢٢٠ ، ٢٣٧ ،
 ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣١٦ ،
 ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٦٨ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ،
 - الاحتجاج الكبير : ٢٥٢ - الاحساء :
 ٩٥ ،
 - أحمد شهاب الدين بن ماجد : ٨٢ ،
 - أحمد كوبرلي : ٢٨٧ ،
 - أحمد غران : ٩٦ ،
 - الأحمر (البحر) : ٧ ، ٧٤ ، ٩٥ ،
 ٩٦

- ارض النار (جزيرة) : ٩١ —
- ارفورت : ١٥٩ —
- اركانجلسك : ٩٢ —
- اركرائيت : ٣٠٠ —
- ارلاند (المركيز دارلاند) : ٣٠١ —
- الارمادا : ١٨٠ — ارمينيا : ٧٤ —
- ارنديك (مستشرق) : ٨٠ —
- اريريا (ارتيريا) : ٩٥ —
- اريسطو : ١٢٠ ، ٣٥ ، ٣٤ ، ١٥ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ٢٠٩ —
- اريوست : ١٤٩ — الازتيك : ٩٩ —
- اسبانيا — اسباني : ١٠ ، ٧ ، ٦ —
- ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٥١ — ٥٩ ، ٥٤ —
- ٦٢ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٧ — ٨٥ ، ٨٧ — ٩١ ، ٩٤ — ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٩ — ١٠٤ ، ١٠٦ — ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٨ ، ١٢٠ — ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٨ ، ١٦٧ ، ١٧٤ — ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٥ ، ٢١٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠٠ — ٢٤٥ ، ٢٤٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢١٦ ، ٢٧٢ ، ٢٦٩ ، ٢٦٦ ، ٢٦٠ ، ٢٥٤ ، ٢٩٦ ، ٢٨٥ — ٢٧٧ ، ٢٧٥ ، ٢٧٤ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢١ ، ٣٠٤ ، ٣٤٨ ، ٣٤٥ ، ٣٣٣ — ٣٣١ ، ٣٥٩ — ٣٥٥ ، ٣٥١ ، ٣٤٩ (اسبانيا الجديدة : ٣٥٦) ، ٣٧٤ ، ٣٧٠ ، ٣٦٦ — ٣٦٢ ، ٣٦١
- الاستبداد المستنير : ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٧٤ —
- استونيا : ٢٩٠ —
- اسر بابل (كتاب) : ١٥٩ —
- الاسرار المسيحية السبعة : ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩ —
- الاسطراب : ٨٤ —
- اسقف — اسقفية (ابرشية) : ٢١ —
- ٥٢ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ١٠٢ — ١٠٦ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٥ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ٢٣٢ — ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٣٠٩ —
- اسكندر بك : ٦٣ —
- اسكندر السادس : (البابا) : ٦ ، ٩٠ ، ١٥٥ —
- اسكندر المقدوني : ١٢٠ —
- الاسكندرية : ٢٥ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨١ —
- الاسكوريال (قصر) : ١٤٧ ، ١٨٣ —
- اسلام — اسلامي — مسلم : ٦ ، ٧ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٥١ — ٥٦ ، ٦٢ — ٦٩ ، ٧٥ — ٧٩ ، ٨٥ — ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ — ١٢٢ ، ١٥٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٢٠٦ ، ٢٨٨ —
- الاسود (بحر) : ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٨٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ —
- اشبيلية : ٢٦ ، ٥٢ ، ٧٨ —

٢٥٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٥٦ ،
٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣

— افلاطون : ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٩ ،
١٥١ ، ٢٠٩

— الافلاق (فلاشيا) : ٢٨٨

— افيروس : ١٢١ ، انظر (ابن رشد)

— اقتصاد — ي : ٥ ، ٧ ، ٩

١٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٧-٢٩

٣١ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٥٠ - ٥٣

٥٥ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٨-٧٣

٧٥ ، ٩٣ ، ١٠٤ - ١٠٦ ، ١١١

— ١١٣ ، ١١٧ ، ١٢٠ - ١٢٢

١٢٣ ، ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٣٠

١٤١ ، ١٥٦ ، ١٧٩ ، ١٨١

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٦

١٩٩ ، ٢٠١ - ٢٠٣ ، ٢١٦

٢٢٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦

٢٣٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣

٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧

٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥

٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ - ٣٠٦

٣٠٩ ، ٣١١ - ٣١٤ ، ٣٢٦

٣٢٧ ، ٣٢٩ - ٣٣٥ ، ٣٣٧

٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٥٢

٣٥٥ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١

٣٦٢ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣

— الاقتصاد الحر : ٣٠٥ ، ٣١٢ ،
٣١٣

— الانقطاع — عي : ١٦ - ١٨ ، ٢٢

٢٣ ، ٢٧ - ٢٩ ، ٤٠ ، ٤٣

٤٥ - ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ٥٧

٩١ - ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٥

١٠٦ ، ١٢١ ، ١٤٧

— اشيكافا (اسرة حاكمة يابانية) :
٧١

— الاصطخري : ٧٩ ، ٨٠

— اصفهان : ٨٠

— اصلاح : ٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٦٩

٧٠ ، ٧٢ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٠

١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٠ - ١٥٦

١٥٨ ، ١٦١ - ١٧٠ : (الاصلاح

الكاثوليكي المضاد : ١٦٨) ، ١٧٢

١٧٨ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠

١٩٢ ، ١٩٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٧

٢٩١ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ - ٣٣٥

٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

— الاطلنطي : انظر (المحيط)

— اغادير : ٥٦

— اغريق — قي : (انظر يونان)

— اغريكولا : ١٥٣

— اغسطس الثاني (ملك بولونيا) :
٢٩٠

— اغنادل (معركة) : ٦٢

— افريقيا : ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢

١٣ ، ٤٢ ، ٥٤ - ٥٦ ، ٦٢

٦٤ - ٦٦ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٥

٨٦ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦

١٠٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٥

١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٠ ، ٢٤٦

- الدو مانوشو : انظر (مانوشو) — ١٦١ ، ١٤٥ ، ١٢٦ ، ١١٣ ، ٧١ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ٢١٥ ، ٢٠٤ ، ١٩٩ ، ٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٨ ، ٣٩٠ ، ٣٧٢
- اقليدس : ٧٩ ، ١٢١ ، ١٥٢ —
- اكاديا : ٢٨٤ —
- الاكاديمية : ١٦٥ ، ٢٤١ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ ، ٣٣٦ —
- الاكاديمية الافلاطونية : ١٣ ، ١١٩ — اكاديمية برلين : ٣٣٦ —
- اكاديمية عسكرية : ٣٤٥ —
- اكاديمية العلوم : ٢٦٥ ، ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ —
- الاكاديمية الفرنسية : ٢١٦ —
- اكري : ٢٨٥ —
- اكويناس (توماس) : ١٥ —
- الالب : (جبال) : ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧٤ ، ٦٢ —
- الالب (نهر) : ٤٩ ، ٢٧١ ، ٣٢٢ ، ٣٠٧ —
- البانيا : ٦٣ —
- البوكيرك : ٢٩ ، ٩٤ ، ٩٦ —
- البروز (قمة) : ١٣ —
- الدرادو : ١٠١ —
- الالزاس : ٤٩ ، ٢٣٨ ، ٢٨١ ، ٣٠٣ —
- الكسي : ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ —
- الماغرو (ديفو) : ١٠٠ —
- المانيا — الماني : ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ — ٥٠ ، ٧٧ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٧ — ٢٥٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٧١ — ٢٧٣ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ — ٢٩٢ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ ، ٣٣٦ — ٣٣٨ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢
- المايدا : ٩٤ —
- اليزابيت (ملكة انكلترا) : ٦٧ ، ١٢٦ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٠ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ —
- اليزابيت (قيصرية روسيا) : ٣٣٧ —
- الامبراطورية : انظر (اسم الامبراطورية) . —
- الامبراطورية الجرمنية المقدسة —

١٧٨ ، ٢٣١ ، ٢٩٩ ، ٣٦٣
 - امريكو دو فيسبوشي : ٨٩
 - امستردام : ٩٣ ، ١٠٦ ، ١٨٧ ،
 ٢٤٣ ، ٢٤٥ - ٢٤٧ ، ٢٩١ ،
 ٣٢٩
 - امستردام الجديدة (نيويورك) :
 ٢٤٦ ، ٢٧٩ ، ٣٦٣
 - اموي - امويون : ١٣٤
 - اميان : ١٢٨
 - الامير (كتاب مكيا فيلي) : ١٤٩
 - انا (القديسة) : ١٣٢ ، ١٣٣
 - انتصار سر القربان المقدس
 (فريسكة) : ١٣٥
 - الانتيل (جزر) : ٧٠ ، ١٠٣ ،
 ١٠٧ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٣٠٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ،
 ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠
 - الانتيل الصفري (جزر) :
 ٨٩ ، ٣٥٩
 - الانجيل - الانجيلية : ١٤٩ ،
 ١٥٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٦٧
 - الاندلس : ٢٧ ، ٤٣ ، ٧٨ ،
 ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٤ ، ١٨٢
 - الاندير (جبال) : ٩٨ ، ١٠٠
 - انسان - انساني - الحركة
 الانسانية (الهومانيسم) : ٥ ،
 ٧ ، ٨ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٣٠ ،
 ٣٢ - ٣٤ ، ٣٩ ، ٤٠ ،

الامبراطور : ١٩ ، ٢١ ، ٤٧ ،
 ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ،
 ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١١٢ ،
 ١٣٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٦ ،
 ١٦٩ ، ١٧٢ - ١٧٧ ، ٢١٢ ،
 ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ - ٢٦٩ ،
 ٢٧١ - ٢٧٨ ، ٢٨١ - ٢٨٤ ،
 ٣٢٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ - ٣٥١
 - امبواز : ١٣٥
 - امتياز - امتيازات : ٤٨ ، ١٠٥ ،
 ١٧٥ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٤ ،
 ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ،
 ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥
 - امريكا : ٦ ، ٨ ، ١٢ ، ٤٦ ،
 ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٧٣ ،
 ٨٧ - ٩٣ ، ٩٦ - ٩٩ ، ١٠٣ -
 ١٠٥ ، ١١٤ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،
 ١٨١ ، ١٩٨ : ١٩٩ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣٢٦ ،
 ٣٢٨ ، ٣٣١ - ٣٣٤ ، ٣٤١ ،
 ٣٤١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٥١ ،
 ٣٥٦ ، ٣٥٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣ - ٣٦٦ ، ٣٦٩ - ٣٧١
 - امريكا الجنوبية : ٨٧ ، ٨٩ ، ٩١ ،
 ٩٨ ، ١٠٣ ، ١١٤ ، ١٧٨ ، ٢٠٧ ،
 ٣٤٩ ، ٣٥٦
 - امريكا الشمالية : ١٨٧ ، ٢٤٦ ،
 ٢٥٧ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٩٤ ،
 ٣٢٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ،
 ٣٦٣ ، ٣٦٤
 - امريكا الوسطى : ٨٩ ، ٩٧ ،

١١٢ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٢٥ ،
 ١٢٦ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٥ ،
 ١٥٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ - ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ،
 ١٨٢ - ١٨٨ ، ١٩٣ ، ٢٠٠ ،
 ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٠ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
 ٢٣٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ،
 ٢٥٠ ، ٢٥٣ - ٢٥٨ ، ٢٦٣ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ -
 ٢٨٤ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
 ٢٩٦ - ٣٠٧ ، ٣١١ ، ٣١٣ -
 ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ -
 ٣٣١ ، ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٥ ،
 ٣٤٨ - ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٦ ،
 ٣٥٨ ، ٣٦٠ - ٣٧١ ، (انكلترا
 الجديدة : ٣٧١)

— الانكوميندا : ١٠٢ —

— اوبسالا : ٣٢ —

— اوترخت : ١٧٩ ، ٢٤٦ ، ٢٨٤

— اوتوبيا (يوتوبيا) : ١٤٩

— الاوهارستا (المناولة) : ١٥٩

— الاودر (نهر) : ٢٧٦

— اوديسا : ٣٣٨

— الاورال (جبال) : ١١ ، ١٢ ،

٤٢ ، ١٩٩ ، ٢٦٥ ، ٣٣٨

— اورانج - ناساو (آل) ، ويليام :

١٧٩ ، ٢٤٣ : (ويليام الثالث) :

٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٧١ - ٢٨٣ ،

٣٢٩ ، ٣٦٤

٦٧ - ٧١ ، ٩٣ ، ١٠٢ ، ١١٤ -

١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ،

١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٤٧ - ١٥٤ ، ١٥٧ ،

١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،

١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ٢٠١ ،

٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢٣٣ ، ٣٠٨ ،

٣١٣ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ،

٣٦٩ ، ٣٧٢

— الانشقاق البابوي : ٢١ ، ٣٢ ،

١٥٥ ، ١٥٧

— انطوان دو بوربون : انظر (بوربون)

— الانغليكانية : ١٦٦ ، ١٦٧ ،

١٨٥ ، ٢٤٩ - ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،

٣٠٠

— انفولا : ٣٥٦

— انفوليم : انظر (دانغوليم)

— الانفاليد : ٢٤٢

— انغرس : ٢٦ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ،

١١١ ، ١٨٧ ، ٢٤٦ ، ٣٥٦

— انقرة (معركة) : ٦٣

— الانقياء (بوريتان) : انظر

(البوريتان والتطهرين)

— الانكشارية : ٢٨٥ ، ٢٨٦

— انكلترا - انكليزي (بريطانيا) :

١٢ ، ١٦ ، ١٨ - ٢٣ ، ٢٧ ،

٢٩ - ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٤ - ٤٧ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٨ ،

٦٩ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩٢ ،

١٦٦ ، ١٦٣ ، ١٥٨
 — ايران : ٧١ ، ١٠٥
 — ايرلاندة (ايرلنده) — ايرلنديون :
 ٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،
 ٣٤٥
 — ايرلاو : ٢٨٥
 — ايزايبلا (ملكة قشتالة) : ٤٢ ،
 ٥٢ — ٨٩ ، ٨٨ ، ٥٤
 — ايزايل (ابنة فيلب الثاني) :
 ١٨١ ، ١٩٥
 — ايروقرط : ٣٤
 — ايستريا : ٤٢
 — ايسلاندة : ٤٦
 — ايطاليا : ٧ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ،
 ٢٤ ، ٢٦ — ٣١ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
 ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ،
 ٥٣ ، ٥٩ — ٦٢ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
 ٨٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١٢ ،
 ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ — ١٢٢ ،
 ١٢٥ — ١٣٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،
 ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٣ ،
 ١٦٩ — ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ،
 ١٨٨ ، ١٩٧ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ،
 ٢١٠ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٤٢ ،
 ٢٥٨ ، ٢٧٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ،
 ٢٩٦ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ، ٣٢١ ،
 ٣٢٣ ، ٣٣٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨
 — اينغ — مورت : ٢٦
 — ايفان الثالث : ٤٢

— اورانوس (كوكب) : ٣١٠
 — اوربا — اوربي : وردت في معظم
 صفحات الكتاب تقريبا .
 — اوربان (مدينة في ايطاليا) : ٣٥
 — اوربان السادس (البابا) : ٢٠
 — اورلثان : ٣٢ ، ٥٦ ، ٣٤٠
 — اورلثان الجديدة : ٣٥٩
 — اورلوف : ٣٣٧
 — اوزنا بروك : ٢٧٥
 — اوغسبورغ : ٢٤ ، ١٠٦ ، ١٦٢ ،
 ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٧ ،
 ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٨٢ ، ٢٩١ ،
 ٣٦٤
 — الاوغستينيين — سانت اوغستين :
 ١٥٩
 — اوغست كونت : انظر (كونت)
 — اوكرانيا : ٤٢ ، ٢٨٦ ، ٣٣٧
 — اوكتفورد (جامعة) : ٢٠
 — اولدنبورغ (آل) : ٤٧
 — اولريكا اليانور (ملكة السويد) :
 ٢٩٠
 — ايبيريا (شبه جزيرة) — ايبيري :
 ١٢ ، ٥١ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ١٠٥ ،
 ١٤٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ٢٠٦ ، ٣٣١ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧
 — ايجه (بحر وارخبيل) : ٤٢
 — ايراسموس : ١٤٨ ، ١٥٠

- ٢١٨ - ٢٢١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٩ ،
٢٩٢ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٩ ،
٣٤٣ ، (معاهدة : ٣٥٢ ، ٣٦٦ ،
٣٦٧)
- الباستيل : ١٩٦
- باسكال (الفيلسوف العالم) :
٢١٠
- باقيا : (جامعة : ١٢٧) ،
(كنيسة : ١٢٩) ، (مدينة :
١٣٠) ، (معركة : ١٧٢ ، ١٧٤)
- باقاريا : ٢٨ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،
٢٧٣ ، ٢٨٥ ، ٣٥٠
- بال : ١٤٨ ، ١٥٣ ، ١٦٤
- بالاتينا : ٤٩ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٨٢
- بالاديو : ١٤٢
- بالرمو : ٢٥
- بالوس : ٨٩
- الباليشار (جزر) : ٢٦ ، ٥١
- باليسي (برنار) : ١٥٤
- باليولوغ (آل) : ٤٢
- بانتاغرويل (كتاب) : ١٥١
- بايار : ١٧٤
- بت الكبير : ٣٢٦
- بت الصغير : ٣٢٦ ، ٣٦٥
- البتاني (محمد بن جابر) : ٧٧ ،
٧٨
- بترارك : ٣١
- البحر : انظر (اسم البحر)
- البحيرات الكبرى (منطقة) :
٣٥٩ ، ٣٦٤
- البخار (قوة) : ٣٠٠ ، ٣٠٣ ،
٣١٠ ، ٣٠٥
- بخارى : ١٢١
- البرازيل : ٨٧ ، ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٠ ،
١٧٠ ، ٢٥٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٤ ،
٣٥٦ ، ٣٥٨
- براغ (براها) : ٢٠ ، ٣٢ ، ٢٦٨ ،
(صلح براغ : ٢٧٣)
- براغنز (آل) : ٢٠٠
- برامانت : ١٤٠
- برانديبورغ : (مارغراف : ٤٩) ،
(البيردو : ١٥٩ - ١٦١) -
مقاطعة وامارة : ٢٥٩ ، ٢٦٧ ،
٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ،
٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩
- برايتمفلد : ٢٧٣
- بربروسا : انظر (خير الدين)
- البرتغال : ١٠ ، ٢٥ ، ٣٨ ، ٤٣ ،
٥١ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٥ ،
٦٩ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٢ - ٨٦ ،
٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ - ٩٧ ،
١٠٠ - ١٠٦ ، ١١١ ، ١٢٢ ،
١٥١ ، ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٩٩ ،
٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٣٠٤ ،
٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ - ٣٥٨

- برشلونة : ٢٥ ، ١١١ ، ٢٨٣ —
 — برلين : ٢٥٩ ، ٣٥١ —
 — برمنغهام : ٣٢٦ —
 — بروكستانت : ٤٧ ، ٦٧ ، ٦٩ ،
 ٧٢ ، ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٦٢ ،
 ١٦٥ ، ١٦٧ — ١٦٩ ، ١٧٥ ،
 ١٧٦ : ١٧٩ — ١٨١ ، ١٨٥ ،
 ١٩٠ ، ١٩٢ — ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢١٢ — ٢١٦ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ،
 ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ —
 ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ،
 ٣١٣ —
 — بروث (معاهدة) : ٢٨٨ —
 — بروج (مدينة) : ٢٦ ، ٢٤٦ —
 — بروسيا : ١٦١ ، ٢١١ ، ٢٥٨ —
 ٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
 ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣٣٣ — ٣٣٧ ،
 ٣٣٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،
 (بروسيا البولونية : ٣٥٣) ،
 ٣٥٥ ، ٣٧٠ —
 — البروقنس : ٢٢ ، ٥٧ ، ١٢٥ —
 — بروليتاريا : ٧١ ، ١١٢ ، ٣٠٧ —
 — برونولسكي : ٣٠ ، ٣٨ —
 — بريتانيا : ١٧ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ١٨٨ ،
 ٢١٥ —
 — بريدة : ٢٧٩ —
 — البريس : ١٩٧ —
 — بريست : ٢١٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ —
 — بريستول : ١٠٥ ، ٣٠٣ —
 — بريستيلى : ٣١١ —
 — بريسبيترىاني (مذهب
 بروكستانتى) : ١٦٦ ، ١٦٧ ،
 ٢٥٥ —
 — بريسونه (اسقف) : ١٦٣ —
 — بريطانيا : انظر (انكلترا)
 — بريمن : ٢٧٦ ، ٢٨٩ — بريمن
 (دو) : ٣٤٤ —
 — بسارويتز (صلح) : ٢٨٨ —
 — البشرى (لوحة) : ٣٩ ، ١٣٢ —
 — البطاطا (نبات) : ٩٨ ، ١٠٤ ،
 ٢٣٨ ، ٣٠٢ —
 — بطرس (القديس) : ١٣٥ ، ١٣٧ ،
 ١٤٠ ، ١٥٩ : ١٦٠ ، ٢٠٦ —
 — بطرس الاكبر (الاول قيصر روسيا)
 ٢١١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ ، ٢٨٨ ،
 ٢٨٩ ، ٣٠٨ ، ٣٢٠ ، ٣٣٧ ، ٣٥٢ —
 — بطرس الثالث : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ،
 ٣٥١ —
 — بطربرك — بطركية : ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
 ٢٦٥ —
 — بطليموس (العالم) : ٣٤ ، ٨١ ،
 ٨٢ ، ٨٨ —
 — بعث لازار (لوحة) : ٣٩ —
 — بغداد : ٧٧ ، ٨٠ ، ٢٨٥ —
 — البغلة (آلة الفول) : ٣٠٠ —
 — بكسين : ٧٤ —

— بلبونا (مستكشف) : ٩٠ —	— بنسلفانيا : ٣٦١ —
— بلجيكا : ١٨ : ٨٨ ، ١٥٨ ، ٢٨٠ —	— البنغال : ٣٦٦ ، ٣٦٧ —
٣٣٣ ، ٣٥٠	— بنك : انظر : (مصرف) —
— بلخ : ٧٩ —	— بهاما (جزر) : ٨٩ —
— البلشفية (الثورة) : ٢٠٠ ، ٢٦١ —	— بهاييم (مارتن) : ٨١ —
— البلطيق — (بحر) : ١٢ ، ٢٦ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٠ ، ١٠٩ ، ١٨٧ —	— بواتو : ٢١٤ ، ٢١٩ —
١٩٩ ، ٢٣٠ ، ٣٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ —	— بواسي : ١٩٢ —
٢٧٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ —	— بواتو : ٢٤٢ — بوتمكنين : ٣٣٨ —
٣٣٨	٣٣٩ — بوتوزي (منجم) : ١٠١ ، ١٠٧ —
— بلغاريا : ٢٨٧ ، ٣٣٨ —	— بوتيشلي : ٤١ —
— بلغراد : ٦٣ ، ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢٨٧ —	— بوجادور (رأس) : ٦٥ ، ٨٥ —
٢٨٨ ، ٣٥٣	— البوجه : ١٩٧ — بودابست : ٢٨٧ —
— البلقان (ني) : ١٢ ، ١٣ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٢٨٨ ، ٣٣٢ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ —	— بودان (جان) : ١٠٣ —
— بلوا (قصر) : ١٤٥ ، ٢١٣ —	— بودوليا : ٢٨٦ ، ٢٨٨ —
— البليشاد (جمعية أدبية) : ١٥٠ —	— بوديراد (جورج) : ٥٠ —
— بليتوس : ١٥٢ —	— بوربون (آل) : ٥٦ ، ٥٧ ، ١٩٠ —
— بلييني (جيو فاني) : ١٤٢ —	١٩٢ ، ٣٣٢ ، ٣٤٩ (انطوان
— بنات تمسفار : ٢٨٧ ، ٢٨٨ —	دوبوربون : ١٩٠ ، ١٩٢)
— بناما (برزخ) : ٩٠ —	(شارل : ١٩٤) ، (الكونيتابل دو : ١٧٤)
— البندقية : ٢٥ : ٢٧ ، ٣٤ ، ٤١ —	— بورج : ٣٢ —
٦٠ — ٦٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٨٥ —	— البورجوازية : ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٧ —
٨٨ ، ٩٠ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٧١ —	١١٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٩١ —
١٧٤ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٤٧ —	٢٠٣ — ٢٠٥ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ —
٢٨٥ — ٢٨٨ ، ٣٢١ ، ٣٣٢ —	٢٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٤ —

- ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٨٥ — بول (سان فانسان دو) : ٢٣٣
- ٢٩٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١١ — بولتافا (معركة) : ٢٨٨ ، ٢٩٠
- ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ — بولس (القديس) : ١٥٩ ، ١٦٠
- ٣٦٧ ، ٣٧٢ — بولونيا (دولة) : ٨ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٧٧ ، ١٠٩ ، ١٥٣ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ١٩٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦ — ٢٩٠ ، ٣٠٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ — ٣٥٥
- ١٢٧ ، ١٥٣ — بولونيا (مدينة ايطالية) : ٦٢ ، بوليفيا : ٩٨
- ٣٣٢ — بولين (آن دو) : انظر (آن) بومبال : ٣٣٢
- ٣١٦ — بومبادور (مدام دو) : ٣١٦ بومباي : ٣٦١
- ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠ — بوميرانيا : ٢٥٩ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٨٩ ، ٢٧٥ — بوميرانيا الغربية : ٢٨٩
- ٣٢١ — بون : ٣٢١ بونابرت : انظر (نابليون)
- ٣٥٩ — بونديشيري : ٢٣١ ، ٣٥٩ بونيا توفسكي (ستائيسلاس) : ٣٥٣
- ٢٦٨ — بوهيميا : ٢٠ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٥ ، ٤٩ — ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٨ — ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
- ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٨٥ — بورجيا (آل) : ١٥٥
- ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ — بوردو : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
- ٢٣٤ — بور رويال : ٢٣٣ ، ٢٣٤
- ١٠٦ ، ١٠٥ ، ٦٣ — بورصة : ١٠٦ ، ١٠٥ ، ٦٣ (بورصة لندن : ١٨٦)
- ٣٧ ، ٣٥ — بورغوس (كاتدرائية) : ٣٧ ، ٣٥
- ٥٦ ، ٤٨ ، ٤٠ ، ٣٥ — بورغونيا : ٥٦ ، ٤٨ ، ٤٠ ، ٣٥
- ١٧٩ ، ١٧٦ — ١٧٣ ، ٥٩ ، ٥٨ — ٢٣٧ ، ٢١٩ ، ٩١٧
- ١١٥ — بوركهارت (مؤرخ) : ١١٥
- ٩١ — بورنيشو : ٩١
- ١٦٧ ، ٢٤٩ — ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ — بوريتان (انقياء ، متطهرون) : ١٦٧ ، ٢٤٩ — ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
- ٧٧ — بوزجان ، البوزجاني : ٧٧
- ٣٧٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧ — بوسطن : ٣٧٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٧
- ٢٤٢ ، ٢٣٢ ، ٢٢٣ — بوسوه : ٢٤٢ ، ٢٣٢ ، ٢٢٣
- ٣٥٤ ، ٣٣٨ — بوغاتشيف : ٣٥٤ ، ٣٣٨
- ٣١١ ، ٣٠٩ — بوفون : ٣١١ ، ٣٠٩
- ١٦ — بوقيزي : ١٦
- ٣١ ، ١٦ — بوكاشو : ٣١ ، ١٦
- ١٥٠ — بول الثالث (البابا) : ١٥٠

٣٥٠ ، ٣٣٤ ، ٣٠٨	- بيري ريس : ٩٥
- بويار : ٢٦٢ ، ٢٦١	- بيمين (جاك) : ٩
- بوينس آيرس : ١٠١	- بيز (تيئودور دو) : ١٦٥
- بيازيد الاول (السلطان) : ٦٣	- بيزارو (فرانسوا) : ١٠٠
- بيازيد الثاني (السلطان) : ٦١	- بيزنطة - بيزنطي : ٧ ، ١٧ ، ١٩ ، ٤٢ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ١٧٧ ، ١٩٩ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤
- البيت (تمثال) : ١٣٧	- بيكارديا : ٥٨ ، ١٩٧
- بيترهوف (قصر) : ٣٢٠	- البيكارية (القصة) : ١٨٣
- البيرنة (جبال - منطقة) : ١٦ ، ٥١ ، ٥٤ (معاهدة البيرنة : ٢٧٧)	- بيكون (فرانسيس) : ١٥١ ، ١٨٤ ، ١٨٨ ، ٢١٢
- البيرو : ٧٠ ، ٩٨ ، ١٠٠	- بيل : ٣١٣
- ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٩٦ ، ٣١٠	- بيه مون : ٦٠ ، ٣٤٥
- بيروغيت (الونسو) : ١٤٧	- بيوس الخامس (البابا) : ١٧٨
- البيروني (العالم العربي) : ٧٩	

- ت -

- التاريخ (علم) : ١٤٩ ، ١٥٤ ، ١٨٣	- التجارة - تجاري : ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ - ٣١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٩٤ - ٩٦ ، ١٠١ - ١١١ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٢٧ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٧٩ - ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٦ - ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
- تاسيت (المؤرخ) : ١٤٩	
- تامنراست (تمنغست) : ٨٦	
- تاننبرغ (معركة) : ٥٠ ، ٢٥٩	
- التايمس (صحيفة) : ٣٢٦	
- التبغ : ١٠٤ ، ٢٢٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٢٩٨ ، ٣٤١ ، ٣٥٥ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٧	
- تتر (مغول) : ٤٢ ، ٦٣ ، ٣٥٤	
- تتويج الملكة ماري دو مديتشه (لوحة) : ٢٠٧	

١١٤ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ،
 ٢٦٥ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ،
 ٣٣٨ ، ٣٦٧
 - التعليم : ٣٢ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ،
 ٢٦٥ ، ٣٣٥ ، (الانزامي : ٣٣٥) ،
 ٣٣٨
 - التعميد (سر) : ١٦٠ ، ١٦٢ ،
 ١٦٧ ، ١٩١
 - تقويم البلدان (كتاب) : ٨١
 - تلمسان : ٥٤
 - تليماك (كتاب) : ٢٣٧
 - تمسغار : ٢٨٧
 - تنزانيا : ٨٦
 - تنوخ تيتلان : ٩٨
 - تهافت التهافت (كتاب) : ١٢١
 - تهافت الفلاسفة (كتاب) : ١٢١
 - التوابل : ٢٥ ، ٢٦ ، ٦٥ ، ٧٤ ،
 ٧٥ ، ٨٧ - ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،
 ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ،
 ٣٥٥ ، ٣٥٨
 - توباغو : ٣٥٨
 - التوت (شجر) : ١٩٧ ، ٢٢٩
 - تور : ٥٦ ، ١١١ ، ١٩٧
 - تور دو سيلاس (معاهدة) : ٩٠
 - تورغو : ٣١٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤
 - التوري (حزب) : ٢٥٥ ، ٣٢٥ ،
 ٣٢٦

٢٤٣ - ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٤ ،
 ٢٥٨ ، ٢٦٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ -
 ٢٨٦ ، ٣٠٢ - ٣٠٦ ، ٣١٢ ،
 ٣١٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٣٢ ،
 (تجارة العبيد : ٣٢٨) ، ٣٣٨ ،
 ٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ،
 ٣٥٢ - ٣٦٤ ، ٣٦٦ - ٣٦٨ ،
 ٣٧٢ ، (التجارة المثلثة : ٢٩٨ ،
 ٣٠٣ ، ٣٦٣) ، (تجارة
 التهريب : ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧)
 - التجارب (كتاب) : ١٥١
 - التجريبية (الطريقة والعلوم) :
 ١٨٨ ، ٣١٠ ، ٣١٣
 - ترانت (مجمع - مؤتمر) : ١٦٨
 - ١٧٠
 - ترانسلفانيا : ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧
 - الترك ، الاتراك - تركيا : ٧ ،
 ١٩ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٥١ ،
 ٦٠ - ٦٣ ، ٦٩ ، ٨٥ ، ١٢٧ ،
 ١٥٧ ، ١٧٥ - ١٧٨ ، ١٩٢ ،
 ٢٦٤ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ،
 ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ،
 ٣٥٢ - ٣٥٤
 - التروبادور : ١٢٥
 - تريف : ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨٥
 - تريتفا توروك (صلح) : ٢٨٥
 - تشوسر : ٣١
 - التشيك : ٢٠ ، ٢١ ، ٥٠ ، ١٥٥ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧١
 - التعدين (صناعة) : ٢٤ ، ١١٠

١٧٨ ، ١٧٧ ، ٧٦	— توريشلي (عالم) : ٢١٠
١٤٩ : ليت — تيت	— تورين : ٢٢٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٨ ، ٢٨١
٤٩ : التيرول —	— تورينو : ١٢٧
١٨٣ : تيريز دافيللا —	— توسكانيلى : ٨٤
١٤٤ — ١٤٢ ، ٦٨ : تيسان —	— التوشان : ١٦
٦٣ : تيمورلنك —	— تول : ١٧٥ ، ٢٧٦
١٩ ، ٢٥ ، ٤٢ ، ٥٠ ،	— التوليب : ٢٤٥
١٦١ ، ٢٥٨	— تومبكتو (تمبكتو) : ٦٤
— تيودور (آل) : ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٧ ،	— تونس : ١٥ ، ٢٥ ، ٥٤ ، ٦٤
١٢٦ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٤	

— ث —

٣٥٦ — ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٨ —	— الثقافة : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤
٣٧٢	٤١ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ١١٥ ، ١١٨
— الثورة الاقتصادية : ٧٠ ،	١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠
١٠٤ ، ١١٧ ، ٢٠١	١٥٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣
— الثورة الامريكية : ٣٤٤ ، ٣٦٣ ،	٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩
٣٦٦ ، ٣٧١	٢٦٣ ، ٣١٠ ، ٣١٧ ، ٣١٨
— ثورات الفلاحين : ١٦ ، ١٦٢ ،	٣٢٤ ، ٣٣٧ ، ٣٣٧
٣٣٨	— ثورة : ٨ ، ١٤ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢١
— ثورة زراعية : ٣٠٢	٢١ ، ٤٥ ، ٥٠ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٠
— ثورة الشومبي (العمال) : ١٨	٧٠ — ٧٢ ، ٧٤ ، ٩٥ ، ١٠٣ ، ١١٧
— الثورة الصناعية : ٢٠٢ ، ٣٠٣ ،	١٠٤ ، ١١١ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨
٣٠٧	١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦٢
— الثورة الفرنسية : ٦٠ ، ٦٢ ،	١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٩
٢٩٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣١٦ ،	٢٠٠ ، ٢٠٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧
٣٣٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٨ ، ٣٧١	٢٢٠ ، ٢٢٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٤
	٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٨١
	٢٨١ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٣٠٥ ، ٣٢٦
	٣٢٨ ، ٣٤٧ ، ٣٠٧

- جابر ابن فلح الاندلسي : ٧٨
- الجاجلون (آل) : ١٩٩ ، ٥٠
- جاك فان ارتفيلد : ١٨
- جاكوتا : ٢٤٦
- الجاكري : ١٦
- جالينوس : ١٥٥ ، ١٥٤
- جامايكا : ٢٥٤
- الجامعة : ١٠ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٥٠ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ١٠١ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ٢٦٣ ، ٣٢٧ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦
- جان جورج الاول : ٢٧٠
- جان دارك : ١٩
- جان دالبره : ١٩٠
- جان سيباستيان ديل كانو : ٩١
- جان غوجون : ١٤٦
- جان فان ايك : ٤٠
- جان سوبيسكي : ٢٨٢
- جانسينيوس - الجانسينية : ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٤٢
- الجبل الابيض (ممركة) : ٢٧٠
- جاوا : ٢٤٦
- جبل طارق : ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٥٦
- جدة : ٩٥ ، ٩٦
- جريبير (البابا سيلفستر الثاني) : ١٢٠
- جرمن - جرمني : ٥٠ ، ٦٨ ، ١١٩ ، ١٢٧ ، ٢١٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣٣٠
- جريدة فرنسا (الغازيت) : ٢١٦
- الجزائر : ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٦ ، ٨٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨
- جزيرة : انظر (اسم الجزيرة)
- الجغرافيا (كتاب) : ٨١
- جلال مظهر : ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١
- جم (الامير العثماني) : ٦١
- جمايكا : ٣٥٦ ، ٣٦١
- الجمرك : ٤٦ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٥٦ ، ٢٨١
- الجمعية العمومية : ٥٧ ، ١٩٠ ، ٢١٣ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٤٤
- الجمعية الملكية (لندن) : ٣٠٩ ، ٣١١
- الجمعية اليسوعية : انظر (اليسوعيون)
- جمناز : ٣٣٥ ، ٣٣٦
- جمهورية : ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٠ ، ١٢٠ ، ١٣٦ ، ١٧٩ ، ١٨٠
- ٣٩٧ -

جورج الثالث : ٣٦٨ ، ٣٢٥	٢٠٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٨٠ ، ٣٦٩ - ٣٧١
جورجيا : ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٧	جميل صليبا : ١٢١
جوزيف الثاني (جوزيفيسم) : ٣٣٣ - ٣٣٥ ، ٣٣٧	الجنثري (طبقة) : ٤٦
جوفران (مدام) : ٣١٧	جند مرتزقة : ١٧ ، ٤٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٧١ ، ٣٤٩
الجو كوندا (لوحة) : ١٣٢	جنر (الطبيب) : ٢٩٧ ، ٣١١
جول الثاني (البابا) : ٦١ ، ١٢٧ ، ١٣٧ ، ١٣٨	جنكيز خان : ٦٥
جوليان دو مديتسه : ١٤٠	جنكين (القبطان) : ٣٦٤
جيبرتي (لورنسو) : ٣٠	جنوة : ١٧ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٦٠ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ١١١ ، ١٩٨ ، ٣٣٢
جيرار الكريموني : ١٢١	جنيف : ٢٧ ، ١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
جيرار دوسان جان : ٣٩	الجنينه الاسترليني : ٢٥٨
جيفرسون : ٣٦٩	جوتلاند : ٢٧١
جيمس السادس - الاول (ملك انكلترا) : ٢٠٠ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩	الجوخ (صناعة صوفية) : ١٨ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٤٦ ، ٥٦ ، ١١٠ ، ٢٢٩ ، ٣٣٦
جيمس الثاني (ملك انكلترا) : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٢	الجوخ الذهبي (ممسك) : ١٧٤
جيني (البغلة) ، آلة الفزل : ٢٩٩	جورج الاول : ٣٢٥
جيوتو : ٤٠	جورج الثاني : ٣٢٥ ، ٣٦٥

— — —

الحبشة : ٦٤ ، ٧٦ ، ٩٦	حاطوم (نور الدين) : ١٠
حجاج زهرة مايو (جماعة) : ٢٤٩	الحاكم بأمر الله : ٧٨
	الحبش (ولاية) : ٩٥

- حداد (جورج) : ٨٠ —
- الحديد : ٢٤ ، ٢٦ ، ٤٦ ، ٥١ ، ٩٨ ، ١١٠ ، ١٥٤ ، ١٨٦ ، ٢٥٢ ، ٣٠٠ ، ٣٣٠ —
- حرّان : ٧٧ —
- حرب اذن جنكين : ٣٦٤ —
- حرب الاسترداد : ٥١ ، ٥٢ —
- حرب اصحاب القمصان (الكاميزار) : ٢٣٦ —
- حرب الثلاثين عاما : ٢٥٩ ، ٢٦٦ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ —
- حرب السنوات السبع : ٢٤٣ ، ٢٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ —
- الحرب العالمية الاولى : ٦ ، ١٠ —
- الحرب العالمية الثانية : ١٠ —
- حرب الفلاحين : ١٦٢ —
- حرب المائة عام : ١٩ ، ٢٢ ، ٥٦ ، ١٢٥ —
- حرب الملك جورج : ٣٦٥ —
- حرب الملك ويليام : ٣٦٤ —
- حرب الملكة آن : ٣٦٤ —
- حرب الوراثة الاسبانية : ٢٣٧ ، ٢٦٠ ، ٣٢٩ ، ٣٦٤ —
- حرب الوراثة البولونية : ٢٤٨ ، ٣٥٢ —
- حرب الوراثة النمسية : ٣٣٦ ، ٣٤٩ ، ٣٦٥ —
- حرب الوردتين : ٤٤ ، ١٨٤ —
- الحرفة — حرفيون : ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ١١٠ ، ١١٢ ، ١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٨٥ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣١٥ —
- الحركة الانسانية : انظر (انسان) —
- الحروب الايطالية : ٤٨ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٧١ —
- الحروب الدينية : ٦٨ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٩٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ —
- الحروب الصليبية : ١٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٨٨ ، ٢٥٨ —
- حروب الفروند : ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٢٧٧ —
- الحرير — ية : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٩٦ ، ١١١ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٢٩ ، ٣٣٦ ، ٣٠٣ —
- الحسامي (راتب) : ٨٠ —
- الحضارة : ٨ ، ٩ ، ١٤ ، ٥١ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ٩٩ — ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٨٣ ، ٢١١ ، ٢٣٧ ، ٢٤١ ، ٢٤٧ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ —
- الحضارة العربية الاسلامية : ٥١ ، ٥٥ ، ٧٧ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٢٥ —

٢٢٠ ، ٢١٨	— الحفصية (الدولة) : ٥٤
— حوريات نبع الابرياء (تمثال) :	— حلب : ١٠٩
١٤٦	— حنا المجنونة : ٥٩ ، ٥٥ ، ٤٩
	— حنا النمسية : ٢١٧ ، ٢١٢ ،

— ح —

— الخليج العربي : ٧٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،	— خادم سليمان باشا : انظر
١٠٥	(سليمان باشا)
— خليج هدسون : انظر (هدسون)	— خان المغول : ٧٦ ، ٨٩
— خليفة (المسلمين) : ٣٥٤	— الخدمة العسكرية الالزامية :
— خمينس دوتسزنيروس : ٥٢ ،	٢٢٧
٥٣	— الخط الفوطي : ٣٤
— خوارزم : ٧٩	— الخط الهومانيسي : ٣٤
— خير الدين بربروسا : ١٧٧	— خلق آدم (فريسكة) : ١٣٩ ،
	١٤٠

— د —

(مرغريت) : ١٦٤	— داروين : ٢٠٩
— الدانمارك — الدانيمارك : ٢٦ ،	— دافنشي (ليوناردو) : ٦٨ ،
٢٦٩ ، ١٩٩ ، ١٦٢ ، ١٢٥ ، ٤٦	١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
— ٢٧١ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٩ ،	١٥٢ ، ١٥٤
٩٢٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٦٣ ،	— دافيد : ٣٢٢
٣٧٠	— دالماسيا — دالماسيا : ٦٠ ، ٢٨٨
— داود (تمثال النبي) : ٣٠ ،	— دالمير : ٣١٣ ، ٣٣٣
١٣٧	— دانتى : ٢١
— دراغوناد : ٢٣٥	— دانزيغ : ٤٢
— الدربي (الاخوان) : ٣٠٠	— دانغوليم (دوق) : ١٨٩
— دريك : ١٨٠ ، ١٨٦	

- دستور الولايات المتحدة الأمريكية : ٣٧٠
- دقيس : ٩٢
- دلهي : ٦٥
- دمشق : ٨٠ ، ١٠
- دالب (دوق) : ١٧٩
- ده بور (مستشرق) : ١٢١
- دو بليكس : ٣٥٠
- دوبيز (تيئودور) : ١٦٥
- دودج (البندقية) : ٣٥
- دورر (البير) : ١٥٣ ، ١٤٧
- دو سان جان (جيرار) : ٣٩
- دوغيز : ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٣ ، ١٩٤
- دوغو (كارا) : ٧٧
- دوفوا (غاستون) : ٦٢
- دوق — دوقية : ٢٨ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٧٣ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٧ ، ٢٥٥ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٧٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٩ ، ٣٣٣ ، ٣٤٩
- دو لامبير (مدام) : ٣١٧
- دولة (ايتين) : ١٩٢
- دو لويولا (اغناطيوس) : ١٦٨
- دو ليسبيناس : ٣١٧
- دو ماين (دوق) : ١٩٤
- دو مديتشه : انظر (مديتشه)
- دو مونتمرنسي (هنري) : ٢١٥
- دومنيكان : ١٠٢
- دو مولان (لوميتير) : ٤٠
- دو ناتيلو : ٣٠ ، ٤١
- دون كارلوس : ٣٤٨
- دنكرك — دنكرك : ٢٢٦ ، ٢٥٤ ، ٢٧٩
- الدنيبر (نهر) : ٢٦١
- الدون (نهر) : ٢٦١
- الدون (معركة) : ٢٧٧
- دون كيشوت (كتاب) : ١٨٣
- دو ويت (جان) : ٢٤٤ ، ٢٤٥
- دو يورك : انظر (يورك)
- دياز (بارتلمي) : ٥٥ ، ٨٦
- ديتابل (لوفيفر) : ١٦٣ ، ١٦٤
- ديدرو : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٣٣
- دير فايدن (فان) : ٣٩
- ديسو (جسر . معركة) : ٢٧١
- ديكارت : ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٣١٠ ، ٣١٣
- ديكاميون (كتاب) : ١٦ ، ٢١
- ديلفت (مدينة) : ٢٤٦

٢٤٤ - ٢٥٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ -
 ٢٦٩ ، ٢٧٥ ، ٢٩١ ، ٣٠٤ ،
 ٣١٣ - ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٦٠ ، ٣٧٣

- الدينارية (جبال الالب) : ١٣

- ديو : ٩٥

- ديوان التحقيق (محكمة التفتيش) :
 ١٠٢

- ديب : ١٠١

- دييت : ٤٧ ، ١٦١ ، ٢٦٧ ،
 ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ،
 ٣٣٣

- الديموغرافيا : ٢٠٢ ، ٢٧٦ ،
 ٣٠٦

- دين - ديني : ٩ ، ١٥ ، ١٧ ،
 ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٣١ - ٣٤ ،
 ٣٨ ، ٣٩ ، ٥٠ ، ٥٢ - ٥٥ ،
 ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ٨٥ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ -
 ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ،
 ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ،
 ١٤٩ - ١٥٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،
 ١٦٠ - ١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ،
 ١٧٥ ، ١٧٨ - ١٨١ ، ١٨٣ ،
 ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٩٠ - ١٩٣ ،
 ١٩٨ - ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢

- ٣ -

١٥٢ ، ١٨٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢٥٧ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ،
 ٣٤١ ، ٣٥٥ ، ٣٧٢

- اللرة : ٩٧ ، ١٠٤ ، ٣٠٢

- الذهب : ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٤ ،
 ٧٥ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٩ - ١٠٢ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١٤٧

- ٣ -

١٢٦ ، ١٥٦ ، ١٨٦ ، ٢٠٤ ،
 ٢٤٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٢٤ ،
 ٣٣١ ، ٣٤١

- الرأي العام : ٦٩ ، ١٧٢ ، ٢١٦ ،
 ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٣٤٣ ، ٣٥١

- رثونيون (جزر) : ٣٥٩

- رئيس الاساقفة : ٤٩ ، ١٥٦ ،

- الرأس الاخضر : ٥٥ ، ٦٥ ، ٨٥

- رأس الرجاء الصالح : ٧ ، ٥٥ ،
 ٥٦ ، ٧٣ . (رأس العواصف :
 ١٠٥ ، ٩١ ، ٨٦)

- راسمال - راسمالية : ٢٤ ، ٧٠ ،
 ٧١ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١١٧ ، ١١٩

- ٤٠٢ -

١٢٩ - ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
 ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ،
 ٢٣٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢
 - الرسم - رسوم (ضريبة) :
 ٤٦ ، ٥٧ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٢٢٨ ،
 ٢٣٠ ، ٢٣٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٨
 - الرسول محمد (ص) : ٩٦
 - رفائيل : ٦٨ ، ١٢٩ ، ١٣٥ -
 ١٣٧ ، ١٤٠
 - الرقة : ٧٧
 - رقم - أرقام : ٩٧ ، ١٢٠
 - رمني : ٣٥
 - رنودو (تيثو فراست) : ٢١٦
 - ره (جزيرة) : ٢١٥
 - روئي (صلح) : ٢١٩
 - روان : ٥٦
 - روبنز : ٢٠٧
 - روبيا (لو كاديل) : ٣٨
 - روتردام : ٢٤٣
 - روجر الثاني : ٨١
 - روح الشرائع (كتاب) : ٣١٤ ،
 ٣١٧
 - رودس (جزيرة) : ١٧٧
 - رودلف الثاني : ٢٦٨
 - روسباخ : ٣٥١

١٦٦ ، ٢٣٤ ، ٢٤٩ ، ٢٦٨ ،
 ٢٧٠
 - رابله : ٨ ، ١٥١ ، ١٥٤
 - رانسبون : ٢٧٣
 - رادزين (معاهدة) : ٢٨٦
 - الرازي (أبو بكر) : ٢٦٢
 - راسين : ٢٠٨ ، ٢٤٢
 - راشنات (صلح) : ٢٨٤
 - راغوزا : ٤٢
 - رافياك : ١٩٨
 - راله (والتر) : ١٨٧
 - رامبرانت : ٢٤٨
 - الريسلاوف : ٤٨
 - الراين - الرين (نهر - منطقة) :
 ١٣ ، ٢٧ ، ١٦٣ ، ١٩٩ ، ٢٥٩ ،
 ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،
 ٢٨٠ ، ٣٣٥ ، ٣٤٨ ، ٣٣٦
 - رجال الدين : ٢١ ، ٣١ ، ٤٧ ،
 ٦٢ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١١٥ ، ١٢١ ،
 ١٤٨ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ،
 ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ،
 ١٩١ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ،
 ٢٢٣ - ٢٣٥ ، ٢٣٨ - ٢٤١ ،
 ٢٦٢ ، ٣١٥ - ٣١٨ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٤ ، ٣٤٢ - ٣٤٤
 - رحلات غوليغر (كتاب) : ٣٢٨
 - رسالة في الهيئة (كتاب) : ٧٧
 - الرسم (فن) : ٣٨ - ٤١

- روسو : ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٨ —
- روسيا — سي : ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ١١ ، ١٩٩ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢٦١ — ٢٦٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ، ٣١٨ ، ٣٠٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٤ — ٣٥١ ، ٣٤٨
- روسيا البيضاء : ٣٥٣ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ —
- الروسيون (مقاطعة فرنسية) : ٥٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٧ —
- روشفور : ٢٢٧ —
- رولان الثائر (قصيدة) : ١٤٩ —
- روزيه (بيلاتردو) : ٣٠١ —
- الروكوكو (فن) : ٣٢١ —
- الروم (شراب) : ٢٥٧ ، ٢٩٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ —
- روما — نية : ٦ ، ٧ ، ٣٣ ، ٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ ، ١١٦ ، ١٢٦ — ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٦٠ ، ١٥٦ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٨٥ ، ٢٠٦ ، ٢٣٢ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ —
- الرومانتيكية : انظر (الابداعية) —
- رومانوف (آل) ، و (ميخائيل) : ١٩٩ ، ٢٦١ —
- رومانيا — ية : (رومانيا الحالية) : ١٠١ ، ١٠٠ ، ٩١ ، ٩٠ —
- ٢٣٨ ، ٦٢ —
- روميو وجولييت (مسرحية) : ١٨٨ —
- الرون (نهر) : ١٩ ، ٢٦ —
- رونسار : ١٥٠ —
- روهان (دوق) : ٢١٢ —
- رويتر : ٢٧٩ —
- ريثومور : ٣١٠ —
- الرياضيات (علم) : ٧٧ — ٧٩ ، ٨١ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٥٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٥٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣١١ —
- ريبرو (جو) : ٢٠٠ —
- ريتز (كاردينال) : ٢٢٠ —
- ريزويك (صلح) : ٢٨٢ ، ٢٦٣ —
- ريشليو : ٢٠٧ ، ٢١٣ — ٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٥٨ —
- ريفا : ٤٢ ، ٢٨٩ —
- ريفال (حق) : ٢٣٢ —
- الريف : ١٥ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ١٨٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٣٠٣ ، ٣٤٥ —
- الريف (المغرب) : ٤٢ —
- ريفال : ٤٢ —
- رينانيا : ٢٤ —
- ريكسداغ : ٣٣٠ —
- رينولدز : ٣٢٢ —
- رويودو جانيرو : ٩١ —
- ريودولا بلاتا : ٩١ ، ١٠٠ ، ١٠١ —

- ز -

الزجاج (صناعة) : ١١٠ ،	- زمبيل الجديدة : ٩٢
١٣٤ ، ١٨٦ ، ٣٠٣	- زنتا : ٢٨٧
الزراعة - مزارعون : ١٤ ، ١٧ ،	- زنجبار : ٨٦
٢٢ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٥ ، ٤٦ ،	- زنجبيل : ٧٤ ، ٩٢ ، ٩٥
٥١ - ٥٣ ، ٦٠ ، ٩٦ - ٩٩ ،	- الزنوج : ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٨٧ ،
١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٩ ، ١٢٦ ،	٢٣٠ ، ٣٥٩ ، ٣٦٧ ،
١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ،	- زورافنا (صلح) : ٢٨٦
٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٩ ،	- زواج فيغارو (اوبرا) : ٣٢٣
٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٤ ،	- زوريخ : ١٦٣
٢٤٥ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٧٦ ،	- زونغلي (اولريخ) : ٦٨ ، ١٦٣
٢٨٢ ، ٢٩٢ ، ٢٩٥ ، ٢٩٧ ،	- زيبانفو (اليابان) : ٨٨ ، ٨٩
٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٣٢٦ ،	- زيلاندة : ٢٤٥
٣٣١ ، ٣٣٥ - ٣٣٧ ، ٣٤١ ،	
٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢ ،	
- الزركلي (خير الدين) : ٧٧	

- س -

الساار : ٢٨١	- سان بارتلمي (مذبحه) : ١٨٠ ،
- ساراتوغا : ٣٧٠	١٨٩ ، ١٩٣
الساقا (نهر) : ٤٢	- سان بطرسبورغ : ٢٦٥ ، ٣٣٧
- ساقوا : ٦٠ ، ١٩٧ ، ٢٨٤ ،	- سان جرمان آن له (قصر) :
٣٥٠	٢١٩ - (معاهدة) : ٢٨٩
- ساقونا رولا : ٣٣ ، ١٥٥	- سان دومنغ : ٨٩ ، ٢٣١
- ساكسونيا : ٢٤ ، ٤٩ ، ١٥٩ ،	- سان دونير : ١٩٥
١٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣ ،	- سان سلفادور : ٨٩
٢٧٤ ، ٢٩٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ ،	- سان سوسي : ٣٢١
- سالرنو : ١٢٢ ، ١٢٧ ،	- سان سيران : ٢٣٣
- سامراء : ٧٧	- سان سيمون : ٢٣٥ ، ٢٣٧

- سان غوتار (معركة) : ٢٧٩ ، ٢٨٦
- سان كفتان : ١٧٦
- سان لوران : ٩٢ ، ٣٥٩
- سان لويس : ٢١٦
- سان مارس : ٢١٥
- سبالانو : ٤٢
- سبتة : ٨١ ، ٥٥
- سير (مجمع) : ١٦٢
- سبينوزا : ٢٠٩ ، ٢٤٧
- ستراسبورغ : ١٦٣ ، ١٦٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٣ ، ٢٩١
- سترافورد : ٢٤٩ ، ٢٥١
- سترلتسي (حرس القيصر) : ٢٦٤ ، ٢٦٣
- ستروينسي : ٣٣٠
- ستيريا : ٤٩
- ستيورات (آل) : ٤٥ ، ١٦٦ ، ٢٤٨ — وانظر (الاسم الاول)
- سخاو : ٧٩
- سر — الاسرار السبعة : انظر (اسرار)
- سردانيا : ٥٤
- سردينيا (جزيرة) : ٥١ ، ٦٠ ، ٢٨٤ ، ٣٢٢ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠
- سرفه (ميشيل) : ١٥٤
- سعر — اسعار : ١٠٤ ، ١٠٧
- سفورزا (آل) : ١٠٤ ، ١٠٧
- سقراط : ١٢٠
- سكاندينافيا — ية : ١٦ ، ١٨
- السكر : ٢٣٠ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٩٨ ، ٣٥٥
- سكوتلاندة : انظر (ايقوسيا)
- السكولاستيكية : ١٨٨
- سلا : ٥٤
- سلاف — ية : ٤٩ ، ٢٦١ ، ٣٥٢
- سلاقونيا : ٢٨٧
- السلطان : ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٠ ، ٣٤٩ ، ٣٥٤
- سليم الاول : ١٧٦
- سليمان باشا الخادم : ٩٥
- سليمان القانوني : ١٧٧
- سمالكاد (عصبة) : ١٧٥
- سمولنسك : ٢٦١
- سمولني (معهد) : ٣٣٨
- سميث (آدم) : ٣١٣

- السند (نهر) : ١١٩ —
- السنغال : ٦٤ ، ٦٥ ، ٢١٦ ، ٣٥٩ ، ٣٧٠ —
- سنغهاي (امبراطورية) : ٦٤ —
- سوبيز : ٢١٥ —
- سوبييسكي (جان) : ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ —
- سوتر (مستشرق) : ٧٨ —
- السودان : ٧٤ ، ١١٩ —
- سورات : ٣٦١ —
- سورية : ٦٢ ، ٧٤ انظر (الشام) ايضا —
- سورينام : ٢٤٦ ، ٣٥٨ —
- سوفالا : ٧٦ —
- سقطرة : ٧٤ ، ٩٥ —
- السولونيو (نهر) : ١٣٣ —
- سولي : ١٩٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٨ —
- السويد : ١٣ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ، ١٩٩ ، ٢٥٩ —
- ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ —
- ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٨ —
- ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣٢١ ، ٣٣٠ ، ٣٥٣ ، ٣٧٠ —
- السويس : ٧٦ ، (قناة السويس) ٨٧ ، ٩٥ —
- سويسرة : ٤٨ ، ٦٢ ، ١١٥ —
- ١٢٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٧٥ ، ٣٤٥ —
- سوفيت : ٣٢٧ —
- السياسة — سي : ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٨ —
- ٧٠ ، ٧٥ ، ٨٥ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ —
- (علم السياسة : ١٤٩ ، ١٥٤) —
- ١٥٦ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٧١ —
- ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٧ —
- ١٨٩ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ —
- ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ، ٢١١ —
- ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ —
- ٢٣٢ ، ٢٣٤ — ٢٣٧ ، ٢٤٠ —
- ٢٤٤ ، ٢٤٧ — ٢٤٩ ، ٢٥١ —
- ٢٥٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ —
- ٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٤ —
- ٣٠٦ ، ٣١٤ ، ٣١٧ ، ٣٢٤ —
- ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ —
- ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٦٢ —
- ٣٦٧ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ —
- سيباستبول : ٣٣٨ —
- سيبيريا : ٩٢ —
- سيبولد : ٨١ —
- السيدة ذات الثوب الازرق (لوحة) : ٢٤٨ —
- سيدى علي رئيس : ٩٥ —
- سيراكوز : ١٥٢ —

— سيلان : ٩٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧	— سرفانتس : ١٨٣ ، ٢٦٦
— سيلسيوس : ٢١٠	— سيسيل (ويليام) : ١٨٤ ، ١٨٦
— سيليزيا : ٢٧٧ ، ٣٠٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٢	— سيفين : ٢١٤ ، ٢٣٥
— السيم (علم) : ١٥٢	— سيفينييه (مدام دو) : ٢٤٢ ، ٢٤٣
— السيمفونية : ٣٢٢	— سيكستوس الرابع (البابا) : ١٢٩
— السيوطي : ٧٩	— السيكتين (كنيسة) : ١٢٨ ، ١٤٠
— سين : ١٢٧	

— ش —

— شارل التاسع (ملك فرنسا) : ١٨٩ ، ١٩٣	— شارتر : ١٢٨ ، ١٩٥
— شارل بوربون : ٣٣٢	— شارل الاول (ملك انكلترا) : ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
— شارل الجسور : ٤٩ ، ٥٨	— شارل الثاني (ملك انكلترا) : ٢٥٤ ، ٢٥٥
— شارلكان (شارل الخامس) : ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، ١٨٥ ، ١٩٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٢ ، ٣٧٣	— شارل الثاني (ملك اسبانيا) : ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣
— شارل الحادي عشر (ملك السويد) : ٢٨٩	— شارل الثالث (ملك اسبانيا) : ٣٣١
— شارل الثاني عشر (ملك السويد) : ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣٠٥ ، ٣٣٠	— شارل الخامس : انظر (شارلكان)
— شارل الثالث عشر (ملك السويد) : ٢٩٠	— شارل السادس : ٣٣٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩
— الشام (بلاد) : ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٢ ، ١٧٧ ، ١٨٨	— شارل السابع (ملك فرنسا) : ٢٦
	— شارل الثامن (ملك فرنسا) : ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٤٥ ، ١٨٨

- شامبلان (صاموئيل) : ٩٢
 - شامبور : ١٤٥
 - شاندرناغور : ٢٣١ ، ٣٦٠
 - الشاي : ٣٠٣ ، ٣٦١ ، ٣٦٨
 - شبه الجزيرة العربية : ٧ ، ٦٢ ،
 ٦٦ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١١٩
 - شتيتن : ٢٧٦
 - شقيتهاودر (حاكم هولاندة) :
 ٢٤٣
 - الشحاذ (لوحة) : ٢٠٧
 - الشرق الاقصى : ٢٥ ، ٦٥ ،
 ٨٥ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦١
 - شركة : ١٠٩ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٣ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٣٢٩ ،
 ٣٤١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ - ٣٦١ ،
 ٣٦٨ ، ٣٦٦
 - شركة الشمال : (فرنسية : ٢٣٠)
 (هولاندية : ٢٤٦)
 - شركة اللغات (الانكليزية :
 ١٠٩ ، ١٨٧) ، (الفرنسية :
 ٢٣٠) ، (الهولاندية : ٢٤٦)
 - شركة الهند الشرقية الانكليزية :
 ١٠٩ ، ١٨٧ ، ٢٥٧ ، ٣٦١ ،

— شامبور : ۱۴۵

—شاندرناغور : ۲۳۱ ، ۳۶۰

— الشاي : ٣.٣ ، ٣.٦١ ، ٣.٦٨

— شبه الجزيرة العربية : ٦٢، ٧،
١١٩، ٩٥، ٩٤، ٦٦

— شتیتن : ۲۷۶

- شقیتهاودر (حاکم هولانده) :
۲۴۳

٢٠٧ : (لوحة)

— الشرق الأقصى : ٢٥ ، ٦٥ ،
٨٥ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦١

— شركة : ١.٩ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ،
 ٢.٣ ، ٢١٦ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ،
 ٢٣٦ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٢٢٩ ،
 ٣٤١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ — ٣٦١ ،
 ٣٦٦ ، ٣٦٨

— شركة الشمال : (فرنسية : ٢٣٠)
(هولندية : ٢٤٦)

- شركة الليغات (الانكليزية :
1.9 ، 187) ، (الفرنسية :
23.) ، (الهولندية : 26)
: شركة

— شركة الهند الشرقية الانكليزية :
١٠٩ ، ١٨٧ ، ٢٥٧ ، ٣٦١ ،

274

— شركة الهند الشرقية الفرنسية :
٢٣٠ ، (الهولندية : ٢٤٦ ،
٣٥٧

— شركة الهند الغربية : (فرنسية :
٢٣٠) ، (هولندية : ٢٤٦ ،
(٣٥٨)

— الشركة الهولندية الشرقية
المتحدة : ١.٩

— الشریف الادریسی : ۱۲۲

— شفیقہ : ۳۲۶

۲۶۶ : ۱۸۸ - شکسیر

۳۲۱ - شلاسه‌هایم :

— شلزونك : ۲۹۰

— الشمال (بحر) : ١٢ ، ١٣ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٢٣. ، ٢٤٥ ، ٢٩٨ ، ٣٣.

شمالانيا (مقاطعة فرنسية) :
١٧٤ ٦ ٢٧ ٦ ١٥

٧١ - الشوغونية :

— الشومبي : ١٨

— شیشین — ایتر: ۱۷

۱.۱: شیلی

١٧ ، ١٨ ، ٢٢ - ٢٤ ، ٢٦ ،	- الصابئة : ٧٧
٢٧ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٥٢ ،	- صاحب المعاش (في هولاندة) :
٥٣ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧١ ، ٨٢ ،	٢٤٣
١٠٥ ، ١٠٩ - ١١١ ، ١٢٤ ،	- صافي (ميناء مغربي) : ٥٦
١٣٤ ، ١٥٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،	- الصالونات الادبية : ٣١٧ ، ٣٢٠
١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٩٢ ،	- الصحافة : ٢٤٨ ، ٢٥٨ ، ٢٨٠ ،
١٩٧ ، ٢٠٢ - ٢٠٤ ، ٢٢٩ ،	٢٩١ ، ٣١٦ (صحيفة باريس :
٢٣٠ ، ٢٣٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،	٣١٦) (صحيفة العلماء :
٢٥٠ ، ٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ،	٣١٦ (٢٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٦٨ ،
٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ،	٣٧١
٣٠٠ - ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ،	- الصرب - صربيا : ٢٤٠ ، ٦٣ ،
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ،	٣٤٩ ، ٣٥٣
٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣١ -	- صفاقس : ٥٤
٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧٢	- الصفويون : ٧١ ، ١٠٥ ، ٢٨٥
- الصواب : ٤٩ ، ١٦٢	- صقلية : ٥١ ، ٦٠ ، ٨١ ، ١١٩ ،
- الصوربون (جامعة) : ٣٤ ،	١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٥٢ ، ١٧٧ ،
١٤٨ ، ٢٠٧	٢٨٤ ، ٣٤٦ ، ٣٤٩
- الصوف : ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ،	- سك الاختبار : ٢٥٥
٢٦ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٦ ، ١٨١ ،	- السك الذهبي : ٤٩
٢٠٣ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ، ٣٣٨	- سك الغفران : ١٥٨ ، ١٦٠
- صوفيا (الاميرة) : ٢٦٣	- صلح : انظر (اسم الصلح)
- الصين : ٣٤ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٧٤ ،	- الصناعة - صناع : ١٤ ، ١٥ ،
٧٦ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١١٤ ،	
٢٤٦ ، ٣٥٦ ، ٣٦١	

- ف -

٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٩ ،	ضريبة - ضرائب : ١٦ ، ١٧ ،
٢٥١ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٨٥ ،	٢٠ ، ٤٦ ، ٥٧ ، ١١٣ ، ١٥٦ ،
٣٠٧ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ،	١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ،
٣٣٩ - ٣٤٣ ، ٣٦٨ ،	٢٠٣ - ٢٠٥ ، ٢١٦ - ٢١٩ ،

- ط -

طرابلس : ٧٤ -	الطاعون : ١٦ ، ٢٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
طرابلس الغرب : ٥٤ ، ٦٤ ، ٧٦ -	١٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٩٨ ،
طليطلة : ٥٢ ، ١٢١ ، ١٨١ -	الطب : ٥٢ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،
طنجة : ٥٥ -	١٥٢ - ١٥٤ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ،
طوسكانا : ٣١ ، ٢٢٢ ، ٢٤٩ -	٢١٦ ، ٢٤٠ ، ٢٩٧ ، ٣١١ ،
الطوسي : ٧٨ -	٣١٢ ،
طوقان (قدري حافظ) : ٧٨ -	الطباعة : ٣٣ ، ٣٤ ، ٥٦ ، ٨٢ ،
طولون (ميناء) : ٢١٦ ، ٢٢٦ ،	١١١ ، ١١٢ ، ١٢٧ ، ١٤٨ ،
٢٢٧	١٥٠ ، ١٥٧ ، ١٩٢ ،
	طرابزون : ٧٤ -

- ظ -

لا مادة فيها

- ع -

العبرية (اللغة) : ٣٣ ، ١٢٦ ،	عالي - العالية : ١٥ ، ١٧٢ ،
١٤٨	١٧٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٨ ، ٢٦٧ ،
عثمان - العثمانيون : ٧ ، ١٠ ،	٢٧٢ ،
١٩ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٥١ ،	عباس بن فرناس : ١٣٤ -
٥٣ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ،	عباسي - ية : ٨٠ -
٦٦ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠٥ ،	عبد - عبودية (رق) : ٢٥ ،
١٠٧ ، ١٢٧ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ،	١٠٢ ، ٩٧ ، ٩٦ ، ٨٠ ، ٦٥ ،
١٩٨ - ٢٠٠ ، ٢٣٠ ، ٢٦١ ،	١٠٣ ، ١٨٧ ، ٢٣٠ ، ٢٤٦ ،
٢٦٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ،	٢٩٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٢ ، ٢٥٧ ،
٣٣٢ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٩ ،	٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ،
٣٥٢ - ٣٥٤ ،	٣٦٧ ،
عندل (اماره) : ٩٦ -	عبد الرحمن الثاني : ١٣٤ -
العدالة (فريسكة) : ١٣٥ -	عبد الواد (بنو) : (الدولة
عدن : ٩٥ -	عبد الواد (بنو) : (الدولة
	الزيانية) : ١٥٤ -

- ٢٤٢ ، ٢٠٨ ، ١٢٨
العصور الوسطى : ٥ - ١٤ ، ٩
١٨ - ٣٤ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٥١
٧٠ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١١٠ -
١١٩ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٧
١٤٦ - ١٥٠ ، ١٥٣ ، ١٥٥
١٦٨ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٩١
١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢٦٢
٢٧٢ ، ٢٩٤ ، ٣٢٣ ، ٣٧٢
٣٧٣
عطيل (مسرحية) : ١٨٨
عكا : ٧٤ ، ٧٩
علم - عالم : ٩ ، ١٠ ، ٣٣
٣٤ ، ٥٢ ، ٦٥ ، ٧٣ ، ٧٦ -
٧٩ ، ٨٢ ، ٩٢ ، ١١٤ - ١٢٣
١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣١
١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢
١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٨٨ ، ١٩٨
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٠٨ - ٣١٢
٣١٧ ، ٣٢٩ ، ٣٧٣
العمارة (فن) : ٣٥ ، ١٢٨
١٢٩ ، ١٤٠ - ١٤٢ ، ١٤٦
١٤٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢
٣٢٢ ، ٣٢١
عامل - العمال : ١٨ ، ٢٣
٥٩ ، ٧١ ، ١١٢ ، ١٨٦ ، ١٩٢
٢٠٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٥
٣٠٣ ، ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٣٦٨
عمان : ٩٥
- العدراء (مريم) : ١٨ ، ٣٩
٤٠ ، ١٢٢ ، ١٣٣ ، ١٦١
١٦٩
العدراء عند الصخور (لوحة) :
١٣٧ ، ١٣٢
عداء الكاهن (لوحة) : ٤٠
العدراء وطفلها (تمثال) : ١٣٨
العراق : ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٥
٩٦ ، ١٠٥ ، ١١٩
العرب - عربي : ٦ ، ٧ ، ١٠
١٧ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٤ ، ٣٥
٥١ - ٥٥ ، ٦٤ ، ٧٤ ، ٧٥
٧٧ ، ٧٩ - ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧
٩٠ ، ٩٣ - ٩٥ ، ١٠٥ - ١٠٨
١١١ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٩
١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦
١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤٧ ، ١٥٢
١٥٤ ، ١٧٨ ، ٢١٠
العشاء الرباني الاخير (فريسة) :
١٣٣
عصبة : انظر (اسم العصبة)
عصر الأنوار : ٢٠٩ ، ٢٩٢
٣٤٧
عصر الثورات : ٢٩٤ ، ٣٧١
عصر الحديث : ٥ ، ٧ ، ١٠
١١ ، ١٤ ، ٢٢ ، ٤٢ ، ٥٨
٢٩٤ ، ٣٧٢
العصور الحديثة : ٥ ، ٧ ، ٨
٤٨ ، ١٧٣
العصور القديمة : ٧ ، ٩ ، ١١٧

- غ -

- غاتيموق : ١٠٠
غارغاتوا (كتاب) : ١٥١
الغازيت (صحيفة) : ٢١٦
غاسكونيا : ١٧

- الغال (ويلز) : ٤٥
 - غالفاني : ٣١٠
 - غاليسيا : ٣٥٣
 - غاليله : ٦٧ - ٦٩ ، ١٥٣ ، ٢٠٩
 - غاليفاي (ليثونوره) : ٢١٢
 - الغاليكانية : ٢٣٢
 - الغانج (نهر) : ٣٦٠
 - غاند : ١٨ ، ٢٤٦
 - غاو : ٦٤
 - غدانسك (دانزيغ) : ٥٠
 - غرناطة : ٦ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٥٢
 - ٨٩ ، ١١٩ ، ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٤٧ ، ١٧٨
 - غروثلاند : ٤٦
 - غريشام (توماس) : ١١٦
 - غره (العالم) : ٣١١
 - الغزالي (الفيلسوف) : ١٢١
 - غلطة : ٣٥٤
 - الغنم (تربية) : ٢٢ ، ٤٦ ، ٤٧
 - ٥١ ، ١٠٤ ، ١٨٢
 - غونا : ٩٤ ، ٩٦ ، ٣٥٦
 - غوادلوب : ٢١٦ ، ٢٣١ ، ٤٥٩
 - غوبلن : ٢٢٩
 - غوتلاند (جزيرة) : ٤٦
 - غوتنبرغ (يوحنا) : ٣٤
 - غوته : ٣١٨
 - غوجون (جان) : ١٤٦
 - غورنه : ٣١٢
 - غوستاف آدولف : ٢٧٣ ، ٢٧٤
 - غوستاف الثالث : ٣٣٠
 - الغوطي : (الفن) : ٣٤ - ٣٦ ، ١٢٨ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٦
 - غوندي (بول دو) : ٢١٩ ، ٢٢٠
 - غويا : ٣٢٢
 - غويانا : ٢٤٦
 - غويين : ٢١٩
 - غونزالف القرطبي : ١٧٢
 - غيز (آل دو) : ١٨١ ، ١٩٠ ، ١٩٢ - ١٩٤
 - غيز (فرانسو دو) : ١٩٢
 - غيز (هنري دو) : ١٩٠ ، ١٩٤
 - غيشاردان : ١٤٩
 - غينيا : ٦٤ ، ٩٦

- الكوك : ٣٠٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧
- فحم الخشب : ٢٤ ، ١٨٦ ، ٣٠٠
- فرانسوا الاول : ٦٢ ، ١١٠ ،
- ١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٢ ،
- ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،
- ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٥ -
- ١٨٤ ، ١٨٩ - ١٩٢
- فرانسوا الاول (الامبراطور) ،
- (فرانسوا دولورين) : ٣٥٠
- فرانسوا الثاني : ١٨٩
- فرانش كونته : ٤٩ ، ١٧٨ ،
- ٢٨١ ، ٢٧٨
- فرانكفورت : ٢٧
- فرانكلين (بنجامين) : ٣١١ ،
- ٣٦٩
- فرجينيا - (فيرجينيا) ١٨٧ ،
- ٣٦٧ ، ٣٦٩
- فرتير : ٣١٧ ، ٣١٨
- فردان : ١٧٥ ، ١٧٦
- فردريك (فيردريك) الثالث
- الامبراطور : ٤٩
- فردريك الاول (بروسيا) : ٢٦٠
- فردريك الثاني الاكبر (بروسيا) :
- ٢٦٠ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ،
- ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ - ٣٢٨ ،
- ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣
- فردريك الخامس (ملك بوهيميا) :
- ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٥
- الفاتيكان : ١٢٩ ، ١٣٥
- الفارس (لوحة) : ١٤٧
- 'يفارس (بلاد) - الفرس : ٦٣ ،
- ١١٩ ، ١٧٦
- فارنيز : ١٧٩
- فازا (آل) : ٤٧ ، انظر
- (غوستاف)
- فاس : ٥٤
- فاسفار (صلح) : ٢٨٦
- فاسكو دوغاما : ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٤ ،
- فلاشيا - فلاشيا : ٢٨٨ ، ٣٤٩ ،
- ٣٥٣ ، ٣٥٤
- فالنسيا : ١٤٧
- فالنشتين : ٢٧١ ، ٢٧٢
- فالوا (آل) : ٤٧ ، ١٧٣ ، ١٧٤
- فاهرنهايت : ٣١٠
- فان ارتفيلد (جاك) : ١٨ ،
- فان ارتفيلد (فيليب) : ١٨
- فان ايك : ٤٠ ، ١٨٨
- فان ديرفايدن : ٤٠
- فتروفيوس : ١٢٩
- فتمبرغ : ١٥٩ ، ١٦١
- فحم الارض (الحجري) : ٢٤ ،
- ١١٠ ، ١٨٦

- فردريك (فريدريك) ويليام : ٢٥٩
- فردريك ويليام الاول : ٢٦٠ ، ٣٣٥
- فردن : ٢٧٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠
- فردينان داراغون : ٤٢ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٨
- فردينان دوهامسبورغ : ١٧٦ ، ٢٦٨
- فردينان الثاني : ٢٦٩ — ٢٧٤ ، ٣٧٣
- فردينان الثالث : ٢٧٧
- فرساي (قصر) : ٢٠٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٣١٩ (معاهدة فرساي : ٣٧٠)
- فرقان (معاهدة) : ١٩٧
- الفرغاني : ٧٧
- فرنسا — فرنسي : ٨ ، ١٥ ، ١٦ — ٢٠ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ١١٥ ، ١١٨ — ١٢١ ، ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٥ — ١٥١ ، ١٣٤ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٥٤ ، ١٦٣ ، ١٧٦ ، ١٧٩ — ١٨٩ ، ١٨٨ ، ١٨٤ ، ٢٠٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٠ — ٢١٨ ، ٢١٦ ، ٢١٤ ، ٢١٠ ، ٢٢٦ — ٢٣٨ ، ٢٤١ ، ٢٢٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٢
- ٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٧٢ — ٢٨٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠١ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ — ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ — ٣٢٣ ، ٣٤٨ ، ٣٥٣ — ٣٥٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٤
- الفرنسيين : ١٧٠
- الفروندي (حروب) : ٢١٩
- ٢٢٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٧٧
- فروندي الامراء : ٢١٩
- فروندي البارلمان : ٢١٩ ، ٢٢٠
- فريسة : ٤٠ ، ٤١ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠
- الفضة : ١٧ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٧٤ ، ٩٤ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٩٩ ، ٣١٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٥ ، ٣٧٢
- فكرة — ية : ٥ ، ٧ — ٩ ، ١٤ ، ١٥ ، ٢١ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٩٤ ، ١١٣ — ١١٥ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ — ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٠ — ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٨٩

٨١ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٣٤ ، ٣.٨ ،
٣١.

— الفلمنك : الفلامان : ٥٩ ، ١١٠ ،
١٢٩ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ٢.٧

— فلورنسة (فيرنزا) : ٧ ، ١٧ ،
١٨ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣٣ ، ٣٥ ،
٣٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٩٠ ، ١.٦ ،

١١١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٥ — ١٣٧ ، ١٤٠ ،
١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٥ ، ٣٢١

— فلوري : ٣٤١ ، ٣٤٢

— فلوريدا : ٣٦٦ ، ٣٧٠

— فن — فني : ٥ ، ٧ ، ١٤ ، ١٨ ،

٢٠ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٣٨ — ٤٢ ، ٦٠ ، ٦٨ ، ٧٠ ،

٧٢ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ١١٦ — ١١٨ ،

١٢٢ ، ١٢٤ — ١٣١ ، ١٣٤ —

١٣٦ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

(الفن الطرائقي — التصني :

١٤٤ ، ١٤٥) ، ١٥٣ ، ١٧٩ ،

١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ،

٢٠١ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢١١ ،

٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٧٨ ،

٣٠٦ ، ٣١٨ — ٣٢٣ ، ٣٣٥ ،

٣٣٦ ، ٣٦٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣

— فنلندة : ١٣ ، ٤٢ ، ١٩٩ ،

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٠

— الفهرست (لجنة) : ١٦٩

— قوبان : ٢٧٨

— فوربيشر : ١٨٦

١٩٧ — ١٩٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٨ ،

٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣ ،

٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ،

٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ،

٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، ٣١١ —

٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ —

٣٣١ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ،

٣٦٧ ، ٣٧١ — ٣٧٣

— فلاح — فلاحون : ١٦ ، ١٧ ،

٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٤٥ ،

٤٧ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٢ ،

١٠٤ ، ١١٠ ، ١١٣ ، ١٦٢ ،

١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ٢٠٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٨ ،

٢٣٦ — ٢٣٩ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ،

٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٩٧ ، ٣٠١ ،

٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٨ ،

٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٣ — ٣٣٦ ،

٣٣٨ ، ٣٦١

— الفلاندر : ١٦ — ١٨ ، ٢٢ ،

٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٥٩ ،

١٧٤ ، ١٧٥

— فلسطين : ١٥٤

— فلسفة — فيلسوف : ٩ ، ١٥ ،

٣٣ — ٣٥ ، ٧٩ ، ١١٥ — ١١٧ ،

١٢٠ — ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ،

١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٥١ ،

١٨٨ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢٤٧ ،

٢٦٠ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ،

٣١٩ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ —

٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٧١ ،

٣٧٣ ، ٣٧٤

— الفلك (علم) : ١٨ ، ٧٧ — ٧٩ ،

- فورنو : ٦١
 - فورموزا : ٣٥٧
 - فوغر (آل) : ٢٤ ، ١٠٦ ، ١٦٠
 - فوكة (جان) : ٤٠
 - نيقولا : ٢٢٧
 - فوكلوز (جبال) : ١٩٢
 - فولتون : ٣٠١
 - فولطا : ٣١٠
 - فولتير : ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
 - الفولفا (نهر) : ١٤ ، ٢٦٥ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧
 - فونتينبلو (قصر) : ١٤٥ ، ١٨٩
 - فيتشينو : ١٥١
 - فيدور (رومانوف) : ٢٦١
 - فيران (غابرييل) : ٨٦
 - فيربلين : ٢٦٠ ، ٢٨١ ، ٢٩٠
 - فيروشيرو : ١٣١
 - فيزال : ١٥٤
 - الفيزياء (علم) : ٢٠٩ ، ٢٤٧ ، ٣١٠ ، ٣٠٨
 - الفيزيوقراطيون : ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٣٦ ، ٣٤٤
 - الفيستولا (نهر) : ٢٥٨
 - فيسبوشي (امريكو دو) : ٩٠
 - فيسبي : ٢٦ ، ٤٦
 - فيسكونتي (آل) : ٣٥ ، ٦٠ ، ٦١
 - فيشر : ٧٤
 - فيفا (لوب دو) : ٢٠٧
 - الفيكينغ : ٤٦
 - فيلادلفيا : ٣٦٧ - ٣٦٩ ، ٣٧٠
 - فيلار (المارشال دو) : ٢٣٦
 - فيلر كوتوره (مرسوم) : ١٩١
 - فيلنوف (ميشيل دو) (سرقه) : ١٥٤
 - فيليب الثاني : ٦٧ ، ١٥٤ ، ١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٤
 - فيليب الثالث : ٢٦٩
 - فيليب الرابع : ٢٧٢ ، ٢٧٤ ، ٢٨٠
 - فيليب الخامس : ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٣٣١ ، ٣٤٨
 - فيليب دورلثان : ٣٤٠
 - فيليب لوبو : ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٩
 - فيليب لوبون : ٤٨ ، ٥٨
 - الفيليبين (جزر) : ٩١ ، ٩٦ ، ١٠٢ ، ١٧٨
 - فينا : ٣٢ ، ٥١ ، ٦٩ ، ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٧
 - فينلون : ٢٣٧
 - فينوس : ٤١ ، ١٤٢ ، ٢٧٤

- ق -

- | | |
|---------------------------------|-------------------------------------|
| - قصر : ١٧ ، ٣٥ ، ١٠١ ، ١١٣ ، | - قادس : ٢٦ ، ١٠٢ |
| ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، | - القاهرة : ٧٨ |
| ١٤٢ ، ١٤٥ - ١٤٧ ، ١٦٠ ، | - قبرص : ٦٠ ، ١٧٧ |
| ١٦١ ، ١٧٨ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، | - قبلاي خان : ٧٤ |
| ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٦٨ ، ٣١٩ - | - القبيل الذهبي : ٤٢ |
| ٣٢٢ ، ٣٣٠ | - قدرى حافظ طوقان : ٧٨ |
| - قصص كانتربيري (كتاب) : ٢١ | - القدس : ٥٨ ، ٦٠ ، ٨٠ ، ٨٩ ، |
| - القطن : ٢٣ ، ٢٥ ، ٨٩ ، ٩٦ ، | ١٨٨ |
| ١١١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، | - القدس المختصة (كتاب) : ١٤٩ |
| ٣٢٦ ، ٣٦١ ، ٣٦٧ | - القديسة انا والعذراء (لوحة) : |
| - القمح : ٢٢ ، ٢٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، | ١٣٢ |
| ١٠٩ ، ١٨٢ ، ٢٣٨ ، ٣٠٢ | - القرصنة : ٥٤ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، |
| - فن - قنانة : ١٦ ، ٤٧ ، ١٠٢ ، | ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢٣١ ، ٣٠٤ ، |
| ٢٦٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣٣٠ ، | ٣٥٥ |
| ٣٣٣ - ٣٣٨ ، ٣٣٥ | - قرطاجنة الجديدة : ١٠٢ |
| - قناة السويس : ٨٧ | - قرطبة - ي : ٧٨ ، ٨١ ، ١٢٠ ، |
| - قناريا (جزر) : ٨٩ | ١٢١ ، ١٣٤ ، ١٧٢ |
| - القهوة : ٢٩٨ ، ٣٠٤ | - القرم (شبه جزيرة) : ١٣ ، |
| - القوانين (كتاب) : ١٢٠ | ٣٥٤ ، ١٦ |
| - القوزاق : ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٣٨ | - قره مصطفى : ٢٨٧ |
| - القوقاز - القفقاس : ١٣ | - قزوين (بحر) : ١٢ ، ١٣ |
| - قومي - ية : ١٩ - ٢١ ، ٣٢ ، | - قسطنطين (حفيد كاترين الثانية) : |
| ٤٣ ، ٤٥ - ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٢ ، | ٣٥٤ |
| ٥٨ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٧٢ ، | - قسطنطين الافريقي : ١٢٢ |
| ٧٥ ، ٨٥ ، ١١١ ، ١١٧ ، ١١٨ ، | - القسطنطينية : ٧ ، ٣٤ ، ٦٠ ، |
| ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، | ٦٣ ، ٧٤ ، ٨٥ ، ١٢٧ ، ١٩٩ ، |
| ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٧٢ ، | ٢٨٥ |
| ١٧٧ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٤ ، | - فستالة : ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٩ ، ٤٩ ، |
| ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، | ٥١ - ٥٣ ، ٥٩ ، ٨٢ ، ٨٨ - |
| ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٢٩٢ ، ٣١٨ ، | ٩٠ ، ٩٩ ، ١٨٤ |
| ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٢ ، | - قصب السكر : ٥٥ ، ٩٦ ، |
| ٣٣٣ ، ٣٧٢ | ١٠٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٥٩ ، |
| - قيصر (روسيا) : ٢٦١ ، ٢٦٢ | ٣٦١ |

- الكابة (لوحة) : ١٤٧ —
الكاب : ٢٤٦ ، ٢٥٧ ،
الكابالية : ٢٢ —
كابرال (الفاريز) : ٨٧ —
كابوت (جان ، وسيباستيان) : ٩٢ —
كانالونيا : ١٦ ، ١٨ ، ٢٦ ، ٢٧٤ ، ٣٣١ —
كاندراية : ٣٥ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ١٢٨ ، ١٠١ —
كاترين الثانية : ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ — ٣٣٩ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ —
كاترين داراغون : ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٨٥ —
كاترين دو مديتش : ١٨٩ ، ١٩٢ ، ١٩٤ ، ٢١٢ —
كاتوكامبريزيس (معاهدة) : ١٧٦ ، ١٩٢ —
كانه (خطاي) : ٨٨ —
الكاثوليك : ١٩ ، ٥٢ ، ٧٢ ، ٦٩ ، ٦٧ ، ٥٣ ، ٦١ ، ١٥٦ ، ١٦٤ ، ٨٩ ، ١٠١ ، ١٧٦ ، ١٧٠ — ١٦٧ ، ١٩٠ ، ١٨٥ ، ١٧٨ — ١٨٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ، ٢٣٣ — ٢١٧ ، ٢٤٩ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٥ —
٢٥١ — ٢٥٧ ، ٢٦٦ — ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٨٢ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ —
كاد (جاك) : ١٦ —
الكاريات (جبال) : ١٣ —
كارترايت : ٣٠٠ —
الكارتيزية (ديكارت) : ٣٧٣ —
كارنيه (جاك) : ٩٢ —
الكاردينال — الكرادلة : ٢٠ ، ٣٠ ، ١٥٦ ، ١٥٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ —
كارنتيا : ٤٩ —
الكارنيول : ٤٩ —
كارلوتز (معاهدة) : ٢٨٨ ، ٢٨٩ —
الكارولنجية : ٣٤ —
الكاريني (بحر) : ٣٦١ ، ٣٦٤ —
كافليه (جان) : ٢٣٦ —
كائنديش : ١٨٧ —
كالفن الكالفنية : ٦٨ ، ١٠٦ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ ، ١٦٣ — ١٦٧ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٥١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٥ —
كالكونا : ٣٦٥ —
كاللر : ٤٧ —
كاله : ١٢ ، ١٩ ، ٧٦ ، ١٧٦ —

٢٨٨	— كالون : ٣٤٤
— كريستيان الرابع : ٢٧١	— كاليفورنيا : ١٠١
— الكريمونى (جزار) : ١٢١	— كاليكوت : ٨٧ ، ٩٤
— كسافيه (فرانسوا) : ٩٦ ،	— كامبره (عصبة وصلح) : ٦٢ ،
١٦٨	١٧٥
— كشفر : ٧٤	— كانت (الفيلسوف) : ٣١٥
— الكشوف الجغرافية : ٩ ، ٥٥ ،	— كاتربري : ٣١ ، ٣٥ ، ١٦٦ ،
٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨١ ، ٨٤ ،	٢٤٩ ، ٢٥١
٨٨ ، ٩٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ،	— كاتون : ٩٤
١١١ — ١١٤ ، ١٢٢ ، ٣٧٢ ،	— كندية : ٢٨٦
٣٧٣	— كانغو موسى : ٦٤
— الكلاسيكية (التقليدية) : ٣٤ ،	— كبلر — كيبلر : ١٥٣ ، ٢٠٩
٦٩ ، ٢٠٦ — ٢٠٨ ، ٢٤١ —	— الكتاب المقدس (الانجيل والتوراة) :
٢٤٣ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، (الجديدة :	٢٠ ، ٣١ ، ٣٤ ، ١١٦ ، ١٢٨ ،
٣٢٢)	١٥٠ ، ١٥٧ — ١٥٩ ، ١٦١ ،
— كلايف : ٣٦٥	١٦٢ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢
— كلو (قصر) : ١٣٤	— الكتلة المركزية (جبال) : ٢٣٥
— كلوة : ٩٤	— كجرات : ٩٥ ، ٩٦
— الكليات (كتاب) : ١٢١	— كراكوفيا : ٣٢ ، ٥٠ ، ١٥٣
— كلية فرنسا : ١٢٦ ، ١٤٨	— كرمان : ٧٤
— كلية اللغات الثلاث : ١٤٨	— الكرملين (قصر) : ٤٢ ، ١٧٠ ،
— كليف : ٢٥٩	٢٦٢
— كليمان (جاك) : ١٩٠ ، ١٩٤	— كرواتيا : ٢٨٧
— كليمان الخامس : (البابا) : ١٩	— كرومتون : ٣٠٠
— كليمان السابع (البابا) : ٢٠ ،	— كرومويل (أوليفيه وريشار) :
١٤٠	٢٥٢ — ٢٥٤ ، ٢٧٧ ، ٢٩١
— كندا : ٩٢ ، ٢١٦ ، ٢٣١ ،	— كريت : ١١٩ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،

- ٢٥٧ ، ٣٠٤ ، ٣٥٠ - ٣٥٢ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ - ٣٦٦ ، ٣٦٨
 - الكنيسة : ٦ ، ١٥ ، ١٩ - ٢١ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ١١٣ - ١١٦ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ٢٣١ - ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٤ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ - ٢٦٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٨ (الطرائقية) ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٧ ، ٣٥٤
 - كه (جون) : ٢٩٩
 الكواترو شنتو : ٤٠ ، ١١٨ ، ١٣٠
 - كوامبره : ٢٠٠
 - كوبا : ٨٩
 - كوبرلي (آل) : ٢٨٦ ، ٢٨٧
 - كوبرنيك ، كوبرنيكوس : ٨ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٧ ، ١٥٣ ، ٢٠٩
 - كوبنهاغن : ٣٢ ، ١٩٩
 - كوت (روبردو) : ٣٢١
 - كور (جاك) : ٢٦
 - كوراشاو : ٢٤٦ ، ٣٥٨
 - كورانس : ٢٠٧
 - كورتيز (فرنان) : ٩٩
 - كورقان (ماتياس) : ٥٠
 - كورومانديل : ٣٦٥
 - كورنشا : ٢٨٧ ، ٢٨٨
 - كورني : ٢٠٧
 - كورونادو : ١٠١
 - كورونيليا : ١٧٢
 - كوري (مدام) : ٢٠٩
 - كوزكو : ٩٨ ، ١٠٠
 - كوستر : ٣٤
 - كوسوفو : ٦٣
 - كوشوك قينارجة (معاهدة) : ٣٥٤
 - كوفيلهام : ٧٦
 - كولبر - الكولبيرتية : ١١١ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ - ٢٣١ ، ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٩١ ، ٣٥٨
 - كولورادو (وادي) : ١٠١
 - كولومب (كريستوف) : ٦ ، ٥٤ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٨٤ ، ٨٧
 - كولومب (العالم) : ٣١٠
 - كولونيا : ٤٩ ، ٢٧٠
 - كوليني : ١٩٢ - ١٩٤
 - الكوميديا الالهية (كتاب) : ٣١
 - كونت (اوغست) : ٢٠٩
 - كونده : ١٩٢ ، ٢١٣ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٧٨
 - كونشيني : ٢١٢ ، ٢١٣
 - الكونفرس : ٣٧٠
 - الكونفو (نهر) : ٦٥ ، ٨٥
 - الكونيتابل دوبربون : ١٧٩

الكيمياء (علم) : ١٥٣ ، ٣١١

كينه : ٣١٢

كيف : ٢٦١

كويك : ٣٥٩ ، ٣٦٥

كيتزالكوتل : ٩٩

الكيشوا : ٩٨

- ل -

لاميستنا : ٢٣

٢١٦

لانغدوق : ١٦ ، ١٨ ، ٢١٥ ،

٢١٦

لانكاستر (آل) : ٤٤

لاهائي : ٢٤٣ ، ٢٨٣

لايدن : ٢٤٦ ، ٢٤٧

لشبونة : ٢٦ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٣ ،

٩٦ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١١ ،

١٨٠ ، ٣٥٦

اللفة : انظر صفتها

لكسنفتون : ٣٦٨

لندن : ١٦ ، ٢٦ ، ٩٣ ، ١٨٦ ،

١٨٧ ، ٢٥٣ - ٢٥٦ ، ٢٥٨ ،

٢٧٩ ، ٢٩٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩ ،

٣١١ ، ٣٢٦ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ،

٣٦٩

لو (جون) : ٣٤٠ ، ٣٤١

اللوار (نهر) : ١٤٥ ، ١٨٩

لوبران : ٢٤١ ، ٢٤٣

لوبرنان : ٢٠٦

لوبلون : ٣٢٠

لابرادور : ٩٢

لابروير : ٢٤٢ ، ٢٤٣

لابلاس : ٣١٠

لابونيا : ٣١٠

لاتيني - ية : ٣٢ ، ٣٤ ، ٧٧ -

٧٩ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،

١١١ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ -

١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٨ -

١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ،

١٦٩ ، ١٩١ ، ٣١٨

لاروشيل : ٢١٥

لازار : ٣٩

لاس كازاس : ١٠٢

لاسال (كافليه دو) : ٢٣١

لاغرانيج : ٣١٠

لافايك : ٣٤٧ ، ٣٦٩

لافوازيه : ٣٠٥ ، ٣٠٩ ، ٣١١

لافونتبن : ٢٠٨ ، ٢٤٣

لامارك : ٣١١

لامبير (مدام دو) : ٣١٧

لاميرا ندول (بيك دو) : ٣٣٠

لوبيون (غوستاف) : : ٧٨ ، ١١٩	الوكسمبورغ : ٢٠٧ ، ٢٨١
لوبيك : ٢٥ ، ١٩٩ ، (معاهدة : ٢٧١ ، ٢٧٢)	لولاردز : ١٦ ، ٢٠
لوتاسو : ١٤٩	لولي : ٢٤٢
لوتر (مارتن) - لوتريه : ٦٨ ، ٦٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٨ - ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٣٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٣٦	لومبارديا : ٢٧ ، ٦٠ ، ٣٣٢
لوتن : ٣٥١	لومور : ١٢٣
لوتنتوره : ١٤٢	لونوتر : ٢٤١
لوتيليه : ٢٢٥	لويد (تأمينات) : ٣٢٧
لود : ٢٥١	لويس التاسع : ١٥
اللوردات : انظر (مجلس اللوردات)	لويس الحادي عشر : ٣٢ ، ٥٦ ، ١٨٨ ، ٥٨
لورنزو الفاخر : انظر (مدينته)	لويس الثاني عشر : ٥٤ ، ٦١ ، ١٨٩ ، ١٤٥
اللوين : ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، (دوق دو : ٢٤٩)	لويس الثالث عشر : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ - ٢١٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤
لوسون (اسقف) : ٢١٣ ، ٢١٤	لويس الرابع عشر : ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢١ - ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٤ - ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٧ - ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٨ ، ٣٧٤
لوغريكو : ١٤٧ ، ١٨٣	لويس الخامس عشر : ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٥١
لوفان : ٨٨ ، ١٤٨ ، ١٥٤	لويس السادس عشر : ٣١٢ ، ٣٣٩ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤
لوفو : ٢٤١	
لوفوا : ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٨٢	
لوك (جون) : ٢٥٨ ، ٣١٣ ، ٣٧٤ ، ٣١٤	

- ليل : ٢٨٠ -	- لوين (البيردو) : ٢١٣ -
- ليكنزسكي (ستانيسلاس) : ٢٩٠ ، ٣٤٨ -	- لويولا (اغناطيوس دو) : ١٦٨ -
- ليما : ١٠٠ ، ١٠٢ -	- ليبانتو : ١٧٨ ، ١٨٣ ، ٢٠٠ -
- ليمبرغ : ٢٨٦ -	- ليزغ - ليزيغ : ٢٧ ، ٢٧٣ -
- لينز : ٢٧٤ -	- ليننتز : ٣٠٨ -
- لينه : ٣١١ -	- ليبيا : ١٧٧ -
- ليون (مدينة) : ٢٧ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٩٠ ، ١٠٥ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١٤٨ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، ٣١٩ -	- ليتوانيا : ١٩ ، ٥٠ -
- ليثو (ليون) العاشر (البابا) : ٦٢ ، ١٢٧ ، ١٣٥ ، ١٦٠ -	- ليسبيناس (الانسة دو) : ٣١٧ -
	- الليفانت (شركة) : ١٠٩ ، ١٨٧ ، ٢٤٦ -
	- ليفربول : ٣٠٣ ، ٣٢٦ -
	- ليفونيا : ٢٨٩ ، ٢٩٠ -

- م -

- ماركس (كارل) : ٧١ ، ٢٠٩ -	- مادية ضباط جماعة سانت ادريان (لوحة) : ٢٤٨ -
- ماركوپولو : ٧٤ ، ٧٦ -	- ماتياس هابسيورغ الامبراطور : ٢٦٨ -
- مارلي (قصر) : ٢٢٣ -	- ماجلان (فرماو) : ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ -
- ماري انطوانيت : ٣٤٣ -	- ماديرا (جزر) : ٥٥ -
- ماري تيريز (فرنسا) : ٢٧٧ ، ٢٨٠ -	- ماران الصوري : ٨٨ -
- ماري تيريزا (الامبراطورة) : ٣٧٠ ، ٣٣٤ ، ٣٤٣ ، ٣٤٩ -	- المارتينيك : ٢١٥ ، ٢٣١ ، ٣٥٩ -
- ماري تيودور : ١٦٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥ -	- مارسيل (اتين) : ٩١ -
- ماري دوبورغونيا : ٤٩ ، ٥٨ ، ٥٩ -	- مارغراف : ٤٩ -
	- مارغريت (ملكة الدانيمارك) : ٤٧ -
	- مارغريت دانغوليم : ١٦٤ -

- ماري دو مديتسه : ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٣
- ماري ستيورات : ١٦٦ ، ١٨٠ ، ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٠
- ماري (ملكة انكلترة) : ٢٥٦
- ماريلاند : ٣٦١
- مارينيان (معركة) : ٦٢ ، ١٧١
- مازاتشيرو : ٤١
- مازاران : ٢١٨ — ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٣ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧
- مازاريناد : ٢١٨
- ماسافو ستس : ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٣٦٠
- الماسونية : ٣١٨
- ماكيت (مسرحية) : ١٨٨
- ماكفرسون : ٣١٨
- مكيا فيلي — مكيا فيلي : ١٤٩ ، ١٥٤
- ملا تيستا (آل) : ٣٥
- مالا فا : ٩٤ ، ٢٤٦ ، ٣٥٧
- ملايو : ٢٥٧
- ماثوس : ٣٠٥
- مالندي : ٨٦
- مالي (امبراطورية) : ٦٤
- ماليرب : ٢٠٧
- مانتون (مدام دو) : ٢٣٢ ، ٢٣٥
- مانسار (هاردوان) : ٢٤١
- مانسستر : ٣٢٦
- مانوشو : ٣٤
- ماوراء النهر : ١١٩
- مايبانس : ٣٤ ، ٤٩ ، ١٦٠ ، ٢٧٠
- مايبين (دوق دو) : ١٩٤
- منز : ١٧٥ ، ٢٧٦
- المتوسط (البحر) : ٧ ، ١٢ ، ١٥ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٩٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٦٨ ، ٢٠٠ ، ٢٥٤ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٣٣٠ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٦٤
- المجاعة : ١٦ ، ٢٢ ، ٣٣ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٩٧
- المجر : انظر (هنغاريا)
- المجسطي (كتاب) : ٨١
- مجلس العموم : ٣٠ ، ٤٥ ، ١٨٥ ، ٢٥٠ ، ٣٢٦
- مجلس اللوردات : ٤٤ ، ٢٥٠
- المجمع الديني : ٢١ ، ١٦٦ ، ١٩٢ ، ٢٣٢

١٢٦ ، ١٣٠ ، ١٣٥	— المحتجون : انظر (البروتستانت)
— جان مديتشه : ٣	— محمد ثابت الفندي : ١٢١
— جوليان مديتشه : ١٤٠	— محمد الثاني : ٦٣
— كوزمو مديتشه : ٣٠	— محمد قطب الدين النهروالي :
— لونزو (الفاخر) مديتشه : ٧ ،	٨٦
٢٤ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠	— محمد كوبرلي : ٢٨٦
— كاترين مديتشه : انظر (كاترين)	— محمود الفزنوي : ٧٩
— ماري مديتشه : انظر (ماري)	— محمود سلطان كجرات : ٩٥
— مديناديل كامبو : ١٨١	— المحيط الاطلنطي : ١١ ، ٢٦ ،
— مراد الرابع : ٢٨٥	٤٣ ، ٥١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٠ ،
— مراکش : ١٢١	٨٥ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ١٠٥ ،
— مرسوم نانت : انظر (منشور)	١٠٦ ، ١٩٩ ، ٢٦٨ ، ٣٠٣ ،
— مرسليليا : ٢٦ ، ٢٣٠	٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٤٢ ،
— مركنتيلية : ١١١ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ،	٣٥٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٦
٢٦٠ ، ٣١١ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ،	— المحيط المتجمد الشمالي : ١١ ،
٣٦٨	٤٣
— الزمار السحري (اوبرا) : ٣٢٣	— المحيط الهادي : ٩٠ ، ٢٣٠ ،
— المسألة الشرقية : ٣٥٥	٣٠٣
— مسبيج : ٩٤	— المحيط الهندي : ٥٦ ، ٨٧ ،
— المسيح — المسيحية : ١٥ ، ١٨ ،	٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ٢٣٠ ، ٣٠٣ ،
٢٠ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٥ ، ٥٠ —	— مدراس : ٣٥٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٥
٥٣ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ،	— مدرسة اينا (فريسة) :
٦٩ ، ٧٠ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٥ ،	١٣٧ ، ١٣٥
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٩ ،	— مدريد : ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٨٣
١٠٠ ، ١١٤ — ١١٧ ، ١٢١ ،	— مدغشكر : ٢١٥ ، ٢٣١
١٢٧ — ١٢٩ ، ١٣٧ ، ١٤٩ —	— مديتشه (آل) : ٢٥ ، ١٠٦ ،
١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ،	

- ١٦٠ - ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٣٧ ، ٢٥٩ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٧٣
- السيح (مقطوعة موسيقية) : ٣٢٣
- المسيحي - المسيحي (نهر) : ٢٣١ ، ٣٤١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠
- مصر : ٦٦ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٧٧
- المصرف - المصرفيون : ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ٨٨ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٦٠ ، ١٨٢ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٣٤١ ، ٣٤٠ ، ٣٧٢
- مصطفى كوبرلي : ٢٨٧
- المغرب : ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٨ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٧٨
- الغول - مغول : ٢٥ ، ٦٥ ، ٧١ ، ٦٦
- المقاطعات المتحدة (هولاندة) : ١٧٩ ، ١٩٧ ، ٢٠٢ ، ٢١١ ، ٢٣٨ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٥٦ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٥٨ ، ٣٥٥ ، ٣٥٠ ، ٣٤٨
- ٣٦٢ . انظر (هولاندة) أيضا .
- المقدس : ٨٠
- مقهي : ٢٥٨
- مكاو : ٩٤ ، ٣٥٦
- مكسليان الامبراطور : ٤٩ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٧٣
- المكسيك : ٧٠ ، ٩٧ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٧ ، ٢٣١ ، ٣٠٤
- مكسيكو : ٩٨ - ١٠٠ ، ١٠٢
- الملوك (جزر) : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤
- مليلة : ٥٤
- الماليك (دولة) : ٧٤ ، ٧٥ ، ٩٥
- مباسا : ٩٤ ، ٩٥
- ممر كاله : ١٢
- المناول : ١٦٠ - ١٦٢ ، ١٦٧ ، ١٦٩
- منتخب (الامبراطور) : ٤٩ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩
- مندن (اسقفية) : ٢٥٩ ، ٢٧٦
- مندوزا (آل) : ٢٩
- منزر (توماس) : ١٦٢
- منشور نانت : ٦٧ ، ١٩٥ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٢
- مو : ١٦٣ ، ١٦٤

— مونتمرنسي (هنري دو) : ٢١٥	— مور (توماس) : ١١٤ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٠
— مونتيروما : ٩٩	— موراڤيا : ٢٦٨
— مونتييسكيو : ٣١٣ — ٣١٦	— موريسكوس : ١٧٨ ، ٥٦ ، ٥٣ ، ١٨٢ ، ١٨١
— مونتين : ١٥١	— موريللو : ٢٠٧
— مونج : ٣١٠	— مورينو (المورخ) : ٧١
— مونستر : ٢٧٥	— موريسسيوس : ٣٥٩
— مونفولفيه : ٣٠١	— موسكو : ٢٦٢ ، ١٩٩ ، ٤٢ ، ٢٦٥ ، ٢٦٣
— مونفيلتر (آل) : ٣٥	— الموسكوف : ٤٢
— موهاغز : ٢٨٧ ، ٢٠٠	— موسى النبي (تمثال) : ١٣٨ ، ١٢٩
— الميتا : ١٠٢	— موزار : ٣٢٣ ، ٣٠٥
— ميخائيل الثالث : ٢٦١	— موزامبيق : ٣٥٦
— ميرابو : ٣٣٦	— موغادور : ٥٦
— ميراندولا : ٣٣	— مولبرغ : ١٧٥
— الميستا : ١٨٢	— مولداڤيا (البغدان) : ٣٥٣ ، ٣٥٤
— ميشله : ١١٥ ، ٦٩ ، ٦٧	— مولر (مارتن ولزي) : ٩٠
— ميلاد فينوس (لوحة) : ٤١	— مولير : ٢٤٢ ، ٢٠٨
— ميلانكتون (فيليب) : ١٦٣	— مونبليه : ١٥٤ ، ٢٦
— ميلانو : ٦٠ — ٦٢ ، ١٢٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٧٤ ، ٢٨٤ ، ٣٣٣	— مونتريال : ٢١٥
— مينغ (آل) : ٧١ ، ٦٥	

- ن -

- نابولي : ٢٥ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦١ ، ١٢٢ ، ٢٨٤ ، ٣٣٢ ، ٣٤٩
- نابليون بونابرت : ٤٩
- ناسو - ناساو : ٣٢٩
- النافار : ٥١ ، ٥٤ ، ١٩٢ ، (هنري دو : ١٩٤ ، ١٩٥) ، ٣٠٩
- نانت : ٦٧ ، ١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢١٤ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٨٢ ، ٣١٩
- نبيل - نبلاء : ١٧ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٤١ ، ١٤٨ ، ١٦١ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢١٢ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤
- النحت : ٣٠ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ١٣٦ ، ١٣١ ، ١٣٠ ، ١٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ٢٠٦ ، ٣٢٤ ، ٣٢٣ ، ٣٢٠
- النرويج - النرويج : ٤٦ ، ٤٧ ، ١٢٥ ، ١٦٢ ، ١٩٩ ، ٢٩١ ، ٣٢٩
- نزيبي : ٢٥٢
- نصر (بنو) : ٥١
- نقابة صانعي الجوخ (لوحة) : ٢٤٨
- النقد - النقود : ٩ ، ١٧ ، ٢٤ ، ٢٨ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١٨٦ ، ٢٠٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٥٦ ، ٢٩٩ ، ٣١٢ ، ٣٤٠ ، ٣٤١
- نلليو : ٧٨
- النمسا : ٤٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٨٤ ، ٢٨٨ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٨ ، ٣٥٠ ، ٣٥٤
- النهضة : ٧ ، ١٠ ، ٤٠ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٥ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٦٦
- نوايون : ١٦٤
- نورمنديا : ٢٦ ، ٢١٦ ، ٢١٩
- النورمنديون - النورمان : ٨١ ، ١٢٢ ، ١٢٥
- نوقاره : ٦٢

- نيكومين : ٣٠١
 - نيكون : ٢٦١ ، ٢٦٢
 - النيلج : ٢٣ ، ١٠٤ ، ٢٢٩ ، ٣٦٧
 - النيمن (نهر) : ٢٥٨
 - نيمينج (صلح) : ٢٣٠ ، ٢٨١ ، ٣٦٣
 - نيوتون - نيوتن : ٢٠٩ ، ٢٥٨ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ ، ٣٧٣
 - نيوجرسي : ٣٦١
 - نيويورك : ٢٤٦ ، ٢٧٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧

- نوفاشكوشيا : ٣٦٤
 - نوغورود : ٢٦ ، ٤٢
 - نوله (الاسقف) : ٣٠٩
 - النيجر (نهر) : ٦٤
 - نيس : ٣٥٠
 - نيسابور : ٧٧
 - النيفا (نهر) : ٢٦٥
 - نيكور : ٣١٧ ، ٢٤٤
 - نيكو بوليس : ٦٣

- ه -

- هانوفر : ٢٥٧ ، ٢٩٠ ، ٣٢٥
 - هايتي : ٣٥٩
 - هايدن : ٣٢٣
 - هاينسيوس : ٢٤٥
 - هديسون (خليج) : ٩٢ ، ٢٨٤ ، ٣٦٤
 - هديسون (نهر) : ٣٥٨
 - هراة : ٧٧
 - هرشل : ٣١٠
 - هرغريف : ٢٩٩
 - هر كولانوم : ٣٢١
 - هرمز : ٧٤ ، ٩٥
 - الهلبي : انظر (اتحاد)
 - الهند : ٧ ، ٥٦ ، ٦٣ ، ٦٦

- هابسبورغ (آل) : ٤٨ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ١٧٣ ، ١٩٧ ، ٢١٧ ، ٢٦٧ ، ٢٧٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٧ ، ٣٣٣ ، ٣٥١
 - هارلم : ٣٤ ، ٢٤٦
 - هارقارد : ٣٦٧
 - هارفي : ١٥٤ ، ٢١٠
 - الهاغر : ١٩٣ ، ٢١٦ ، ٢٢٧
 - هالبرشتات : ٢٥٩ ، ٢٧٦
 - هامبورغ : ٢٦ ، ١٠٥
 - هاملت (مسرحية) : ١٨٨
 - هاندل : ٣٢٣
 - الهانسية (العصابة) : ٢٥ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ١١٠ ، ١٩٩ ، ٢٦٩

- ٧١ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١٠٩ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٧٠ ، ٢٣١ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ، ٣٠٣ ، ٣٢٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٣٦٨ — ٣٥٦
- الهند الشرقية (جزر) : ٣٠٤ ، ٣٥٧ ، ٣٢٩
- الهند الغربية (جزر) : ٧٠ ، ٣٦٢ — ٣٥٩ ، ٩٠
- هنري الثاني (ملك فرنسا) ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٢
- هنري الثالث : ١٩٠ ، ١٩٤
- هنري الرابع (ملك فرنسا) : ٦٨ ، ١٨١ ، ١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢١٢ ، ٢٨٢ ، ٢٣٣
- هنري السابع (تيودور) : ٤٤ — ١٨٤ ، ٤٦
- هنري الثامن : ١٢٦ ، ١٥٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٤ ، ٢٩١
- هنري الملاح : ٥٥ ، ٦٤ ، ٨٢
- هنغاريا : ٥٠ ، ٥١ ، ٦٢ ، ١٤٧ ، ١٦٦ ، ١٧٦ ، ٢٠٠ ، ٢٦٨ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣٢٢ ، ٣٣٤ ، ٣٤٨ ، ٣٥٢
- هوبرتسبورغ (صلح) : ٣٥٢ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩
- هوزر : ٥٣ ، ٦٧ ، ٢٢٨ ، ٣٢٢
- هوغارث : ٣٢٢ ، ٣٢٨
- هوغنوت : ١٨٠ ، ٢١٢ ، ٢١٤
- هوكنز : ١٨٠ ، ١٨٦
- هولاكو : ٧٩
- هولاندة — هولنڈة : ٢٦ ، ٦٩ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٨ ، ١٥٠ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣٢٩ ، ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٠
- هولباخ : ٣١٤
- هولباين : ١٨٨
- هولشتاين : ٢٧١ ، ٢٨٩
- الهومانيسيت — ية : ٣٤ ، ٤٠ ، ١١٦ ، ١٤٧ ، انظر ايضا (انسان)
- هونيادي (جون) : ٥٠ ، ٦٣
- هوهنزوليرن (آل) : ٢٥٩
- الهويغ (حزب) : ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٣٢٥ ، ٣٥٨
- هويغنز : ٢١٠ ، ٢٤٧
- هيسبانيولا : ٨٩ ، ٣٥٩
- هيلوبيز الجديدة (كتاب) : ٣١٨
- هيوم (دافيد) : ٣١٥

الولايات المتحدة الامريكية : ١٨٧ ،	وارتبورغ : ١٦١
٣٦٦	واسي : ١٩٣
ولبرفورس : ٣٢٨	واشنطن (جورج) : ٣٦٩ ، ٣٧٠
ولد الوليد : ٨٩	واط : ٣٠١
ولسنفهام : ١٨٤	واطو : ٣٢٣
وهران : ٢٤ ، ٥٤ ، ١٧٨	وايكليف (جون) : ٢٠ ، ٣٠ ،
ويت (جان دو) : ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،	١٥٥
٢٨١	وباء : ١٦ ، ١٧ ، ٢٩ ، ٤٦ ،
الوزير (نهر) : ٢٧١	٤٩ ، ١٠٢ ، ٢٠٥ ، ٢٢٠ ، ٢٣٦ ،
ويسلي (جون) : ٣٢٨	٢٣٩ ، ٢٦٢ ، ٢٧٦ ، ٢٩٨ ،
ويلز : ٤٥	٣٦٣ ، ٣٧٢
ويلسر (آل) : ١٠٦	ورمز (مجمع) : ١٦١
ويليام دورانج والثالث : انظر	وستفاليا : ١٨٠ ، ٢٥٩ ، ٢٧٤ ،
(اورانج)	٢٧٧ -
ويليام سيسيل : انظر (سيسيل)	

- ي -

يوحنا الاول (البرتغال) : ٥٥	اليابان : ٧٠ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٩٤ ،
يوحنا الثاني : ٥٥ ، ٨٨	ياسي (معاهدة) : ٣٥٤
يوحنا الممدان (تمثال) : ٤١	ياقوت الحموي : ٧٩
يورك (آل) ، (ريتشار : ٤٤) ،	يال (جامعة) : ٣٦٧
٢٥٥ ، ٢٥٤	يسوع - اليسوعيون : ١١٤ ،
يورك تاون : ٣٧٠	١٥٨ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ،
يوسف ابو يعقوب الموحدى : ١٢١	١٧٩ ، ١٩٦ ، ٢٣٤ ، ٢٧١ ،
يوكاتان : ٩٧	٣٣٢ ، ٣٣٦
اليومن (الملك الصفار) : ١٨٧	يعقوب فوغر : ١٦٠
يونان - ي : ٤١ ، ٤٢ ، ٥٢ ،	اليمن : ٨٦ ، ٩٦
٧٦ ، ٨٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ،	يهود : ١٨ ، ٥٢ - ٥٦ ، ١٦٠ ،
١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٦ - ١٣٠ ،	١٨١ ، ٢٤٤ ، ٣٠٨ ، ٣١٧ ،
١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ،	٣٣٥
٢٦٨ ، ٢٨٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٨ ،	يوتوبيا (كتاب) : ١١٤ ، ١٤٩ ،
٣٥٤ ، ٣٥٣	١٥١
اليونكرز : ٣٣٧	

النصوب

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٧	٣	الاسباني	الانساني
٨	١٢	جريء	جريء
٢٠	١٩	ثورة	ثروز
٢٤	١	نشط	نشط
٢٤	١٦	مدينته	مدينته
٢٦	٢	نوفغورد	نوفغورد
٣٥	٧	Malattestat	Malattestat
٤٠	٢	منظرا و مدينة	منظرا او مدينة
٤١	ما تحت الصورة	اشكل	الشكل
٥٧	٢٠	عليهم	على هؤلاء الاخيرين
٦٢	٨	وانكثرا	وانكثرة
٦٣	٤	احداهما	احداها
٦٣	السطر الاخير	ومص	ومصر
٦٣	٢٣	التالبة	التالية
٧٥	٤	بعد اتضاح اسواق تجارتها للحصول على المال اللازم لبيان كيانها السياسي	بعد اتضاح معالم الدول القومية الناشئة ورغبتها في تطوير اقتصادها الخاص تجاههم
٧٥	١٥	تهاجم	والادريسي (١١) وابي
٨١	١	وغيرهم	الفداء (١٢) وغيرهم
٨٩	١٦	١٤٩٣	١٤٩٣
١٠٩	٢٠	وما وراء	وما وراء
١١٥	١٣	تنافس	تناقض
١١٥	١٦	نتاج	نتاج تغير
١٢٠	٩	اثر	اثره
١٢١	٨ من الهامش ٦	ثلاثون	ثلاثين
١٢١	٦ من الهامش ٧	صل	وصل
١٢٢	٥	بل ال	بل ان
١٢٢	٢٣	اولا الحروب	اولا والحروب
١٢٨	٢	والعرب	والعرب
١٢٨	١٥	الفن الجديد (٣)	الفن الجديد
١٢٨	٣	ابطاليين	ابطاليين
١٤٥	٦	اليوناني الروماني	اليوناني والروماني
١٤٦		— ٤٣٣ —	

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
١٥٢	٧	ارخميدس	ارخميدس
١٥٤	٦	قيزال	قيزال (٤)
١٥٨	٣	المسيحية	المسيحية
١٦٠	٨	نقد	نقد
١٦٢	١١	لدين	تدين
١٦٩	١٦	ال (٢٥) عاما	ال (٢٥) عاما من العمر
	السطر الاخير	الرجعية	الرجعية
١٧٧	٨	١٥٤٢	١٥٤١
١٧٨	٥	١٥٠٨	١٥٩٨
١٨٨	١٩	تولى	توالى
١٩٤	٢٢	الملكة	الملكة :
١٩٧	٩	زراعية	زراعي
٢٠٠	٥	١٥٩٧	١٥٧٩
٢٠٢	١٥	ان لا	الا
٢٠٦	٣	الادبي	الادبي
٢١١	١٢	نسمية	نسميه
٢١٥	١١	Ale	Alès
٢٢٠	٢	البت	التب
٢٢٧	١٨	١٦٧٣	١٦٨٣
٢٢٧	١٨	١٩٧٣	١٦٧٣
٢٣٢	١	دومانتون	دومانتون
٢٣٢	٢	بفصل	بفصل
٢٣٣	١٨	الى	الذي
٢٣٤	٢٠	رغايا	رعايا
٢٣٧	١١	البروتستانت	البروتستانت
	١٢	مينلون	فينلون
٢٣٨	٣	مبشرة	مبشرة
٢٤٠	٢٤	القرن	القرن
٢٤١	٥	سعدا	سعداء
٢٤٥	٢٠	هوندة	هولاندة
	٢١	التي	الذي
٢٥٠	٨ من هامش ١	الظاهر	الظاهرة
٢٥٣	١	«Naseby» :	«Naseby»
٢٥٤	٩	ذكرى	ذكرى
٢٥٥	١٣	كامير	كاميرال
٢٥٧	١٦	١٢٠٠٠ سفينة	٣٠٠٠ سفينة
٢٥٧	٢٣	ليبيعونهم	ليبيعوهم
٢٥٨	١٩	الثامن	الثامن عشر

الصفحة	السطر	الخطا	الصواب
٢٦١	١٤	مشرقي	شرقي
٢٦٣	١	لدين	الدين
٢٦٧	١٧	السابع	السادس
٢٧٧	٢٤	وهكذا وكان	وهكذا بدا وكان
٢٨٠	٢١	تحالفنا	تحالفنا
٢٨٨	١٩	انها احتفظت	انهم احتفظوا
٢٩٧	١٩	فتيء	فتيء
٣٠٣	٤	ان ان	ان
٣٠٥	١٦	والفكر ،	والفكر .
٣٠٦	١٣	(Nollet) . مثلا	(Nollet) ، مثلا
٣٠٩	١٥	رؤوساء	رؤوساء
٣٢٥	السطر الاخير	وهيبته	وهيبته

الفهرس العام

مفردات تاريخ اوروبا في العصر الحديث

٢

المقدمة

٥

الفصل الاول : المدخل الى العصر الحديث في اوربا

١٣

الباب الاول : القرن السادس عشر في اوربا

٦٧-٢٠٠

الفصل الثاني : كشف العالم أو الكشف الجغرافية

٧٣

الفصل الثالث : الثورة الاقتصادية ونتائجها الاجتماعية

١٠٤

الفصل الرابع : النهضة الاوربية

١١٥-

الفصل الخامس : الاصلاح الديني

١٥٥

الفصل السادس : ملامح الحياة السياسية في اوربا في القرن السادس عشر

١٧١

الباب الثاني : القرن السابع عشر في اوربا

٢٠١-٢٩٢

الفصل الاول : السمات العامة للقرن السابع عشر

٢٠١

الفصل الثاني : التطورات السياسية والحضارية في الدول

٢١١

الاوربية الكبرى

الفصل الثالث : العلاقات الدولية في القرن السابع عشر

٢٦٦

الباب الثالث : القرن الثامن عشر في اوربا

٢٩٤-٣٧١

الفصل الاول : السمات العامة للتطور في اوربا في القرن الثامن عشر

٢٩٦

الفصل الثاني : التطورات الداخلية في دول اوربا

٣٢٤

الفصل الثالث : العلاقات الدولية في القرن الثامن عشر

٣٤٥

الخاتمة

٣٧٢

المصادر العربية والاجنبية

٣٧٥

الفهرس الابجدي

٣٨١

الخرائط

٤٣٧

التصويب

٤٣٣

الفهرس العام

٤٣٦

المقاطعات المتحدة
القرن السابع عشر

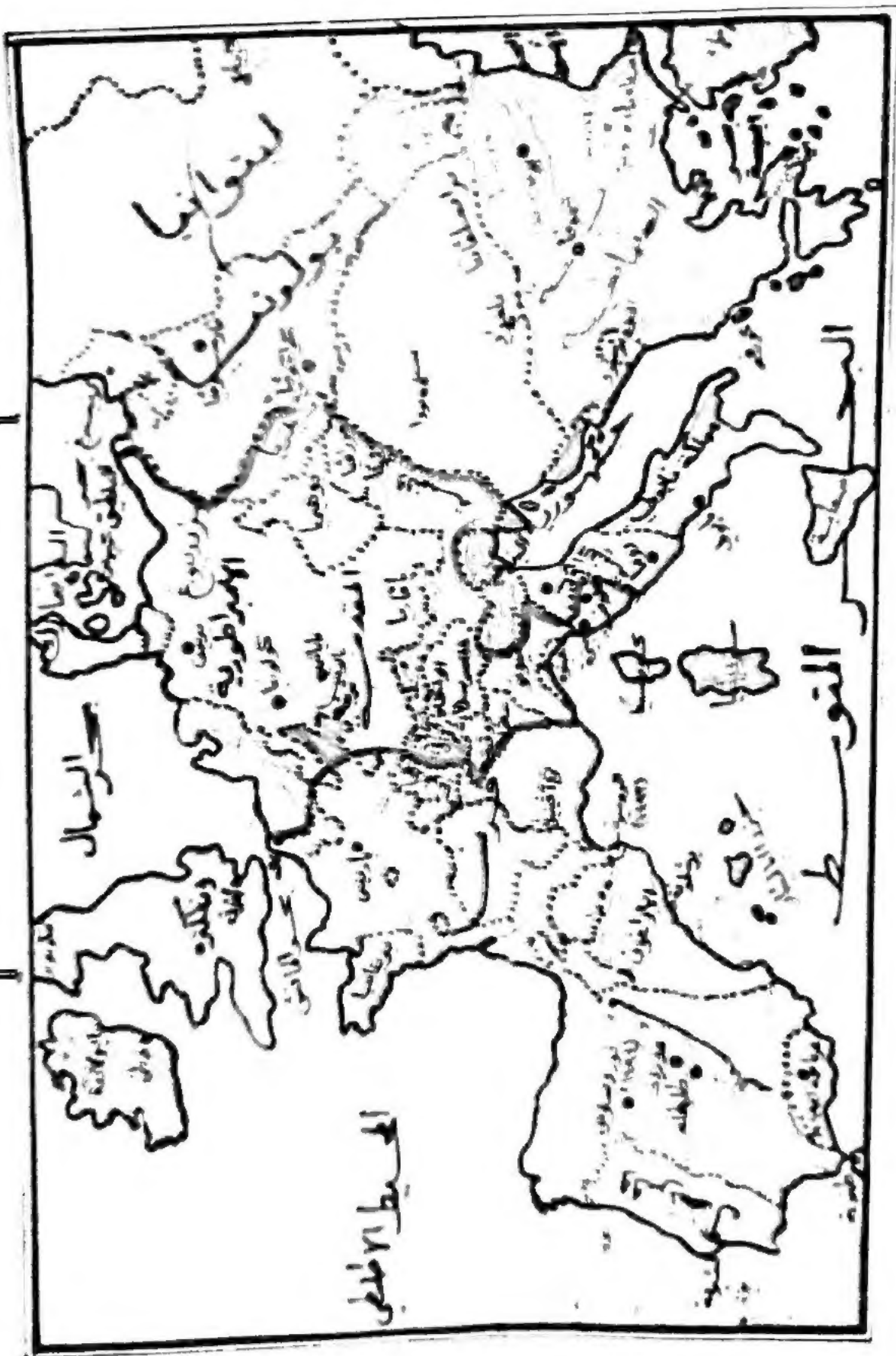






٤٤٠

أوروبا في أواخر القرن الخامس عشر







صدر بإشراف لجنة الإنجاز
سعر البيع للطالب (١٥٠) ل.س

مطبعة دار الكتاب - دمشق